نِهَايَةُ الأنْدَلُسْ

بداية النهـاية في الأندلس
وأسباب انهيار الفردوس المفقود
دروس وعبر للعرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم

تـأليف

اللّواء الرّكن

محمود شيت خطّاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي



نهاية الأندلس

مستهل

اللواء الركن محمود شيت خطاب
(عضو المجمع)

سقطت قواعـد الاندلس الشهيرة ، في سلسلة من المعارك والمحـن الطاحنة ، التى تقلب فيها المسلمون في الاندلس ، منذ انهيار صرح الخلافة الاموية في الاندلس ، في أواخر القرن الرابع الهجرى ، وظهرت دول الطوائف الصغيرة المفككة ، على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الاندلسية الشهيرة ، يمثل ضربة مميتة للدولة الاسلامية في الاندلس ، ويحدث أعمق الاثر في جنبات الدول الاسلامية شرقا وغربا .

وكان المسلمون الاندلسيون، كلما سقطت قاعدة من قواعدهم الشهيرة، في يد عدوّتهم القديمة المتربصة بهم ــ اسبانيا النصرانية ــ ألفوا عزاءهم في قواعدهم الباقية الاخرى، وهرعوا اليها استبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعـد غير غرناطة وأعمالها تؤلف مملكة اسلاميـة صغيرة ، استطاعت أن تثبت أمام العاصفة أكثر من قرنين من عمر الزمن .

والحق ، أن مصير الاندلس ، كان في مهب الريح ، منذ أخفقت دول الطوائف في توحيد صفوفها ، فغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت الى معترك الحرب الاهلية ، تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها ، والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض العقلاء من الاندلسيين المسلمين ، حتى في ذلك العصر ، الذى كان الاسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء الاندلس ،

أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من خطرداهم على حاضر المسلمين ومستقبلهم في الاندلس ، فنرى ابن حيان مؤرخ الاندلس في القرن الخامس الهجري ، يقول لنا بعد أن يصف حوادث سقوط (بربشتر) من أعمال الثغر الاعلى (أراجون) ، في يد النصارى في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبى وشنيع الاعتداء : « وقد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة ، مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند ذوى الالباب ، أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والالفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتجارى عليه على شفا جرف يؤدى الى الهلكة لامحالة » . ويندد ابن حيان بعد ذلك بتواكل أهل الاندلس وتخاذلهم عن نصرة دينهم واخوانهم[1]. وبدا واضحا ، حينما سقطت طليطلة أول قاعدة اسلامية كبيرة ، في يد النصارى في سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) أن الاندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة ، سوف تسقط تباعا في يد النصارى الاسبان ، وأن الاسلام سوف ينتهى في الاندلس وقد ساد الفزع جنبات الاندلس كلها يومئذ ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم
فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفط

(١) نفح الطيب (مصر) (٥٧٦/٢) .

ولكن الدرس كما يبدو كان عميق الاثر ، فجنح زعماء الطوائف الى الرشاد ، وجمعت المحنة كلمتهم ، فقصدوا (المرابطين) اخوانهم في الدين ، وكان المرابطون يومئذ في عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف بــن تاشفين يبسط سلطانه القوى على أمم المغرب ، من المحيط غربا حتى تونس شرقا • فاستجاب المرابطون الى صريخ ملوك الطوائف ، وعبروا البحر الى الاندلس مع قوات ضخمة ، والتقت قوات المسلمين المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالجيوش النصرانية المتحدة بقيادة الفونسو السادس زعيم اسبانيا النصرانية ، في سهول الزلاقة ، في شهر رجب من سنة ٤٧٩هـ (أكتوبر تشرين الاول سنة ١٠٨٦م) ، فأحرز المسلمون على النصارى نصراً عظيما ــ وكانت موقعة الزلاقة من أيام الاندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس المسلمين في الاندلس ، وبدأت الاندلس حياة جديدة • ولكن سرعان مــا اختلف المرابطون مع الطوائف ، فحطموا دول الطوائف ، وبسطوا حكمهم على الاندلس زهاء نصف قرن • ولما سقطت دولة المرابطين في المغــرب ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، عبر الموحدون البحر الى الاندلس ، وبسطوا عليها حكمهم زهاء قرن آخر ، وفي ظل الموحدين ، أحرزت الاندلس المسلمة كما أحرزت في الزلاقة أيــام المرابطين ، نصرها الحاسم على اسبانيا النصرانية ، بقيادة يعقوب المنصور ملك الموحدين ، وذلك في موقعة الارك الشهيرة (٥٩٣هـ ــ ١١٩٥م)[٢] ، ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة ، بعد ذلك بقليل ، على يد اسبانيا النصرانية في موقعة العقــاب (٦٠٩هـ ــ ١٢١٢م)[٣] ، وكانت هزيمــة العقاب ضربة شديــدة لسلطان الموحديــن وللاندلس المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للاندلس قويا منذرا ، وسرى هذا

(٢) وتعرف في الاسبانية بموقعة : Alarcos

(٣) وتعرف في الاسبانية بموقعة : Las Navas de Jalasa

التوجس الى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً في رسائلهم وقصائدهم ، ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلى معلقا على موقعة العقاب :

وقائلـــة أراك تطيل فـكراً
كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لهـا أفكر في عقـاب
غـدا سـبباً لمعركـة العقاب
فما في أرض أندلس مقـــام
وقد دخل البلا من كل باب[٤]

وفي خلال ذلك ، كانت الاندلس ، تضطرم بأشنـع ضروب الخـلاف والفتن ، والثغور والقواعد يتناوبها الرؤساء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل ضرباتها المتوالية بالمسلمين ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور •

والحقيقة أن الجهـد المضطرم الذى بذلتـه اسبانيا النصرانية يومئذ ، لانتزاع القواعد الاندلسية لم يكن سوى الذروة من مرحلة طال أمدها ، من حركة الاسـتيلاء والاسترداد النصرانية La Reconajista وقد بـدأ هذا الاسترداد من جانب اسبانيا النصرانية لاراضيها المفتوحـة منذ عصر مبكر جداً ، أى منذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح الاسلامي بقليل في حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادي أن تدفع حدودها تباعا نحو الجنوب ، وكانت أولى القواعد الاسلامية التي سقطت هى (لك) في أقصى الشمال الغربى لشبـه الجزيرة الأندلسية ، واسترقه في شمال نهر دويرة ، وشـلمنقة وشـقوبية

(٤) نفح الطيب (مصر) ، (٥٨٢/٢) •

وسمورة وآبلة في الناحية الاخرى من دويرة • ولم تتأثر الأندلس المسلمة كثيرا بفقد هذه القواعد الاولى ، لبعدها ولقربها من المملكة النصرانية • ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقي ، منذ استطاع النصارى عبور نهر التاجة متوسط شبه الجزيرة في غزوات قوية ، واستيلائهم بعد ذلك على طليطلة ثالثة القواعد الاندلسية الكبرى بعد قرطبة واشبيلية • ووضع نصر الزلاقة ، وقيام سلطان المرابطين في شبه الجزيرة حداً مؤقتاً لتقدم النصارى في وسط شبه الجزيرة وشرقيها • ولكن موجة جديدة من الغزو النصراني اجتاحت شمال شرقي الاندلس منذ بداية القرن السادس الهجري ، فسقطت سرقسطة في يد النصارى (٥١٢هـ ــ ١١١٨م) وتطيلة (٥٢٤هـ ــ ١١٢٩م) ، ثم تلتها لاردة وافراغة وطرطوشة (٥٤٢هـ ــ ١١٤٨م) • وفي ذلك الوقت ذاته ، بدأ سقوط القواعد الاسلامية في غربي شبه الجزيرة أي في البرتغال ، فسقطت أشبونة وشنترة وشنترين في يد النصارى في سنة ٥٤٢هـ ــ ١١٤٧م وسقطت باجة بعد ذلك بقليل في سنة (٥٥٦هـ ــ ١١٦١م) ، ثم تلتها بابرة في سنة (٥٦١هـ ــ ١١٦٥م) •

ولما توطد سلطان الموحدين في الاندلس في اواخر القرن السادس الهجري ، توقفت حركة الاسترداد النصراني مدة من الزمن ، ثم عادت تضطرم قوته بعد احراز اسبانيا النصرانية لفوزها الحاسم على الموحدين في موقعة العقاب (٦٠٩هـ) • ومنذ اوائل القرن السابع الهجري ، اجتاحت الاندلس المسلمة موجة عارمة من الغزو النصراني ، فسقطت قواعد المسلمين التالية بيد النصارى : جزيرة ميورقة (٦٢٧هـ ــ ١٢٢٩م) ، وأبَّدة (٦٣١هـ ــ ١٢٣٣م) ، ثم قرطبة (٦٣٣هـ ــ ١٢٣٨م) وبياسة واستجة والمدور (٦٣٤هـ ــ ١٢٣٧م) وبلنسية (٦٣٦هـ ــ ١٢٣٨م) وشاطبة ودانية (٦٣٨هـ ــ ١٢٤٠م) ولقنت وأوريولة وقرطاجنة (٦٤٠هـ ــ ١٢٤٢م) ومرسية (٦٤١هـ ــ

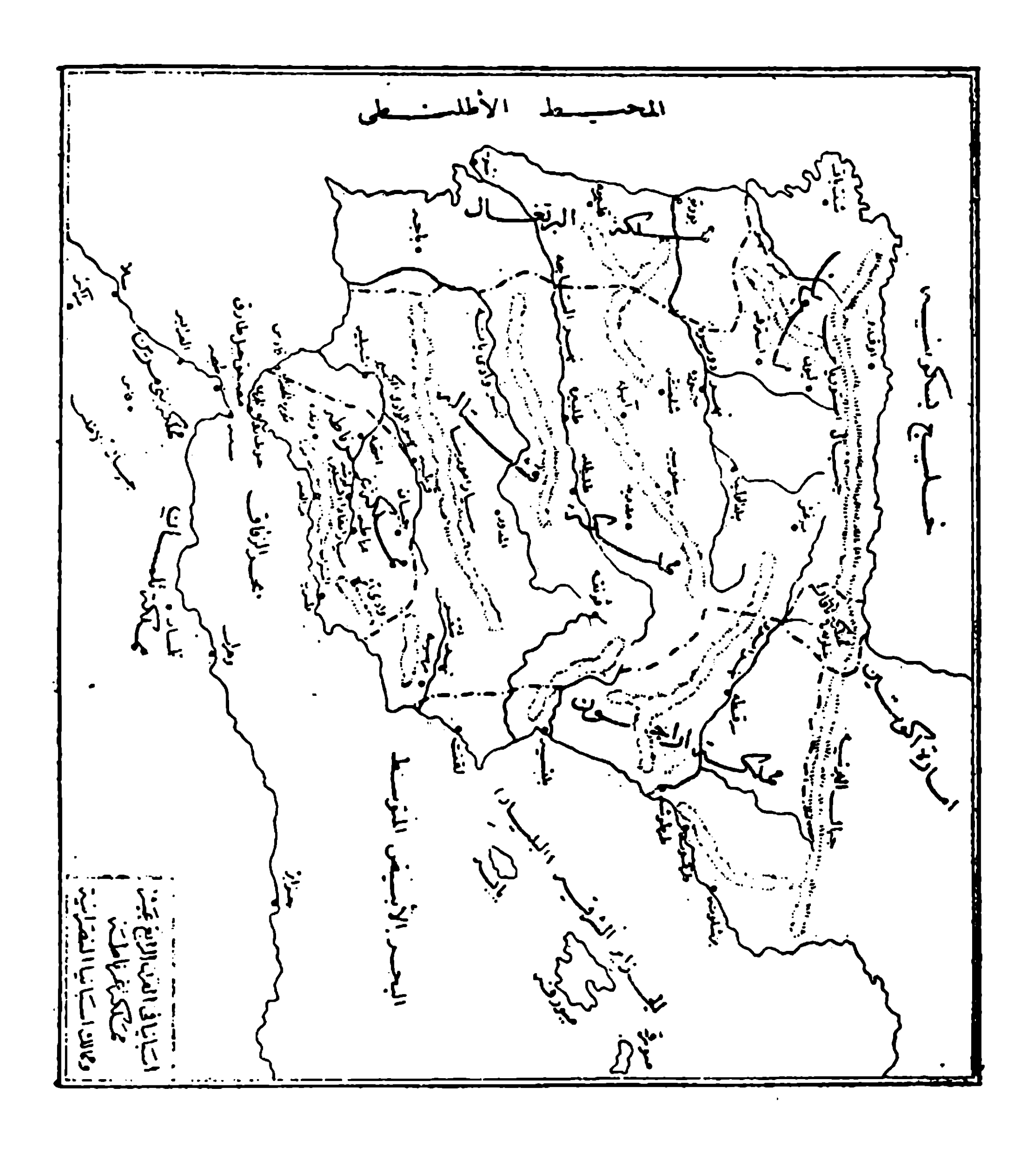
١٢٤٣م) وجيان (٦٤٤هـ ـ ١٢٤٦م) ، ثم اشبيلية (٦٤٦هـ ـ ١٢٤٨م) • واجتاحت غرب الاندلس في الوقت نفسه موجة مماثلة من الغزو النصراني ، فسقطت بطليوس (٦٢٦هـ ـ ١٢٢٨م) وماردة (٦٢٨هـ ـ ١٢٣٠م) وشلب (٦٤٠هـ ـ ١٢٤٢م) وشنتيرية الغرب (٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م) وولبة (٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م) ، ثم سقطت قادس (٦٦٧هـ ـ ١٢٦٢م) ، وتلتها شريش (٦٦٣هـ ـ ١٢٦٤م) • وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجرى ـ القرن الثالث عشر الميلادي ـ حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت في يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من الدول الاسلامية في الاندلس ، سوى بضع ولايات صغيرة في طرف اسبانيا الجنوبى[٥] •

مملكة غرناطة

وأخذت الاندلس عندئذ ، تواجه شبح الفناء مرة أخرى من جديد ، وطافت بالامة الاندلسية المسلمة التي احتشدت يومئذ بالجنوب الاندلسي ، في بسيطها الضيق ، ريح التوجس والفزع ، وعاد النذير يهيب بالمسلمين ، أن يغادروا ذلك الوطن الذى يهدد مصيرهم بالخطر ، والذى يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى في الامة الاندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم •

ولكن شاء القدر ، أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبغ على الدولة الاسلامية في الاندلس ، حياة جديدة في ظل مملكة غرناطة ، التى استطاعت أن تبرز من غمرة الفوضى ضئيلة في البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئا فشيئا ، وان تذود عن الاسلام ودولته الباقية بنجاح أكثر من قرنين • وكان من حسن طالع هذه المملكة الاسلامية الصغيرة ، أن

(٥) محمد عبدالله عنان ـ نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ـ (١٢ ـ ١٦) ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٣٧٨هـ •


المحيط الأطلنطي
مملكة البرتغال
خليج بسكاي
البحر الأبيض المتوسط

شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين ، بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، فلم تستطع تحقيق غايتها الكبرى ، وهى القضاء على دولة الاسلام في الاندلس ، وعلى الامة الاندلسية المسلمة بصورة نهائية ، الا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والاسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاما ، عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة ، أبية كريمة ، ترفع لواء الاسلام عاليا في تلك الربوع ، التى افتتحها الاسلام قبل ذلك بعدة قرون ، وأنشأ بها المسلمون حضارتهم العظيمة التى حفلت بأرقى نظم الحياة المادية والمعنوية ، وأرفع ضروب العلوم والفنون والاداب التى عرفت في العصور الوسطى[٦] .

وقد كانت غرناطة وقت فتح الاندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية البيرة ، تقع على مقربة من مدينة البيرة قاعدة الولاية من الناحية الجنوبية[٧] ، أفتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط بقيادة طارق بن زياد سنة (٩٢هـ — ٧١١م) . ولما اضطرمت الفتنة بالاندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م واشتد التنافس على الامارة بين الشاميين من ناحية، والعرب والبربر من ناحية أخرى، فرأى أمير الاندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين ، ففرقهم في أنحاء الاندلس ، وأنزل جند الشام بكورة البيرة ، وجند حمص باشبيلية ، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة ، وجند الاردن برية ، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية البيرة ، وغدوا بمضى الزمن كثرة فيها .

---

(٦) نهاية الاندلس (١٦ — ١٧) .

(٧) البيرة : وبالاسبانية (Elvira) ، مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أيام الرومان (Iliboris) ، وكانت عاصمة الولاية التي تسمي بهذا الاسم ، وكانت أيام الفتح الاسلامي مدينة كبيرة عامرة .

واستمرت البيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائهـا في ظل الدولـة الاموية ، حتى اواخر القرن السابع ، حينما انهارت الخلافة الاموية ، وتعاقبت الفتن ، وعاث البربر في البلاد ، وخربت مدينة البيرة شيئاً فشيئاً ، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها ، ومـن ذلك الحين اختفى اسم البيرة كقاعدة من قواعد الاندلس ، وذكر اسم غرناطة مكانها ، والواقع ان البيرة وغرناطة تعتبران في معظم الاحيان ، ولاسيمـا في المراحل الاولى لتاريخ الاندلس اسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما[٨] .

وغرناطة ، او اغرناطة ، اسم قديم ، يرجع الى عهد الرومان والقوط ، وقد اختلفت اراء الباحثين في اصل هذه التسمية ، فيرى قسم منهم انه مشتق من الكلمة الرومانية (Granata) اي الرمانة ، وانها سميت كذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها [٩] . ويرى قسم آخر ان التسمية ترجـع الى اصل قوطي او انها ترجع الى اصل بربري مشتق من اسم احدى القبائل ، وارجح الرأي الاول . وغرناطة تتمتع بموقع فائق في الحسن ، فهي تقع في واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبال سييرا نفادا ، وتظللهـا الآكام العالية من الشرق والجنوب ، ويحدها من الجنوب نهـر شنيل فرع الوادي الكبير[١٠] ، وهو ينبع من جبال سييرا نفادا ، ويخترقها فرعه المسمى نهر حدرة[١١] او هدرة (El Darro) ، ويلتقي به عند جنوبي المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدرة ايام المسلمين يفيض بالماء ، ولاسيمـا في الصيف ،

---

(٨) الاحاطة في أخبار غرناطة ـ ابن الخطيب (١/٩٩ ـ ١٠٥) ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م .

(٩) معجم البلدان (٦/٢٧٩ ـ ٢٨٠) .

(١٠) شنيل : هو بالاسبانية (Xanil) أم (Genil) ، ويسمى ايضا عند الاندلسيين بنهر سنجيل مشتقا من اللاتيني

(١١) في معجم البلدان (٦/٢٨٠) ورد اسم النهر : حداره .

حيث تذوب الثلوج ، وكانت ضفافها خضراء يانعة تغص بالحدائق الغنّـاء ، اما اليوم فقد جف مجرى شنيل ، وقلما يجري فيه الماء الا القليل ايام الشتاء • وأما فرعه فيخترق المدينة من الشرق عند سفح التل الذي تقع عليه (الحمراء) ، ويتصل بشنيل عند القنطرة الاندلسية القديمة • وهو يكاد يختفي اليوم ، ولم يبق من مجراه سوى الجزء الصغير المجاور لتل الحمراء • اما جزؤه الذي كان يخترق وسط المدينة ، فقد غـُطـّي اليوم بشارعها الرئيسي الأوسط المسمى : (شارع الملكين الكاثوليكيين) وامتـداده في الميدان الكبير حتـى قنطرة شنيل •

وتشرف غرناطة من الجنوب الغربي ، على بسيط شاسع اخضر وافـر الخصب ، هو المرج او الفحص الشهير : (La Vega) [١٢] الذي يمتد غرباً حتى مدينة لوشة ، ومن الجنوب الشرقي على جبال سييرا نڤادا (جبل شـلير أو جبل الثلج) التي تغطي الثلوج اكامها الناصعة • ويطلق الجغرافيون الاندلسيون اسم : شلير او جبل الثلج على جبال سييرا نڤادا ، فاما شلير فهو محرف عن اللاتينية (Solarius) ومعناها جبل الشمس ، وذلك لان الشمس تسلط اشعتها الساطعة على تلك الجبال ، فينعكس ضوؤها على الثلوج الناصعـة التي تغطيها • واما تسميتها بجبل الثلج ، فهي ترجمة عربية مطابقة لاسمهـا القشتالي : (Sierra Nevada) .

وكانت غرناطة ايام الدولة الاسلامية ، جنة من جنات الدنيـا ، تغص بالغياض والبساتين اليانعة ، التي كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها تعرف بالجنات ، فيقال للمزرعة أو البستان : (جنة كذا) أو (جنة فلان) ، مثل جنة

(١٢) وهي كلمة اسبانية معناها : المرج ، ويبدو انها مشتقة من كلمة : (فحص) العربية .

الجرف وجنة العرض وجنة الحفرة ، ومدرج نجد ، ومدرج السبيكة ، وجنة ابن عمران ، وجنة العريف ، وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب ، ان هذه الجنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ في عصره زهاء المائة . كما ذكر لنا ، ان منطقة غرناطة كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ما كان يبلغ سكانه الالوف ، ومنها ما كان يملكه مالك واحد او ملاك قلائل هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون[١٣] . وبذلك نستطيع ان نقدر ان مدينة غرناطة كانت تضم ايام كانت عاصمة الدولة الاسلامية في الاندلس ، اكثر من نصف مليـون مـن الانفس . اما المرج او الفحص ، فقد كان بسيطاً رائع الخضرة ، يشبهونـه بغوطة دمشق ، وتخترقه الجداول والانهار ، ويغص بالقرى والجنات ، ويهرع اليه الرواد في ليالي الربيع والصيف ، فيغدو مسرح الاسمار والانس .

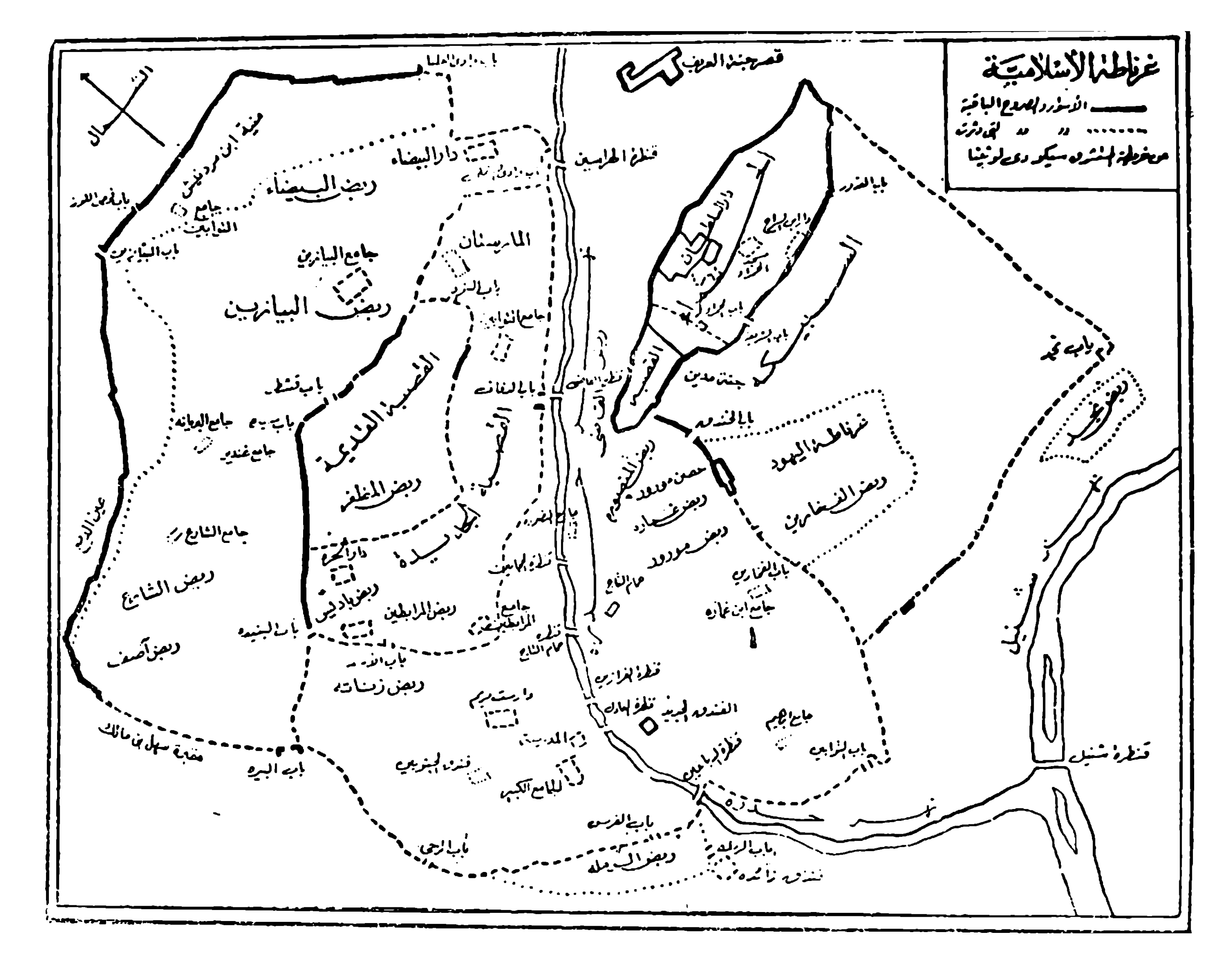
وكانت غرناطة نموذجاً بديعاً للعمارة الاسلامية ، تغص بالصروح والابنية الفخمة ، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة . وكانت مدينة : الحمراء ، او دار الملك اروع ما فيها ، تطل على احيائها في سمت من القبلـة ، تشرف عليه من الشرفات البيض والابراج السامية والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة، تغشي العيون وتبهر العقول ــ كما يقول ابن الخطيب في كتابه : الاحاطة في اخبار غرناطة .

وقد أشاد بمحاسن غرناطة وفضائلها كتاب الاندلس وشعراؤها ، قال ابن الخطيب :

بلد تحفّ به الرياض كأنه

وجه جميل والرياض عذاره

(١٣) الاحاطة في اخبار غرناطة (١/١٢٢ ــ ١٢٣) وانظر تفاصيل القرى في (١/١٣١ ــ ١٣٨) والهوامش حيث تبين مواقع هذه القرى وأسماءهـا الاسبانية حاليا .


غرناطة الإسلامية
الأسوار والصروح الباقية
« « التي دثرت
عن خريطة المستشرق سيكو دي لوثينا
الشمال
قصر جنة العريف
قنطرة العراسين
دار البيضاء
ربض البيضاء
جامع البيازين
ربض البيازين
المارستان
القصبة القديمة
ربض المظفر
باب البنود
ربض الشريعة
ربض آصف
ربض زناتة
اللجام الكبير
باب البيرة
باب الرملة
باب الرحى
ربض الرملة
دار السلطان
السبيكة
باب نجد
ربض نجد
باب الشريعة
غرناطة اليهود
ربض الفخارين
ربض مورور
جامع ابن عمارة
باب الطواقين
جامع الطيم
الفندق الجديد
قنطرة شنيل
نهر حدرة
شنيل

وكأنما واديه معصم غادة
ومن الجسور المحكمات سواره

أما اليوم ، فقد غدت غرناطة مدينة متواضعــة ، لايزيد سكانهـا على مائة وثلاثين الفاً ، وهي عاصمة الولاية الاندلسية المسماة بنفس الاســم • وبالرغم من انها فقدت بهاءها السابق ، فانها مازالت تتشح بطابع خاص من التحفظ والنبل المؤثر ، وقد اختفت معظم خططها الاسلامية ، وقامت علــى انقاضها مدينة اوروبية حديثة ، بيد ان غرناطة مازالت مع ذلك تحتفظ ببقية من صروحها ومعالمها الاندلسية ، وتجتمع هذه البقية بالاخص في قسمهــا الشرقي ، حيث تربض ابراج (الحمراء) فوق هضبتها العالية • وأعظم آثارها الباقية هي بلاريب : قصر الحمراء الملكي الذي مــازال يحتفظ بكثير مــن روعته القديمة ، وقصر جنة العريف الواقع في شرقه على مسافة قليلة ، وقد كان مصيفا لملوك غرناطة • وبقية من قصر شنيل[١٤] ، وهي تقع في ضاحيــة ارملة (ارمليا) على مقربة من شنيل ، والخان[١٥] وهو ذو عقد عربي رائع ، ويقع على مقربة من دار البريد • اما المسجد الجامع وبقية المساجد الاسلامية ، فقد هدمت جميعا وقامت على انقاضها الكنائس • واما ما بقي من خططهــا الاسلامية ، فهو ظاهر بالاخص في : حي البيازين[١٦] الواقع في شمالهــا الغربي ، والميدان الكبير الذي مــازال يحمل اسمــه القديم : رحبــة باب الرملة[١٧] ، والى جواره القيصرية القديمة[١٨] ، وهذا فضلا عما يبدو فــي

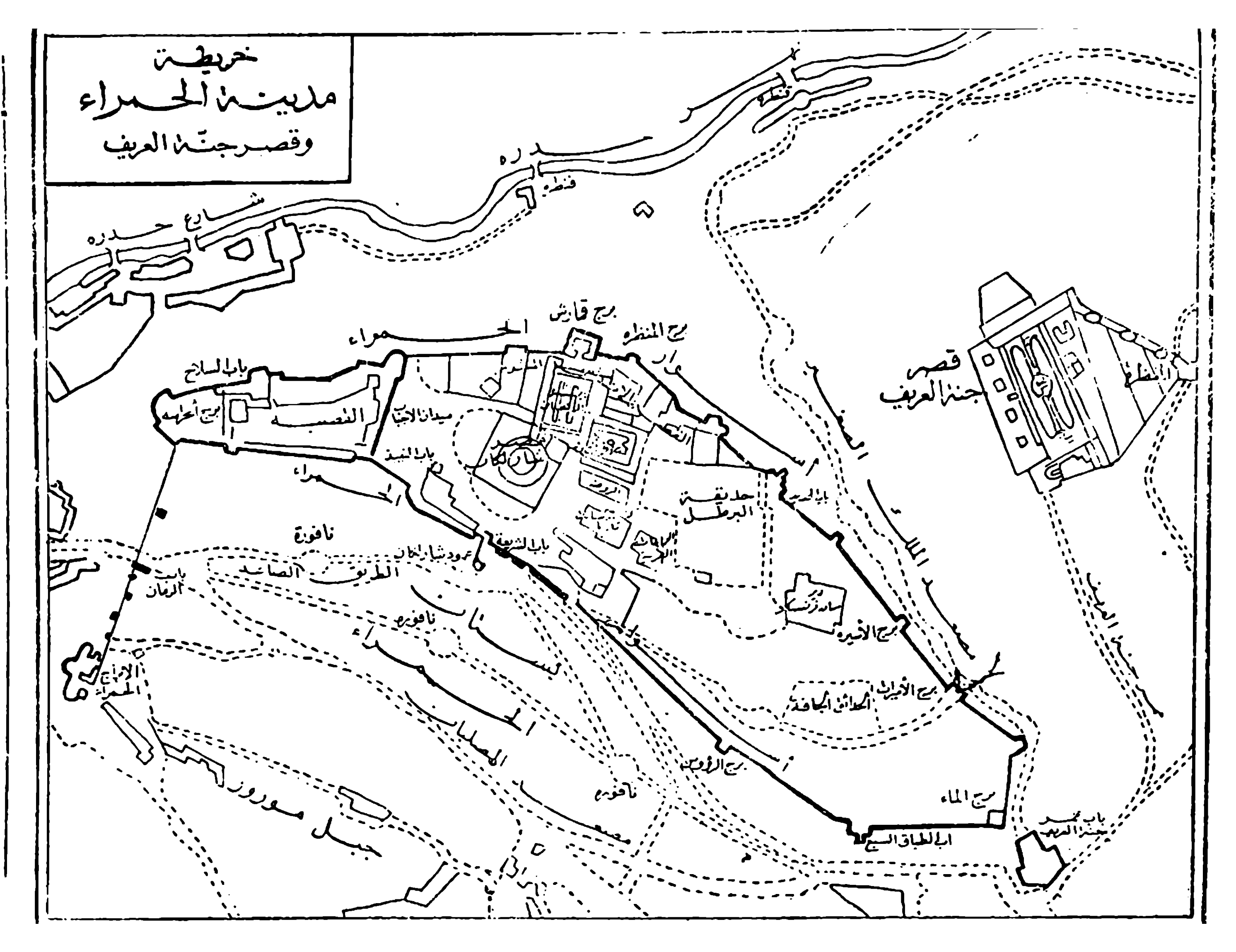
(١٤) هو القصر الذى يعرف في تاريخ غرناطة بقصر السيد ، وقد انشىء في سنة (٦١٥هـ ــ ١٢١٨م) أيام الموحديــن ، وكان أيام ملوك غرناطــة يستعمل قصرا للضيافة ، وهو بالاسبانية : Alcazar Genil

(١٥) الخان : وهو بالاسبانية Alhonaiga .

(١٦) حي البيازين : وهو بالاسبانية Algaicin .

(١٧) رحبة باب الرملة : وهى بالاسبانية Plaza de Bibramble .

(١٨) القيصرية القديمة : وهى بالاسبانية : Alcaicaria .


خريطة
مدينة الحمراء
وقصر جنة العريف
شارع حدره
قنطرة
برج قمارش
برج المنزه
الحمراء
باب السلاح
القصبة
ميدان الأجباب
باب النبيذ
حديقة البرطل
ساحة نافورة
نافورة
باب الشريعة
الطريق الصاعد
باب الرمان
برج الأسيرة
الحدائق الجافة
برج الأميرات
برج الرؤوس
برج الماء
باب الطباق السبع
باب جنة العريف
قصر جنة العريف
جبل موروز

كثير من دروبها الضيقة الصاعدة ومنازلها العديدة ذات الطراز الاندلسي ، من الملامح الاندلسية الواضحة ٠

كذلك بقيت قطعة كبيرة من اسوار غرناطة الاسلاميــة ، وبضعة مــن ابوابها القديمــة ، مثل : باب البنود ، وباب البيرة ، وباب البيازين ، وباب فحص اللوز ، وباب الشريعة ، وهو مدخل الحمراء الرئيسي ٠ وماتزال قنطرة شنيل قائمة على النهر عند التقائه بفرعه : حدرة ، وتحمل اسمها الاســلامي القديم[١٩] ٠

وتوجد في متحف غرناطة الأثري طائفة كبيرة من الألواح والنقــوش والتحف الاندلسية[٢٠] ٠

نشأة مملكة غرناطة
وقيام الدولة النصرية

كانت غرناطة ايام الدولة الاموية ، قاعدة متواضعة من قواعد الاندلس الجنوبية ، وهي تحتل مكان البيرة شيئاً فشيئاً ، حتى كانت ايام الفتنة عقب انهيار الدولة الاموية في اواخر القرن الرابع الهجري ، فاخــذت القواعــد الجنوبية تغدو بعد تخريب قرطبة ، ونأي الثغور الشرقية والشمالية ، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة ٠ ووقعت غرناطة يومئذ من نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوي بن زيري واتخذها دار ملكه ، وقامت في قرطبة دولة بني حمود الادريسية ، واستمرت الحرب والفتنــة مــدى حين سجالا بين المتغلبين من فلول بني أمية وبني عامر وفتيانهم ومواليهم ، وبــين زعماء البربر ٠ ولما ظهر المرتضى ، وهو من عقب بني امية ، ودعــا لنفســه

(١٩) اسمها Peante del Genil .
(٢٠) انظر التفاصيل في : نهاية الاندلس (١٧ ــ ٢٢) ٠

بالخلافة ، سار في عصبة الامويين والموالي الى غرناطة ، لانتزاعها واتخاذها دار ملكه ، فرده عنها صاحبها زاوي الصنهاجي في موقعة دموية (٤٠٨هـ) • واستقر زاوي في حكم غرناطة واعمالها بضعة اعوام ، ثم غادرهـا الى دار قومه في تونس ، واستخلف عليها ابن اخيه حبّوس بن ماكسن ، فحكمها حتى توفي سنة (٤٢٩هـ) • وخلفه في ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر ؛ واستولى على مالقة من يد الادارسة (بني حمود) ، واتسع ملكه ، ولبث طول حكمه الذي استطال حتى سنة (٤٦٧هـ) ، في قتال مستمر مـع بني عبـاد امراء اشبيلية ، اعظم واقوى ملوك الطوائف يومئذ • ولما توفي بـاديس المظفر ، خلفه في حكم غرناطة واعمالها ، حفيده عبدالله بن ملكّن بن باديس ، واستمر في حكمها الى ان عبر المرابطـون البحر الى الاندلس في سنـة (٤٨٣هـ) بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين ، واستولوا عندئذ على غرناطة ، كما استولوا على قواعد الاندلس الاخرى وانتهت بذلك دول الطوائف التي قامت علـى انقاض الخلافة الاموية في الاندلس ، وعاشت زهاء ستين عاما .•

واستمر المرابطون في حكم الاندلس وقواعدها زهاء ستين عاما اخرى ، وتعاقب في حكم غرناطة عدة من امراء اللمتونيين(٢١) وسادتهم ، من قرابـة يوسف بن تاشفين ، فلما انهارت دولتهم في افريقية ، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم الى الاندلس في سنة (٥٤٠هـ ــ ١١٤٦م) ، واخذوا يستولون تباعا على القواعد والثغور ، وسقطت غرناطة بايديهم بعد ذلك بثلاثة اعوام في سنة (٥٤٣هـ ــ اواخر سنة ١١٤٨م) بالرغم مما بذله المرابطون بقيـادة قائدهم الشهير يحيى بن غانية وحلفاؤهم النصارى من جهود عظيمة للدفاع عنها •

---

(٢١) لمتونة : اســم قبيلة بربرية كان المرابطون ينتمون اليهـا ، ولذا يسمون احيانا باللمتونيين .

ولبثت غرناطة كباقي القواعد الاندلسية في يد الموحدين ، يتناوب حكمها الامراء والسادة من بني عبدالمؤمن وقرابته ، حتى كانت ثورة ابي عبدالله محمد بن يوسف بن هود سليل بني هود امراء سرقسطـة السابقين علـى الموحدين ، وانتزاعه معظم قواعد الاندلس من ايديهم •

وذلك انه لما توفي ابو يعقوب يوسف المستنصر بالله سلطان الموحدين في سنة (٦٢٠هـ) دون عقب ، قام ابن اخيه ابو عبدالله محمد ولد يعقوب المنصور بالاندلس ، واعلن نفسه اميرا على بلنسية ، باسم العادل بالله ، وقام اخوه ابو علي ادريس في اشبيلية ، واتخذ لقب المأمون ، وبسط سلطانـه على الاندلس ولما توفي اخوه العادل امير بلنسية قتيلا بيد الثوار بعد ذلـك باربعة اعوام (٦٢٤هـ) خلفه في رياستها ، وولى عليها اخاه السيد ابا عبدالله ليحكمها من قبله • ثم شغل المأمون في الاعوام القلائل التالية ، بالعمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم واستعمل العنف الشديد ، وقضى على رسوم المهدي وتعاليمه ونظام حكومته باعتبارها نظما رجعية لاتتفق مع روح الدين الصحيح ، فسرت روح السخط بين القبائل ، واخـذ الزعمـاء المتوثبون يرقبون الفرص • وبينمـا كان المغـرب يضطرم بعوامـل الثـورة على هذا النحو ، والمأمون يشغل بقمع الخوارج عليه ، كان سلطان الموحدين بالاندلس يضطرب في الوقت نفسه ، ويتداعى بسرعة ، وينهار حكمهم تباعا •

ففي تلك الاونة ، ظهر ابن هود يدعو الى دعوة جديدة ، تمثل فيهـا روح الاندلس الحقيقية ، وهي : وجوب العمل على تحرير الاندلس من نير الموحدين والنصارى معا • وكان المأمون حينما اشتد عليه الامر بالاندلس ، قد تحالف مع ملك قشتالة ، وتنازل له عن عدد من القواعد والحصون ، وتعهد بان يمنح النصارى في اراضيه امتيازات خاصة ، وذلك لقاء معاونة ملك قشتالة له على محاربة خصومه • وكان تحالف الموحدين مع النصارى على هذا النحو

يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الاندلسيين الى الانضواء تحت لوائه ، وظهر ابن هود لاول مرة في احواز مرسية في سنة (٦٢٥هـ ــ ١٢٢٨م) في الوقت الذي اخذ فيه سلطان الموحدين يضطرب ويتصدع في الثغور والنواحي ، ثم اغار على مرسية في عصبته القليلة ، واستطاع ان ينتزعها من حاكمها السيد ابي العباس • واخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فاعلن انه يعتزم تحرير الاندلس من الموحدين والنصارى معا ، والعمل على احياء الشريعة وسنتها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسي ببغداد ، فبعث اليه بالخلع والمراسيم ، وتلقب بالمتوكل على الله • ولم يمض سوى قليل ، حتى دخلت في طاعته عدة من قواعد الاندلس ، منها جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ، ثم استطاع ان ينتزع غرناطة قصبة الاندلس الجنوبية من المأمون في سنة (٦٢٨هـ ــ ١٢٣١م) •

وفي العام التالي (٦٢٩هـ) توفي المأمون ملك الموحدين ، وهو في طريقه الى مراكش ، ليعمل على انقاذ عرشه من المتغلبين عليه • وبينما كان سلطان الموحدين بالاندلس يدنو سراعا من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل في دور الانحلال ، في ظل نفر من الامراء الضعاف ، ثم تختتم حياتها بعد ذلك بنحو اربعين عاما في سنة (٦٦٨هـ) لتقوم على انقاضها دولة بني مرين •

واستمر ابن هود حيناً يخوض معارك متعاقبة مع الموحدين والنصارى ، ونشبت بينه وبين فردنياند الثالث[٢٢] ملك قشتالة ، في ظاهر ماردة معركة انتهت بسقوط ماردة وبطليوس في يد النصارى سنة (٦٢٨هـ ــ ١٢٣٠م)[٢٣] •

وانتهز فرديناند الثالث ملك قشتالة تلك الفرصة التي اضطرمت فيها

(٢٢) وهي في الاسبانية فرناندو (Fernendo)

(٢٣) نهاية الاندلس (٢٦ ــ ٢٧) •

المملكة الاسلامية في الاندلس كلها بنار الحرب الاهلية ، فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وكان يبدو في نظره يومئذ زعيم الاندلس الحقيقي • وكان ابن هود في ذلك الوقت ، قد استطاع أن يبسط سلطانه على الولايات والشواطىء الجنوبية ، فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى في مقاتلة النصارى عاملا لتدعيم دعوته وسلطانه ، فسار للقائهم ، والتقى الجيشان في فحص شريش على ضفاف وادى لكة ، ولكن ابن هود هزم بالرغم من تفوقه في العدد ، وكان ذلك في (أواخر ٦٣٠هـ ــ ١٢٣٣م) ، وسار فرديناند بعد ذلك لاجتياح أبده ، فسقطت في يده بعد حصار قصير (٦٣١هـ ــ ١٢٣٤م) •

على أن سقوط قرطبة ، كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالاندلس •. كان ابن هود عقب هزيمته قد جمع قواته وسار لقتال خصمه ومنافسه الجديد محمد بن الاحمر في أحواز غرناطة • وألفى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة التي كان فيها الامر فوضى ليس فيها من يجمع الكلمة ويتزعم الدفاع عنها • وفاجأ القشتاليون بعض أبراج المدينة في البداية ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء عليها ليس بالأمر السهل ولابد لتحقيقه من قوات جسيمة • وعلم فردنياند الثالث وهو في طريقه الى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد اليها مسرعا تلاحقه قواته من سائر الأنحاء• وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا الى ابن هود أميرهم الشرعى يطلبون الغوث والانجاد• وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم أن يسير الى انجاد الحاضرة المحصورة ، ولكنه علم في طريقه أن جيش القشتاليين يفوقه في الاهبة والكثرة ، ووصله من جهة أخرى صريخ أبى جميل زيان أمير بلنسية لمعاونته

ضد خايمى[٢٤] ملك أراغون الذي اشتد في مناوأته وارهاقه ، ولاح لـه أن السير الى بلنسية التى كان يطمح الى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها مؤملا أن يثبت أهلها دفاعا عنها ، أو يستطع انقاذها فيما بعد . ولبث النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر ، ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم ودينهم وحرياتهم أعنف دفاع وأروعه ، ولكنهم اضطروا في النهاية وبعد ان أرهقهم الحصار وفقدوا كل أمل في الغوث والانقاذ الى التسليم . ودخل النصارى قرطبة في (٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ ـ ٢٩ حزيران ـ يونيو سنة ١٢٣٦م) ، وفي الحال حولوا مسجدها الجامع الى كنيسة[٢٥] ، وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، ايذانا بظفر النصرانية على الاسلام وكان لسقوط قرطبة عاصمة الخلافة التالدة ، أعظم وقع في الاندلس وفي سائر أصقاع العالم الاسلامى ، وكانت ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية ، الى قلب الاندلس المفككة المنهوكة القوى[٢٦] .

(٢٤) خايمى : Jaime ، وهو الرسم الاسباني لاسم يعقوب .

(٢٥) ومازال جامع قرطبة العظيم قائما الى اليوم بأروقته وعقوده وأعمدتـه الاسلامية كاملا كما كان ايام المسلمين بيد انه حول الى كنيسة قرطبـة الجامعة ، واقيمت الهياكل في سائر جوانبه تحت عقوده القديمة ، واقيم في وسطه مصلى على شكل صليب Crucero ، وقد ازيلت قبابـة ونقوشه الاسلامية ، ولم يبق محتفظا بنقوشه القديمة سوى محاريبـه الثلاثة . وما زال هذا الاثر الاندلسي العظيم الى جانب تسميته بكتدرائية قرطبة يحمل اسمه الاسلامى القديـم : المسجد الجامـع (La Nezguita Aljama) ، انظر الاثار الاندلسية الباقية ٢٠ ـ ٢٧) ـ محمد عبدالله عنان .

(٢٦) انظر سقوط قرطبة في : ابـن خلدون (١٦٩/٤ و ١٨٣) ونفح الطيب (٥٨٥/٢) حيث يشير اليه اشارة عابرة مع تحريف في التاريخ ، وانظر ايضا تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ الالمانى اشباخ وترجمة محمد عبداللـه عنان (١٨٥/٢ ـ ١٨٧) ونهاية الاندلـس (٢٧ ـ ٢٨) .

ولم يلبث ابن هود أن توفى في أوائل سنة (٦٣٥هـ ـ ١٢٣٧م) ، وكانت وفاته في ثغر ألمرية في ظروف غامضة ، وقد كان سار اليها معتزما أن ينقل بعض قواته في البحر لانجاد أمير بلنسية ، فقيل ان وزيره ونائبه في ألمريـة أبا عبد الله محمد بن عبدالله الرميمى استضافه في قصره ودبر قتله غيلة ، وزعم في اليوم التالى أنه توفي مصروعا . وكان الرميمى قد قام بدعوتـه في ألمرية ووفد عليه في مرسية ، فقدر عونه وولاه وزارته وعينه حاكما على ألمرية ، ثم تغير عليه فيما يقال من أجل جارية حسناء أغراها الرميمى ، فسار الى المرية لمعاقبته ، فخشى الرميمي العاقبة ، فدبر مصرعه ولجأ الى الجريمـة احتفاظا بسلطانه(٢٧) .

وهكذا توفى ابن هـود ، وهو في ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التى أشاعت في الاندلس مدة قصيرة أملا سرابا ، فانهارت بوفاته دولته التى لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والامن(٢٨) .

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته ، بادر خايمى ملك أراغون بانتهاز فرصته السانحة ، فغزا ولاية بلنسية ، وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام

---

(٢٧) ابن خلـدون (١٦٩/٤) ونفح الطيب (٥٨٢/٢ ـ ٥٨٣) ، ولايصدق العقل هذا الاتهام ، لان ابن هود كان على خـلاف مع الرميمي ، وقـدم المرية خصيصا لمعاقبته ، لما قبل الاستضافة الرميمي وائتمن عدوه على حياته ، وكان بامكانه ان يلجأ الى مكان آمن فيالمرية، ثم يستدعي الرميمي ويعاقبه ، دون أن يعرض حياته الى الخطر من بعيد او قريب ، ويبدو أن المؤرخين : ابن خلدون وابن الخطيب ، نقلا ماكان شائعا بين الناس على أسباب موت ابن هود ، والاشاعات لاتصدق دائما ، فمنها مايصدق ، ومنها مالايصدق .

(٢٨) تراجع ثورة ابن هود ووفاته في : ابن خلدون (١٦٨/٤ ـ ١٧٠) والاحاطة (٩٠/٢ ـ ٩٤) ونفح الطيب (٥٨١/٢ ـ ٥٨٣) وانظر تاريخ الموحدين والمرابطين في الاندلس (١٦٠/٢ و ١٦١ و ١٨٧ و ١٨٦) .

قلائل على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) في سنة (٦٢٧هـ ــ ١٢٣٠م) ، وكانت بلنسية قد بقيت بيد الموحدين ، وتولى امارتها السيد أبو عبدالله محمد أخو المأمون ، وتلقب بالعادل كما ذكرنا ، وكان منذ رأى خطر ابن هود على امارته قد استغاث بملك أراغون وانضوى تحت لوائه وتعهد له بأداء الجزية . عند ذاك ثار أهل بلنسية واختاروا لهم أميرا اخر هو أبو جميل زيان سليل آل مردنيش أمراء بلنسية السابقين ، ففر أبو عبدالله أمام السخط العام ، والتجأ الى ملك أراغون واعتنق النصرانية . ثم غزا خايمى بلنسية وحاصرها ، ودافع أهلها عن مدينتهم ببسالة ، واستغاث أميرها أبو جميل زيان بأمير تونس الحفصى فلم يغنهم ذلك شيئا . وسقطت بلنسية بيد النصارى في صفر سنة (٦٣٦هـ ــ ١٢٣٨م)[٢٩] ، واتبع خايمى الاستيلاء على بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية في سنة (٦٣٨هـ ــ ١٢٤١م) . أما ولاية مرسية ، فقد استولى عليها في البداية الامير أبو جميل زيان عقب فقده لبلنسية ، ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا اليه يلتمسون مهادنته ومحالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء المدن في طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فردناند الى ملتمسهم ، وبعث اليهم ولده الفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحا سنة (٦٤١هـ ــ ١٢٤٣م) . وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقى الاندلس كله بيد النصارى في أعوام قلائل فقط ، وكانت نفس المأساة تتكرر في ذلك الوقت نفسه ، بصورها وأوضاعها المحزنة في غربي الاندلس[٣٠] .

وفي تلك الاونة ، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة اسلامية جديدة في جنوبى الاندلس هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة

(٢٩) ابن خلدون (١٦٧/٤) .
(٣٠) نهاية الاندلس (٢٩ ــ ٣٠) .

في الطرف الجنوبى للدولة الاسلامية القديمة ، يرجع الى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة ، ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادي الكبيـر آخر الحواجز الطبيعية بين أسبانيا النصرانية والاندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت في الوقت نفسه أقربها الى الضفة الاخـرى من البحر ، الى عـدوة المغرب وشمالى افريقية ، حيث تقوم دول اسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الاندلس وقت الخطر الداهم ، أن تستمد الغوث والعون من اخوانها في الدين . وقد كان لهـا في ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الاندلس يتردد في تلك الاونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الابار القضاعى ، حينمادهم العدو بلنسية في سنة (٦٣٦هـ ــ ١٢٣٨م) ، وكان الصريخ موجها من أميرها أبى جميل زيان الى أبى زكريا الحفصى ملك افريقية (تونس) ، وهو الذى ردده الشاعر في قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيـل اللـه أندلسا

ان السبيل الى منجاتها درسـا(٣١)

وكان موقف ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفا شاذا مؤلما ، فقـد كان يقف الى جانب اعداء امته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والمعنوي ، وكان معظـم الزعمـاء المسلمين من حكـام المدن والحصون الباقية ، وقد ايقنوا بانهيار سلطان الاسلام بالاندلس ، يهرعون احتذاء امثاله من الخونة والى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر في تاريخ الاندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيرا من

(٣١) تراجع هذه القصيدة في نفح الطيب (٥٧٨/٢) وما بعدها ، وفي ازهار الرياض (٢٠٧/٣) وما بعدها ، وفي نهاية الاندلس (٣٠) .
وهي من غرر القصائد الاندلسية السياسية .

الحكام المسلمين يظاهرون النصارى على اخوانهم في الدين ، احتفاظا بالملك والسلطان . ولكن ابن الاحمر ، كان يقبل هذا الوضع المؤلم انقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذا لامنية كبيرة بعيدة المدى ، ذلك انه كان يطمح الى جمع كلمة الاندلس تحت لوائه ، وادماج ماتبقى من تراثها واراضيها في مملكة موحدة ، تكون ملكا له ولعقبه ، ولم تكن تحدوه رغبة في توسع يجعله الى الابد اسيرا الى حلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل اسلافه زعماء الطوائف ، بل كانت تحدوه قبل كل شيء رغبة في الاستقلال ، والتوطد داخل امارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية في ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصارى ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لاشلاء الوطن الممزقة ، وقلبه يتفطر حزناً وأسى .

على ان ابن الاحمر ، لم يكن يعتزم المضي في ذلك المسلك المؤلم المهين الى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت لاخر ، بان يحطم هذه الاغلال الشائنة التي صفدته بها محالفة النصارى ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه ، صلبت قناته وذكا عزمه . وكان يتجه ببصره الى ماوراء البحر ، الى اخوانه في الدين في عدوة المغرب . وكانت حوادث الغرب تتمخض في ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هي دولة بني مرين الناشئة . ومع ان الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بني مرين كان يحول دون انجاد الاندلس بصورة فعالة ، فان كتائب المجاهدين من بني مرين والمتطوعة من اهل المغرب ، لم تلبث ان هرعت الى غوث الاندلس ، وعبر القائد ابو معروف محمد بن ادريس بن عبدالحق المريني واخوه الفارس عامر البحر ، في نحو ثلاثة آلاف مجاهد ، جهزهم ابو يوسف يعقوب بن عبدالحق سلطان بني مرين . وكانت حوادث الاندلس المحزنة تحدث وقعها العميق في المغرب ، وكانت رسائل الاندلس تترى الى أمراء المغرب وأكابرهم

بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم ، والاستنصار باهل العدوة اخوانهم في الدين ، وكان علماء المغرب وادباؤها وخطباؤها وشعراؤها يبثون دعوة الغوث والانجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها ابو الحكم مالك بن المرحل ، وقرئت في جامع القرويين بفاس في يوم جمعة من ايام سنة ٦٦٢هـ ، وبكى الناس تأثرا لسماعها ، ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا
فانكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشدة
برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه
لايرحم الرحمن من لايرحم
ماهي إلاّ قطعة من أرضكم
وأهلها منكم وأنتم منهم (٣٢)

وكان لاهتمام المغرب بانجاد الاندلس صداه ، وكان ابن الاحمر في الوقت نفسه قد بدا يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا اراضيه في سنة (٦٦٠هـ ـ ١٢٦١م) استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر ، ان يهزمهم وان يردهم عن اراضيه ، وبذلك ظهرت الاندلس على عدوها في ميدان الحرب لاول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل

(٣٢) راجع الذخيرة السنية (١٠٨ ـ ١١٢) حيث يورد القصيدة بأكملها .

(٦٦٢هـ) ، استطاع قائدهم الفارس عـامر بن ادريس ، ان ينتزع مدينـة شريش من يد النصارى ولكن لمدة قصيرة فقط[٣٣] .

وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة ، ولكن الحوادث مالبثت أن تجهّمت للأندلس مرة أخرى ، ذلك أن ملك قشتالة الفونسو العاشر ، خشي هذه المبادرة على خططه وغزواته ، وخشي بالأخص أن تتضاعف الامدادات من وراء البحر، فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عوّل أن يضاعف أهبته وضغطه عـلى القواعد الأندلسية البـاقية ، ففي أواخر سـنة (٦٦٢هـ ــ ١٢٦٣م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها الى النصارى[٣٤] ، ودخلها دون خيل قـائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيراً منهم . وفي العام التالي (٦٦٣هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على الاستيلاء على ما بقي من القواعد الأندلسية ، وسرى الخوف الى نواحي الأندلس ، وعادت الرسائل تترى الى أمراء المغرب وزعمائه بالمبادرة الى إمداد الأندلس وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصاً وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر في ذلك الوقت على يد دون نونيو دي لارا (دونته) صهر ملك قشتالة وقائده الاكبر (٦٦٣هـ ــ ١٢٦٤م) . وأعلن ابن الأحمـر بيعته للملك المستنصر صاحب تونس ، فبعث اليه المستنصر هديـة ومـالا لمعاونته[٣٥] ، ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة سريعة نـاجعة ، وبقيت

---

(٣٣) الذخيرة السنية (١١٢) .

(٣٤) سبق ان اشرنا الى سقوط استجة في يد النصارى سنة (١٢٣٧م) ، اعني قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما ، والظاهر أنها بقيت خلال هذه المدة بيد حكامها المسلمين تحت حماية ملك قشتالة على نسق كثير من المدن الاندلسية الاخرى ، التي لبثت حينا بيد حكامها المسلمين بعد تسليمها صلحا للنصارى .

(٣٥) الذخيرة السنية (١٢٥) .

الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوي بمفردها ، وتتوجس من ســوء المصير .

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له في أواخــر سنة (٦٥هـ ــ ١٢٦٦٧م) عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل : ان ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البــلاد والحصون المسوّرة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ، ومعظمها في غــرب الأندلس(٣٦) ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى(٣٧) .

وهكذا خسرت الأندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين ســنة فقط ، في وابل مروع من الأحداث والمحن ، واستحال الوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الأسبانية ، الى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة(٣٨) .

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه ، في توطيد مملكته واصلاح شئونها ، وكان منذ سنة (٦٦٢هـ) قد أعلن البيعة بولاية العهد لمحمد أكبر أولاده ، وبذلك أسبغ على رياسة بني نصر صفة الملوكية الوراثية(٣٩).

(٣٦) انظر الذخيرة السنية (١٢٧) ، وقد سبق ان اشرنا الى تنازل ابن الاحمر لملك قشتالة عن ارض الفرنتيرة ، وفيها تقع شريش وقادس وغيرهما ، ولكن هذا التنازل كان اسميا ، واضطر النصارى الى الاستيلاء على هذه المدن بصورة فعلية ، وكان سقوط شريش وقادس بيد الفونسو العاشر سنة ١٢٦٢م ، والظاهر أن المقصود هنا ، هو مصادقة ابن الاحمر على استيلاء النصارى على هذه القواعد .

(٣٧) يضع ابن الخطيب تاريخ عقد ابن الاحمر الصلح مع النصارى للمرة الثانية في سنة ٦٦٢هـ .

(٣٨) نهاية الاندلس (٤٠ ــ ٤٢) .

(٣٩) الاحاطة (٢/٦٥) واللمحة البدرية (٣٦) .

ولم تقع في تلك الأيام حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً • ولكن ظهرت عندئذ أعراض الانتقاض على بني أشقيلولة أصهار بني الأحمر ومعاونيه ، وكان ابن الأحمر قد زوج في سنة (٦٦٤هـ) إحدى بناته لابن عمه الرئيس أبي سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فنمى ذلك الى واليها أبي محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته ، فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله ، تعاونه قوة من حلفائه النصارى ، وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ، ولكنهم ارتدوا عنها خائبين (٦٦٥هـ ــ ١٢٦٦م) • وعاد ابن الأحمر ، فسار الى مالقة مرة أخرى سنة (٦٦٨هـ) ولكنه لم ينل منها مأربا [٤٠] •

وفي تلك الآونة ، عاد النصارى الى التحرش بالمملكة الاسلامية ، وسار ملك قشتالة الى الجزيرة الخضراء فعاث فيها فسادا ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من النصارى ، فبعث الى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والانجاد ، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة ، اذ توفي بعد ذلك بقليل •

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والاقدام وشغف الجهاد ، والمقدرة على التنظيم ، وكان جم التواضع والبساطة • وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذي غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد • وهو الذي ابتنى حصن الحمراء الشهير ، وجعله دار الملك ، وجلب له الماء ، وسكنه بأهله وولده • وأما تسميته بابن الاحمر ، فقد اختلفت في شأنها الرواية ، ويقال : ان هذه التسمية ترجع الى نضارة وجهه واحمرار شعره • ويرى بعضهم أنها أسبغت عليه لانشائه حصن الحمراء ، ولكن سوف

---

(٤٠) الذخيرة السنية (١٢٥ و ١٢٩) •

نرى عن تاريخ الحمراء ، أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرية ببضعة قرون وأنه لاصلة بين هذا الاسم الذي أطلق على الحصن والقصور الملكية التي أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببني الأحمر . كما أنه ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب اليها بيت غرناطة الملكي[٤١]. وكان ابن الاحمر يباشر الأمور بنفسه، ويدقق في جمع الأموال والجبايات ، حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين في الأسبوع ، يستمع فيهـا الى الظلامـات وذوي الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشعراء . وكان يجري في تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضـاة ومن اليهم من ذوي الرأي ، للاسترشـاد برأيهم ونصحهم[٤٢]. وكـان في مقدمة وزرائه أبو مروان عبدالملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيان ، وهـو الذي مكّنه من التغلب عليها . وتوفى محمد بن الأحمر في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة (٦٧١هـ ــ كانون الاول ــ ديسمبر ــ ١٢٧٢م) على أثر سقطة من جواده ، حين عودته من معركة رد فيها جمعا من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء ، فحمل جريحـا الى القصر ، وتوفى بعد ذلـك بأسبوعين ، وقد قارب الثمانين من عمـره ، ودفن بالمقبـرة العتيقـة بأرض السبيكة[٤٣]. وكانت مملكة غرناطة قد رسخت دعائمها نوعاً ما ، واستقر بها

(٤١) انظر مقدمة أطلس الحمراء (Alhambra) الذى وضعه (Owen Jones and Goury) وكتبها المستشرق جاينجوس (London 1842) ص (٥) الهامش ، وتسمى الدولة النصرية على الاغلب بدولة بنى الاحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم ، انظر ابن خلدون (١٧٠/٤ وما بعدها) .

(٤٢) ابن خلدون (١٩٠/٧) واللمحة البدرية (٣١) .

(٤٣) الاحاطة (٦٦/٢) ، وكان اسم السبيكة يطلق على البسيط الذى يقع جنوب شرقى الحمراء .

ملك بني نصر الفتى على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر في مملكة غرناطة في بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بني نصر زعامتهم ، ولذا لم نشهد في هذه المنطقة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وان كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وكان من الغرائب ، أن هذه المملكة الاسلامية الصغيرة ، استطاعت أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الاسلام في الأندلس ، زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى[٤٤] .

طوائف الاندلسيين في عصر الانحلال

١ ـ مملكة غرناطة وحدودها

كانت مملكة غرناطة عند قيامها في أواسط القرن السابع الهجري ، تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة وتمتد فيما وراء نهر الوادي الكبير الى الجنوب ، حتى شاطىء البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ويحدها من الشمال ولايات جيان وقرطبة واشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطىء البحر الابيض الممتد منها الى الجنوب ، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنيترة . وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة ، وهي ولاية غرناطة الواقعة في الوسط والممتدة جنوبا حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة غرناطة ، ووادي آش ، وبسطة ، وأشكر ، وحصن اللوز ، ولوشة ، والحامة ، وأرجبة ، وشلوبانية ، وولاية المرية ، وهي تمتد من ولاية مرسية حتى البحر ، وأهم مدنها ثغر المرية والبيرة ، والمنصورة ، وبرشانة ، وبرجة ، ودلاية ، وأندرش . وولاية مالقة ، وهي تقع على البحر غربي غرناطة ، وأهم مدنها ثغر

(٤٤) نهاية الاندلس (٤٤ ـ ٤٦) وانظر ماجاء عن ابن الاحمر في : Scott : Themoorish Empire in Europe, V. 11. P. 433 — 434.

مالقة ، وبلش مالقة ، وطرش ، وقمارش ، وأرشدونة ، وأنتقيرة ، ورنـدة ، ومربلة ، ويلحق بها الجزيرة الخضراء ومنطقة جبل طارق وطريف .

وتخترق مملكة غرناطة في الوسط جبال سييرا نفادا (جبل شلير) الشاهقة ، وهضاب البشرات الوعرة وبسائطها الخضراء ، كما تخترقها عدة أنهار منهـا شنيل فرع الوادي الكبير ، ونهر أندرس الصغير ، وفي الشرق نهر المنصورة. وكانت خواصها الطبيعية التي تجمع بين مزيج مدهش من المروج والوديـان الخصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة ، ينميها ويضاعفها الشعب الأندلسي الموهوب ، بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة، وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة ، تستمد من مواردها الطبيعية أسـباب القوة والمنعة والرخـاء[٤٥] .

٢ ــ عنـاصر السكان :

كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد مكثت أعقاب هذه البطـون مدى عصور كثيرة في تلك الولاية ، ولما اضطرمت الفتن بالاندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الاخرى من البحر على قواعد غرناطة، ثم غدت غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصرا بارزا في سكان هذه المقاطعة ، وكانت الثغور الجنوبية بطبيعة الحال منزل البربر كلما عـبروا الى الاندلس ، خاصة أيام المرابطين والموحدين ، وكانت طوائف كثيرة مـن المجاهدين ، تتخلف في هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها ، ويجذبهم خصبها ونعماؤها . ولما أخذت قواعد الاندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعا في أيدي النصارى ، هرع الى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التي آثرت الهجرة الى أرض الاسلام ، على التدجن والبقاء تحت

---

(٤٥) نهاية الاندلس (٤٧ ــ ٤٨) .

سلطان النصارى . على أنه بقيت في القواعد والثغور التي احتلتها النصارى من الأسر المسلمة التي حملتهم ظروف الاسرة ودواعي العيش على البقاء في الوطن القديم تحت حكم الاسبان النصارى ، وأولئك هم المدجنون [٤٦] (بالاسبانية Mudejares) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، أو بعبارة أخرى منذ كثر استيلاء النصارى على بلاد المسلمين ، وكثر عدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم اسبانيا النصرانية .

٣ ـ المدجنون وتاريخهم وحياتهم في ظل الممالك النصرانية :

ولهذا المجتمع الاسلامي الاسباني من المدجنين تاريخ طويل مؤثر ، فقد لبث المدجنون عصرا يتمتعون في ظل ملوك قشتالة وأراغون ، بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم في العصور الاولى قضاة منهم يحكمون في سائر المنازعات التي تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الاسلامية . أما المنازعات التي تقع بين مسلم ونصراني ، فكان ينظرها أحيانا قاض نصراني ، أو تنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين . وكان من امتيازاتهم ألاّ يدفعوا من الضرائب غير ما كانوا يؤدونه من قبل لملوكهم ، ثم ترك هذا الامتياز بمضي الزمن . وأصدر الفونسو العاشر في سنة ١٢٥٤م لسكان اشبيلية امتيازاً يخولهم حق شراء الارض من المسلمين في منطقتهم ، مما يدل على أنه سمح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء في العقارات . فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية على المتغلبين النصارى في

(٤٦) من دجن وتدجن : اى أقام ، ومصدره الدجن أو التدجن ، ومنه دواجن البيوت ، وهي طيور وحيوانات اليفة مقيمة .

أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين شراء الاراضي من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيما بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضـا بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية ، ويعتبر الاعفاء منها امتيازا خاصا . ثم أعفي المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سـنوية يؤدونها ، وكان انضمامهم الى الجيوش النصرانيـة يقـع في حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الاسبان على القواعد والثغور الاندلسية ، كان يخصص للمدجنين في كل مدينة مفتوحة حي خاص لاقامتهم ، يفصل بينـه وبين أحياء النصارى سور ضخم (٤٧) .

وتوجد وثائـق في كندرائية سرقسطة عربية تلقي ضوءاً على تاريـخ المدجنين وأحوالهم في مملكة أراغون منذ القرن العاشر الميلادى الى القرن الخامس عشر ، وهى عبارة عن طائفة من عقود البيع والشراء والوديعة وغيرها التى عقدت بين أفراد من المدجنين وبين المدجنين والنصارى . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين في مملكة أراغون كانوا حتى سنة ١٤٩٢م ، الى هذا العصر المتأخر ، حتى بعد سقوط غرناطة في يد الاسبان يحتفظون بدينهم الاسلامي ، وأنه كانت ماتزال ثمة بعض مساجد قائمة في بعض أنحاء ولاية سرقسطة(٤٨) .

وكانت مسألة التدجن هذه وبقاء المسلمين في البلاد التى يستولى عليها النصارى ، تثير كثيراً من المسائل الفقهية ، وكان بعض الفقهاء يرمى أولئك المدجنين بالمروق عن الاسلام لبقائهم تحت حكم النصارى . على أن هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء طوائف كبيرة من المسلمين في الاراضى التي يقتطعها النصارى تباعـا من الوطـن الاندلسي ، وكانت الاعتبارات

---

(٤٧) Dr. H. Ch. Lea : History of the Inguisition in Spain, V. 1. P. 62 — 64.

(٤٨) انظر نماذج من هذه الوثائق في : نهاية الاندلس (٤٩ ـ ٥٢) .

الدنيوية ، وظروف الاسرة ، ودواعي العيش ، تغلب على كل الاعتبارات الاخرى ، وكان تسامح النصارى في البداية وتركهم رعاياهم المسلمين ، يتمتعون بتطبيق شريعتهم وأحكام دينهم فيما بينهم كما ذكرنا ، يخفف عن أولئك المدجنين مرارة الانسلاخ عن مجتمعهم القديم والانتماء الى المجتمع النصراني • ولكن هذا الوضع أخذ يتبدل منذ اتسع نطاق التوسع النصراني في الاندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين في مختلف المناطق الاسبانية المستولى عليها ، وكانت الكنائس تبغض هذه الطوائف الاسلامية القائمة في قلب المجتمع النصراني ، وتنقم على المدجنين هذه الدعة وهذا التسامح ، وترى في احتفالهم بدينهم ولغتهم نوعا من التحدى المذموم ، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراغون تسامحهم في معاملتهم ، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقام والعنف ، ازاء أولئك الرعايا المسالمين • ومنذ أوائل القرن الثالث عشر تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين ، والحث على استرقاقهم أو تنصيرهم ، ومن ذلك ما أمر به البابا أنوسان الرابع في سنة ١٢٤٨م ، ملك أراغون خايمى الاول ، من وجوب استرقاق المسلمين في الجزائر الشرقية ، ولكن خايمى لم يأبه بذلك الامر • ولما استولى النصارى على ثغر بلنسية في سنة ١٢٣٨م ، سمح للمسلمين أن يبقوا فيه كمدجنين • وكان ملوك قشتالة وأراغون يعارضون هذه السياسة العنيفة ، لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم ، لان المدجنين كانوا بين رعاياهم أفضل العناصر وأنشطها وأكثرها دأباً ومثابرة وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الايمن في زراعة أراضيهم واستغلالها ، وكانوا يستأثرون بالتفوق في العلوم والفنون والمهن ، وكانوا أبرع الاطباء والمهندسين والبنائين ، وكان لهم الفضل الاول في ادخال محاصيل عديدة في اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والارز والحرير والتين والبرتقال

واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الرى التى أنشأوها ، ولاسيما في مناطق اسبانيا الشرقية والشمالية الشرقية ، تشهد بعبقريتهم في هذا المضمار • وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الاسبانية ،وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة،وكانت صناعاتهم ، ولاسيما المنسوجات القطنية والحريريـة ، والفخار والخـزف والجلود ، نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الاوروبية ، فلم يكن ثمة أشهر من خزف مالقة ، ولا أقمشة مرسية ، ولا حرير ألمرية وغرناطة ، ولاالاسلحـة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلدية ، وكانت بلنسية التى تضم كتلة كبيرة من المدجنين ، تعتبر من أغنى ثغور أوروبا بما تنتجه من السكر والنبيذ وغيرهما من المنتجات العديدة .• وكان المدجنون مثـال النشـاط والدأب ، يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة • ولـم يكن بينهم متسولون ، اذ كانوا يعولون فقراءهـم ، وكانوا مثلا للنظـام والسكينة ، يحسمون منازعاتهم بأنفسهم • وعلى الجملة ، فقد كانوا يؤلفون أصلح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أى البلاد[٤٩] •

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم ، ونستطيع أن نقول على ضوء الوثائق التى سبقت الاشارة اليها ، انه كانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، تعيش في أنحاء كثيرة من اسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها ، وكانت البابوية تسير على خطتها من التحريض عليهم والمطالبة بتجريدهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الاسبانيـة من جانبها هذا التحريض • ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها الا

---

(٤٩)
Dr Lea : History of the Inguistion in Spain, V. 11. P. 66 — 67.
Dr Lea : The Moriscos of Spain, P. 57.

ببطء ، ولم يتسع نطاقها الا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي عندما أشرفت الدولة الاسلامية في غرناطة على نهايتها • وكان قيام مملكة غرناطة في ذاته ، عنصراً من عناصر تكييف السياسة الاسبانية ازاء المدجنين ، ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ما كان يحدوهم من رغبة في المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بايثار الرفق في معاملة المدجنين ، كانوا أيضا يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين في غرناطة • وفيما وراء البحر في بلاد المغرب ، بل وفي الممالك الاسلامية الاخرى مثل مصر وتركيا وأرض الشام والجزيرة والعراق • على أن العوامل الاجتماعية والمحلية من جهة أخرى ، كانت تحدث أثرها في مجتمع المدجنين • ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم الى التشبه بجيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج الى فقد دينهم ولغتهم ، ومميزاتهم الجنسية والقومية ، والاندماج شيئا فشيئا في المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهكذا أضحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماؤهم يكتبون كتب الدين والشريعة بالقشتالية للرجوع اليها • وقام أيضا بين المدجنين أدب قشتالي استمر عصورا حتى بعد اخراج العرب المتنصرين من اسبانية(٥٠) على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعى تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصرانى القديم(٥١) •

كان نظائر هؤلاء الاندلسيين المدجنين ، جمهرة من النصارى الاسبان ، يعيشون في القواعد والثغور الاسلامية ويعرفون بالنصارى المعاهدين

---

(٥٠) المقصود هنا ادب الالخمارو Aljamiado ، وهو عبارة عن كتابة اللغة القشتالية المحرفة بحروف عربية مشكلة ، وكان العرب المتنصرون يضطرون الى كتابة كتبهم الدينية بهذه اللغة بعد أن حرمت عليهم لغتهم العربية •

(٥١) Dr Lea : History of the Inguisition, V. 1 P. 65.

أو المستعربين (Mozdrabes) ، وقد لبثوا عصورا يتمتعون في ظل الحكم الاسلامى بضروب الرعاية والتسامح • وكانت الحكومات الاندلسية حتى في أزهى عصورها ، تحافظ على سياسة التسامح التي اتبعت إزاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق وتحترم شعائرهم الدينية وتقاليدهم القومية ، وتتجنب أيـة محاولة لارغامهم على اعتناق الاسلام • وكان من ضروب هذه الرعاية ، أن أنشيء في ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ، ديوان خاص للنظر في شئون أهل الذمة (النصارى ويهود) يتولاه كبير من الاحبار النصارى يطلق عليه : « قومس أهل الذمة » .• وهكذا استطاعوا دائما أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ، ومميزاتهم القومية والاجتماعية • وكانت حال النصارى في ظل الحكم الاسلامى ، أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيرا ماكان يعهد اليهم بمناصب القيادة والوزارة ، أو ينتظمون في البـلاط والحرس الملكى • ومع ذلك ، فقد كانت منهم دائما طوائف متعصبة تسيء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكيد للاسلام ودولته ، ومن ذلـك ماحدث في عهد عبد الرحمن بن الحكم (أواسط القرن التاسع الميلادى) من الحوادث الدموية التى أثارها تعصب النصارى[٥٢] • وهكذا فان النصارى المعاهدين ، لم يشعروا دائما بالولاء والاخلاص للدولة الاسلامية التى يعيشون في ظلها ، والتى توليهم كثيرا من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائما يتربصون بها ، وينتهزون الفرص لمناوأتها والكيد لها ، ويستعدون عليها الوطن القديـم ، كلما اضطربت شئونها ، وعصفت بها عواصف الثورة والحـرب الاهليـة • وكانت أعظم خيانة ارتكبوهـا من هذا النوع ، في أواخر أيـام المرابطين ، حينما دعوا الفونسو الاول ملك أراغون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، الى أن يسير الى غزو الاندلس ، بعد ما لاح من انحلال سلطان

---

(٥٢) محمد عبدالله عنان ــ دولة الاسلام في الاندلس ــ ط ٢ ــ • (٢٥٣ــ٢٦١)

المرابطين فيها . واستجاب ملك أراغون لتحريضهم ، وسار مخترقاً الاندلس بجيوشه ، والنصارى والمعاهدون في كل قاعدة ينهضون الى معاونته بوسائلهم ، وذلك في سنة (٥١٩هـ ـ ١١٢٥م) ، حتى انتهى الى فحص غرناطة وحاصرها حينا ، ثم غادرها الى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم ، ولبث حينا يعبث في تلك الانحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون الى شد أزره ، ويمدونه بالاقوات والمؤن . ثم عاد ثانية الى الاندلس من أراغون ، وقد انضم الى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين . ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين الى خطر بقاء أولئك المعاهدين في الثغور والقواعد الاندلسية ، فانقلبت الحكومة الاسلامية الى مطاردتهم ، وأفتى القاضي أبو الوليد بن رشد الجد باداناتهم في نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريبهم واجلائهم عن الاندلس ، وأخذ أمير المرابطين على بن تاشفين بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين الى افريقية ، وفرقوا هناك الى أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطقس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيرا منهم الى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سببا في تمزيق عصبتهم واضعاف شوكتهم[٥٣] .

وقد كان مجتمع المستعربين أو النصارى المعاهدين ، حتى في القواعد الأندلسية التي سقطت بيد اسبانيا النصرانية ، وبسط عليها النصارى حكمهم، يتأثرون بمجتمع المدجنين وبأحواله وتقاليده ، حتى أنهم كانوا يتخذون اللغة العربية لغة التعامل ولغة التخاطب أحيانا الى جانب لسانهم القومي .

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين في القواعد الاندلسية الذاهبة ، كانت تؤثر الالتجاء الى أرض الاسلام ، والتشبث بلواء الدولة الاسلامية . وهكذا

(٥٣) انظر الاحاطة (١/١١٥ ـ ١٢٠) والحلل الموشية (٧٠ و ٨١) وتاريخ المرابطين والموحدين لاشباخ (١٥٥ و ١٥٧) .

أخذت غرناطة تموج منذ أواسط القرن السابع الهجري بسيول الوافدين عليها من بلنسية ومرسية وقرطبة واشبيلية وجيان وبياسة وغيرها ، وهكذا غـدت مملكة غرناطة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين ، بعد أن احتشدت بقايا الأمة الاندلسية المتداعية في تلك المنطقة الضيقة • ومن المرجح أن مملكة غرناطة ، كانت تضم في عصورها الاخيرة ، زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من مليون نفس •

٤ ـ التكوين العنصرى لسكان مملكة غرناطة

وكانت هذه الهجرة الغامرة من مختلف القواعد الأندلسية في الشرق والغرب ، الى ذلك الوطن الاندلسي الجديد غرناطة ، تضفي على التكويـن العنصري لسكان مملكة غرناطة طابعا خاصا ، وبالرغم من أن العناصر الاساسية التي تتكون منها الأمة الأندلسية ، هي العرب والبربر والمولدون ـ وهم أعقاب الاسبان الذين اسلموا منذ الفتح ـ لبثت على كر العصور دون تغيير ، فانـه يلاحظ أن الجموع الوافدة على المملكة الاسلامية الجديدة ، كانت تضم كثيرا من العناصر التي صقلتها حضارة أرقى ، ومن ثم فانه يمكن القول : ان الأمـة الأندلسية الجديدة ، كانت تمثل أطيب وأثمن مـابقى من القيم العنصريـة والحضارية للأندلس • وكان المولدون يمثلون في المجتمع الاندلسي الجديد مثولا قويا ، وكان أولئك المولدون قد نموا بمضي الزمن حتى غدوا عنـصرا مهما بين سكان الامة الاندلسية ، وكان العرب والبربر ينظرون اليهم بشيء من الريب ، وكانوا بالرغم من تمتعهم في ظل الحكومات الاسلامية المتعـاقبة بنفس الحقوق التي يتمتع بها باقي المسلمين ، ينزعون الى الثورة في أحيان كثيرة ، وكان لهم شأن يذكر في اضرام بعض الثورات الخطيرة التي اضطرمت ضد حكومة قرطبة ، مثل ثورة الربض ، وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام، وثورة بني قسي في الثغر الأعلى ، وقد كان جدهـم الكونـت قسي قوطيـاً

نصرانيا . وكان المولدون أعوان ابن حفصون ، أعظم وأخطر ثوار الأندلس، وهو الذي استطاع بمؤازرتهم وبمؤازرة النصارى المعاهدين ، أن يؤسس مدى حين مملكة مستقلة في منطقة رندة (أواخر القرن التاسع الميلادي) ، وكان ابن حفصون مولدا يرجع الى أصل نصراني . على أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد القادمين من افريقية ، فقد وقفوا الى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان عماد الثورة ضد المرابطين زعيم أندلسي من المولدين هو محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويرتدي الملابس الافرنجية ، ويحشد في حبيشة كثيرا من الضباط والجند النصارى(٥٤) . ولم يكن للعاطفة الدينية في تلك العصور وفي تلك الظروف دائما كبير أثر ، بل كانت تغلب في معظم الأحيان عواطف القومية والمصلحة الخاصة(٥٥) . كذلك كان بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية ، معظمهم من طائفة «السفرديم » القديمة أو اليهود الاسبان ، وكان ليهود في ظل الحكومات الاسلامية نفوذ يذكر ، وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين في مملكة غرناطة ، ولاسيما بعد أن نزح اليها على أثر سقوط القواعد الاندلسية بيد النصارى ، كثير من سادات البطون العربية القديمة ، ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الانساب العربية العريقة التي كان ينتمي اليها أهل غرناطة . ويصف ابن الخطيب الغرناطيين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، وسواد الشعر ، ونضرة اللون ، واناقة الملبس، وحسن الطاعة والاباء، يتحدثون بعربية فصيحة تغلب عليها الامالة . ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ونبل الخلال ، ولكنه ينعى عليهن المبالغة في التفنن بالزينة والتبهرج في عصره . أما الجند ، فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ، ولاسيما من قبائل زناتة

(٥٤) الاحاطة (٢/٨٧) .

(٥٥) Dr. Lea : History of the Inguisition, V. 1. P. 50.

ومغراوة وبني مرين ، ويرجع ذلك الى أن طوائف البربر التي تخلفت منـذ عهد المرابطين والموحدين بالاندلس ، كان أغلبها من الجند ، وقد بقيت عـلى عهدها تؤثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية[٥٦] .

وهكذا كان الشعب الاندلسي ، حين آذنت شمسه بالمغيب ، كما كان يوم مجده ، يتكون من هذا المزيج العربي الافريقي الاسباني الذي أطلـق عليـه الغربيون عبارة : (عرب الاندلس) أو (مسلمي الاندلس)[٥٧] .

وكانت الأمة الاندلسية ، تتمتع حتى عصورها الاخيرة بحضارة زاهرة ، كانت مثار التقدير والاعجاب في سائر الأمم الاوروبية ، وكان يحج اليها والى معاهدها ومدارسها وجامعاتها العلمية كثير من التلاميذ والطلاب من مختلـف أنحـاء أوربا .

وكان الشعب الغرناطي ، من أهل السنة ، يدين بمذهب مالك ، وهـو المذهب الذي غلب على الأمة الاندلسية منذ أواخر القرن الثـاني الهجري ، أعني منذ عصر هشام بن عبدالرحمن الداخل . ولم تتأثر غرناطة في نزعتهـا المذهبية ولاتقاليدها الدينية السمحة ، بما توالى عليها من سيادة المرابطـين والموحدين حيناً من الدهر[٥٨] .

---

(٥٦) انظر الاحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٥) ـ (١٤٠/١ ـ ١٤٥) واللمحة البدرية (٢٧ ـ ٢٨) .

(٥٧) وهي بالاسبانية (Los Moros) وبالانكليزية (The Moors) وبالفرنسية . Les Maures)

(٥٨) نهاية الاندلس (٥٢ ـ ٦٥) .

الفهرس

الصفحة





الجزءان الثالث والرابع ـ المجلد الاربعون

بغـــداد

١٤١٠هـ = ١٩٨٩م

نهاية الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع

طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية

١ ـ حرب الاسترداد ومولد مملكة غرنـاطة :

يبدأ بقيام مملكة غرناطة طور جديد من أطوار الصراع مع العـرب في الاندلس (Le Reconquista) ، وقـد بدأت إسـبانيا هذه الحرب منـذ منتصف القرن الخامس الهجري ، أي حينما تفككت الدولة الأسـلامية في الأندلس ، وانتثرت إلى عدّة دويلات صغيرة متنافسة هي دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيماً ، حتى لاح للاسبان أن عهد الدولة الاسلامية أوشك على الزوال ، وأنّ الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاسمة . وكانت مملكة قشـتالة تتزعمّ إسبانيا وتقودها في ميدان الصراع على المسلمين ، وكان ملكها الفونسو السادس يعمل بذكاء لاستغلال منافسة الدول الاسلامية وتفرّق كلمتها ، ويغلب أميراً على أمير ، حتى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحيى بن ذى النون . وذلك في صفر من سنة (٤٧٨ هـ ــ أيار ــ مايو ١٠٨٥ م) ، وكانت طليطلة أوّل قاعدة إسلاميـة عظيمة تسقط في يد الاسبان ويعتبر بعض الباحثين سقوطها ختام التفوق السياسي للمسلمين في الأندلس ، وبدأ مرحلة التفوّق السياسي لاسبانيا النصرانية . وعلى كل حال فقد كان سقوط طليطلة نذيراً خطيراً للمسلمين في الأندلس ، يذكرهم

بقوة العدو المتربّص بهم ، ويحذرهم عاقبة التنابذ والتفرّق ، فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة باخوانهم فيما وراء البحر في عدوة المغرب ، وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب ، وبدت دولتهم قويّة شامخة ، فاستجاب ملكهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس ، وكانت هزيمة إسبانيا النصرانية على يد قوّات المغرب والأندلس في معركة الزلاقة(٤٧٩هـ ـ ١٠٨٦ م) فاتحة حياة جديدة للأمة الأندلسية . ولما اضمحل سلطان المرابطين في الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاما . خلفهم الموحّدون في ملك المغرب والأندلس ، فاحرزوا على الاسبان نصراً حاسماً في معركة الأرك الشهيرة ، التي انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور ملك الموحّدين على جيوش الفونسو ملك قشتالة (٥٩٣ هـ ـ ١١٩٥ م) ، فانكمش الاسبان بعدها إلى مدى حين ، ولكنها عادت فاجتمعت كلمتها تحت لواء الفونسو ملك قشتالة ، وسارت الجيوش المتّحدة إلى لقاء المسلمين بقيادة ملك الموحّدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، فأصيب المسلمون في موقعة العقاب بهزيمة فادحة (٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢ م) وأخذ سلطان الموحّدين في الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدأ مصير الأندلس يهتزّ في يد القدر . ولم تمض مدة وجيزة أخرى ،حتى بدأت قواعد المسلمين في الأندلس تسقط تباعاً في يد الاسبان : قرطبة (٦٣٣ هـ) ، بلنسية (٦٣٦ هـ) ، شاطبة ودانية (٦٣٨ هـ) . مرسية (٦٤١ هـ). إشبيلية (٦٤٤ هـ) ، وهكذا سقطت عدة من قواعد الأندلس التالدة ، ومنها عاصمة الخلافة القديمة في يد إسبانيا النصرانية في مدة عشرة أعوام فقط . ولقيت الأندلس أعظم محنها في تلك المدة العصيبة . ولاح لاسبانيا النصرانية أنّ حرب الاسترداد القومية لن تلبث حتى تتوّج في أعوام قلائل أخرى . بالقضاء على ما بقي من تراث الاسلام في الأندلس .

ولكن شاء القدر أن تمخّض هذه المحنة التي اجتاحت الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري ، عن قيام دولة إسلامية جديدة ، هي مملكة غرناطة ، تتمتّع من صغرها بكثير من عوامل الفتوة والحيويّة . وفي الوقت الذي خيّل فيه

لاسبانيا النصرانية أنها أصبحت على وشك الاجهاز على المملكة الاسلامية ، كانت بذور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوطّد . وإذا بالنهاية المرجوّة تستحيل إلى بداية جديدة . ولغد استطالت هذه المرحلة الأخيرة في حرب الاسترداد زهاء مائتين وخمسين عاماً ، ثبتت فيه المملكة الاسلامية في غرناطة لهجمات إسبانيا النصرانية المستمرة ، وعملت على استغلال كلّ فرصة للمطاولة والمقاومة ، وأبدت في الجهاد على صغر رقعتها وضآلة مواردها ، بسالة عجيبة . وكانت كلّما شعرت بالخطر الداهم يكاد ينقضّ عليها ويودي بحياتها ، استغاثت بجارتها المسلمة من وراء البحر ، أو عصفت باسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتفرّق ، فشغلتها عن إرهاق المملكة الاسلاميّة حيناً من الوقت ، حتى شاء القدر بعد طول الجهاد ، أن تنتهي هذه المعركة القاسية الطويلة ، إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكـة الاسلامية الصغيرة تحت ضغط القوّة القاهرة ، وأن تختتم حياتها المجيدة أبية كريمـــة .

٢ ــ طبيعة الصراع الاسلامي النصراني في الأندلس :

إستمر هذا الصراع قروناً بين الدويلات العربية ،وبين الدول الاسبانية ، وكانت العوامل القومية والدينية تمتزج بأدوار هذا الصراع في معظم أطواره ، وكانت تشتد حيناً وتخبو حيناً تبعاً لتطوّر الحوادث . ولما افتتح المسلمون إسبانيا ، وسيطرت الدولة الاسلامية على معظم أنحائها ، قامت المملكة الاسبانية النصرانية الناشئة في قاصية الشمال ، ترقب الفرص للتوطدّ والتوسّع . بيد أنها لم تجرؤ على تحدى المملكة الاسلامية والنزول إلى ميدان الحرب قبل أواخر القرن التاسع الميلادي ، ففي ذلك الوقت اضطرمت الأندلس بالفتن والثورات الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثوار ، وكانت غزوات الملوك الاسبان لاراضي الدول العربية يومئذ، غزوات عبث يغلب عليها حبّ الانتقام وجمع الغنائم والاسلاب ، ولم يكن يطبعها شيء من تلك الروح الدينية العميقة ، التي جمعت أوروبا النصرانية تحت لواء كارل مارتل لمحاربة العرب على ضفاف اللّوار ،والتي حفّزت شارلمان فيما بعد إلى عبور

جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبدالرحمن الداخل . غير أنّه لما اشتدّ ساعد الأندلس في أيام عبدالرحمن الناصر (أوائل القرن العاشر الميلادي) وظهرت المملكة الاسلامية في أوج قوّتها وظفرها. ونفذت الجيوش الاسلامية غير مرة إلى أعماق ممالك الاسبان ، وشعر الاسبان بالخطر الداهم على كيانهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ؛ واتّحدت المملكتان النصرانيتان : ليون ونافار على مقاومة الخطر الاسلامي . وكانت المعارك التي نشبت في تلك المدّة في عهد أردونيو الثاني وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحلوها من الجانبين فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ، فكانت غزوات المسلمين تحمل الجهاد ، ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة الاسبان ، وكان يرافق جنود الاسبان إلى القتال جموع غفيرة من الأحبار ورجال الدين ، يسقطون إلى جانب الفرسان في ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية الدينية تبدو كلما اشتدّ الخطر من الجنوب على إسبانيا النصرانية . ففي أواخر القرن العاشر ، في عهد الحاجب المنصور ، حينما اشتدّت وطأة الأندلس على إسبانيا النصرانية ، وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتّحدت الممالك النصرانية الثلاثة : ليون ، وقشتالة ونافار ضد المسلمين في جبهة دفاعية موحّدة وبدت كذلك موحّدة الرأي والقوى ، حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء الذي كان يهدّدها ، من جرّاء تفرّق ملوك الطوائف . وكانت معركة الزلاقة تحمل في نظر المسلمين طابع الجهاد في سبيل الله ، وتطبعها في نظر الاسبان صبغة صليبيّة واضحة ، وكانت نصراً للأندلس على إسبانيا وكذلك كان نصر المسلمين أيام الموحّدين في موقعه الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك في موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا المعنى الدينيّ العميق . ويجب أن نذكر أنّ الحروب الصليبيّة بدأت في المشرق بعد معركة الزلاقة بقليل ، واستمرّت تضطرم ايضاً في مصر والشّام

زهاء قرنين . وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي معاصر السلطان يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك . ولم يكن شك في أنّ النزعة الصليبية التي دفعت بجحافل الغرب إلى الشرق الاسلامي ، كانت تحـدث صـداها قوياً في إسبانيا وفي الغـرب الاسـلامي . وفي الوقت الـذي كانت فيـه جيـوش الصليبيين تحـاول أن تغـزو مصـر في المشرق أوائل القرن السابع الهجري ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط في أيدي الاسبـان ، وكانت إسبـانيا تبـدو يومئذٍ إزاء الأندلس موحّـدة الرأي والقوى ، كما كانت الجيوش الصليبية الأوروبية تسير إلى الشرق متحدة لتحقيق الغرض المنشود .

وقد ظهر صدى النزعة الصليبية في إسبانيا على شكل آخر ، هو قيام الجماعات الدينية المحاربة ونعرف أنّ جماعات الفرسان الدينيّة قامت في الشرق في ظلّ الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداويّة » ، كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية ، وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشدّ أزر الأمراء النصارى وتؤدى للصليبيين أثناء السلم والحرب خدمات جليلة . كما أنّ قيامها في المشرق كان أثراً من آثار المعـارك الصليبية ، فكذلك قيامها في إسـبانيا كان أثراً من أثار الصراع بين النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، ذلك أنّ بعض الفرسان والرهبان الورعين المتحمسين ، كان يحزنهم تفرّق الصليبيين وتخاذلهم أحياناً في مقاتلة المسلمين وكانوا يرون أنّه لابدّ من قيام جماعات غيورة مخلصة من الفرسان ، تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضي النصرانيّة . وكانت قدوتهم في ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التي ترابط عنـد حدود الأراضي الاسلامية ، تبـدى في القتـال بسـالة منقطعة النظير ، وتؤدى للجيوش الاسلامية أجلّ الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد (الداوية) في بيت المقدس سنة (١١١٩ م) عقب قيام المملكة اللاتينية

بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم في إسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل ، حتى قامت أول جمعية دينية محاربة في أراغون على عهد الفونسو المحارب ، في صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدى الفونسو في تأييدها حماسة ، وانتظم في سلكها الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراضي شاسعة عن حدود أراغون ، كما احتلت عدداً من الحصون في قشتالة ونمت بسرعة، وأخذت تضطلع في ذلك الحين بدور مهم في سائر المواقع التي تنشب بين العرب والاسبان .

وقامت في قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ففي أواخر عصر القيصر الفونسو ريموند يس (١) ملك قشتالة، قامت حوالي سنة (١١٥٠م) جمعية فرسان دينيّة قوية في بعض أديار منطقة شلمنقة ، وسمّيت بجمعية القديس يليان ، ثمّ سمّيت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة . وفي وفي سنة (١١٥٨ م) قامت جمعية دينية محاربة أخرى ، ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التي ظهرت في إسبانيا في هذا العصر ، وهي جمعية فرسان قلعة رباح » ، ونشأت لأول أمرها على يدجماعة من الرهبان الذين أبلوا في الدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين، واتخذت قلعة رباح مركزاً لها، وقامت أيضاً في البرتغال عدّة فروع لفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الأسبتارية .) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولا سيّما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح في كثير من المعارك التي نشبت في تلك العصور بين المسلمين والنصارى . وكان تدخلهم في كثير من الأحيان من عوامل النصر والانقاذ للجيوش النصرانية . بيد أنّهم بالرغم من صفتهم الدينية والصليبية ، كانت تحدوهم بواعث وأطماع دنيويّة . وكان ظمأ الكسب واجتناء المغانم روحهم المسيِّرة . وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراضٍ واسعة ، ويعيشون في بذخ وترف . بما يحصلون عليه من الاقطاعات والهبات والنذور الوفيرة ،

(١) Alfonso Raimundez ، وتعرفه الرواية الاسلامية باسم أدفنش ابن رمند أو السليطين .

وكان تدخلهم في شئون السياسة والعرش يشتدّ أحياناً ويفضي إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت إسبــانيا حين بدأت حــرب الاستــرداد الحقيقــة في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي ، عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة ، على أنه يمكن القول إنّ ظهــور هــذه النزعة الدينية العميقة في حروب الاسبــان على المسلمين ، لم يكن ملحوظاً بصورة واضحة حينما كان التفوّق في القوة للأندلس المسلمة أيام الدولة الأمويّة ، وحينما كان ثمــة نوع من التوازن في القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس المسلمة وإسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين ، وتدل حوادث التاريخ الأندلسى حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، على التعصّب القومي والديني لم يكن دائماً ظاهرة بارزة بين النصارى والمسلمين ، فقد كان الفريقـان المتحاربان يحترم بعضهم بعضاً ،وكان التعصّب الديني قاصراً على جماعات القساوسة والأحبار ،لأنّ المسلمين كانوا متسامحين للغاية مع المسيحيين ، حتى وصف المسلمون بالأناشيد الأسبانية القديمة بأنّهم خصوم شرفاء ، ولا يشعر النصارى نحوهم ببعض ، لأنهم وجدوهم أفضل معاملةً من القوط وأعدل حكماً وأكثر تسامحاً وأقل ضرائب مفروضة على النصارى ، يقول دوزى : « إنّ الفارس الاسباني في العصور الوسطى ، لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيد » يحارب لكسب عيشه سواء في ظلّ أمير مسلم أو أمير نصرانيّ . ولقــد كان السيد نفسه أقرب إلى روح المســلم منه الى الكاثوليكي » (٢) وفي حياة « السيد » الكمبيادور (الكنبيطور) (٣) نفسه

Dozy : Recherches sur L'Histoire et Littérature de L'Espage Pendant le moyenâge ; V. 11. P. 203 & 233.

(٣) وبالاسبانية (El Cidcampeador) ومعناها : السيد الباسل جدا .

أوضح مثل لاتّجاهات الفروسية الاسبانية في تلك العصور ، فقد نشأ « السيد » وظهر في كنف أمير مسلم ، وتقلّب في خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء ، بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو في خدمة الجانب النصراني ، لما حفلت به الأساطير الاسبانية ، ورفعته إلى مرتبة البطل القومي(٤) . وفي أحيانٍ كثيرة ، نرى المرتزقة من الفرسان والجند النصارى يعملون في الجيوش الاسلاميّة . وفي مواطن عديدة من تاريخ إسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء الاسبان خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين ، فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردونيو بالملك دونه ، ولجأ الفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون أمير طليطلة حينما تغلّب عليه أخوه سانشو الثاني وعاش في بلاطه حتى توفى أخوه ، فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفي سنة ٩٩٠ م قدّم برمودد (برمند » الثاني أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم. ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصارى أمراً نادرا ، وربما كان تاريخ بلنسية

(٤) يختلف التفكير الغربي في تقديره للسيد الكبيادور ومنزلته من البطولة، فيرى دوزي في كتابه : (Le Cid) نه ليس سوى جندي مغامر يجمع في شخصه من رذائه عصره أكثر مما يجمع من فضائله . ويجاريه في هذا الراي معاصره الفرنسي رينان ، ويقول : «انه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الاسطورة الى حيز التاريخ كما فقد السيد» . ولكن الاسباني منذث بيدال يخالف هذا الراي ، ويبالغ في تقديره للسيد ويقول : « ان الشعر والتاريخ يتفقان في شأنه ، وانه بالعكس لايوجد بطل ملاحم اكثر لمعانا منه في ظل التاريخ» .
وهكذا فقد داب المؤلفون الاسبان على الانحياز المطلق ، بل التعصب لكل ماهو اسباني .

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقيين المتحاربين . ولم يحجم أمراء المرابطين في الأندلس حينما انهارت دولتهم في إفريقيّة وكل ّالموحّدون في انتزاع الأندلس من أيديهم ، عن الاستعانة بالفونسو ريموندیس ملك قشتالة وحليفه غرسية ملك نافار على محاربة الموحدين . ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى . حتى بعد أن بدأت مرحلة الاسترداد الأخيرة ، فقــد كان محمد بن الأحمر في بداية أمره ينضـوى كما ذكرنا تحت حماية ملك قشتالة . ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين ،حتى من ذلك الوقت الذي تضاءلت فيه المملكة الاسلامية فنرى الأنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الفونسو العاشر ، يلتجيء مع جماعة من النبلاء إلى حماية أبي يوسف المنصور ملك المغرب . ويستقرّ ضيفاً على بلاط غرناطة ، حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم (١٢١٨ م) ، وفي سنة (١٢٨٢ م) اضطر الفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش ، إلى الاستعانة بالسلطان أبي يوسف ، وأرسل إليه تاجه مقابل ما ينفقه على معاونته ، فاستجاب إليه وأمدّه بالمال والجند ، وفي سنة (١٣٣٢م) قام حاكم الفرنتيرة النصراني ضده مليكه الفونسو الحادي عشر ، وتحالف مع غرناطة وعاون بذلك في ردّ النصارى من جبل طارق ، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه . ولما نشبت الثورة ضد ولده بيدرو القاسي (دون بطره) ونزع عن عرشه ، ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونتيل الفاصلة سنة (١٣٦٧) ، كان إلى جانبه فرقة من الفرســان المسلمين ، أمدّه بها حليفه الغنيّ بالله ملك غرناطة ، وهكذا كان التعاون السياسي والحربي يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى ، حتى في تلك العصور التي مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول ، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية والدين .

وكانت العلاقات التجارية أيام السلم تجرى بانتظام . وتنظّم بمعاهدات وديّة بين الفريقين ، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدها محمد بن يوسف

ملك غرناطة مع مرتين ملك اراغون . لتنظيم العلاقات والمبادلات الحرّة ، وتنظيم التحالف السياسي بين المملكتين (٥)

ويجب ألاّ ننسى ما كان هناك من علاقات المودة والتفاهم بين جماعات الفرسان من الفريقين . وقد كانت الفروسية الاسبانية في العصور الوسطى ، تقتبس كثيراً من تقاليد الفروسية الأسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام ، وكانت مباريات الفروسية تجمع بين أنبل الفرسان من الجانبين ، وكانت كثيراً ما تعقد في العاصمة الاسلاميّة في جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف من المسلمين والنصارى ، وكانت هذه الاجتماعات المثالية التي تتسم بالبهجة والتي تجمع بين العنصرين الخصمين أبعد ما تكون عن الاعتبارات القومية والدينية ، وقد كانت غرناطة التي اشتهرت بفروسيتها النبيلة البارعة مسرحاً لكثير من هذه المباريات الشهيرة .

تلك هي الصورة المتباينة ، التي تقدمها الينا معركة السلطان والقوّة ، ومعركة الحياة والموت . و الحرية والاستعباد ، بين الأندلس المسلمة واسبانيا النصرانية ، ذلك أنّ بواعث الدين والقومية لم تكن دائماً كلّ شيء في هذا الصراع المضطرم الطويل ، ومع ذلك فقد كانت النزعة الدينية للمسلمين والصليبية للنصارى ، تبدو كلّما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد الفريقين ، أو كلّما اتخذ النزاع بين الفريقين صبغة حاسمة ، ولما شعر الاسبان أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد الأندلسية الكبيرة . وتضاؤل المملكة الاسلامية في مركز التفوّق والغلبة . لم يكن ثمة ما يدعو لأن تتخذ حرب الأسترداد التي تلت بعد ذلك بين الاسبان وبين مملكة غرناطة . ألواناً دينية أو قومية عميقة ، ذلك لأنّ معركة السلطان قد بتّ فيها نهائياً بظفر إسبانيا النصرانية . وأضحى القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكان الاسبان كلما

(٥) Lea : History of the Inqiustion ; V. 1. P. 52 — 55.

حاولت أن تعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقتها المنازعات والثورات الداخلية ، أو ردّها تدخل الدولة الاسلامية القوية فيما وراء البحر ، على أنّه ماكان يبدو تفكّك المملكة الاسلامية قوياً واضحاً ، وما كادت حرب الاسترداد تدخـــل في طورها الأخير ، حتى بدت النزعة القومية والدينية واضـــحة قوية في جهة إسبانيا النصرانية للقضاء على مملكة غرناطة ، ولما اتحدث إسبانيا النصرانية نهائياً ، وتم اندماجها في مملكة موحّدة بزواج فرديناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة اتخذت حروب غرناطة الأخيرة لوناً صليبياً عميقاً ، يذكيها ويزيد من ضرامها حماسة هذه الملكة المتعصبة . ومن حولها الأحبار المتعصبون ، وأسبغ على فرديناند لقب « الكاثوليكي » ، وعلى ايزابيلا لقب « الكاثوليكية» ، وكان أول عمل قام به الجند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة في (٢ كانون الثاني — يناير — ١٤٩٢ م) أن رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب . وأقام الرهبان القداس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة ايزابيلا وزوجها فرديناند في غرناطة ، تنويهـــا بظفرهما على الاســـلام ، وكانت سياسة الاسبـــان إزاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير في عصر فرديناند ، على مأساة النفي النهائي في عهد فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصليبية محضة يصوغها ويمليها أحبار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضائه الكنسيّ المروّع ووسائله الدموية ، وعلى الجملة ، فقد كانت جهود إسبانيا النصرانية في القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسى التعصب الدينى والقومي التي عرفها (٦) التاريخ .

وهكذا ، فحين كان المسلمون أقوياء ، شاع تسامحهم في الأندلس ليس بين المسلمين حسب ، بل بين النصارى أيضاً ، فصانوا النصارى ومعابدهم ،

---

(٦) نهاية الاندلس (٦٦ ــ ٧٥) .

وأطلقوا الحرية الدينية إطلاقاً كاملا ، وكان النصارى بينهم سعداء غاية السعادة ، في أمن واستقرار ودعة .

فلما ضعف المسلمون وأصبح النصارى أقوياء ، نصّروا المسلمين قسراً ، وقتلوا وعذّبوا وحرقوا ، وأخيراً نفوا مانبقّى من المسلمين في إسبانيا ، فلم يبق فيها مسلم واحد ، كأنهم لم يكونوا فيها قروناً ولم يعمروها .

مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر

١ - ولاية محمد الفقيه واحداث ايامه :

لما توفى محمد بن الأحمر مؤسّس مملكة غرناطة ، خلفه في الملك ولده وولىّ عهده أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف الملقّب بالفقيه لعلمه وتقواه. وكان مولده في غرناطة سنة (٦٣٣ هـ - ١٢٣٥ م) ، وهو الذي رتّب رسوم الملك للدولة النصريّة ، ووضع ألقاب خدمتها ، ونظّم دواوينها وجبايتها ، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكية . وكان يتمتّع بكثير من الخلال الحسنة ، من قوّة العزم ، وبعد الهمّة ، وسعة الأفق ، والبراعة السياسية . وكان عالماً أديباً ، يقرض الشعر ، ويؤثر مجالس العلماء والأدباء(٧) . ولأوّل عهده نشط ملك قشتالة الفونسو العاشر الى محاربة المسلمين ، وكان مثل أبيه فرديناند الثالث يرى أن دولة الاسلام في الأندلس قد دنت نهايتها ، ويتربّص الفرصة بمملكة غرناطة الفتيّة . ويحاول كأبيه القضاء عليها قبل استفحال أمرها . ولم يكن ملك غرناطة بغافل عن الخطر الذي يتهدّده في مشاريع قشتالة. وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على محالفة بني مرين

(٧) الاحاطة (٥٦٥/١) .

ملوك العُدْوَة والاستنجاد بهم كلّما لاح شبح الخطر الداهم(٨) . وكان بنومرين ، وهم الذين استولوا على ملك الموحّدين بعد ذهاب دولتهم ، يومئذ في عنفوان قوّتهم ، وكانت مملكتهم الفتية ، تشغل في نظر الأندلس ونظر الاسبان نفس الفراغ الذي تركه ذهاب دولة المرابطين ثمّ دولة الموحدين ، وكان من الطبيعيّ أن تؤدي هذه الدولة الجديدة في ميدان السياسة والحرب نحو الأندلس نفس الدور الذي أدّته المملكتان المغربيتان الذاهبتان . وبنو مرين بطن من بطون قبيلة زناتة البربريّة الشهيرة ، التي ينتمي إليها عدّة من القبائل لعبت أدواراً بارزة في تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وعبدالواد وغيرهم . ومع ذلك فانّ بني مرين يُرجعون نسبتهم إلى العرب المضرية ، وذلك بالانتساب إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار . وجدّهم الأعلى رمال بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ(٩) . وكانت القبائل المرينيّة في بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة ، تجول في هضاب المغرب وصحاريه جنوبى تونس ، وتسير نحو المغرب أيام الصيف . وفي فاتحة القرن السّابع الهجري ، نشبت الحرب بينهم وبين بني عبدالواد ، فتوغّلوا في هضاب المغرب ، ونزلوا بوادي ملوية الواقع بين المغرب والصحراء ، وأقاموا هنالك حيناً ، وكانت قوى الموحّدين قد تضعضعت منذ موقعة العِقاب(٦٠٩هـ)(١٠) ، وسرت إلى دولتهم عوامل التفكك والانحلال . ولما توفّى ملكهم الناصر ، وهو المهزوم في موقعة العقاب سنة (٦١٠ هـ) وولى بعده ولده يوسف المستنصر ، وكان فتى حدثاً ضعيف الهمّة والخلال ، فانكبّ على لهوه وساءت أمور المملكة ، وسرت إليها الفوضى . ففي تلك الآونة بدأ فيها ملك الموحّدين

(٨) الذخيرة السنية (١٦٢) وابن خلدون (/١٩١) .
(٩) الذخيرة السنية ١٠ و ١١ و ١٦) .
(١٠) الذخيرة السنية (٥٢ ـ ٥٣) والاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (٣/٢ و ٥) .

يهتز في يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا في جنباته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة سنة (٦١٣ هـ) ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضي عليهم ، فأرسل جيوشه لقتالهم ، ولكنها هزمت ، ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس ، وكان أمير بني مرين يومئذ أبو محمد عبدالحق بن خالد بن محيو ، ولكنه قتل في بعض المعارك سنة (٦١٤ هـ) ، فخلفه في الامارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يقود قومه في حرب الموحدين(١١) .

وفي سنة (٦٣٩ هـ — ١٢٤١ م) سير الرشيد ملك الموحدين جيشاً لقتال بني مرين، فهزم الموحدون هزيمة شنيعة، واستولى المرينيون على معسكرهم وتوفي الرشيد في العام التالي ، فخلفه في الملك أخوه أبو الحسن السعيد فاعتزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بني مرين ، فسير لقتالهم سنة (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) جيشاً ضخماً ، ونشبت بين الموحدين وبين بني مرين معركة هائلة ، هزم فيها بنو مرين ، وقتل أميرهم أبو معروف محمد بن عبدالحق ، وكانت ضربة شديدة هزت من عزائمهم مدى حين . وتولى إمارة بني مرين بعد مقتل أبي معروف ، أخوه أبو بكر بن عبدالحق الملقب بأبي يحيى ، وفي عهد اشتد ساعد بني مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣ هـ) ، ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد (٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م) ، وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة أعظم ضربة أصابت مملكة الموحدين ، وكان نذير الانهيار النهائي . ثم استولوا على سجلماسة ودرعة (٦٥٥ هـ) . ولما توفي أبو يحيى سنة (٦٥٦هـ) تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق من بعده رياسة بني مرين ، وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفي سنة (٦٥٧هـ) نشبت الحرب بين بني مرين وبين الأمير يغمراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط . فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفي العام التالي (٦٥٨ هـ) هاجم

---

(١١) الذخيرة السنية (٩٣ — ٩٤) .

النصارى الاسبان في سفنهم سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيراً من أهله ، فبادر أبو يوسف بانجاده ، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه . ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحِّدين وبني مرين ، ففي سنة (٦٦٧ هـ — ١٢٦٩ م) سار الواثق بالله المعروف بأبي دبوّس ملك الموحِّدين من مراكش لقتال بني مرين ، والتقى الجمعان في وادي (غفّو) بين فاس ومراكش ، فهزم الموحِّدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد كبير ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومؤنهم وخزائنهم . ثم سار إلى مراكش ، فدخلها في المحرّم سنة ٦٦٨ هـ وتسمى بأمير المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحِّـــدين في المغرب كما انتهت في الأندلس أيضاً ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلث القرن ، وقامت مكانها دولة بني مرين ، تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كلّه ، وتستقبل عهداً جديداً(١٢) .

إلى تلك الدولة الجديدة الفتيّة ، كانت تتّجه أنظار الأندلس ، كلّما لاح لها شبح الخطر الداهم ، فلعبت هذه الدولة في حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسِّس مملكة غرناطة أهمية التّحالف مع بني مرين والاستنصار بهم ، فبعث قبل وفاته بقليل — كما ذكرنا — إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقّب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجادها وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريخ ابن الأحمر في سنة (٦٧٠ هـ) يسير إلى غزو تِلِمْسان ، فلما وقف من الرسّل على حال الأندلس وما يهدّدها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل ، واتّفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد في سبيل الله . وأرسل السلطان إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح لكي يتمكّن من العبور إلى الأندلس ، فأبى .

(١٢) انظر اصل بنى سرين ونشأتهم في : الذخيرة السنية (١٠ و ١٦ و ٩٤ و ٩٩ و ١٢٣ و ١٢٤) والاستقصا (٢/١٣ — ١٤) وابن خلدون (٧/١٦٦ — ١٨٠) ، وانظر نهاية الاندلس (٨٦ — ٨٨) .

واقتتل الفريقان على مقربة من وَجْدة في شهر رجب سنة (٦٧٠ هـ — ١٢٧٢م) فهزم يغمراسن وفرّ جريحاً(١٣) . وعاد أبو يوسف إلى المغرب مظفّراً ، وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وانجادها .

على أنّه مضى أكثر من عامين قبل أن تسنح له الفرصة المرجوّة ، فلما توّلى محمد الفقيه الملك ، أرسل عقب ولايته بقليل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك المغرب ورسالة استغاثة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة وتكالب العدو القوى عليها . واستصرخوه الغوث والجهاد (١٤) . وتتابعت رسل ابن الأحمر وبني أشقيلولة إلى السلطان أبي يوسف ينوّهون بالخطر الداهم الذي يهدّد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالاسعاف والامداد ، فاستجاب السلطان أخيراً لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب له عن عزمه على الجواز إلى الأندلس في فاتحة سنة أربع وسبعين وستمائة . الهجرية (١٥) . وخرج السلطان من فاس في رمضان سنة (٦٧٣ هـ) للجهاد في ميدان الأندلس . وأرسل للمرة الثانية إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان ، يعرض عليه الصلح توحيداً للكلمة وتعضيداً للجهاد . فقبل يغمراسن وتمّ الصلح . وبادر السلطان ، فجهّز ولده أبازيان(١٦) بخمسة آلاف مقاتل . فعبر البحر من قصر المجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ، ونزل ثغر طريف في شهر ذى الحجّة سنة (٦٧٣ هـ — ١٢٧٥ م) ونفذ إلى أرض الاسبان حتى شَريش ، وعاث فيها ، وعاد مثقلاً بالسبي والغنائم . وقدّم إليه ابن هشام وزير ابن

(١٣) الذخيرة السنية (١٤٨) والاستقصا (١٦/٢) .

(١٤) انظر نص رسالة ابن الاحمر الى ابي يوسف في الذخيرة السنية (١٥٩ — ١٦١) .

(١٥) انظر نص رسالة ابى يوسف الى اب الاحمر في الذخيرة السنية (١٦٢ — ١٦٣) .

(١٦) الذخيرة السنية (١٦٤) ، ولكن ابى خلدون يقول : ان السلطان بعث الجند مع ولده منديل (١١٩/٧) ، ومنديل حفيد ابى يوسف لا ولده .

الأحمر ثغر الجزيرة ، فنزل فيه ، وجاز ابن هشام العدوة ، فلقى السلطان أبا يوسف في معسكره على مقربة من طنجة ، وكان السلطان قد أكمل أهبته ، فعبر من قصر المجاز إلى الأندلس في صفر (٦٧٤ هـ — حزيران —يوليوه— ١٢٧٥ م) في جيش كثيف من البربر ، داعياً إلى الجهاد على سنّة أسلافـه المرابطين والموحّدين . وكان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية ، لتنزل فيها جنوده ذهاباً وإياباً ، فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ، ونزل أبو يوسف بجيشه في طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشـقيلولة إلى لقائه ، واهتزّت الأندلس كلّها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الأحمر ما لبث أن غادره مغضباً لما رأى من تدخّله في شؤون الأندلس بصورة مريبة ، ذلك أنّ بني أشقيلولة أصهار بني الأحمر ، وفي مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد ابن الأحمر ، وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا لايشعرون نحو عرش غرناطة بأطماع خفيّة . وكان أبو محمد ممتنعاً بمالقة مغاضباً لملك غرناطة — كما ذكرنا — فلما عبر أبو يوسف إلى الاندلس ، سار إليه وانضوى تحت لوائه . ولم يفلح أبو يوسف في التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، وخشي ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبي يوسف ، فارتدّ إلى غرناطة حذراً متوجّساً .

ونفذ أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيرة(١٧) ، وكانت بيد النصارى ، وعاث فيها ، ثمّ توغّل غازياً ينسف الضياع والمروج ويسبي السكّان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبدة على مقربة من شرقيّ قرطبة . وعندئذ عوّل القشتاليون على لقائه دفاعاً عن أراضيهم . وخرج القشتاليون في جيش ضخم

(١٧) الفرنتـيرة : La Frontera ، هي السهل الواقع غربي مثلث اسبانيـا الجنوبي (الجزيرة) ، ويمتد من قادس جنوبا حتى طرف الفار .

تقدِّره الرواية الأسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل(١٨) وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى لارا الذي تسميه المصـــادر العربية « دونونه أو دننه أو ذنونه » . وكان أبو يوسف قد ارتدّ عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ، ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها واستعدّت للقتال . ووضع أبو يوسف الغنائم في ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أبي يعقوب على مقدمته ، وخطب جنده وحثّهم على الجهاد والموت في سبيل الله. ثمّ تقدّم لملاقاة القشتاليين . ويعضده بعض قوّات الأندلس برئاسة بني أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين القشتاليين على مقربة من إستجة جنوب غرب قرطبة في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة (٦٧٤ هـ ــ ٩ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٢٧٥ م) فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة . هزم القشتاليون على أثرها هزيمة شنيعة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدّة كبيرة من جيشه(١٩) ، وكان نصراً عظيماً أعاد إلى الأذهان ذكريات معركة الزلاقة ومعركة الأرك . وكان أوّل نصر باهر يحرزه المسلمون على الاسبان منذ موقعة العقاب ، ومنذ انهيار الدولة الاسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعدها العظيمة . وتبالغ الرواية الاسلامية في تقدير خسائر اعدائهم. فتقول : إنه قتل منهم في المعركة ثمانية عشر ألفاً ، جمعت رءوسهم وأذّن عليها المؤذِّن لصلاة العصر ، هذا في حين لم يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرين رجلا(٢٠) وفقاً لقولها أيضاً .

---

(١٨) الذخيرة السنية (١٦٩ ــ ١٧٠) .

(١٩) ابن خلدون (١٩١/٧) واللمحة البدرية (٤٤) والاحاطة (٥٧٣/١) والذخيرة السنية ١٧٠ ــ ١٧٢) .

(٢٠) الذخيرة السنية (١٧٣) ، ويستغرب الاستاذ محمد عبدالله عنان من هـــذا التفاوت في الخسارة بين الطرفين ، والواقع ان المهزوم يتكبد خســـائر =

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقيل إنه بعثه بدوره إلى ملك قشتالة مضمّخاً بالطيب ، مصانعة له وتودّداً إليه .

ولبث أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسابيع ، قُسِّمت فيها الغنائم واستراحت الأجناد ثم خرج للمرة الثانية في جمادى الأولى سنة (٦٧٤ هـ)، وتوغّل غازياً في أرض قشتالة ، حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ، فأغلقت المدينة أبوابها . وعاث أبو يوسف في تلك الأنحاء ، ثمّ سار إلى شَرِيش ، فضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة ورهبانها ، وطلبوا إليه الأمان والصلح . فأجابهم إلى طلبهم ، وعاد إلى قواعده مثقلاً بالغنائم والسّبي. وقضى بضعة أسابيع في الجزيرة الخضراء ، ثمّ عبر البحر إلى المغرب في أواخر شهر رجب (٦٧٤ هـ) بعد أن قضى في الأندلس زهاء خمسة شهور .

على أنّ هذا النصر البــاهر الذي أحرزه السلطان أبو يوسف المريني على النصــارى لم يحــدث أثره المنشــود في بلاط الأندلس ، ذلك أنّ ابن الأحمر ، جنح إلى الارتياب في نيات ملك المغرب ، وبخاصة مذ أسبغ السلطان حمايته على بني أشقياولة وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف وغدر المرابطين(٢١) بهم . وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة الخضراء ، يعاتبه لتصرّفه في حقّه بقصائد مؤثِّرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها .

=

فادحة في هزيمته ، لان الفوضى والارتباك تشيع في صفوفه ، فقد يقتل الجندي صاحبه خطأ وقد تستسلم الجماعة المتهرمة لأفراد ، فيقتلون . وكانت معركة جنين سنة ١٩٤٨م بين العراقيين والصهاينة فخسر فيهــا الصهاينة الافا ، وخسر العراقيون (٢٣) شهيدا ، اســتقروا في مقبرة قباطبة بالقرب من جنين في أرض فلسطين ، وهذه حقيقة قد تكــون موضع استغراب المؤرخين بعد حين .

(٢١) ابن خلدون (١٩٨/٧) .

وفي أوائل سنة ٦٧٦ هـ ، توفي أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ، ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكماً من قبله ، فزاد ذلك في توجّس ابن الأحمر ، وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني في بعض قوّاته إلى مالقة ليحاول الاستيلاء عليها ، فلم يوفّق . ولم تمر أشـــهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة (٦٧٧ هـ) – (١٢٧٨ م)(٢٢) ونزل بمالقة ، فاحتفل به أهلها ، ثمّ توغّل بجيشه في أرض الاعداء يعيث فيها ، ومعه بنو أشقيلولة في جندهم ، حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه، ثم دعا ابن الأحمر إلى لقائه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملأ نفسه . وتبادل الملكان عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجّس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجال بخاطره أنّ التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفي أواخر سنة ٦٧٧ هـ ، استطاع ابن الأحمر أن يستولى أخيراً على مالقة ، وذلك باغراء صاحبها بالنزول عنها ، والاستعاضة بالمنكب وشلوبانية(٢٣) . ثمّ سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه على منع عبور السلطان المنصور إلى الأندلس ، ونزلت القوّات القشتالية بالفعل في الجزيرة الخضراء . وكاتب ابن الأحمر أيضاً الأمير يغمراسن ملك المغرب الأوسط ، وخصم السلطان المنصور ، يسأله العون والتحالف . وعلم المنصور بذلك ، فأراد العبور فوراً إلى الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حيناً . وفي أوائل سنة (٦٧٨ هـ) ، بعث ولده الأمير

(٢٢) انظر امثلة من القصائد في نهاية الاندلس (٩٢ – ٩٣) ، وانظر ابن خلدون (١٩٨/٧ – ٢٠٠) .

(٢٣) المنكب بالاسبانية (Almunccar) ، وشلوبانية بالاسبانية Salobrena ثغران صغيران من ثغور مملكة غرناطة القديمة ، يقـع كلاهمـا جنـوبي غرناطة على البحر الابيض المتوسط ، وتفصلهما عن بعضهما مسافة صغيرة .

أبا يعقوب إلى الأندلس في أسطول ضخم، ونشبت بينـه وبين أسطول اعدائه المرابط في بحر الزقاق معركة هائلة، هزم القشتاليون على أثرها، واستولى المسلمون على سفنهم، ونزلوا بالجزيرة الخضراء، فغادرها النصارى في الحال.

وأراد أبو يعقوب أن يتبع نصره بعقد الصلح مع ملك قشتالة، والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة، فأنكر عليه أبوه السـلطان ذلك. ثم زحف جند المغرب على ثغر مربلّة، وهو من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليه، فامتنع عليهم. وانتهز القشتاليون تلك الفرصة، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشـقيلولة، فلقيهم ابن الأحمر وردّهم على أعقابهم (٦٧٩ هـ). بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقّت، أخذ يشعر بدقّة موقفه، وخطورة القوى التي يواجهها من القشتاليين والمغاربة. ومن جهة أخرى فانّ السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرّف على مصير المسلمين، وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر في وجوب عقد المودة والتفاهم، فلقى له مثل رغبته، وبادر السلطان إلى عقد أواصر الصلح والتحالف بين المسلمين، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور، لتكون قاعدة للعبور والغزو. وصفا جوّ العلائق على أثر ذلك بين ابن الأحمر وبني مرين، وشغل السلطان المنصور حيناً بمحاربة الخارجين عليه.

ولم يمض قليل على ذلك، حتى عادت شؤون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور، وكانت شؤون الأندلس قد غدت في الواقع عنصراً بارزاً في سياسة بني مرين، وكانت مملكة غرناطة حتى في ذلك الوقت الذي انكمشت فيه الدولة الاسلامية في الأندلس، تلعب دورها في شؤون إسبانيا الخارجة عنها كلما اضطربت فيها الحوادث. ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر، اتّجه إليها اهتمام الاسبان. وكانت كلما وقعت في قشتالة حرب أهلية، لجأ هذا الفريق أو ذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بني مرين على غرار ما كان يحدث في الماضي، ومن ذلك ما حدث في سنة (٦٦٩ هـ — ١٢٧٠ م) من

خروج الأنفانت فيليب على أخيه الفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء ، والتجائهم إلى السلطان المنصور في طلب العون ، واستجابته لدعوتهم واتخاذهم غرناطة قاعدة لجهودهم . وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والاسبان ، لولا تدخّل فيولا ملكة قشتالة ، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح . وفي سنة ١٢٨٢ م (أوائل سنة ٦٨١ هـ) ثار سانشو على والده الفونسو العاشر ، وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه ، فاتّجه أبوه المخلوع إلى السلطان أبي يوسف المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفداً من الأحبار يستمدها منه الغوث والعون ضد ولده ، فاستجاب السلطان لصريخه ، وعبر البحر في قوّاته إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة (٦٨١ هـ) وهرع الفونسو إلى لقائه بالجزيرة الخضراء على مقربة من رندة مستجيراً به ملتمساً لنصرته ، وقدم إليه تاجه رهناً لمعونته ، فغزا أبو يوسف أراضي قشتالة وحاصر قرطبة ، ثمّ زحف على طليطلة وعاث في نواحيها ، ووصل في زحفه إلى حصن مجريط(٢٤). وتحاشى ابن الأحمر في البداية لقاء السلطان لفتور العلاقة بينهما ، ولتوجّسه من محالفة الفونسو . ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكب ، وهي من الثغور التي تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتدّ لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشي ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور وصفا الجوّ بينهما نوعا ما ، وعاث المنصور في أراضي قشتالة مرة أخرى ، وغصّ جيشه بالسّبي والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولّى على الجزيرة حاكما من قبله .

واستمرّت الحرب الأهلية أثناء ذلك في قشتالة بين الابن والأب . ولبث هذا النضال الدموي زهاء عامين . حتى توفي الفونسو العاشر طريداً مهزوماً في سنة (٦٨٣ هـ — ١٢٨٤ م) . فكان لوفاته وقع عميق في غرناطة والمغرب ،

(٢٤) ابن خلدون (٧/٢٠٩ — ٢١١) ونفح الطيب (٢/٥٣٩) .

وأرسل كلّ من الملكين المسلمين عزاءه فى الملك العالم المنكود ، وقد كان الفونسو عالماً مؤرخاً إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الاسلاميتين غريباً إزاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يؤازر الملك المخلوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على الفونسو العاشر ، يؤازر ولده الخارج عليه . والحقيقة أنّ ابن الأحمر ، كان يشهد تقاطر الجيوش البربريّة إلى الجزيرة الخضراء بعين الجزع ، ويتوجّس شراً من وجودهم بها . وقد كانوا يحتلّون معاقلها وثغورها ، ويظاهرون الخوارج عليه في مالقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقّع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب في شؤون الأندلس على هذا النحو ، وكان مثَلُ المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة ، تساوره دائماً ، وتذكى جزعه . على أنّ موت الفونسو العاشر ، وانتهاء الحرب الأهلية في قشتالة ، خفف من هذا التوتّر بين المملكتين ، وكان ابن الأحمر يذكر في الوقت نفسه ، عذر ملك قشتالة ، وخطر الاسبـــان على مملكته ، فيجنح بعد التأمّل إلى ايثار التفاهم مع ملك المسلمين .

وفي صفر سنة (٦٨٤هـ) عبر السلطان المنصور للمرة الرابعة إلى الأندلس ، وزحف في أراضي الاسبـــان ، وغزا مدينة شَريش ، وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعاث فيها . ثمّ زحف المنصور على قرمونة والوادي الكبير ، وخرب جنده بسائط إشبيلية ولبلة وإستجة والفرنتيرة . وسرّ ابن الأحمر لاجتياح أراضي قشتالة على هذا النحو ، وبعث إلى السلطان مدداً من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية فطاردت أساطيل العدو في بحر الزقاق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجنح إلى طلب السّلم ، وبعث إلى السلطان وفداً من الأحبار يطلب الصلح ويفوّض السلطان في اشتراط ما يراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم : مسالمة المسلمين كافةّ ، وأن يمتنع الاسبـــان عن كلّ اعتداء على الأندلس ، وعلى أراضي المسلمين ومرافقهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجّار المسلمين بدار الحرب

(بلاد الأعداء) ، وأن تنبذ قشتالة سياسة الدسّ بين الأمراء المسلمين ، فقبل القشتاليون جميع الشروط المطلوبة ، وتعهّدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان ، فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدّم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهّد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدراً من الكتب العربية التي استولى عليها الاسبان من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه ثلاثة عشر حملاً منها ، وأرسلها السلطان الى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية. واتّخذ المنصور تدابيره الأخيرة نحو شؤون الأندلس، وندب الأمير أبازيان للنظر على الثغور الأندلسية ، وأوصاه بالاّ يتدخل في شئون ابن الأحمر . وكان من آثارالتفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، أن يترك المنصور ببلاط غرناطة بعض قرابته من مشاهير الغزاة ، وعليهم رئيس من بني العلاء أقارب بني مرين يسمىّ : شيخ الغزاة ، وتولىّ بنو العلاء قيادة الجيوش الأندلسيّة عصراً . وكانت لهم في ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة(٢٤)

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجم ثم يعود إلى المغرب ، ولكن لم تمض أشهر قلائل . حتى أدركه المرض ، وتوفى بالجزيرة في المحرم سنة (٦٨٥ هـ – آذار – مارس ١٢٨٥ م) بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد في المغرب والأندلس .

وكان السلطان أبو يوسف المنصور من أعظم ملوك المغرب قاطبة ، وكان يعيد بشغفه بالجهاد وكثرة تعداد أفراد جيوشه وأهبته الحربية ذكرىأسلافه العظام من أمثال يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ، ويعقوب المنصور .

وخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشؤون الأندلس ، خبيراً بها . واستمرت علائق بني الأحمر ببني مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطّداً حينما قبل سلطان

---

(٢٤) ابن خلدون (٢٠٩/٧ – ٢١١) ونفح الطيب (٥٣٩/٢) .

المغرب أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادي آش وذلك أنّ محمداً الفقيه كان قد عيّن صهره أبا إسحق بن أبي الحسن بن أشقيلولة حاكماً على قمارش ووادي آش ، فلما توفي أبو إسحق سنة ٦٨٢ هـ استردّ ابن الأحمر قمارش وخرج عليه أبو الحسن ولد أبي إسحق في وادي آش . وتحالف أولاً مع ملك قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والقشتاليين . أعان أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب . فأغضى ابن الأحمر حيناً من تصرّفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد بينه وبين السلطان أبي يعقوب . سأله التنازل عن وادي آش ، فأجابه إلى سؤله . ورحل عنها الثائر أبو الحسن إلى المغرب ملتجئاً إلى بلاط فاس . وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلّها(٢٥) .

وفي أوائل سنة (٦٩٠ هـ – ١٢٩١ م) ، أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ، ناكثاً بعهده ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ، فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد . وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس . فبعث سانشو أسطوله إلى بحر الزقاق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة الاسطول القشتالي ، فهزم المسلمون في (آب – أغسطس – ١٢٩١م) ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه فبعث اسطولاً آخر لمقاتلة النصارى ، فانسحبت النصارى هذه المرة ، وعبر السلطان أبو يعقوب إلى الأندلس في رمضان سنة (٦٩٠ هـ) واقتحم أرض النصارى . وغزا شريش ، ووصل في زحفه حتى أسوار إشبيلية وعاث فيها ، ثمّ عاد إلى الجزيرة ، وارتدّ عائداً إلى المغرب في أوائل سنة (٦٩١ هـ) .

وتوجّس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب . فسعى إلى محالفة ابن الأحمر ، وحذّره من نيّات المغاربة . واستيلائهم على الثغور الأندلسية ، ولا سيما ثغر طريف مدخل الجزيرة . وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة . واشترط ابن الأحمر أن تسلّم إليه طريف عقب انتزاعها .

(٢٥) ابن خلدون (٢١٢/٧ – ٢١٣) .

وسيّر سانشو أسطوله إلى بحر الزقاق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد إليها . وعسكر ابن الأحمر بقواته بمالقة على مقربة منها ، يعاون القشتاليين بالأمداد والمؤن . وثبتت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنّها اضطرت في النهاية إلى التسليم للاسبان في أيلول سنة ١٢٩٢م) وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها له حسب شرطه في التعاون بين ابن الأحمر وسانشو ، فأبى سانشو وأعرض عن ابن الأحمر ، مع أنّ ابن الأحمر نزل السانشو مقابل طريف عن عدد من الحصون المهمة ، فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه في الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفي مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعي ، وسنده المخلص في ردّ عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر يخطب ودّ بني مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمّه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل ووزيره أبا عزيز الداني على رأس وفد من كبراء الأندلس، إلى السلطان أبي يعقوب في طلب المودّة، وتجديد العهد، والاعتذار عن مسلكه في شأن طريف . فأكرم السّلطان وفادتهم ، وأجابهم إلى طلب الصلح . ولما عاد الوفد إلى غرناطة سرّ ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه . واعتزم الرحله للقائه بنفسه ، وتأكيد المودّة والاعتذار ، فعبر البحر إلى العدُوة في أواخر سنة (٦٩٢ هـ - ١٢٩٢ م) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة . ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان ، ثمّ جاء السلطان بنفسه إلى طنجة . وتلقّاه بمنتهى الاكرام والحفاوة ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضي الغربية ، وعدّة حصون كانت من قبل في طاعة ملك المغرب . وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمّته ، وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السّعود ، فحاصرتها حيناً ولكنها لم تظفر بافتتاحها (٢٦) .

(٢٦) ابن خلدون (٢١٧/٧) .

وكان لمحمد الفقيه ، بالرغم من سمته العلمية ، وقائع طيبة في ميدان الجهاد ضد النصارى ، ففي المحرم من سنة (٦٩٥ هـ ـأواخر ١٢٩٥ م) على أثروفاة سانشو ملك قشتالة ، زحف بجيشه على أراضي قشتالة ، وغزا منطقة جيّان ، ونازل مدينة قيجاطة(٢٧) واستولى عليها ، وعلى عدّة من الحصون التابعة لها ، وأسكن بها المسلمين . وفي صيف سنة ٦٩٩ هـ ـ ١٢٩٩ م)غزا أراضي قشتالة مرة أخرى ، وزحف على مدينة القبذاق الواقعة جنوب غرب جيّان ، ودخل قصبتها وتملكها ، وأسكن بها المسلمين (٢٨) .

واستمرّ محمد بن محمد بن الأحمر ، أو محمد الفقيه،في حكم غرناطة أعواماً أخرى ، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بني مرين . ومما هو جدير بالذكر أنه قبيل وفاته بقليل ، عقد معاهدة صلح وتحالف مع ملك أراغون خايمي الثاني ضدّ قشتالة ، وذلك تجديداً وتعديلاً لمعاهدة صلح وتحالف سابقة مع ملك أراغون خايمي الثاني كانت قد عقدت بين الطرفين في سـنة (٦٩٥ هـ ـ ١٢٩٩ م) ، وقد نصّ في هذه المعـاهدة الجديدة على عقد صلح ثابت وصحبة ثابتة صادقة) وأن يلتزم كلّ من الفريقين عدم الاضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه ، وأن تكون أراغون معادية لأعداء غرناطة سواء من المسلمين أو قشتالة ، وأن يفتح بلد كلّ من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر مؤمنين على أنفسهم وأموالهم ، وأخيراً يتعهّد ملك غرناطة بمعاونة أراغون ضد ملك قشتالة ، وألا يعقد معه صلحاً إلاّ بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك أراغون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدّم ، كما يتعـّهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده في أرض مرسية إذا احتاج إلى هذا العون ، وألاّ يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراغون من أراضي قشتالة ، إلاّ المواضع التي

(٢٧) مدينة قيجاطة : هي بالاسبانية (Quesada) ، وتقع شمال شرقي مدينة جيان ، وجنوب شرقي مدينة ابدة . والقبذامة هي بالاسبانيـة (Alcoudete)

(٢٨) الاحاطة في أخبار غرناطة (١/٥٦٩) .

كانت لغرناطة ، فهذه تردّ إليها . وقد وقّعت هذه المعاهدة في أواخر ربيع الثاني سنة ٧٠١ هـ – ٣١ كانون الأول – ١٣٠١ م) (٢٩) . ولم يمض على عقد هذه المعاهدة نحو ثلاثة أشهر حتى توفي السلطان محمد الفقيه في شعبان سنة (٧٠١ هـ – مايس – ١٣٠٢ م) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بني الأحمر في عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى عليه من الأحداث والخطوب . وكان وزيره في آخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن ابن الحكيم اللخمي ، وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتّاب ديوانه في ديوان الأنشاء ، وكان رجلاً وافر العزم قويّ الشكيمة ، ولقب بذي الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوّة نفسه أكبر أثر في استقرار الأمور في هذا العهد (٣٠)

٢ – أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع واحداث ايامه :

وخلف محمد الفقيه ولده أبو عبدالله محمد الملقّب بالمخلوع ، وكان ضريراً ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً ، يؤثر مجالس العلماء والشعراء ويصغي إليهم ويجزل صلاتهم ، محباً للاصلاح والانشاء، وكان من بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء ، فهو الذي أمر ببنائه على أبدع طراز ، وزوده بالعُمد والنقوش والثريّات الفخمة . ولكنه لم يُحسن تدبير الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبدالله محمد بن الحكيم اللّخمي ، فاستبدّ بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ،وأخذت عوامل الانتقاض تجتمع وتبدو في الافق .

وفي عهده القصير . اضطربت علائق مملكة غرناطة وبني مرين مرة أخرى ، والواقع انه في بداية عهده حاول إحكام المودة بينه وبين بني مرين ،فأرسل وزير

---

(٢٩) انظر الوثيقة في : محفوظات التاج الارغواني ، برقم ١٤٨ .

(٣٠) يترجم له ابن الخطيب بافاضة في الاحاطة (٢٧٨/٢) وما بعدها ، وانظر سيرة السلطان محمد الفقيه في : نهاية الاندلس (٨٥ – ١٠٢)

أبيه أبا عزيز الداني ووزيره ابن الحكيم إلى سـلطان المغرب ، ليجددا عهد المودة والصداقة . فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جنود الأندلس الخبراء في منازلة الحصون. فأرسلت إليه قوة منهم أدّت مهمتها أحسن أداء. ولاح أنّ أواصر المودّة أضحت أشد ما تكون توثيقاً بين الفريقين، ولكنّ ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب ، وأن يعود الى محالفة ملك قشـتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك ، وردّ جند الأندلس (٧٠٣هـ). وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان بأن أوعز إلى عمّه وصهره الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرّض أهل سبتة في الضفة الأخرى من البحر ، على خلع طاعة السلطان. واستعدّ ابن الأحمر في الوقت نفسه لمحاربة السلطان إذا عنّ له أن يعبر إلى الأندلس. وجهّز الرئيس أبو سعيد حملة بحرية في مياه مالقة بحجّة مدافعة الاسبان ، ثمّ سيّرها فجأة إلى سبتة وذلك في (شوال سنة ٧٠٥ هـ ــ ١٣٠٦ م) وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني ، فاستولت على سبتة، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبدّ بأمرها. وأعلن انضواءها تحت لواء ابن الأحمر . وقبض على ابن العزقي حاكمها من قبل السلطان وآله، وأرسل إلى غرناطة . ووقف أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد لذلك الغدر وجداً شديداً، فبعث حملة بقيادة ولـده أبي سالم إلى سبتة، فحاصرها حيناً ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها ، فارتد أدراجه. وخرج في أثره عثمان بن أبي العلاء في جند الأندلس ، وعاث في أحواز سبتة وما جاورها (سنة ٧٠٦ هـ) .

وكان لتطوّر الحوادث على هذا النحو أسوأ الأثر في نفس السلطان أبي يعقوب ، فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة ، ولكن حدث بينما كان يجدّ في الأهبة أن أغتاله كبير الخصيان ، في مؤامرة دبّرها الخصيان للتخلّص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفى قتيلاً في ذي القعدة سنة (٧٠٦ هـ ــ

نيسان ١٣٠٧ م) ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبي ثابت وأبي سالم، هزم فيها أبو سالم وقتل. واستقر أبو ثابت على العرش .

وفي ذلك الحين ، كان عثمان بن أبي العلاء المريني يتوغّل بجنده في شمالي المغرب ، وكان هذا الجنديّ الجرىء يتّجه بأطماعه إلى عرش المغرب، ويعتمد في تحقيقه على أنّه سليل بني مرين . ولما توغل بجنده جنوباً ، دعا لنفسه بالملك . واستولى على بعض الحصون . وأيدّته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبي يعقوب حينما تصدّى لوقفه . وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداماً وتوغّلاً . واستفحل أمره ، ولاح الخطر يهدّد ملك بني مرين .

وما كاد السلطان أبو ثابت يستقرّ على عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره القضاء على تلك الحركة الخطرة . واسترداد سبتة . فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم في شهر ذي الحجة سنة (٧٠٧هـ) . ولما شعر عثمان بن أبي العلاء بوفرة قوّته وأهبته . بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه . وزحف السلطان على الحصون الخارجة عليه . فأثخن فيها واستولى عليها . ثمّ سار إلى طنجة ، وامتنع عثمان بن أبي العلاء بقوّاته في سبتة . فسار إليها السلطان ، وضرب عليها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين (تطوان) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفى في (صفر سنة ٧٠٦ هـ — حزيران ١٣٠٨ م) (٣١) .

وخلفه على ملك المغرب أخوه السلطان سليمان أبو الربيع . وارتد بالجيش إلى فاس تاركاً سبتة لمصيرها . فخرج في أثره عثمان بن أبي العلاء في قوّاته. ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان . وقتل من الأندلسيين عدد جمّ . فخشي

---

(٣١) ابن خلدون (٢٣٧/٧) .

عثمان العاقبة ، وعاد إلى الأندلس مع آله ، ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس ، واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث مهمة ؛ ذلك أنّ عوامل الانتقاض التي لبثت بضعة أعوام تعمل عملها في ظلّ محمد المخلوع ، تمخّضت في النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبّرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من كبار الدولة ، سئموا نظام الطغيان الذي فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . وأضرمت الثورة في يوم عيد الفطر سنة (٧٠٨ هـ — ١٠٣٩ م) ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمداً ، وأرغموه على التنازل عن العرش ، وتربّع أخوه نصر مكانه في الملك ، ونفي السلطان المخلوع إلى حصن المنكب حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضاً إلى غرناطة ، حيث توفي سنة (٧١٣ هـ) (٣٢) .

ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ، وبلغه أنّ أهل سبتة قد سئموا نير الأندلسيين فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ، فلما وصلت إليها ثار أهل البلد ، وطردوا جند ابن الأحمر وعماله . ودخلتها في الحال قوات المغرب واستولوا عليها . وذلك في شهر صفر سنة (٧٠٩ هـ) ، واغتبط السلطان بانتهاء هذه المغامرة التي شغلت بني مرين بضعة أعوام .

٣ ــ نصر بن محمد الفقيه وحوادث ايامه :

كان سلطان غرناطة الجديد نصر بن محمد الفقيه يوم جلوسه فتى في الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ولوعاً بالأبهة والمظاهر الملوكيّة ، وكان أديباً عالماً بارعاً في الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكيّة قيّمة ، ولكنّه لم يُحسن السيرة ، ولم يوفّق في تدبير الأمور . وسرعان ما سخط عليه الشعب

(٣٢) الاحاطة (٥٥٢/١ ــ ٥٦٤) واللمحة البدرية (٤٨ ــ ٥٤) .

كما سخط على أخيه من قبل ، فاضطربت الأحوال ، وتوالت الأزمات ، وكانت حوادث سبتة نذيراً بتفاقم التوتر بين غرناطة وفاس . ومن جهة أخرى ، فقد ساءت العلاقة بين غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال في غرناطة ، فغزوا أرض المسلمين في اوائل سنة (٧٠٩هـ) ووضع فرديناند الرابع ملك قشتالة مشروعاً جريئاً للاستيلاء على جبل طارق. وكانت الامدادات المغربية قد انقطعت منذ استولى الاسبان على طريف . وشغل بنو مرين بالحوادث والثورات الداخلية ، وساءت علائقهم ببني الأحمر . ورأى فرديناند الرابع أنّ الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطوله لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز في نفس الوقت إلى خايمي ملك أراغون أن يحاصر المرية لكي يشغل قوّات الأندلس ، فاستجاب لتحريضه ، وذلك بالرغم من معاهدة التحالف والصداقة التي كانت تربطه بسلطان غرناطة . وبدأ حصار المرية وجبل طارق في وقت واحد في أوائل سنة (٧٠٩هـ) ، وبذل الأسبان للاستيلاء على المرية جهوداً جبارة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، وحفروا في أسفل السور نفقاً واسعاً لدخولها ، فلقيهم المسلمون تحت الأرض وردّوهم بخسارة فادحة ، ونشبت بالقرب من المرية معركة بين جند الأندلس بقيادة عثمان بن أبي العلاء وجند أراغون ، فهزم الاسبان واضطروا الى رفع الحصار ، ونجت المرية من خطر السقوط (٣٣) ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ حظاً ، فقد شدّد الاسبان حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق ، فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم وسقط الثغر المنير بيد الاسبان في أواخر سنة (٧٠٩ هـ) مارس سنة ١٣١٠ م) فكان لسقوطه وقع عميق في الأندلس والمغرب معاً ،

---

(٣٣) ابن خلدون (٧/٢٤٠) واللمحة البدرية (٦٢) .

فقد كان باب الأندلس من الجنوب ، وكان صلة الوصل بين المملكتين الاسلاميتين .

وأدرك ابن الأحمر على أثر هـــذه النكبة فداحة الخطــأ الذي ارتكبه بمجافاة بنى مرين ، فبادر بأرسال رسله إلى السلطان أبي الربيع ، يبدى أسفه على ما سلف ، ويسأله الصفح والصلح ، فأجابه السلطان إلى طلبه ، ونزل ابن الأحمر للسلطان عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضيةً له وترغيباً في الجهاد ، واقترن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة ، فأرسل إليه السلطان المدد والأموال ، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها .

على أنّ هذا التحسّن في علائق المملكتين الاسلاميتين ، لم يثن الاسبان عن مشاريعهم تجاه غرناطة ذلك أنّ الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة . وكانت أحوال المغرب تحول بنى مرين وبين استئناف الجهادفي الأندلس على نطاق واسع ، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجّع الاسبان على التحرّش بها والأغارة على أراضيها . ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس الاسبان ، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذي يهدّده سوى مصانعة فرديناند الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية . وكان ذلك مما زاد في سوء سيرته وفي سخط الشعب عليه . ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت في الجنوب ، حيث أعلن الرئيس أبو سعيـــد فرج بن إسماعيل النصرى صاحب مالقة وابن عمّ السلطان ، الخروج والعصيان ، ورشّح الخوارج للملك مكان نصر ، أبا الوليد إسماعيل . وهو حفيد لاسماعيل أخى محمد بن الأحمر رأس الأسرة النصرية . ولم يمض سوى قليل ، حتى استطاع أبو سعيدوشيعته التغلّب على المرية وبلّش وغيرهما من القواعد الجنوبيّة . وفي أوائل سنة (٧١٢هـ — ١٣١٣ م) سار في قوّاته إلى غرناطة ، وهرع السلطان نصر فكانت الهزيمةعلى نصر ، فلجأ إلى غرناطة ، ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر الى التنازل عنالعرش ،

وسار بأهله إلى وادي آش، وتولى حكمها حتى توفي سنة (٧٢٢هـ-١٣٢٢م)(٣٤)

مملكة غرناطة في النصف الاول من القرن الثامن الهجري وذروة الصراع بين بني مرين واسبانيا النصرانية

١ ـ ابو الوليد اسماعيل وحوادث ايامه :

جلس السلطان أبو الوليد إسماعيل على عرش غرناطة في شوال سنة (٧١٣ هـ ـ ١٣١٤ م) ، وامتاز عهده بتوطيد الملك ، واستقرار الأمور ، وإحياء عهد الجهاد . وفي أوائل عهده غزا القشتاليون كعادتهم بسائط غرناطة ، واستولوا على عدد من القواعد والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة (٧١٦ هـ) . ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم ، اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ، ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عُدوة المغرب . ولكنّ السلطان إسماعيل بادر إلى تحصينها وجهّز الأساطيل لحمايتها من البحر . فعدل القشتاليون عن مشروعهم ، وعوّلوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والأمداد من السلطان أبي سعيد سلطان المغرب . فنكل عن معاونته ، وطالب بتسليم عثمان بن أبي العلاء لما كان منه في حقّ بني مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب . وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم يقوده الدون بيدرو (دون بطره) والدون خوان الوصيان على الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدّة من الأمراء القشتاليين . وفرقة من المتطوّعة الإنكليز بقيادة أمير إنكليزي . فبادر المسلمون إلى لقائهم في هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطي لا يتجاوز ستة أو سبعة آلاف جنديّ . منهم ألف وخمسمائة فارس . ولكنّهم صفوة المقاتلة المسلمين . وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء، جندياً جريئاً وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعوّل

(٣٤) الاحاطة (١/٣٩٣ ـ ٣٩٤) واللمحة البدرية (٥٧ـ ٦٣) ونهاية الاندلس (١٠٤ ـ ١٠٦) .

في الحال على لقائه في معركة حاسمة . وفي ٢٠ من ربيع الثاني سنة (٧١٨هـ — مايس ١٣١٨ م) التقـى فرســان المسلمين بطــلائع الاسبــان وردّوهــم بخسارة فادحة ثمّ زحف أبو سعيد في نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين معركة شرسة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فمزّقوا شرّ ممزّق ، وقتل منهم عدد جمّ بينهم دون بيدرو ودون خوان ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار ، وغرق منهم عند الفــرار في نهر شنيل عــدد كبير من جيشهــم وأسّر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتل والاسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والاسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضّة . وكان على العموم نصراً مشهوراً أعاد ذكرى الجهاد المجيد . وكان معظم الفضل في إحرازه إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بني العلاء الذين تزعّموا الجيوش الأندلسيّة ، وتولّوا قيادتها في تلك الأيام كما ذكرنا . ويعلّل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة في ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبداوة . ووضع المسلمون جثّة الدون بيدرو في تابوت من ذهب على سور الحمراء تنويهاً بالنصر وتخليداً لذكرى هذه المعركة (٣٥) .

والواقع أنّ مملكة قشتالة كانت في أوائل القرن الرابع عشر في حالة سيئة، فقد نفدت موارها من الرجال والاموال بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ، وكان إسراف البلاط ، وبذخ الخلائل واختلاس الموظفين، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ، وكانت الإدارة المالية بيد يهود ورجال الكنيسة ، وكلاهما يناوىء الآخر ، ويعمل على إحباط مساعيه ، وكانت الوصايا المتعاقبة ، وما تعمد إليه من اغتصاب الأموال وسوء استعمال السلطة وفســاد القضاء ، وتطــاول الخلائل الملكيــة ،

(٣٥) انظر تفاصيل هذه المعركة الشهيرة في : ابن خلدون (١٧٢/٤) و (٢٥٠/٧) والاحاطة (٢١٠/١) .

وسحق الحقوق العامة والخاصة ، وتفشيّ الجريمة ، تثير غضب الشعب وسخطه ، وكان اللّون الصليبي للحروب الإسبانيّة في ذلك العصر ، يوطّد نفوذ جماعة من الفرسان الدينية العديدة ، وهي التي كانت في الواقع توجّه مصائر الحرب والسياسة ، بيد أنها كانت تخفى تحت ستار الدين رذائل كثيرة من الفجور والجشع والارتشاء وغيرها (٣٦) .

وفي سنة (٧٢١ هـ - ١٣٢١ م) جدّد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك أراغون خايمي الثاني وذلك تحقيقاً لرغبته ، ونصّ المعـاهدة الجديدة على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس أرض أراغون تأميناً تاماً براً وبحراً . وأن تباح التجارة لرعايا كل من الطرفين في أرض الآخر ، وأن يتعهّد كلّ من الملكين بمعاداة مَن يعادى الآخر ، وألا يؤوي له عدواً أو يحميه ، وأن تكون سفن كليّ فريق وشواطئه ومراسيه آمنة ، وأن يسرّح كل فريق مَن يؤسر في البحر من رعايا الفريق الآخر ، وتضمّنت المعاهدة أيضاً نصاً خاصاً بتعهد ملك أراغون بألاّ يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم ، وهو نصّ يلفت النظر ، إذ كان المدجنون في هذا العصر يؤلفّون أقليات كبيرة في بلنسية ومرسية وشاطبة وغيرها من القواعد الشرقية . وكان ملوك أراغون يحرصون على بقائهم وعدم هجرتهم لأسباب اقتصادية وغيرها (٣٧) .

وعلى أثر معركة إلبيرة تعاقبت غـزوات المسلمين في أرض الاسبـان ، وعادت الدولة الاسلامية الفتية تحرز عهداً من القوة بعد أن لاح أنها فارفت طور الفناء .

ففي سنة (٧٢٤ هـ - ١٣٢٤ م) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بيّاسة

(٣٦ - ٣٧) انظر Archivo de la Corona de Aragôn, No. 151 .
Joid. 11. P. 476 — 478.

الحصينة وحاصرّها بشدّة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلّمت . وفي رجب من العام التالي (٧٢٥ هـ) سار إسماعيل إلى مرتش واستولى عليها عَنْوَة ، وكانت أعظم غزواتة ، وامتلأت أيدى المسلمين بالسّبى والغنائم ، ثمّ عاد السلطان إلى غرناطة مكلّلا بغار النصر . بيد أنه لم تمض على عودته ثلاثة أيام ، حتى قتل بباب قصره غيلة ، وكان قاتله ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ظفر بها في معركة مرتش وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد ردّه بجفاء وأنذره بمغادرة البلاط ، فتربصّ به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر ، وكان مصرعه في السادس والعشرين من رجب سنة (٧٢٥ هـ) — (تموز ١٣٢٥ م) .

وكان السلطان إسماعيل يتمتّع بخلال باهرة ، وكان يشتد في إخماد البدع وإقامة الحدود . وفي عهده حرّمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاقيّ ، وحرم جلوس الفتيات في ولائم الرجال ، وعومل يهود بشيء من الشدّة ، وألزموا أن يتخذوا لهم شعاراً بهم ، وهو عبارة عن العمائم الصفراء (٣٨) .

وكان من أوائل أعماله ، تجديد معاهدة الصداقة مع أراغون . وكان ملكها خايمى الثاني قد اوفد إليه سفيره يطلب إليه تجديد معاهدة الصلح والصداقة ، ففعل كما ذكرنا .

٢ ــ أبو عبدالله محمد بن اسماعيل وحوادث أيامه :

وخلفه ولده أبو عبد الله محمد ، وهو فتى يافع لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمّه نصرانية تدعى علوة ، وأخذله البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود . وقام بكفالته بضعة أشهر حتى توفى ، ثمّ خلفه في الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد بن المحروق ، فاستبدّ بالأمور واستأثر بكلّ سلطة ،

(٣٨) الاحاطة (١/٣٩٥ ــ ٤٠١) واللمحة البدرية (٧١ ــ ٧٤) .

فحقد عليه السلطان الفتى ، وكان رغم حداثته مقداماً قويّ النفس، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلِّب عليه . فقتل بأمره في المحرّم سنة (٧٢٩ هـ) .

وكان من أوائل أعماله تجديد معاهدة الصداقة مع أراغون ، وكان ملكها خايمي الثاني قد أوفد إليه سفيره يطلب إليه تجديد معاهدة الصلح والصداقة التي عقدت بينه وبين أبيه وانقضى أجلها المحدّد بانقضاء أعوامها الخمسة ، فوافق السلطان على تجديدها بسائر نصوصها وشروطها . ووقّعت المعاهدة الجديدة في جمادى الثانية سنة (٧٢٦ هـ — مايس ١٣٢٦ م) (٣٩) .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة وعلى رأسهم عثمان بن أبي العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولا سيما المرية ، وانضمّ إليهم عمّ السلطان محمد بن فرج بن إسماعيل . فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدّة معارك محلية كان النصر بينهما سجالاً فيها . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك الفرصة ، فأثخنوا في الأراضي الاسلامية واستولوا على ثغر بيرة وعدّة من الحصون(٤٠) ولما تفاقم عبث القشتاليين آثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه . وعقدت بينهما الهدنة على أن يستقروا بوادي آش باسمه وتحت طاعته. وتولى تدبير الأمور بعد مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو نعيم رضوان النصري ، فهدأت الفتنة واستقرّت الأمور نوعا ما . ولكن ابن الأحمر كان يتوجّس شراً من اضطراب الأحوال في مملكته . ومن تربّص النصارى بها . ورأى أن يتّجه بصريخه إلى بني مرين مرة أخرى . وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا بشئونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢هـ) . فلما اشتدّت وطأة النصارى على غرناطة . عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب السلطان أبي سعيد (سنة ٧٢٩ هـ) لتكون رهينة

---

(٣٩) Archive de la Corona de Argôn, No. 148.

(٤٠) الاحاطة (٥٤٤/١) ، وبيره بلدة حصينة تقع في شمال شرقي ولاية المرية على مقربة من البحر .

ومنزلاً للأمداد المرجوّة من وراد البحر ، ولكنّ النصارى استولوا على معظم حصونه وأضحى طريق الجواز ولا سيما بعد ضياع جبل طارق عسيراً محفوفا بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر في أواخر سنة (٧٣٢ هـ) إلى عاوة المغرب ، وقصدالى فاس مستنجداً بملك المغرب السلطان أبي الحسن على بن أبي يعقوب المريني ، فاستقبله السلطان بمنتهى الحفاوة ،وشرح ابن الأحمر ما انتهت إليه شئون الأندلس. وما ترتّب على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين ، ورجاه الغوث والعون .

والواقع انّ استيلاء الاسبان على جبل طارق في سنة (٧٠٩ هـ — ١٣١٠م) كان أعظم نكبة منيت بها الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى ، وقد شعرت مملكة غرناطة بفداحة النكبة ، وازداد منذ وقوعها توجّسها من المستقبل . وكان المسلمون قد جدّدوا تحصناتهم في منتصف القرن السادس الهجري حينما عبر إليها خليفة الموحّدين عبد المؤمن بن علي ، وأسماها جبل الفتح ، وأمر بتجديد حصنها الذي مايزال قائما حتى اليوم فوق الصخرة من ناحيتها الشمالية . وكان سلطان غرناطة يتوق إلى استرداد هذا المعقل المنيع درع مملكته من الجنوب ، وكان فوق اضطرامه بعاطفة الجهـــاد يرى خطر إسبانيا النصرانية يلوح داهماً ليس على الأندلس فقط ، بل على المغرب أيضاً . ذلك لأنّ المغرب أخذت تبدو من ذلك الحين جناح المغرب وخطّه الدفاعّي الأول من الشمالى ، ولا بد من تأمين هذا الخط والسّهر على سلامته ، وذلك بدعم قوّة الأندلس وتأييدها ، وردّ خطر الإسبان عنها . ومن ثم فقد استجاب أبو الحسن لدعوة ابن الأحمر ، وبعث معه الأمداد بقيادة ولده أبي مالك ، لمنازلة جبل طارق وافتتاحها . وتلاحقت على أثرهم السفن تحمل المدد والعدد والمؤن ، وحشد ابن الأحمر قوّاته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها ، وطوّق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب في بحر الزقاق ليحول دون وصول الأمداد إلى الاسبان ، وهرع ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر في قوّة من الفرسان لانجاد الحامية المحصورة ، فبادر

ابن الأحمر الى مهاجمة الاسبان وهزمهم أمام جبل طارق تجاه البرزخ الاسباني . وكان أكبر الفضل في احراز هذا النّصر راجع إلى همّة الحاجب رضوان النصرى وإقدامه وبراعته . ثمّ شدّد المسلمون الحصار على الثغر . وقطعوا كلّ صلاته من البرّ والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حالة الحامية الاسبانية واضطرت الى التسليم قبل مقدم الجيش القشتالى وبذلك استعاد المسلمون الثغر المنيع في أواخر سنة (٧٣٣ هـ - ١٣٣٣ م) بعد أن لبث في حوزة الاسبان أربعة وعشرين عاما ، وكان أكبر الفضل في في استرداده راجعاً إلى معاونة السلطان أبي الحسن في البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى في الميدان وجهاً لوجه ، ورأى ملك قشتالة . أنّه لا أمل في كسب معركة انتهت بظفر المسلمين ، آثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين (٤١). واعتزم السلطان محمد بن إسماعيل ابن الأحمر العودة بجنده إلى غرناطة ولكنه ما كاد يغادر جبل طارق في اليوم التالى عائداً إلى عاصمة ملكه حتى اغتاله في الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بنى أبي العلاء (ذى الحجة سنة ٧٣٣ هـ). وكان أولئك القادة المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمرهم في الدولة ، وأخذوا ينازعون السلطان في أمر تصرفاته . وبدأ ابن الأحمر يتبرّم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينما عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه في شأنهم وسبيل الخلاص منهم. واستراب بنو العلاء منه . وتوجّسوا شراً. فائتمروا منه للتخلّص منه قبل أن يبطش بهم . ولحق به المتآمرون حين عوده واغتالوه طعناً بالرماح ، وتركت جثته في العراء حيناً حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها(٤٢)

---

(٤١) الاحاطة (١/٥٤٠ - ٥٥٢) واللمحة البدرية (٧٧ - ٨٢) وابن خلدون (٧/٢٥٥) .

(٤٢) ابن خلدون (٧/٢٦٣ - ٢٦٤) .

٣ ـ ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد واحداث ايامه :

وولى العرش بعده أخوه أبو الحجّاج يوسف بن أبي الوليد، وهو فتى في السادسة عشرة من عمره، وكان من أعظم ملوك بني نصر وأبعدهم همّة وأرفعهم خلالا . وكان عالماً شاعراً يحمي الآداب والفنون، وهو الذي أضاف الى قصر الحمراء أعظم منشآته وأروعها . وما كاد يتبوّأ العرش حتى عنى بتتبّع بني أبي العلاء قتلة أخيه، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم . وكان ذلك في الوقت نفسه تحقيقاً لرغبة السلطان أبي الحسن ثمّ نفاهم في السفن إلى تونس ، وانتهت بذلك رياستهم بالأندلس ، بعد أن طالت زهاء نصف قرن . ولما نزلوا على سلطان تونس أبي يحيى ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم ، فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفاعنهم أبو الحسن ، وأكرم مثواهم مدى حين ، ولكنه عاد وقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم السجن (٤٣) .

وقام بتدبير الأمور للسلطان أبي الحجّاج وزير أخيه الحاجب أبو النّعيم رضوان . وكان هو الوزير القويّ الذي أدى في تاريخ غرناطة دوراً مهما ، أصله نصرانيّ قشتاليّ أو قطلونيّ ، وسبي طفلاً في بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ في بلاط السلطان أبي الوليد إسماعيل (٤٤) وظهرت نجابته وصفاته الممتازة فعهد إليه بتربية ولده أبي عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه . تولى وزارته الحاجب رضوان ، فأظهر في تدبير الشئون كفاية متميّزة . وقاد بعض الغزوات الناجحة إلى أرض الاسبان ، فغزا في سنة (٧٣٢ هـ) أراضي قشتالة شرقاً حتى لورقة ومرسية وعاث فيها . وفي العام التالي غزا مدينة باغة واستولى عليها(٤٥) ولما تولى الملك السلطان يوسف ،

(٤٣) ابن خلدون (/٢٦٤) .
(٤٤) الاحاطة (١/٥١٥) .
(٤٥) الاحاطة (١/٥٤٨ ـ ٥٤٩) .

وقع الاجماع على اختياره للوزارة ، واستقرّت الأمور في عهده وساد الأمن والرخاء . وينوّه ابن الخطيب – وهو معاصر للحاجب وصديقه ، بصفاته ومواهبه ويسميه : « حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها » . وكان من أعظم مآثره إنشاء مدرسة غرناطة الشهيرة ، فأقام لها صرحاً فخماً . ووقف عليها أوقافاً جليلة ، وغدت غير بعيد من أعظم مناهل العلم في الأندلس والمغرب . وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأنشأ عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية ، وأصلح كثيراً من الحصون الداخلية ، ولكنه كسائر المتغلبين على السلطان ، استبدّ بالأمر واستـأثر بكلّ سلطة . فلما شعر السلطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعايات في حقّه . نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى المرية ، وذلك في رجب سنة (٧٤٠هـ) . ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر ، حينما شعر بالفراغ الذي أحدثه تنحيه عن تدبير الشئون فاستمرّ في منصبه حتى نهاية عهده (٤٦) .

وكان من بين وزراء السلطان يوسف . الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب . وقد تغلّب في ديوان الانشاء حتى ظفر برئاسته . وكان من زملائه وأعوانه في ديوان الانشاء عبدالله بن الخطيب والد لسان الدين ، ولما توفى عبد الله خلفه في خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الجياب . فلما توفى ابن الجياب سنة (٧٤٩ هـ) في الوباء الكبير ، خلفه في الوزارة . وبزغ نجم مجده من ذلك الحين .

وفي عهد السلطان يوسف . كثرت غزوات الاسبـان لأراضي المسلمين ، وكان الفونسو الحادي عشر تحلوه نحو المملكة الاسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف باشتداد وطأة القشتاليين . وضعف وسائله في الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبي الحسن علي بن عثمان ملك المغرب . فأرسل الأمداد للمرة

(٤٦) الاحاطة (٥١٨/١) وما بعدها .

الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبي مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهـاد ، وتوجس الاسبـان من مقـدم الجيوش المغربية شـراً ، واعتزموا أن تواجه الغزوة في قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراغون والبرتغال إلى مياه جبل طارق بقيادة الدون جوفرى تتوريو ، ليمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحملة ، وسارت قوى إسبانيا المتحدة للقاء المسلمين واجتاح أبو مالك بجاية (٤٧) وحصل على غنائم لاتحصى في زحفه على أرض النصارى وهنا فاجأه الاسبان قبل أن يستطيع الانسحاب إلى إلى أراضي المسلمين . فنشبت بين الطرفين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة . وقتل أبو مالك ، وكان ذلك في أواسط سنة (٧٤٠ هـ — ١٣٣٩م)

وعندئذ عوّل السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجتهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب مائة وأربعين سفينة ، منها عدد كبير من السّفن الحربية ، وجاز السلطـان البحـر إلى الأندلس في أوائل المحـرم سنـة (٧٤١ — حزيران ١٣٤٠ م) ونزل بسهل طريف . ولحق به السلطان يوسف في قوّات الأندلس ، وكانت القوّات الاسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء . ورابط الأسطول الاسباني في بحر الزقاق بين المغرب والأندلس ، ليمنع الأمداد والمؤن . وضرب الاسبان الحصار حول ثغر طريف . وتغلّبوا على حاميته ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين . فشحّت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم وكان الجيش الاسلامي يرابط يومئذ في السهل الواقع شمال غربيّ طريف على مقربة من نهـر سالادو الصغير الذي يصب في المحيط الأطلسي عنـد بلدة كونيل التي تبعـد قليلاً عن رأس طـرف الغـار . وفي يـوم (٣٠ تشـرين الأول

(٤٧) وهي بالاسبانية (Pechina)

١٣٤٠ – جمـادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس . ويقال إنّ الأندلسيين كانت لديهم في تلك المعركة آلات تشبه المدافع ، وهي الآلات التي تطوّرت فيما بعد ، وكانت تسمّى : « الأنفاط » . وتقدم الفونسو الحادي عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة فصُدّ في البداية بقوّة . واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال ، ولكن حدث عندئذ أن تسللت حامية طريف من الجنوب ، وانقضّت على الجيش الاسلامي ، فدبّ الخلل إلى صفوفه ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جمّ ، وسقط معسكر سلطان المغرب في يد الاسبان وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعاً على الأثر بوحشية مروّعة ، وانتثرت قوّات المسلمين وبدّدت ، وفرّ السلطان أبو الحسن . واستطاع ان يعبر الى المغرب مع فلّه ، وارتد السلطان يوسف الى غرناطة . وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب ، وكان لها أعمق وقع في المغرب والأندلس (٤٨) .

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين ، فغزا قلعة بني سعيد وقلعة يحصب من أحواز غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير (٧٤٢هـ) (٣) وكان ملك المغرب في أثنـاء ذلك يضطرم ظمأً للانتقام ، ويحشد قوّاته من جديد . ولما كملت أهبته أرسل أساطيله إلى بحر الزقاق ، وسار بالجيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بارسال أسطوله القاء المسلمين . ونشبت بين الطرفين معركة بحرية هزم فيها المسلمون . ومزّق أسطولهم (٧٤٣هـ – ١٣٤٢م) . وحاصر الاسبان ثغر الجزيرة الخضراء وسار السلطان يوسف في جيشه لانجاد الثغر المحصور ، وكان جيشه مجهزاً بالآلات القاذفة الجديدة التي تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم . وبذلك أضحى الثغران الجنوبيان

(٤٨) انظر ابن خلدون (٧/٢٦١ – ٢٦٢) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٢/٦٥ – ٦٦) واللمحة البدرية (٩٢ – ٩٣) .

المشرفان على مضيق جبل طارق وهما الجزيرة وطريف في أيدى النصارى ، ولم يبق في يد المسلمين سوى جبل طارق يؤدى مهمة الوصل بين المغرب والأندلس.

ولم يخل عصر السلطان أبي الحجّاج يوسف من عقد العلائق السياسية مع الدول الاسبانية ، وكان عقدها بالأخص مع مملكة أراغون التي كانت أقرب إلى مملكة غرناطة من زميلتها مملكة قشتالة ، ففي سنة (٧٣٥هـ – ١٣٣٥م) أرسل السلطان سفيره القائد أبا الحسن بن كماشة إلى الفونسو الرابع ملك أراغون ليطالب تجديد معاهدة الصلح المعقودة بين المملكتين ، فأجابه إلى ذلك ، وجدّدت المعاهدة .

وفي أواخر سنة (٧٤٥ هـ – ١٣٩٥ م) عقد السلطان يوسف مع بيدرو الرابع ملك أراغون معاهـــدة صلح ومهادنة جديدة . في البر والبحر لمدة عشرة أعوام على يد سفيره القائد المذكور . وطلب من السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب أن يوافق على هذا الصلح ، فوافق عليه ، وأبرمه من جانبه بنفس الشروط ولنفس المدة التي يسرى فيها ، وذلك حسبما يدل عليه عهد الموافقة الذي أصدره بتاريخ صفر سنة (٧٤٦ هـ – حزيران ١٣٩٥ م) (٤٩) .

وهنا طافت بالأندلس وإسبانيا تلك النكبة المروّعة التي عصفت بالمشرق والمغرب معاً ، ونعني بذلك الوباء الكبير الذي اجتاح سائر الأمم الاسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط في سنة (٧٤٩ هـ – ٧٥٠ هـ – ١٣٤٨ م) وكان بعد ظهوره على ما يرجّح في إيطاليا في ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيراً من سكانها ، وفي مقدمتهم عدة من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا ابن الخطيب تلك المحنة التي كان معاصراً لها وشاهد عيان لروعها وفتكها في رسالة عنوانها : « مقنعة السائل عن المرض الهائل » ، وكذلك وصف لنا عصف الوباء بثغر المرية شاعر المرية الكبير ابن خاتمة في

(٤٩) نهاية الأندلس (١٢٢) .

رسالة عنوانها : « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد »(٥٠) .

ولبث ملك قشتالة أعواماً أخرى على خطته في إرهاق المملكة الاسلامية والعبث فيها . والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم . وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية . وما شجر بينهم من خلاف . وفي سنة (٧٥٠ هـ — ١٣٤٩ م) غزا الاسبان سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمي بهذه الغزوة إلى غاية هامة هي الاستيلاء على جبل طارق. وكان هذا الثغر ما يزال منذ عصور أمنع ثغور المسلمين وأشدّها مراسا . فلما رأى الاسبان استحالة أخذه عنوة ، ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قويّة ، ورابط ملك غرناطة بجيشه في مؤخرة الاسبان ، واستمرّ حصار جبل طارق زهاء عام كامل ، والمسلمون ثابتون كالصخرة التي يدافعون عنها . وقد عيل صبر الغزاة ودبّ الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء في الجيش الاسباني . وهلك ملك قشتالة في مقدمة مَنْ هلك من جنده ، فكان ذلك نذيراً بخلاص الثغر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر الاسبان إلى رفع الحصار (٧٥١ هـ — ١٣٥٠ م) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروباً مؤثرة من تسامح الفروسية ، فتركوا موكب الملك المتوفى يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرّض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريماً . وخلف الفونسو على العرش في الحال ولده بيدرو (بطره) الملقب بالقاسي(٥١) .

واستمرّ أبو الحجّاج يوسف في الحكم بضعة أعوام أخرى . ساد فيها السلام والأمن . ولكنه ما لبث أن قُتل غيلة أثناء صلاته في المسجد الأعظم

(٥٠) توجد هاتان الرسالتان ضمن مجموعة خطية تحفظ بمكتبة الاسكوريال برقم ١٧٨٥ . وقد نشرت رسالة ابن الخطيب مع ترجمتها الالمانية في مجلة أكاديمية العلوم البافارية (سنة ١٨٦٣ م) .

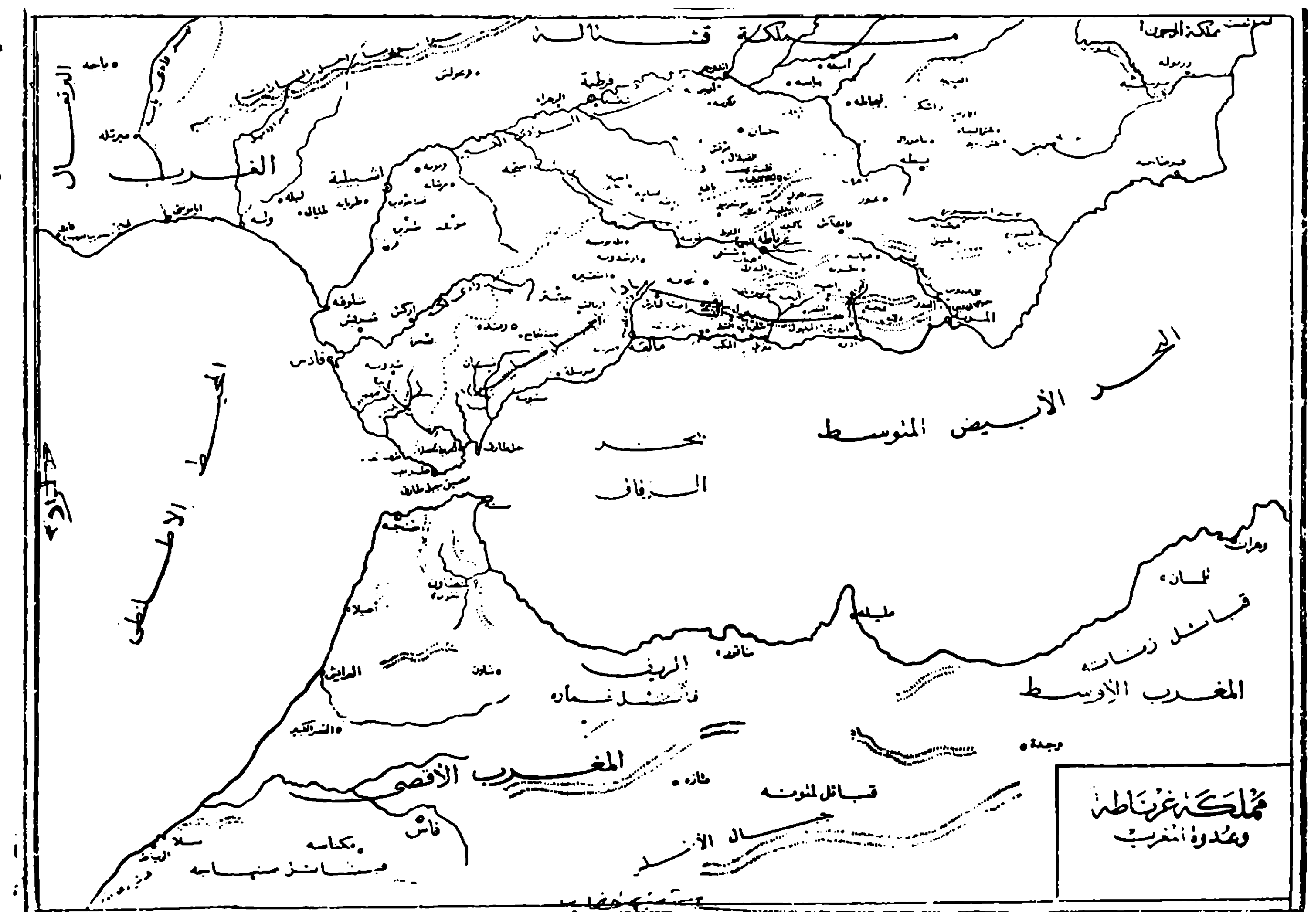
(٥١) ابن خلدون (١٨٣/٤) .

في يــوم عيــد الفطــر سنــة (٧٥٥ هـ – تشــرين الأول ١٢٥٤ م) قتله مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فمزّق وأُحرق بالنار على الأثر(٥٢) . وكان مقتله وهو في السابعة والثلاثين في عنفوان فتوّته ومجده ، ودفن السلطان الشهيد في مقبرة الحمراء إلى جانب آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة . وكان السلطان يوسف أعظم ملوك غرناطة همّة وعزماً ، وأبدعهم خلالا ، وكان فوق فروسيته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة، وهو الذي شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها، وهو الذي أسبغ على هذا الصرح العظيم بمنشآته وزخارفه ، بهاءه وروعته التي ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفي عصره زهت العلوم والآداب ، وذاعت شهرة العلماء المسلمين ، ولا سيما في الفلك والكيمياء .

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بني مرين مواقف متناقضة، ويتردّد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجّس ، وليس من شكّ في أنّ بني مرين كانوا عضداً قيّماً لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدّوا لها في ميدان الجهاد وفي مقاتلة الاسبان خدمات جليلة . وبذلوا في ذلك السبيل تضحيات جسّة ، وأعادوا بانتصارهم على الاسبان في غير موقعة حاسمة ، ذكريات الزلاقة والأرك ، ولولا غوث بني مرين ، واشتغال مملكة قشتالة بحوادثها الداخلية غير مرة ، لما اشتدّ ساعد بني الأحمر وسطعت دولتهم خلال هذه المدة المليئة بالحوادث الجسـام ، واسـتطالت أيام الاسـلام بالأندلس زهـاء مائة عام أخـرى . وقـد كان من سـوء الطّالع ألاّ يدرك بلاط غرناطة خطـر الخـلاف مع الحليف الطبـيعي الذي رتّـبه القدر فيما وراء البحر ، لانجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن يجنح من آن لآخر إلى مخاصمة هذا الحليف ومحاربته ، كما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بني مرين إزاء مملكة غرناطة أحياناً ، من الالتواء

(٥٢) اللمحة البدرية (٩٧) .

وبثّ الشكوك في نفوس أمراء بني نصر ، بما كانت تمنح إليه من مداخلة الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الاسلام تبدّد في معارك أهلية ، وقد كان حرياً بها أن تتضافر عند مغالبة العدو المشترك . على أنّ الدولة المرينيّة ذاتها تدخل منذ وفاة أبي الحسن في سنة (٧٥٢ هـ — ١٣٥١ م) في دور انحلالها ، وتنحدر إلى غمرات الحرب الأهلية ، وتشغل بشئونها الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد الوحيد ، الذي كانت تدّخره وقت الشدائد . وقد استمرّت العلائق بين غرناطة وبني مرين عصراً آخر . ولكنها غدت علائق بلاط ، تغلب عليها دسائس القصور ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور الى الأندلس لمقاتلة الاسبان . كما كانت تفعل أيام أبي يوسف وأبي يعقوب وأبي الحسن ، ولم تعبر بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج في جبل طارق ضد ملك غرناطة . وتركت غرناطة من ذلك الحين الى مصيرها داخل الجزيرة الاسبانية تغالب قوى الاسبان بمفردها . وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها الأخير في اختلاف كلمة الاسبان . وإنشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .


مملكة غرناطة
وعدوة المغرب
مملكة قشتالة
مملكة الجون
الغرب
الشمال
اشبيلية
قرطبة
غرناطة
مالقة
المرية
قادس
طنجة
سبتة
أصيلا
العرائش
فاس
مكناسة
تلمسان
وهران
وجدة
تازة
مليلة
المحيط الأطلنطى
البحر الأبيض المتوسط
بحر الزقاق
الريف
قبائل غماره
قبائل زناته
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل الموحدين
جبال الأطلس
قبائل صنهاجه

الفهرست

سعر النسخة دينار ونصف

وتضاف اليها اجرة البريد

تدفع قيمة الاشتراك سلفاً

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٨٦ لسنة ١٩٩٠

مجلة المجمع العلمي العراقي



الجزء الأول – المجلد الحادي والاربعون

بغـــداد

١٤١٠هـ = ١٩٩٠م

نِهَايَةُ الأَنْدَلُسْ

اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع

الأندلس بين المد والجزر

١ ـ ولاية محمد الغني بالله وحوادث ايامه :

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبي الحجّاج في صبيحة يوم عيد الفطر سنة (٧٥٥ هـ) حتى خافه في الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله وكان حدثاً يافعاً ، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبي النّعيم رضوان ، وكانت غرناطة بعد ماتوالى عليها من الخطوب والأزمات في أواخر عهد أبيه يوسف ، قد تنفّست الصعداء منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين ابن الخطيب مؤرّخ الدولة النصرية وأعظم كتّاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وكان مولد ابن الخطيب في لوشة (١) من أعمال غرناطة في سنة (٧١٣ هـ ـ ١٣١٣ م) ، وكان هذا المفكرٌ البارع أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ في المغرب الاسلامي ، مركز الصدارة في التفكير والكتابةهما ابن خلدون وابن الخطيب . وقد درس ابن الخطيب اللّغة والاداب والطب

---

(١) نهاية الاندلس (١٩٧ ـ ١٢٦) .
(٢) لوشة : وبالاسبانية Loja ، تقع على مسافة خمسة وخمسين كيلو متراً من غربي غرناطة ، وهي اليوم بلدة متواضعة ، وقد كانت ايام الدولة الاسلامية بلدة زاهرة .

والفلسفة ، وبرز في النثر والنظم ، وخدم الدولة منذ حداثته ، فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبي الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبار الأندلس سفيراً من قباله ، إلى ملك المغرب السلطان أبي عنان المريني (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، ويؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بني الأحمر . فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يسطيع دفعه البشر

فتأثر السلطان لقصيدته ، ووعد باجابة سائر مطالبه ، وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له من بعد ذلك في حوادث الأندلس أعظم نصيب (٣) .

وفي أواخر سنة (٧٥٦ هـ - أواخر سنة ١٣٥٥ م) ، حاول حاكم جبل طارق المريني عيسى بن الحسن بن أبي منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ، ربما أفسحت للاسبان ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب ، ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر ، وأخمدت ثورته في المهد ، وقبض عليه وعلى ولده ، وأرسلا مصفدين إلى المغرب ، فقضي باعدامهما ، وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ، ومعه من الفرسان قوة ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته (٤) .

وفي أوائل عهد السلطان محمد شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت

(٣) الاحاطة (المقدمة ص ٣٧) ونفح الطيب (٣/٥٢) وابن خلدون (٧/٣٧٣) ، وفيها كامل القصيدة .
(٤) رحلة ابن بطوطة (٢/١٨٤) .

غرناطة شرّ العدوان مدى حين ولكنّ الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطوّرات جديدة . ففي رمضان سنة (٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م) نشبت في غرناطة ثورة فقد فيها الغني بالله ملكه ، وكان أخوه إسماعيل المعتقل في بعض أبراج الحمراء ، تؤازره جماعة من الزعماء ، وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبدالله ، وتدعو له سراً ، وتترقّب الفرص الوثوب بمحمد ؛ وكانت أمّه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعي والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحوّل بولده الى سكنى قصر جنّة الريف الواقع شمال شرقي الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا باسماعيل أخي السلطان مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ، ففرّ إلى وادي آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه في الوزارة لمدى قصير ، ثمّ ارتاب في نياته وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله . وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودّة وصداقة بملك المغرب ، السلطان أبي سالم ولد السلطان أبي الحسن .

وكان أبو سالم قد لجأ إليه حينما تغلّب عليه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى حكومتها ، في إجارة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفير في مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١ هـ) . واستقبلهما أبو سالم في فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب قصيدة عصماء ، فكان لانشاده أعظم وقع في النفوس ، وتأثّر السّلطان بها أيّما تأثّر (٥) . ولبث السّلطان المخلوع في بلاط فاس حيناً ، وتوثّقت بينه وبين المؤرّخ ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر الدولة المرينيّة ، روابط

(٥) الاحاطة (المقدمة ص ٣٨ — ٤٣) ، واللمحة البدرية (١٠٨) وابن خلدون (٣٠٦/٧) وما بعدها ، وازهار الرياض (١٩٤/١ — ١٩٥) .

المحبّة والصداقة . وعقدت أيضاً بين المؤرّخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقّت فيما بعد . وكان محمد بن الأحمر يؤمّل أن يستردّ ملكه المنزوع بمعاونة بيدرو الثاني (بطره) ملك قشتالة تنفيذاً للاتفاق الذي عقد بينهما . ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع أنّ ملك قشتالة كان مشغـولاً باضطرابات ممالكته ، فآثر أن يعقد السّلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفي أثناء ذلك حدث انقلاب لقي فيه السّلطان أبو سالم مصرعه ، واستبدّ بالدولة الوزير عمر بن عبدالله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه في استرداد ملكه ، فاستجاب له الوزير . ومازال محمد يدبّر أمره بمعاونته ، حتى تهيّأت الفرصة بوقوع الثورة في غرناطة ،ومقتل منافسه السلطان إسماعيل على يد المتغلّب عليه الرئيس أبى سعيد ، فجاز محمد إلى الأندلس مع وزيره ابن الخطيب ، واستولى على غرناطة ، وفرّ الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة ٧٦٣ هـ — ١٣٦١ م) . ووفد عليه المؤرّخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل ، فاحتفى به وأكرم مثواه ، وأرسله سفيراً عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ، ليوثّق أواصـر الصداقة بينهما (٧٦٥ هـ — ١٣٦٣ م) ، فقصد ابن خلدون بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة ، وأدّى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتمّ مهمّته ، قدم له ملك قشتالة هدية ثمينة ، فسُرّ السلطان محمد لنجاحه ، وأقطعه قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش مدة في غرناطة معززاً مكرماً(٦) .

ولم يمض على ذلك قليل ، حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخليّة ، وتمتّعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة ، وكان بيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقّب بالقاسي الذي خاف أباه الفونسو الحادي عشر في سـنة

---

(٦) انظر تفاصيل السـفارة في التعريف (٤١٢/٧) طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر . والاحاطة (١٥/٢) .

(١٣٥٠ م) قد غلا باستبداده وقسوته ، حتى أنّه لم يحجم من قتل زوجته الملكة بلانش دي بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوّج من خليلاته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ، وخرج عليه أخوه غير الشّرعيّ الكونت هنري دي تراستمارا ، ولد إلينورا دي كزمان ، وفرّ إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس ، على أن يجمع له جيشاً من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ، وأشرف على تنفيذ المشروع الدوق دي جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يؤمئذ . وقاد هنري جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦ م) ، فلم يقو بيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلّى الشعب عنه ، وفرّ إلى ولاية جويين الفرنسية فيما وراء البرنية ، واستغاث بالأمير إدوارد ولي عهد إنكلترا ، وقد كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الانكليزي لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة في قوّاته ، واستطاع الكونت هنري بمعاونة شعبه ، ومعاونة ملك أراغون، أن يحشد جيشاً عظيماً . والتقى الفريقان في (نجارا) في الثالث من نيسان — أبريل (١٣٦٧ م) ، فهزم الكونت هنري بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد بيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الانكليزي ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتدّ بقوّاته إلى الشمال . وعندئذ عادتْ الثورة إلى الاضطرام في قشتالة ، ووثب الشعب ببيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنري فغزا قشتالة في أنصاره ، ونشبت بين الفريقين في (مونتيل) موقعة أخرى هزم فيها بيدرو . وجلس أخوه مكانه على العرش سنة (١٣٦٨م) (٧) وكان بين قوّات الملك القتيل فرقة من حلفائه المسلمين تعاونه وتذود عنه .

وقد فصّل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية في قشتالة في تلك المدة ، وكان معاصراً لها وقريباً من مسرحها ، وروايته تدلّ على حسن اطلاعه ، ودقّة فهمه لسير الحوادث(٨) .

(٧) Darid Humai History of England , v. 11 p. 202 — 205

(٨) انظر التفاصيل في الاحاطة (٢/٢٤ — ٢٦) .

وتولى ابن الخطيب وزارة الغني بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر في البلاط وفي الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على على نفوذ منافسه الوحيد في السلطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجو وتبوأ ذروة القوة والسلطان . وكان من معاونيه في الوزارة تلميذه الكاتب الشاعر الكبير أبو عبدالله بن زَمْرَك ، وقد تولى كتابة السر في كنفه وتحت رعايته . والظاهر أن اجتماع السلطان والنفوذ في يد ابن الخطيب على هذا النحو ، كان سبباً في انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، إلى الاستبداد واتباع الهوى ، وبث حوله معتركاً من البغضاء والخصومة ، وكثرت في حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالالحاد والزندقة ، لما ورد في بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب في النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر ، وخشى العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس وسار إلى الثغور الغربية في نفر من خاصته ، بحجة تفقدها ، وعبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣ ﻫ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب السلطان عبدالعزيز المريني ، وكانت تربطه به مودة وثيقة . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع في الوزارة في المرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه في الوزارة تلميذه ابن زمرك . وكان قد انقلب عليه في أواخر أيامه ، وغدا من خصومه وأشدهم سعياً إلى نكبته .

وقضى ابن الخطيب في منفاه زهاء ثلاثة أعوام واستقر في فاس معززاً مكرماً . ولكن السلطان عبدالعزيز . ما لبث أن توفى ، وساءت الأمور في عهد ولده الطفل الملك السعيد ، ووقع انقلاب انتهى بجلوس السلطان أحمد بن أبي سالم على العرش ، وهو صديق الغنى بالله وحليفه ، وكان بلاط غرناطة وخصوم ابن الخطيب في الأندلس يجدان في ملاحقته ومطاردته ، فسعوا عندئذ في بلاط فاس القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذاً لحكم الدين ، ودس عليه

بعض الأوغاد ، فقتلوه في سجنه ، وذلك في آواخر سنة (٧٧٦ هـ – ١٣٧٥ م) ، وهكذا ذهب الكاتب الشاعر الكبير ضحيّة الغدر السياسيّ والتعصب الشائن (٩)

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحا ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجُب ، من من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزّقته الأهواء وأضنته الفتن ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، أن يبادروا إلى غوثه ونصرته : وله في ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثّرة تفيض قوّة وبلاغة ، في الحثّ على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهدّدهم ويهدّد وطنهم من خطر المحو والفناء إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم (١٠) .

وأبلغ من ذلك كلّه في الدّلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ، ما وجّهه في وصيته إلى أولاده من النصح ، بعدم الاسراف في في اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومَن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلّة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن تغلّب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ومعوّقاً عن الانتقال أمام النوائب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالاجمال في الطلب أولى » (١١) .

وسلك الغنيّ بالله في حكمه مسلك القوّة والحزم ، واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الانشاء والعمران فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) في

(٩) ان خلدون (٧/٣٤٠ – ٣٤١) .

(١٠) نقل الينا المقرى في نفح الطيب وازهار الرياض كثيراً من هذه الرسائل ، وانظر الاحاطة (٢/٣١ – ٣٩) .

(١١) نقل الينا المقرى في نفح الطيب وصية ابن الخطيب كاملة ، وهي من ابدع الوصايا الابوية السياسية (٢/٤٢٥) وما بعدها ، وكذلك في أزهار الرياض (١/٣٢) وما بعدها .

في غرناطة ، وأنفق عليه أموالاً عظيمة ، وعنى بتحصين الثغور ، وعمل على بثّ روح الجهاد والحميّة في النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته في ذلك وسفيره إلى جمهور الأمة ، وزيره القويّ البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشّعور ببراعة ، واستمرّت رسائله وخطبه المؤثّرة في ذلك تترى أينما كان ، بالأندلس أو المغرب ، حتى نهاية حياته .

وفي أواخر سنة (٧٦٧ هـ – ١٣٦٦ م) . نظّم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه ، وهاجم الخوارج قاعة الحمراء فمزّقتهم الجند ، وقبض على زعيمهم ، وزاد إخفاق المؤامرة مركز السلطان توطيدا .

وفي عصر الغنيّ بالله ، توطّدت أواصر الصداقة والمودّة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتّصلت بينهما السفارة والمكاتبة (١٢) .

وفيما يختص بالعلائق السياسية ، فقد عقد الغنيّ بالله بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن صديقه أبي فارس عبدالعزيز سلطان المغرب ، مع بيدرو الرابع ملك أراغون معاهدة صلح وصداقة لمدة ثلاثة أعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة (٧٦٨ هـ – آذار – مارس – ١٣٦٧ م) وفيها يتعهد كلّ من الفريقين بأن يمتنع رعاياه عن الاضرار بالفريق الآخر في البر والبحر في السرّ أو الجهر ، وأن يكون لرعايا كلّ فريق حق التجوّل والمتاجرة بأرض الفريق الآخر ، والمرور في البحر والبر . دون اعتراض أو مغارم غير عاديّة ، وأن تطلق أراغون حريّة الهجرة للمدجّنين ، وأن يمتنع كلّ فريق عن معاونة الفريق الآخر (١٣) .

واستطال حكم الغنيّ بالله حتى سنة (٧٩٣ هـ – ١٣٩١ م) ، وساد الأمن والسلام في عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بأحداثها الداخلية وحروبها

(١٢) انظر التفاصيل في : نهاية الاندلس (١٣٤ – ١٣٥) ، ويراجع نص الرسالة في صبح الأعشى (١٠٧/٨ – ١١٥) .

(١٣) Archivo de la Corona de Aragon, No. 152.

الأهلية ، وغلب التهادن في تلك المدّة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطيّة أن تنتهز فرصة الحوادث الداخلية في المملكة الاسبانية ، وأن تمدّ يد التحالف والحماية غير مرّة لملك قشتالة المخاوع بيدرو القاسي ، إذكاء الحرب الأهلية بين الاسبان .

ولم يخل عصر الغنيّ بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصراع على القشتاليين وكانت القوّات القشتالية قد تسرّبت من أطراف ولاية إشبيلية الجنوبية إلى أحواز رندة الشرقية ، واحتلت فيها موقعين حصينين من أراضي المسلمين هما برغة وجيرة(١٤) . واستطاعت بذلك أن تقطع الطريق بين رندة ومالقة ، ففي شعبان سنة (٧٦٧ هـ — ١٣٦٦ م) زحف المسلمون على هذين المعقلين من الشمال والجنوب واحتلوهما بعد قتال شديد وفي الوقت نفسه استؤنفت حركة الغزو لأراضي الاسبان ، ففي شعبان سنة (٧٦٨ هـ — ١٣٦٧ م) زحف الغنيّ بالله في قوّاته على أراضي ولاية اشبيلية ، وغزا مدينة أُطريرة الواقعة جنوب شرقي إشبيلية ، وافتتح حصن أشر من معاقلها ، واستولى على كثير من الغنائم والسّبى ، وعاث في أحواز إشبيلية ذاتها . وهي يومئذ عاصمة قشتالة . وفي أواخر هذا العام ، سار الغنيّ بالله في قوّة كبيرة إلى مدينة جيّان ، وحاصرها بشدة ، واقتحمها بعد معارك شديدة ، واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسّلاح والنّعم ، وأسروا جموعاً كثيرة ، وكان ذلك في أواخر شهر المحرّم سنة (٧٦٩ هـ — أيلول — سبتمبر ١٣٦٧ م) . وفي شهر ربيع الأول من هذا العام ، زحف الغنيّ بالله على مدينة أبدة شمال جيّان ، وافتتحها عنوة ، ودمّر صروحها وكنائسها وأسوارها ، وتركها خراباً بلقعاً (١٥) ، وعاد إلى غرناطة مكلّلاً بغار الظفر .

---

(١٤) برغة هي (Burgo) الحديثة ، وتقع على مقربة من شرقي رندة . وجيرة هي : (Guera) وتقع جنوب شرقي رندة .

(١٥) الاحاطة (٢/٥٤ — ٥٨) والاستقصا (٢/١٣٢) .

وفي ربيع سنة (٧٧١ هـ – ١٣٧٠ م) ، زحف المسلمون ثانية على أحـــواز إشبيلية ، وحاصروا مدينة قرمونة الحصينة مدى حين ، واقتحموا مرشانة الواقعة في جنوب شرقي قرمونة . وهكذا ظهرت المملكة الاسلامية في تلك المدة بمظهر من القوّة لم تعرفه منذ زمن بعيد ، وكان عصر الغنيّ بالله عصراً ذهبياً مليئا بالسؤدد والرخاء والدّعة ، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور(١٦) .

٢ – يوسف ابو الحجاج وحوادث ايامه

ولما توفي الغنيّ بالله سنة (٧٩٣ هـ – ١٣٩١ م) ، خلفه ولده يوسف أبـــو الحجّاج (يوسف الثاني) ، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه ، فاستبدّ بالأمر ، وقتل أخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً في محبسهم ، ثم سخط يوسف على وزيره وقتله ، لما نمي إليه من أنّه يحاول اغتياله بالسمّ بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودي ، وزجّ الطبيب في السجن ، ثم قتل بعد ذلك(١٧) . واستأثر يوسف بالسلطة ، وكتب إلى ملك قشتالة في طلب المهادنة والسّلم ، وأطلق سراح عدد من الفرسان الاسبان الذين أُسروا في بعض المعارك السّابقة ، وأرساهم مكرّمين إلى بلاط إشبيلية ، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته ، وعقد السلم بين المملكتين .

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذ كان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبّته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده . وزحف بالفعل في أنصاره على الحمراء ، ولكن محاولته أخفقت ، وتفرّق الثوار حين برز إليهم سفير المغرب وقد كان وقتئذ في القصر ، وأنّبهم على مسلكهم ، ونصحهم بالهدوء والاتّحاد ضد الاسبان(١٨) .

---

(١٦) نهاية الاندلس (١٢٧ – ١٣٦) .
de la Dominacion de los Arabes en Espana ; V. 111. P. 169.

(١٧) الاستقصا (٢/١٤٢) .

(١٨) Conde : Ibid; V. 111. P. 171. ، وانظر الاستقصا (٢/١٤٢) حيث يرد هذه للرواية نقلا عن مصدر اسباني Historia : Conde .

وقام المسلمون في عهد يوسف بالاغارة على أراضي الاسبان في أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان الاسبان من جانبهم في فحص غرناطة (المرج) (La Vega) ، فردّهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة ، ثم عادالفريقان إلى التهادن والسلم .

وتوفى السلطان يوسف في أوائل سنة (٧٩٧ هـ — ١٣٩٤ م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل : إنّه توفى مسموماً على إثر مكيدة دبّرها له سلطان المغرب أبو العبّاس المريني لاهلاكه ، وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع في السمّ ، فلبسه يوسف ومسّه أثناء ركوبه وهو عرقان ، فسرى إليه السمّ وتوفى ، وهي رواية تحمل مالا يصدّق (١٩)

٣ ـ محمد بن يوسف وحوادث ايامه

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبّر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لاقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثمّ قبض على أخيه وزجّه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من ثغر المنكب ، وشدّد في الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع ، بيد أنّه كان في الوقت نفسه أميراً موهوباً ، رفيع الخلال ، فياض العزم والشّجاعة . ولأوّل ولايته استدعى الوزير أبا عبدالله بن زمرك لحجابته وكان هذا الوزير الطاغية قد خلف أستاذه ابن الخطيب في وزارة الغنيّ بالله مدى أعوام طويلة ، فلما اشتدّ عبثه واستبداده ، نكبه الغنيّ بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث في الوزارة هذه المرّة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة ، وكثر خصومه ، وفي أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) ، دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله (٢٠)

---

(١٩) نفح الطيب (٢٨٦/٤ و ٢٩٠) .

(٢٠) ولاية الغرب : غربي الاندلس ، وهي بالافرنجية Algarre محرفة عن الغرب .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودّة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وعقدت الهدنة فعلاً بين الطرفين ، بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليّون على بسائط غرناطة ، وعاثوا فيها ، فحشد محمد قوّاته و غزا ولاية الغرب وخرّبها ، واستولى على حصن أيامونتي (٢١) ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي . وانتقم الاسبان بالعود إلى غزو أرض غرناطة ، وكان هنرى الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجدّ في الأهبة للحرب ويجهّز الجيوش والأساطيل ، وكان محمد من جانبه يتأهّب للدفاع ، ويراسل ملوك العدوة لانجاده . وبعث ملك تونس وتلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحريّة ، ولكنّها هزمت ومزّقت تجاه جبل طارق . ثمّ عقد بين الفريقين اتّفاق هدنة وتحكيم لتقدير الأضرار لمدة عامين (٦ تشرين الأول — أكتوبر ١٤٠٦ م) (٢١) ، ولكن هنري الثالث توفي بعد ذلك بقليل (أواخر سنة ١٤٠٦ م) وخلفه على عرش قشتالة ولده خوان (يوحنا) طفلاً تحت وصاية أمه وعمّه فرديناند . ولم يحترم الوصيّ الجديد أحكام الهدنة المعقودة ، بل عمد إلى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوّة والعزم ، فسار إلى غزو أراضي المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة ، واقتحم حصن باغة (٢٢) وعاث في تلك الأنحاء ، واستردّ حصن أيامونتي من المسلمين . وبادر محمد بدوره بغزو أراضي قشتاله من ناحية الشرق وعاث في ولاية جيّان ، فاضطر فرديناند أن يسير إلى الشرق لانجاد الاسبان ، واستمرّت المعارك بين الطرفين حيناً ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨ م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة ، لم يلبث أن اشتد به المرض ، فتوفى سنة (٨١١ هـ — ١٤٠٨ م) .

على أنّه في الوقت الذي كانت الحرب تضطرم فيه بين غرناطة وقشتالة على هذا النحو بلا انقطاع ، كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراغون منافسة قشتالة وخصيمتها

(٢١) Archivo gechiral de Simancas : P . R .

(٢٢) باغة : وهي بالاسبانية Priego

أحياناً ، بصلات المودة والصداقة . ففي ربيع الأول سنة (٨٠٨ هـ ــ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٤٠٥م) عقدت بين السلطان وبين مرتين ملك أراغون وولده مرتين ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف ، نوضح لنا نصوصها الدقيقة الشاملة مجمل المسائل التي كانت في هذا العصر ، تشغل المسلمين والاسبان في شبه الجزيرة الاسبانية .

وتنصّ هذه المعاهدة على أن يعقد بين الدولتين « صلح ثابت » ، لمدة خمسة أعوام من تاريخ عقدها ، وأنه يحقّ لرعايا كلّ من الفريقين أن يتردّد على أراضي الفريق الآخر ، آمنين في انفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء ، وأنه متى احتاج ملك أراغون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما ، فانّ سلطان غرناطة ينجدهما باربعمائة أو خمسمائة فارس . على أن يتكلّفاهما بنفقاتهم ، وذلك بشرط أن لا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة غرناطة . وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوما باعانته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسّلاح ، على أن يتكفّل هو بنفقاتها وعلى ألاّ يكون هذا العدو صديقاً لمملكة أراغون ، وألاّ يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأيّ نوع من أنواع المساعدة(٢٣) .

٤ ــ يوسف بن يوسف

ولما توفيّ محمد بن يوسف . خلفه في الملك أخوه يوسف (الثالث) ، وكان سجيناً طوال حكمه بقلعة سلوبانية كما ذكرنا . ودخل يوسف غرناطة في حفل فخم ، واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتّع بخلال حسنة ، ويعلّق عليه الشعب آمالاً كبيرة . وكان أوّل ما عنى به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته في البداية ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضيّ العامين إلى تجديدها ، أبى القشتاليون ، وطلبوا

(٢٣) انظر تفاصيل المعاهدة في : نهاية الاندلس (١٣٩ ــ ١٤٠) .

إليه الخضوع إلى قشتالة إذا شاء استمرار السّلم ، وأنذروه بأعلان الحرب ، فرفض وأخذ في الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ خوان الثاني تحت وصاية أمّه وعمّه فرديناند ، فما كادت تنتهي الهدنة حتى زحف الاسبان على أرض غرناطة بقيادة فرديناند الوصيّ ، وضربوا الحصار على مدينة أنتقيرة في شمال غربي مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة . وحاولت حامية أنتقيرة أن تحطّم الحصار وأنزلت بالمحاصِرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والاسبان معركة كبيرة بجوار أنتقيرة . وبذل المسلمون لأنقاذ المدينة المحصورة جهوداً رائعة ، ولكنهم هزموا أخيراً ، واضطرّت المدينة الباسلة إلى التّسليم ، فدخلها الاسبان سنة (١٤١٢ م) وأسبغ على فاتحها فرديناند من ذلك الحين لقب : « صاحب أنتقيرة » . وعاث الاسبان بعد ذلك في أراضي المسلمين ، وأخيراً رأى السلطان يوسف أن يعقد هدنة مع قشتالة حقناً لدماء المسلمين ، واجتناباً لاستمرار هذه المعارك المخرّبة ، فارتضى بلاط قشتالة ، وعقد السّلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى الاسبان دون فدية .

وفي عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المريني لاحتلال الثّغر ، لاعتقادهم أنّه أقدر على حمايتهم من غارات الاسبان ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبدالله في الجند تخلّصاً منه ، ولكنّ ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة في موقعة حاسمة ، وأسر زعيمهم عبدالله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ثمّ ردّه إلى المغرب وزوّده بالمال وبعض الجنود ليناهض أخاه فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه (٢٤) .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتى قشتالة وغرناطة ، أخذت أواصر السّلم تتوثّق بينهما ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام

(٢٤) الاستقصا (١٤٨/٢) .

المتبادل ، ولم تشهد غرناطة من قبل عهداً كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمتين الخصيمتين . وكانت غرناطة يومئذ تغصّ بالفرسان والأشراف الاسبان ، تجتذبهم خلالُ أميرها وبهاء بلاطها وفروسيتها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين الاسبان في أعظم ساحات المدينة ، وتجري طبقاً لأرفع رسوم الفروسيّة الاسلاميّة ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة في تلك الأيام المشهورة في أروع الحال وأبدع الزينات (٢٥) . وكانت الأمة الأندلسية تتمتّع يومئذ في ظلّ ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر في نفس الوقت في ظلّ هذا السّلم الخاَب والترف الناعم إلى نوع من الانحلال الخطر ، الذي يعصف بمنعتها وأهبتها الدفاعية . وتوفى السلطان يوسف في سنة (٨٢٠ هـ — ١٤١٧ م) بعد حكم دام نحو تسعة أعوام ، وكان أميراً راجح العقل ، بارع السياسة ، عظيم الفروسية والنجدة ، محباً لشعبه . فكان حكمه القصير صفحة زاهية في تاريخ مملكة غرناطة .

ابو عبيدالله محمد الايسر بن يوسف

توالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدّة من الأمراء الضعاف ، أوّلهم ولده أبو عبدالله محمد الملقّب بالأيسر ، وكان أميراً صارماً سيّىء الخلال ، متعالياً على أهل دولته ، بعيداً عن الاتّصال بشعبه ، لايكاد يبدو في أيّة مناسبة عامة ، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتّصال بشعبه وكبراء دولته . وكان هذا الوزير النّابه ، وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته ورقة خلاله ، لتلطيف حدّة السّخط العام على مليكه ، بيد أنّه كان يحاول أمراً صعباً . ولا بد لنا من التعريف ببنى سراج ، فهم الذين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة ، الذين غدت سيرتهم فيما بعد

(٢٥) Conde; ibid; P. 197 & 180. ، وكذلك (1906) V. 111 P. 4 ، وكذلك Historia de Grannada : Lafuente Alcantra .

مورداً خصباً للقصص المغرق ، وهم من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم إلى مَذْحج وطيء من البطون العربية العريقة ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلي مرسية ، بيد أنّهم لم يظهروا على مسرح الحوادث في تاريخ الأندلس إلاّ في مرحلته الأخيرة ، أعني في تاريخ غرناطة . قد كانوا بغرناطة من أعظم سادتها ، كانوا أنداداً للعرش والسلاطين (٢٦) منذ عهد السلطان الأيسر ، نرى بني سراج في طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون في سير الحوادث بأعظم النصيب . قد كان حكم السلطان الأيسر ، بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . في عهده ساءت الأحوال ، واشتدّ سخط الشعب ولم تُجد محاولات الوزير ابن سراج لتهدئة الأمور . وقامت ثورات متعاقبة ، فقد فيها الأيسر عرشه ثم استردّه غير مرّة ، وكان بلاط قشتالة يشجّع هذه الانقلابات ويؤازرها ، وكان الزعماء الثائرون يتطلّعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيها . وسنرى فيما يلي كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة في تلك الأيام ، من أعظم العوامل في انحلال المملكة الاسلامية والتّعجيل في سقوطها .

وفي خلال حكم الأيسر المضطرب ، كان الاسبان يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها في سنة (٨٣١ هـ — ١٤٢٨ م) وتوغّلوا في أرجائها ، وعاثوا في بسائط وادي آش ، فزادت الأمور في غرناطة اضطرابا ، وازداد الشعب على الأيسر سخطاً ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح في ردّ العدو عن أرض الوطن ، وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بالأمير محمد بن يوسف الثالث ، وهو ابن أخي الأيسر . وفي رواية أنّه ولده ، ومحمد هذا هو

(٢٦) نفح الطيب (١/١٣٨)

الملقبّ « بالزغيّر » ؛ وفرّ الأيسر في أهله ونفرٍ من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلاً بحماية سلطانها أبي فارس الحفصيّ .

وجلس محمد « الزغيرّ » (٢٦أ) على عرش غرناطة ، وكان أميراً بارع الخلال وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبّة الشعب ولكنّه لم يوفّق إلى إخماد الدسائس والفتن المستمرّة وكان بنو سراج ألدّ خصومه وأشدّهم مراسا ، فمال عليهم وطاردهم وعوّل على سحقهم واستئصال نفوذهم القويّ المتغلغل في انحاء المملكة . وغادر يوسف بن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة الفرسان من أفراد أسرته تفادياً لانتقام « الزغيرّ » وبطشه ، وسار أولاً إلى ولاية مرسية . ثمّ سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة خوان الثاني ، فرحّب بهم واكرم وفادتهم . واتّفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لردّ السلطان الأيسر إلى العرش . واستدعى الأيسر من تونس ، فلبّى الدّعوة ، وزوّده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان ، وهدايا ثمينة لملك قشتالة ، ونزل الأيسر في عصبته في ثغر المرية حيث استقبله الشعب بحفاوة ، ونودى به ملكا . ومنى الخبر إلى الزغيّر ، فأرسل قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكنّ معظم جنده انضمّوا إلى الأيسر وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادي آش حيث يحتشد أنصاره ، ثمّ زحف على غرناطة في قوّة كبيرة. ورأى محمد الزغير اتباعه ينفضّون من حوله تباعا بيد أنّه امتنع في عصبته القليلة بقلعة الحمراء معتزماً الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة ، واستقبل بحماسة ، وأعلن نفسه ملكا ، وحاصر الحمراء بشدّة ، فسلّمها إليه أنصار الزغيرّ . وقبض على الزغيرّ وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله ، وهكذا انتهت مغامرة الزغيّر على هذا النحو المؤسي ، بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠ م) (٢٧) .

(٢٦) نفح الطيب (١٣٨/١) . زغير : وهي النطق العامي الاندلاسي لكلمة « صغير » ، ولايزال هذا التعبير مستعملا وشائعا في العاصمة العراقية ، انظر : Dozy : Supp. aux Dict. Arabes,
وذكر كوندي ان الزغير معناها السكير (Zaquir) : انظر : Conde. ibid; V. 111. P: 182.

(٢٧) Conde ; ibid . V. 111 P. 184 — 195. وانظر ايضا : Lafunte Alcantra ; ibid, V. 111. P. 121

ونظمّ السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني في تجديد الهدنة ، فاشترط أن يؤدى الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة في سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدي فوق ذلك جزية سنوية ، اعترافاً بالطّاعة ، فرفض الأيسر ، وهدّد ملك قشتالة بالحرب . وما كادت تنتهي الفتنة الداخلية التي كانت ناشبة يومئذ في قشتالة ، حتى أغار الاسبان على أراضي المسلمين ، وقصدوا إلى رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم ، واستطاع أن يردّهم في البداية ، ولكنّ ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه في قوّات كبيرة ، وزحف على حصن اللّوز وأرشدونة ، وعاث في تلك المنطقة ، ثمّ عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السّبى والغنائم .

وفي أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة ، متوجّساً من سير الحوادث فيها . وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وهذا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب في يد القدر . وانقسمت المملكة الاسلامية شيعاً وأحزاباً متنافسة متخاصمة ، وألفى الاسبان فرصتهم السانحة لاذكاء الفتنة ، وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرّق . وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمي إلى بيت الملك عن طريق أمّه ، هو أبو الحجّاج يوسف بن المولى : وكانت أمّه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله ، وأبوه ابن المولى من وزراء الدولة النّصريّة . ودبّرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر ، وكان يوسف أميراً قوياً ، وافر الثراء والهيبة ، وكان ملك قشتالة ، خوان الثاني ، يعسكر يومئذ بجيشه على مقربة من غرناطة ، يتتبّع سير الحوادث ، ويرقب الفرص ، فقصد إليه يوسف ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش لنفسه ، وتعهّد بأن يحكم باسمه وتحت طاعته ، فلبّى ملك قشتالة دعوته ، وعقد معه يوسف وثيقة بالخضوع يقرّر فيها أنّه من أتباع ملك قشتالة وخدامه ، وأنّه إذا حصل على الملك ، فإنّه يتعهّد بتحرير جميع الأسرى الاسبان ، وبأن يدفع لملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب ، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائه سواء كانوا اسباناً أو مسلمين ، وأن يحضر جلسات مجلس الكورتس (مجلس النواب القشتالي) بنفسه إن كان منعقداً جنوب طليطلة أو بانابة أحد أبنائه

أو ذوي قرابته إن كان منعقداً داخل قشتالة . وتعهّد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف طول أيام حكمه وأيام أبنائه ، وأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين والاسبان ، وألاّ يحمي مَن يلتجيء إليه من أعدائه . ووقّعت هذه المعاهدة بين الفريقين في السابع من المحرّم سنة (٨٣٥ هـ — ١٦ أيلول — سبتمبر ١٤٣١ م) ونفذّت على الأثر ، إذ أرسل ملك قشتالة جنده ، فغزت غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قوّاته والتقى بالاسبان في بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، ارتدّ الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أمـــا يوسف ، فقد استطاع بمؤازرة الاسبان أن يستولى على قواعد اعترفت بطاعته ، مثل رندة ولوشة رحصن اللّوز وغيرها . وأعان ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف، ونودى به ملكاً ، فسار يوسف بقوّاته إلى غرناطة ، فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج ، فهزم ابن سراج وقُتل ، ودخلت جنود يوسف غرناطـــة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفضّ الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره ، وحمل أمواله ، وغادر غرناطة في أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التي بقيت على طاعته ، ودخل يوسف ابن المولى الحمراء ظافراً وتربّع على العرش ، وذلك في أول كانون الثاني يناير — ١٤٣٢ م) .

وكان أوّل ما فعله يوسف ، أن جدّد لملك قشتالة عهد الخضوع ، فوقّعه باعتباره سلطان غرناطة في ٢٢ جمادى الأولى من نفس العام (٢٧ كانون الثاني ١٤٣٢ م) (٢٨) ، بيد أنّ حكمه لم يطل، إذ كان شيخاً مريضاً ، فتوفى بعد

(٢٨) Archivo general de Simancos, P. R. 11 — 129. ، وقد حصل الاستاذ عبدالله عنان على صورة هذه الوثيقة بنسختيها العربية والقشتالية ، ونشرها في بحث ظهر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد (المجلد الثـاني — ١٩٥٤) .

ستة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة ، وهو ما كانت تسعى إليه قشتالة مذ قامت مملكة غرناطة .

والواقع أنّ قشتالة حققت بهذا العقد أكبر أمنية قديمة لها ، وهذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية في مملكة غرناطة في تلك الأيام الحرجة الدقيقة من حياتها .

وعلى أثر وفاة السلطان يوسف ، اتّفقت الأحزاب كلّها على ردّ الأمر السلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر إلى عقد السّلم مع ملك قشتالة ، نعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عام ، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضي غرناطة الشرقية ، فردّهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبدالبر زعيم بني سراج ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (٨٣٨ هـ — ١٤٣٤ م) .

وفي العام التالي ، سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين ، في أحواز غرناطة ووادي آش . وهزمهم غير مرّة ، ثم عاد الاسبان فأغاروا على بسطة ووادي آش ، واحتلّوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوّة كبيرة من الاسبان بقيادة حاكم لبلة ، على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا الاسبان وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (٨١٠ هـ — ١١٣٦ م) . ثم نشبت بعد ذلك بين المسلمين والاسبان موقعة أخرى على مقربة من كازورك ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكنّ قائدهم الفارس ابن سراج . وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلا في المعركة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطي بظرفه وبارع فروسيته (٢٩) .

(٢٩) Lafuente Alcantra , ibid; V. 111. P. 147 — 150.

وهكذا استمرّ الصراع بضعة أعوام سجالا، بين المسلمين والاسبان، ولما رأى الاسبان كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم، لجأوا إلى السكينة حيناً وأرسل السلطان الأيسر في اواخر عهده الى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة الاسبان على أراضي مملكته وهذه أول مرة تتّجه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر، وقد كانت حتى ذلك الحين تتجه دائماً إلى ملوك العدوة. وكانت حوادث غرناطة يومئذ تنذر بتطوّرات جديدة مزعجة. ذلك أنّ السلطان الأيسر بالرغم من حسن بلائه ضد الاسبان لم يحسن السيرة في الداخل، ولم ينجح في اجتذاب شعبه، وكان خصومه من السادة الفرسان مَن يلوذ بحماية قشتالة، وعلى رأسهم الأمير يوسف ابن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني وابن عم الأيسر، وهو المعروف في التواريخ القشتالية : « بابن إسماعيل »، وذلك لأنّ نسبه ينتهي إلى السلطان أبي الوليد إسماعيل الذي تولى العرش سنة (٧١٢ هـ)، وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الناقمين في المرية يناصر الأمير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله، وهو المعروف بالأحنف وكان الأحنف قد نجح في دخول غرناطة سراً مع نفر كبير من انصاره، واخذ يعمل على اذكاء الفتنة، فلما آنس سنوح الفرصة، ثار في عصبته واستولى على الحمراء والحصون المجاورة لها، وقبض على الأيسر وآله وزجّهم في السجن، ونادى بنفسه ملكا وذلك في أوائل سنة (١٤٤١م) أو أوائل سنة (١٤٤٢ م) حسبما تدلّ على ذلك وثيقة عربية، هي عبارة عن خطاب موجّه منه إلى ملك قشتالة في شهر ذي القعدة (٨٤٦ هـ — آذار — مارس ١٤٤٣ م)، يشير فيه إلى بعض المشاكل القائمة بين البلدين، ويطالب باطلاق سراح سفيره المعتقل في قشتالة (٣٠)

ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقرّ الأمور، وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قويّ من الزعماء والشعب، ويتزعّم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبدالبر زعيم بني سراج. وكان يقيم في حصن مونتى فريو في شمال غربي غرناطة ويؤيد

(٣٠) نشر نص هذا الخطاب مع صورته في كتاب : نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر — (٧٦ — ٧٨) — تطوان.

ولاية الأمير يوسف (ابن إسماعيل) المقيم في بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار هذا الأمير من إشبيلية إلى غرناطة ، ومعه سرية من الفرسان الاسبان أمدّه بها ملك قشتالة. والظاهر أنّ ابن إسماعيل استطاع التّغلب على الأحنف واحتل الحمراء ، وحكم مدى أشهر قلائل . ولكنّ الأحنف عاد وتغلّب عليه واستردّ عرشه (أوائل سنة ١٤٤٦ م) ، ثم هاجم الأحنف اراضي قشتالة ، وهاجم قلعة بني موريل وقلعة ابن سلامة وقتل مَن فيهما من الاسبان (١٤٤٦ م)، وسيّر في الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن إسماعيل . وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراغون وقشتالة ، فأرسل إلى ملك أراغون يعرض عليه محالفته ضدّ قشتالة ، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض الاسبان من ناحية مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم هزيمة شـــديدة (١٤٥٠ م). ثمّ عادت قواته تكرّر الاغارة والعيث في أرض الاسبان وتشغل قوّاتهم .وكان ابن إسماعيل يقيم أثناء ذلك في حصن مونتي فريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتّسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة، وغزوات الاسبان من جهة أخرى بقوى غرناطة وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوّة نفسه ، يثير غضب الشعب بطيغانه وقسوته وعنفه ، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لاسقاطه ، لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيّأ الجو لانقلاب جديد .

٦ـ السلطان يوسف الخامس (ابن اسماعيل) وحوادث ايامه

عاد ملك قشتالة بعد أن سوّى خلافه مع أراغون إلى التدخّل في شئون غرناطة، فزوّد ابن إسماعيل ببعض قوّاته.وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين في ظاهر غرناطة معركة شديدة، انتهت بهزيمة الأحنف وفراره، فدخل ابن إسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك في سنة (١٤٥٤م) . وفي بعض الروايات الأخرى أنّ السلطان الأحنف استمرّ في الحكم حتى سنة

(١٤٥٨م)، ثم خلفه في الحكم الأمير سعد بن علي حفيد السلطان يوسف الثاني واستمر في الحكم أربعة أعوام . ثم عزل في سنة (١٤٦٢م) وأعيد السلطان يوسف الخامس (ابن اسماعيل وحكم حتى سنة (١٤٦٢) (٣١) .

وكان السلطان ابن اسماعيل أميراً عاقلاً حازماً عادلاً ، محباً للاصلاح والاعمال الإنشائية ، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن ، واقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور . وكان فارساً بارعاً يشترك بنفسه أحياناً في مباريات الفروسية . ولأول عهده أرسل الى ملك قشتالة خوان الثاني يؤكد طاعته ، وساد السلم لمدة قصيرة بين المسلمين والنصارى، ولكن خوان الثاني توفى بعد أشهر قلائل ، وخلفه ولده هنري الرابع . وأبى ابن إسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة الجديد محاولاً أن يكتسب الشعب إلى جانبه ، وأن يوطد مركزه . وسير بعض قواته في نفس الوقت، فأغارت على الأراضي القشتالية، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته، واعتزم الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة، فسار إلى أراضي غرناطة في جيش ضخم وعاث فيها، وانتسف المروج والضياع، وقتل وسبى من أهلها جموعاً كبيرة ، ولقيه العام التالي إلى عيثهم في أراضي المسلمين ، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيان وأوقعوا هنالك بالاسبان ، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالاً بين الفريقين وكان الاسبان قد استولوا في تلك المدة المضطربة من حياة المملكة الإسلامية على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختياراً بتنازل سلاطين غرناطة ، والبعض الآخر باحتلالها قسراً . وكانت أعظم ضربة أصابت غرناطة في عهد السلطان ابن اسماعيل، سقوط ثغر جبل طارق في يد الاسبان. ففي سنة(١٤٦٢)م سارت إليه قوة من القشتاليين بقيادة الدوق مدينا سيدونيا واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع في يد الاسبان ، أول خطوة ناجعة في سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب ، والحيلولة دون قدوم الامدادات اليها من وراء

(٣١) Seco de Lucana : Una Conde : ibid ; V. 111. P. 201 — 202.

على أنّ خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر، كان قد خبا منذ بعيد، وأخذت دولة بني مرين القوية، تجوز مرحلة الانحلال والسقوط، وكان آخر ملوكهم السلطان عبدالحق، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المريني في سنة (٨٢٣ هـ - ١٤١٥ م)، وفي عصره ساد الاضطراب والتفكّك في أنحاء المملكة، واستبدّ وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي بالدولة. وكان بنو وطاس ينتمون إلى بطن من بطون بني مرين، وينافسون في طلب الرياسة والملك فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبدالحق، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم وفي مقدمتهم وزيره يحيى، ونجا قسم منهم وتفرقوا في مختلف الأحياء. وأسلم عبدالحق زمام دولته الى يهود، فبغوا وعاثوا بالدولة، فغضب الشعب على مليكه، واضطرمت الثورة، وعزل عبدالحق وقتل (٨٦٩هـ-١٤٦٤م)، وانتهت بمصرعه دولة بني مرين، بعد أن عاشت زهاء مائتي عام واستولى على تراث بني مرين وملكهم، بنو وطاس خصومهم القدماء، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يسترلى على فاس في سنة (٨٧٦ هـ-١٤٧١ م) (٣٢). وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة، بيد أنّها لم تكن من القوّة والمنعة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس، في سبيل الجهاد والنجدة، أسوة بما كانت تعماه دولة بني مرين القويّة الشّامخة.

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت وحيدة في مواجهة عدوّها القوى، دون حليف ولا ناصر. ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال، بدّاً من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه، وتأدية الجزية اغتناماً للمهادنة والسّلم. وكانت مملكة غرناطة، تجوز في هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الاضطراب الداخلي، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر، إضرام المنافسة بين العرش وبين الاسر النبيلة القويّة، مثل بني سراج، وبنى أضحى، وبني الثغرى وغيرهم، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر

(٣٢) الاستقصا (١٤٨/٢ و ١٥٠ - ١٥١ و ١٦٠).

القرية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء في البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت سنة (١٤٦٢ م) فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن اسماعيل ان يقضي على نفوذ بني سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها ، وهكذا كانت نار التفكك تعمل عملها المشئوم(٣٣).ومع أنّ غرناطة تمتّعت بمزايا الهدنة الخادعة التي عقدتها مع قشتالة لمدى قصير ، فقد كان من الواضح أنّ المملكة الاسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الانحلال الأخير .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى وقع انقلاب جديد في ولاية العرش الغرناطي ذلك أنّ الأمير سعداً عاد فهاجم الحمراء مع انصاره ، وانتزع العرش لنفسه سنة (١٤٦٣ م) وفر السلطان ابن اسماعيل وخصوم السلطان الجديد ، وهنا تلقي الرواية الاسلامية بعض الضوء على ماتلا من الحوادث في غرناطة وهذه الرواية هي رواية مؤرخ ورحّالة مصري زار المغرب والاندلس في تلك الفترة هوعبدالباسط بن خليل الحنفيّ ، دوّنها في مؤلفه المسمى : «كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » (٣٤) ، وهو يحدّثنا عن بعض أخبار الأندلس التي سمعها أثناء زيارته للمغرب وغرناطة سنة (٨٧٠ هـ) ، ويروى لنا ما وقف عليه من الحوادث الأندلسيّة حتى سنة (٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م) .

يقول الرحالة المصري : إنّ سلطان الاندلس في سنة (٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ / ١٤٦٣ م) كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر . وأنه ما كاد يجلس على العرش ، حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض بني سراج ، وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ، فسار سعد إلى مالقة ، وحكم أبو الحسن مكانه . وفي العام التالي (٨٦٨ م) لما اشتد ضغط الاسبان على الاندلس عاد

---

(٣٣) يرى المستشرق جانيجوس ان منافسات بني سراج وبني الثغر ، كانت من اهم اسباب التعجيل لسقوط غرناطة . Gayangos. ibid V. 1. P. 315

(٣٤) تحفظ نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمي Borg. 728 & 729 ، وهي في مجلدين : الاول في ٢٥٩ ورقة كبيرة ، والثاني في ٦٦ ورقة ، وترد أخبار الاندلس مبعثرة في حوليات المجلدين المتوالية .

أبو الحسن ، فعقد الصلح مع أبيه ، وأطلق سراحه ، واختار سعد السكن بالمرية فلم يعترض ولده ، ولم يلبث أن توفي في أواخر هذا العام وعندئذ خلص العرش لأبي الحسن . ولكن حدثت بعد ذلك منازعات حول ولاية العرش بين أبي الحسن وأخيه أبي الحجّاج يوسف ، ولم ينته هذا النزاع إلاّ بوفاة يوسف بعد ذلك

وفي ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح سلطان العثمانيين على القسطنطينيّة سنة (١٤٥٣) ، وانهار هذا الصرح المنيع الذي يحمي أوروبا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام. وانساب تيار الفتح العثماني إلى جنوب شرقي أوروبا، يكتسح في طريقه كلّ مقاومة ، وروّعت أوروبا النصرانية لهذا الخطر الجديد الذي يهدّد حريتها وسلامتها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوّة مضاعفة . تردّد هذا الصدى في إسبانيا النصرانية، حيث كانت مملكة غرناطة ماتزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثّل صولة الإسلام القديمة في إسبانيا ، وقد تغدو في الغرب نواة الخطر الإسلاميّ الداهم ، التي بدت طلائعه في الشرق على يد الغزاة الترك . ومن ثمّ ، فقد كان طبيعياً أن تجيش إسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة وان يذكي هذا الخطر الجديد ، اهتمامها بالقضاء على مماكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تحوزه مملكة غرناطة يومئذ من فتن داخلية ، وما كان يفتّ في قواها من عوامل الانحلال السياسي والاجتماعي ، فقد كانت تعتبر دائماً في نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره ، وكان أشدّ ما تخشاه إسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الاسلامي تنساب من وراء البحر ، كما حدث في الحقبة الأخيرة غير مرة . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الأسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدّره إسبانيا النصرانية . وكانت قشتالة في تلك الآونة بالذات ، تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتّحد إسبانيا النصرانية في مملكة قويّة متحدّة . وقد كانت خلال الاحداث التي توالت عليها في تلك المدة ، تجيش دائماً بنزعتها الصليبية المأثورة . فلما تحقّقت الوحدة ، واستقرت الأحوال ، واجتمعت الموارد

أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الاسلامية الصغيرة، تبدو لخصيمتها القويّة إسبانيا النصرانيّة، في الافق قوية سانحة(٣٥) .

نهاية دولة الاندلس

٨٦٨ هـ - ٨٩٧ هـ / ١٤٦٣ م - ١٤٩٢ م

الاندلس على شفا المنحدر

١- على ابو الحسن واحداث ايامه

كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب في الواقع وئيدة ، ولكن مؤكدة. ولم يك ثمة شك، في أنّ هذه المملكة الإسلامية الصغيرة التي يسودها الخلاف والتفرّق ، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنحدر ببطء، وأنّ هذه الأمّة الأندلسية التي أخذت تنكمش في مدنها وثغورها القليلة ، كانت تنظر إلى المستقبل بعين التوجّس والجزع ، وأنّ هذه الحياة الباهرة الساطعة التي كانت تحياها بين آن وآخر، كلما تربّع على العرش أمير قويّ رفيع الخلال، لم تكن إلاّ سويعات النّعماء الأخيرة في حياة أمة عظيمة خالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الاندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وكمثال على ما كان يتوقعه رجالات الأندلس : ما توقعه ابن الخطيب (٣٦) والمؤرخ ابن خلدون (٣٧)، ولكن لم ينصت أحد إلى توقعات المفكرين ، فكانوا كنبيّ في الصحراء .

---

(٣٥) نهاية الاندلس (١٤٦ - ١٥٥) .

(٣٦) انظر توقعاته في ازهار الرياض (١/٦٤) ونفح الطيب (٢/٥٧١) مثلا وازهار الرياض (١/٦٦) .

(٣٧) انظر ابن خلدون (٤/١٧٨) و (٧/٣٧٩) .

ولماتوفى السلطان سعد بن يوسف النصري في أواخر سنة (٨٦٨هـ ـ ١٤٦٣م) كان ولده الأكبر علي أبو الحسن الملقب بالغالب بالله (٣٨) متربعاً على عرش غرناطة قبل ذلك بأكثر من عام. وكان أبو الحسن يومئذ فتى في نحو الثلاثين من عمره، لأنه ولد قبل سنة (٨٤٠هـ)، بيد أنّه لم يستخلص الملك لنفسه إلاّ بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجّاج والسيد أبو عبدالله محمد المعروف: «بالزغل»، وقد توفى يوسف قبل مدة، وبقى الزّغل ليخوض حياة حافلة بالاحداث والمحن. وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم، يعشق الحرب والجهاد، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة في أرض الاسبان، وما كاد يستقرّ في عرشه، حتى أبدى همّة فائقة في تحصين المملكة، وتنظيم شئونها، وبثّ فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة، واستطاع أن يستردّ عدّة من الحصون والقواعد التي استولى عليها الاسبان. وتولّى وزارته وزير أبيه من قبل، القائد أبو القاسم ابن رضوان بنيغش(٣٩)، وكان هذا الوزير مثل سلفه الحاجب رضوان النصري، سايل أسرة نصرانية، أُسِرَ جدّه في بعض المعارك، وربّيَ في كنف الدار السلطانية، وتبوأت أسرته بين الأسر الغرناطية مكانة رفيعة، واشتركت في كثير من حوادث غرناطة السياسية، وتولّت الوزارة.

وفي أوائل حكمه، خرج عليه أبو عبدالله (الزّغل) (٤٠)، وكان يومئذ والياً لمالقة، وكان يضارعه في الشجاعة والجرأة وحب الجهاد، ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنري الرابع يستنصره على أخيه، ولقيه في محلته في ظاهر

---

(٣٨) انظر نفح الطيب (٢/٦٠٧).

(٣٩) اصله اسباني (Los Venegas).

(٤٠) الزغل: الشجاع او الباسل، والمصدر: زغلة، وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته اتم الانطباق. انظر دوزى Supp. aux Dict arabes, V. 11. P. 594.

سنة (٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م) ، فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالاغارة على اراضي قشتالة (١٤٧٠م)، ثم عاد في العام التالي فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من الاسبان بعض المواقع التي استولوا عليها . وشغل أبو الحسن في الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبي عبدالله الزغل الثائر عليه ، وكان النضال سجالاً بينهما ، وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض الاسبان ، وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلي ، ذلك حتى وفاة ملكهم هنري الرابع في سنة (١٤٧٤ م) .

وفي تلك الأثناء، خرجت مالقة عن طاعة أبي الحسن ، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطي ، وانضمّ إليه كثير من القوّاد والأجناد ، فسار أبو الحسن إلى مالقة، وحاصرها غير مرّة، ولكنه لم يفلح في إخماد الثورة. واستدعى القادة الثائرون أخاه أبا عبدالله محمد بن سعد الزغل، وكان يومئذ بقشتالة، واعلنوه ملكاً عليهم ، وانقسمت المملكة بذلك إلى شطرين متخاصمين .

ولما تفاقم النزاع بين أبي الحسن وأخيه أبي عبدالله ، ولم يحسم بينهما السيف ، ووضحت لهما العواقب الخطيرة التي يمكن أن تترتّب على هذه الحرب الأهلية ، جنح الفريقان إلى الرويّة، وآثرا الصلح والتّهادن ، فعقدت الهدنة بين الأخوين ، على أن تحترم الحالة القائمة، فيبقى أبو عبدالله الزّغل على استقلاله بمالقة وأحوازها، ويستقرّ أبو الحسن في عرش غرناطة وما إليها وعقدت في نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والاسبان .

وفي هذه الآونة ، التي اخذت عوامل التفرّق تمزّق أوصال المملكة الاسلامية الصغيرة، كانت إسبانيا النصرانية تخطو خطوتها الأخيرة نحو الاتحاد النهائي ، وذلك باقتران فرديناند ولد خوان الثاني ملك أراغون بايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة في سنة (١٤٧٩ م) وتبوّىء فرديناند بعد ذلك عرش أراغون ، وهكذا اتّحدت المملكتان الاسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية، وأصبحت إسبانيا النصرانية قوّة

عظيمة موحّدة، وكان تفرّقها من قبل يتيح للأندلس أوقاتاًمن السّلام والأمن، ولكن الأندلس، وقد صارت إلى ماصارت إليه من الانحلال والضعف ، أضحت تواجه وحدها اعظم قوّة واجهتها في تاريخها (٤١) .

وحاول أبو الحسن أن يجدّد الهدنة مع القشتاليين، ليتفرّغ لأعمال التّحصين والانشاء ، وكان يلوح في البداية أنّ العلائق بين الفريقين تسير نحو التفاهم والسلم . وهناك ما يدلّ في الواقع على أنّه كان يقوم يؤمئذ بين مملكة غرناطة، وبين قشتالة صلح ثابت حسبما يؤيّد ذلك اتّفاق عقداه يومئذ على إجراء التحكيم فيما وقع من كلّ منهما على أراضي الآخرين من ضروب العدوان التي ترتّب عليها القتل والأسر والحرق، سواء في البر أو البحر (٤٢) وعلى هذا فقد أرسل السلطان أبو الحسن في أوائل سنة (٨٨٣هـ/١٤٧٨ م) إلى ملك قشتالة، يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما . وكان فرديناند وإيزابيلا يقيمان يومئذ في اشبيلية، فوافقا على ماطلبه أبو الحسن، ولكن بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتها، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية من المال والأسرى التي كان يؤديها السّلاطين السّالفون . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان ابي الحسن يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية . فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين باباء ، وأنذر السفير القشتالي بانّه ليس لديه سوى الحرب والجهاد . ولم يمض سوى قليل ، حتى أغار القشتاليون على حصن بللنقة (فيلالونجال) واستولوا عليه ، وعاثوا في أحواز رندة ، وردّ أبو الحسن على ذلك باعلان الحرب على قشتالة ، وزحف توّاً على بلدة (الصخرة Zahara) وهي قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية في شمال غربي مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب ،

(٤١) انظر مراة المحاسن ـ (١٤٢) ـ ١٣٢٤هـ .

(٤٢) انظر وثيقة الاتفاق Archivo general de Simancas, p. R. 11 — 4
وفيها يصف فرديناند وايزابيلا بما يأتي : « السلطان المعظم الكبير الشهير الاصيل دون هرندة ، والسلطانة الكبيرة الشهيرة دوني قشبيل »

فباغتها أبو الحسن ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها وسبى سكانها (كانون الثاني - ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر في تلك المعركة الأولى، وبالرغم مما بثّه هذا الظفر في طوائف الشعب من الغبطة والحماسة ، فقد عُدّ عند بعض العقلاء تصرفه اعتداءً لامسوّغ له وتوجسوا شراً من عواقبه وتقول الرواية القشتالية : إنّ فقيهاً زاهداً شيخاً عرف بنبوءاته، كان بين الوفود التي ذهبت غداة هذا الانتصار إلى قصر الحمراء ، وأنّه صاح في وجه السلطان قائلاً : «ويل لنا. لقد دنت ساعتك يا غرناطة، ولسوف تسقط أنقاض الصخر فوقه رؤوسنا ، وقد حلّت نهاية دولة الاسلام بالأندلس (٤٣) » على أنّ هذا الظرف المؤقت كان له أعظم الأثر في إحياء معنويات الشعب الغرناطي ؛ ولاح لاسبانيا النصرانية يومئذ أنّ الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوّة. ولكن هذا النّصر الخلّب لم يطل أمده ، ذلك لأنّ أبا الحسن لم يلبث أن ركن إلى الدّعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السّخط والغضب بما ارتكبه في حقّ الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدّة، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية، وما أثقل به كاهلهم من صنوف المغارم ، وما أغرق فيه من صنوف اللّهو والعبث ، كان وزيره أبو القاسم بنيغش يجاريه في أهوائه وعسفه، ويتظاهر أمام الشّعب بغير ذلك . وهكذا عادت عوامل الفساد والانحلال والتفرّق إلى مملكة غرناطة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة (٤٤) .

وكان السّلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمّه السلطان الأيسر (٤٥) اسمها عائشة، وهي أم أبي عبدالله آخر ملوك غرناطة . وتحتل شخصية عائشة الحرّة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس في تاريخ تلك الأيام الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير الاعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن، قدر

(٤٣) Lafuente Alcantra ; ibid; V. 111. P. 202 — 205. وكذلك Conde : ibid, V. 111. P. 210, 211

(٤٤) انظر كتاب : اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر .

(٤٥) اخبار العصر : طبعة ميللر (٦) وطبعة تطوان (٥) .

ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة ، التي تذكرنا خلالها السامية ومواقفها الباهرة وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة، بما نقرأه من أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

وكانت عائشة (الحرة) ملكة غرناطة في ظل ملك يحتضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض ، وقد رزقت من زوجها الأمير أبى الحسن بولدين هما : أبو عبدالله محمد، وأبو الحجاج يوسف. وكانت روح العزم والتفاؤل التي سرت في بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية الأمل في إنقاذ هذا الملك التالد . كانت عائشة ترى السير الطبيعي أن يؤول الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن الأمير أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة ، واسترسل في أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن، تعرفها الرواية الاسلامية باسم: «ثريا » الرومية .وتقول الرواية الاسبانية ، إن ثريا هذه، واسمها النصراني : « إيزابيلا »، وتعرفها الرواية أيضاً باسم: «زريدة» ، كانت ابنة قائد من عظماء إسبانيا، وهو القائد « سانشو خمنيس دي سوليس»، وإنها أخذت أسيرة في بعض المعارك ، وهي فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فاعتنقت الاسلام وتسمت باسم : « ثريا» أو « كوكب الصباح » ، فهام بها الأمير أبوالحسن، ولم يلبث ان تزوجها واصطفاها على زوجته الأميرة عائشة التي عرفت حينئذ بالحرة تمييزاً لها من الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها(٤٦) ، ويقول لنا المؤرخ المعاصر (هرناندو دي بايثا Hernando de Baeza) : وإن السلطان أبا

(٤٦) Jrving : Conquest of Granada حيث يورد اقوال الرواية الاسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى : ان ثريا كانت ابنة حاكم مرتش النصرانى : Conde ; ibid, V. 111. P. 242
ولكن الرواية العربية تكتفى بالقول بان ثريا كانت جارية رومية ، انظر نفح الطيب (٦٠٨/٢) واخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر طبعة ميللر .

الحسن كان يقيم يومئذ مع زوجه الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش ، بينما كانت تقيم الحرّة وأولادها في جناح بهو السباع (٤٧).

ولم يكن زواج الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم في قصور الأندلس،وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات نصارى، مثل عبدالرحمن الناصر، وحفيده هشام المؤيّد ، وكذلك ولدبعض الأمراء من بني نصر ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن إسماعيل النّصري . ولم يكن الزواج المختلط نادراً في المجتمع الأندلسي الرفيع ، ولاسيما منذ أيام الطوائف، كان كثيرمن الأكابر والأشراف يتزوّجون بفتيات من النصارى سواء كنّ من السبايا أم من الأحرار ،ولم يكن العكس نادراً أيضاً فمنذ ته الى سقوط القواعد والثغور في يد النصارى ، كثر الزواج بين المدجّنبين وبين النصارى ، وفقد المدجّنون بمضيّ الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا في المجتمع النصراني . ونرى بين زعاء الطوائف بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصرانيّ ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلّم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلّد السلاح القشتالي ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الاسبان يعرفونه بالملك : «دون لوبي» .

ولم يكن ثمة ريب في خطورة الآثار الاجتماعية التي يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد أهمّ العوامل التي أدّت إلى انحلال المجتمع الاسلامي ، وانحلال عصبيّة الدولة الاسلامية . كذلك لم يكن ثمةّ ريب في أنّ هذه الآثار الهدامة ، كانت أشدّ خطراً وأعمق وقعاً وقت الانحلال العام .

---

(٤٧) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول : ان ثريا كانت جارية يونانية اى رومية ، انظر
Les Cosas Garanada. ( ). History of Ferdinand and Isabella. p. 219
(ص ٦٥) .

وكان أبو الحسن قد شاخ وقد أثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة في يد زوجة الفتية الحسناء ، وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة شديدة الذكاء والاطماع . وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة ، واستئثارها بالنفوذ والسلطان في هذه الظروف العصيبة التي تجوزها المملكة الاسلامية ، عاملاً جديداً في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أمر أبعد من السيطرة على الملك الشيخ ، ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين هما : سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والاغراء لابعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك ؛ وكان أكبرهما أبو عبدالله محمد ولي العهد المرشح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها ، فمازالت بأبي الحسن ، حتى نزل عند تحريضها ورغبتها، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية . ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها ، حتى أمر السلطان باعتقال عائشة وولديها فزجوا في برج قمارش أمنع أبراج الحمراء ، وشدد في الحجر عليهم وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة .

وأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ،وكان ذلك نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين : فريق يؤيد الأميرة وفريق يؤيد السلطان وحظيته ، واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ الى حين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حد فحرضت الملك على إزهاق ولده أبي عبدالله عثرة آمالها .

وكانت عائشة وافرة العزم والشجاعة، فلم تستسلم إلى قدرها، بل عمدت الى الاتصال بعصبتها وانصارها وفي مقدمتهم بنو سراج، اقوى اسر غرناطة، وأخذت تدبّر معهم وسائل الفرار والمقاومة. ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط، ويقال إنّه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية الحسن، قررّت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م)، استطاعت الأميرة أن تفرّ مع ولديها محمد ويوسف بمعونة بعض الأصدقاء المخلصين، والرواية الاسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمّهما (٤٨) ولكن الرواية القشتالية تحدّثنا عن فرارها مع ولديها . وتقدم إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة فتقول : إنّ بعض الخدم المخلصين، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر مما يلي برج قمارش، وإنّ الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل (٤٩) .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفرّ من معتقلها، واختفى الفارّون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضمّ إليهم كثير من أهل غرناطة . وظهر ولدها الأمير الفتى محمد أبو عبدالله في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره، وكان السلطان أبوالحسن وقت فرار الأميرة وولديها، بعيداً عن غرناطة، يدافع النصارى عن أسوار لوشة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة .

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام، فلما اضطرمت نار الحرب بين المسلمين، ولاحت الفرصة للغزو سانحة، قرّر بدء

(٤٨) اخبار العصر (١٢) ونفح الطيب (٢/٦٠٩) .
(٤٩) L. del marmal ; ibid ; 1. Cap. XII.

الحرب على غرناطة. وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من الهدنة، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة. فسيّر حملة قويّة إلى الأندلس، سارت منحرفة من جهة الغرب. ورأى القوّاد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة الحامة (الحمة) التي تقع في قلب الأندلس، جنوب غربَ غرناطة، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها، ولأنّ الإستيلاء عليها، يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً. وكانت الحامة مدينة غنيّة، ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التي كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمرائها. ونجحت الخطة واستطاع النصارى مباغته الحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جنح الظلام ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومتها الباسلة، وأمعنوا في المسلمين قتلاً وأسراً وسبيا (المحرم سنة ٨٨٧ هـ — ١٤٨٤ م) وهرع السلطان ابو الحسن في قواته لأنقاذ الحامة واستردادها؛ وحاصرها بشدّة، ولكنه لم يستطيع اقتحامها. ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما علم أنّ ملك قشتالة يتقدم لانجادها في جيش قويّ ضخم(٥٠)، ولم تمضِ أشهر قلائل، حتى زحف ملك قشتالة على لوشة(٥١) الواقعة على نهر شنيل في شمال غربي الحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ودافعت عنها حاميتها اروع دفاع بقيادة قائدها الامير الشيخ على العطار، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة في ذلك العصر(٥٢). وسار أبو الحسن بقواته مسرعاً لانجاد لوشة، وانتهى الأمر بأن رُدّ النصارى بخسارة فادحة في الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ هـ — تموز — يوليه ١٤٨٢ م)، وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى بعض «الأنفاط» التي تستعمل لحصار المدن(٥٣).

(٥٠) اخبار العصر (٦ و ٩) وكذلك Prescoit ; ibid ; P. 206 — 210
(٥١) هي بالاسبانية (Loja) وهي بلد الوزير ابن الخطيب.
(٥٢) تنوه الرواية القشتالية ببطولة هذا القائد المسلم، وتعرفه باسم: ((Aliatar)) انظر رواية Hermando de Baeza المنشورة بعناية ميللر ضمن كتاب: اخبار العصر (ص ٧٨).
(٥٣) اخبار العصر (١١).

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه ، حتى تجهّم الجوّ من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرزه من نجاح ، وسرعان ما نشبت الثورة في غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبي عبدالله . ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة . ففرّ الملك الشيخ الى مالقة ، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف « بالزّغل » ؛ أي الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جرّاراً سيرّه ملك قشتالة للاستيلاء عليها(٥٤)

٢ ـ ابو عبد الله محمد بن علي ابي الحسن واحداث ايامه

وجلس أبو عبدالله محمد(٥٥) مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧ هـ) ، وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالها ، وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبدالله يومئذٍ فتى في نحو الخامسة والعشرين(٥٦) . وكان فرديناند الخامس عقب هزيمته أمام لوشة ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها ، وكانت أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقعون للاستيلاء عليها لاتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكنّ المسلمين كانوا على أتمّ أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى في عدّة معارك دمويّة في الهضاب الواقعة فيما بين مالقة وبلش (Velez) ، فهزم النصارى في كلّ

---

(٥٤) نهاية الاندلس (١٧٤ ــ ١٨٨) .

(٥٥) يعرف السلطان ابو عبدالله في الرواية القشتالية والافرنجية بوجه عام باسم : (Boabdil) محرفا عن ابي عبد اللــــه . وتورد الوثائق القشتالية الرسمية المتعلقة بسقوط غرناطــة اسمه على النحو التالي (Muley Baaudili Boudili Beaudili) ، ويورد مارمول اسمه مصححا (Abi Abdili, Abi Abdala, Abdilehi)

(٥٦) يشير المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الى هذا الانقلاب ، ويندد بسلوك سلاطين غرناطة في الوثوب بعضهم على بعض بقوله : « وهــو غالب عادتهم بتلــك البــلاد ، مع الاباء والاولاد ، بــل والاجداد ، انظر (Al-Andalus ; Vol. 1. 1933 ; Fasc. 2) .

مكان وردّوا بخسائر فادحة .وخرج الأمير محمد بن سعد (الزّغل) في قوّاته من مالقة ولقى النصارى على مقربة منها ، ونشبت بين الطرفين معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة،وقتل وأسر منهم عدّة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ هـ آذار-مارس - ١٤٨٣ م)(٥٧) . وتعرف هذه المعركة « بالشرقية » لوقوعها في المنطقة المسماة بذلك في شرق مالقة وكان منظم هذا الدفاع الباهر كله أبو عبدالله «الزّغل» . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع في جنبات الأندلس، فانتعشت الآمال ، وسرت الحماسة في كلّ مكان ، وهبّت على غرناطة روح جديدة من الاستبشار والنصر .

واعتزم ملك غرناطة الفتى أبو عبدالله محمد،أن يحذو حذو عمه الباسل في الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصـــة اضطراب النصارى عقب هزيمتهم ، فخرج في قواته في شهرربيع الأول سنة (٨٨٨هـ نيسان أبريل ١٤٨٣م) متجها نـــحو قرطبة شمال غربي غرناطة ، واجتاح في طريقه عددا من الحصون والضياع ، وهزم النصارى في عدة معارك محلية ، ثم ارتد مثقلا بالغنائم • وفي طريق العودة ، أدركه النصارى في ظاهر قلعة اللسانة (Luccena)[٥٨] وكان يزمع حصارها • ونشبت بين الطرفين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون الى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان من بين الأسرى السلطان أبو عبدالله نفسه [٥٩] عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه الى قـــائدهم الكونت وى كابرا (قبره) فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله باحدى الحصون الغربية تحت حراسة

---

(٥٧) اخبار العصر (١٣) .

(٥٨) هى بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم في نطاق ولاية قرطبة ، جنوب شرقي مدينة قرطبة .

(٥٩) أخبار العصر (١٤) ، ويصف عبد الباسط بن خليل المصرى في حولياتـه هذه المعركة : بالكارثة العظمي والداهية الطماء .

مشددة ، وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبأ السعيد ، فأمر فردينا ند أن يؤتى بالأسير الملكي الى قرطبة ، وأن يستقبل استقبال الأمراء ، فأخذ أبو عبدالله وأصحابه الى قرطبة في حرس قوي ، واحتشد أهل قرطبة لرؤية موكب الملك المسلم ، وكان أبو عبدالله يرتدي ثوباً من القطيفة السوداء ، ويمتطي حصاناً أسود عليه سرج ثمين ، وكان وجهه يشع كآبة • وأخذ الملك الأسير أولا الى دار الاسقف المواجه للمسجد الجامع • ثم أخذ بعد ذلك الى أحد القلاع الحصينة ، وعوامل هناك باكرام وحفاوة ، وأقام في أسره مكتئباً ينتظر يوم الخلاص •

وعاد المسلمون الى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقتهم الهزيمة وفتت في عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن والأسى الى حرم الأمير وقرابته ، و لم يحتفظ فيها بهدوئه وسكينته سوى أمه الأميرة عائشة • واجتمع الأمراء والكبراء والقادة ، وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير ، ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الأعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلا ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبدالله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد الى المنكب فأقام بها حيناً حتى توفى (٨٩٠هـ ــ ١٤٨٥م) ، وجلس الزغل على العرش يدير شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها •

أما السلطان أبو عبدالله محمد ، فلبث يرسف في أسره عند النصارى • وأدرك ملكا قشتالة في الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربهما في مملكة غرناطة ، وبعد امعان البحث والتدبير ، رؤى أن يفرج عن الملك الاسير لقاء أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها ، لأن هذا الافراج من شأنه أن يزيد في اضطرام

الحرب الاهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك في اضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم . وبذل أبو الحسن حين عوده الى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عددا من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير الى حين وبذلت الاميرة عائشة من جهة أخرى مجهودا آخر لانقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذي يناصره ، وأرسلت الى ملك قشتالة سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ، ليفاوض في الافراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاها . وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي : أن يعترف أبو عبدالله بطاعة الملك فرديناند وزوجته الملكة ايزابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبلا من الذهب ، وأن يفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة ، يختارهم ملكهم ، ثم يطلق بعد ذلك في كل عام سبعين أسيرا لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه ، وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالافراج عن أبى عبدالله فوراً، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الاسلامية ، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه من مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى تم فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الافراج عن السلطان الأسير (٦٠) .

وتختلف الروايات في تاريخ الافراج عن أبي عبدالله محمد ، فتقول بعض الروايات المعاصرة : إنّه أفرج عنه لأشهر قلائل من أسره في أوائل (أيلول ـ سبتمبر١٤٨٣م)، ولكن هناك رواية أخرى تقول بأنه استمر في الأسر أكثر

(٦٠) أورد المستشرق (M. Gaspar y Renira) في كتابه :
Arabes de la Corte Nazari de Granada

من عامين ، وإنه لم يفرج عنه إلاّ في أواخر سنة (١٤٨٥ م)أو أوائل سـنة (١٤٨٦ م) (٦١) . وهذه رواية يؤيّدها صاحب أخبار العصر،إذيقول: إنّ العدو أطلق سراحه في أواخر سنة(٨٩٠هـ-١٤٨٥ م)عقب انتصارالمسلمين على النصارى في موقعة موكلين(٦٢)هذا نضلاً عن أنّه يذكر لنا أنّ أبا عبدالله قد أسر في موقعة أخرى هي موقعة لوشة، كما سيأتي وأنه لم يفرج عنه إلاّ في أواخر سنة (٨٩١ هـ – ١٤٨٦ م) (٦٣) .

وعلى أيّ حال ، فقد أفرج عن أبي عبدالله ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق التي تكفل لهما تحقيق سياسة قشتالة في القضاء على مملكة غرناطة ، وبعد أن أتى بالرهائن المشترط تسليمهم . وسار أبو عبدالله وصحبه الذين قدموا لمرافقته،ومعه سرية من الجند القشتاليين،إلى بعض الحصون الشرقية التي قامت بدعوته (٦٤) . ولم يك شك في أنّ عقد مثل هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على مملكة غرناطة،وقد وضع فرديناند برنامجه المحكم لكي يستغل أسر ملك غرناطة ويستعين به على تنفيذ برنامجه المدمّر . وكان أبو عبدالله أميراً ضعيف العزم والأدارة ، قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشيء من الخلال الباهرة التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأيّ الأثمان والوسائل . وقد وجد ملك قشتالة القويّ في ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجّهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيّديه في غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأنّ الصالح مع ملك قشتالة خير وأبقى.وسيّر ملك قشتالة في نفس الوقت

---

(٦١) Gaspar y Renera ; ibid ; P. 27 .

(٦٢) اخبار العصر (١٨) .

(٦٣) اخبار العصر (٢١ – ٢٢) .

(٦٤) اخبار العصر (١٨) .

قواته في أنحاء مملكة غرناطة ، لكي تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كلّ ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الاسلامية . وزحف القشتاليون على منطقة الغربية (غربي ولاية مالقة) في أوائل سنة (٨٩٠هـ) واستولوا على حصن قرطبة وحصن ذكوين وعدّة حصون أخرى تقع شمال غربي مالقة في منتصف الطريق بينها وبين رندة ، وبذلك عزلت رندة ، وأصبح الطريق ممهّداً للاستيلاء عليها. وعلى أثر ذلك زحف القشتاليون على (رندة) وهي معقل الأندلس في قاصية الغرب وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها، وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغرى زعيم قبيلة غمارة . ولم يستطع أهل رندة أن يثبتوا طويلاً لعدم استعدادها للدفاع ، لبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقّي الأمداد السريع ، فطالبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمتعتهم ، واستولى القشتاليون على رندة في (جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ — نيسان — أبريل ١٤٨٥ م) ، ثمّ استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة في تلك المنطقة ، وكان سقوط هذه المدينة الأندلسية التالدة ضربة شديدة للمسلمين ، وبسقوطها انهارت كل وسيلة للدفاع عن منطقة الغربية ، وأصبح القشتاليون بذلك يهددون ثغر مالقة من الغرب (٦٥) وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مكلين ، الواقع شمال غربي غرناطة ، وكان به الأمير ابو عبدالله الزّغل في قوّة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه. ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان القشتاليون بقيادة الونت دي قبرة الظافر في معركة اللسانة وكادت الدائرة تدور في البداية على المسلمين ، ولكنهم . بذلوا جهد المستميت بقيادة أميرهم الباسل ، وانتهت المعركة بأن رُدّ الاسبان بخسائر فادحة في الرجال والعدد(شعبان ٨٩٠هـ — تموز ، يوليو ١٤٨٥ م) وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة (٦٦) . ولكن كان من سوء الطالع انه لم يمضى قليل على ذلك حتى نشبت في غرناطة حرب أهلية جديدة . وكان الملكان الكاثوليكيان قد أطلقا سراح أبي عبدالله

(٦٥) أخبار العصر (١٥) .

(٦٦) أخبار العصر (١٧) .

في تلك الآونة بالذات ، بعد أن وقّع معاهدة الخضوع والطاعة كما ذكرنا ، والواقع أنّ الحرب الأهلية كانت تضطرم في الأندلس خلال أسر أبي عبدالله ، وكان الزغل بعد أن تربّع على عرش غرناطة ، يحاول استخلاص الأندلس كلّها لنفسه ، وكان الأمير يوسف أبي الحجّاج شقيق أبي عبدالله ، قد استقرّ في المرية يحاول منازعة عمّه الزّغل ، فسار الزّغل إلى المرية ، وثار بها انصاره ، وغلبوا على خصومهم ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وقُتل يوسف أثناء ذلك ، وقُتل يوسف ويقال : إنّ قتله كان بوحي من أبيه أبي الحسن أو عمّه الزّغل وما كاد الزّغل يعود إلى غرناطة ، حتى اضطرمت الفتنة من جديد . وكان أبو عبدالله حينما أطلق سراحه قد سار الى بعض الحصون الشرقية ، فقامت بدعوته ، وكان يشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة ، وأنّه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته ، وكان قد سار إلى منطقة بلش(٦٧) في شرقي بسطة واعلن نفسه ملكاً من جديد .

وكان من الواضح أن اضطرام الفتنة في غرناطة ، في هذا الوقت بالذات ، لم يكن بعيدا عن وحي أبي عبدالله وحزبه وقام أهل ربض البيازين ، وهو حي غرناطة الشعبي ، الواقع في شمالها الشرقي تجاه مدينة الحمراء ، بدعوة أبي عبدالله • وكان أهل البيازين دائما ، عنصرا من عناصر الاضطراب والشغب ، وكان لهم دائما ضلع في كل ثورة وفتنة(٦٨) • وشغل ملك غرناطة أبو عبدالله الزغل باخماد هذه الفتنة الجديدة عن مقاتلة الاسبان • وبذلك تحقق الغرض الذي يرمي اليه ملكا قشتالة ، وكان ذلك في أوائل سنة (٨٩١هـ ــ أوائل ١٤٨٦م) • واشتدت الفتنة ، ونصب الزغل على البيازين المجانيق والانفاط ، ودافع أهل البيازين عن أنفسهم دفاعا شديدا ، وكان

(٦٧) المقصود هنا بمنطقة بلش بلدتا : بلش الحسناء (Velez Rubio) وبلش البيضاء (Velez Blanco) وكلتاهما تقع على مقربة من الاخرى ، في شمال شرقي مدينة بسطة .

(٦٨) أخبار العصر (١٨) ونفح الطيب (٢/٦١١) ، وانظر Gaspar y Remira ; ibid ; P. 23 — 24 and 30 .

أبو عبدالله خلال ذلك يبعث رسله اليهم ، ويعدهم بمقدمه . وطالت هذه الفتنة أكثر من شهرين ، ثم بدأت المفاوضة بين أبي عبدالله وبين عمه الزغل (ملك غرناطة) في عقد الصلح ، وارتضى أبو عبدالله أن ينزل عن دعواه في العرش ، وأن يدخل في طاعة عمه[٦٩] . وفي رواية أخرى أنهما اتفقا على تقسيم المملكة الى قسمين ، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ، ويختص أبو عبدالله بحكم الانحاء الشرقية[٧٠] .

وعلى أي حال ، فقد انتهز ملك قشتالة ، فرصة هذه الفتنة ، للزحف على مدينة لوشة . وهنا تتفق الروايات الاسلامية والقشتالية ، على أن أبا عبدالله ، حينما علم بتهديد الاسبان للوشة ، سار اليها وتحصن بها ، مع نخبة من أنجاد الفرسان . وهاجم الاسبان مدينة لوشة ، وشددوا الحصار عليها ، وسلطوا على أسوارها الانفاط والعدد ، وأبدى المسلمون بسالة فائقة في الدفاع عن مدينتهم . وتقول الرواية القشتالية أن ابا عبدالله بذل في هذا الدفاع مجهودا عظيما . وأنه جرح أثناء ذلك[٧١] ، ولكن لم نعثر على ما يؤيد ذلك في الرواية الاسلامية . ويكتفي صاحب أخبار العصر بالقول : بأن أبا عبدالله كان في لوشة وقت حصارها[٧٢] ، ويروى صاحب نفح الطيب بأن أهل غرناطة أذاعوا بأن أبا عبدالله ما جاء للوشة الا ليسلمها لملك قشتالة[٧٣] .

وعلى أي حال ، فان بسالة المسلمين في الدفاع عن لوشة ، لم تغن شيئا أمام القوة القاهرة ، وفتك الانفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا الى التسليم ، وذلك بالشروط التالية : أن يؤمن أهل لوشة الذين يرغبون في مغادرتها في

(٦٩) اخبار العصر (١٦) .
(٧٠) Gaspar y Remira ; ibid P. 24 .
(٧١) Gaspar y Remira ; ibid, P. 32 .
(٧٢) اخبار العصر (١٩) .
(٧٣) نفح الطيب (٢/٦١١) .

أنفسهم وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، وأن يسمح لمن يشاء منهم أن يعيش في قشتالة أو أراغون أو بلنسية بذلك ، وأن تسلم المدينة الى ملك قشتالة مع سائر الاسرى الاسبان • ودخل القشتاليون لوشة في (٢٦ جمادى الاولى سنة ٨٩١هـ ــ مايس ــ مايو سنة ١٤٨٦م) ، وسار معظم أهلها الى غرناطة ، بأمتعتهم وخيلهم وسلاحهم •

وأما ما يتعلق بأبي عبدالله ، فتقول الرواية القشتالية ، ان موقفه في الدفاع عن لوشة ، اعتبر منافيا لتعهداته للملكين الكاثوليكيين ، ونكرانا لحسن الصنيعة ، ومع ذلك فقد ارتضيا الصفح عنه ، وأن يسمح له بالاحتفاظ بلقب ملك غرناطة ، وأن يمنح لقب : « صاحب وادى آش » ، اذا استطاع أن يستولى عليها ، واذا أراد الالتجاء الى قشتالة ، فانه يسمح له أن يعيش هناك آمنا على نفسه ، وان شاء العبور الى المغرب أمده ملك قشتالة بوسائل الانتقال[٧٤] • على أننا نرى على ضوء الرواية الاسلامية ، وسير الحوادث أيضا ، وتحيز ملكا قشتالة لابي عبدالله دون مسوغ ، أن موقف أبي عبدالله من حوادث لوشة كان موقفا مريبا • والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة الى قضيته ، والى مقاومة عمه ونزعه عن العرش • وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه ، ولم يكن خافيا أنه كان يستظل بمظاهرة الاسبان وتأييدهم ، وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه[٧٥] ، فهو عميل للاجنبي كما يبدو •

ولما غادر ملك قشتالة لوشة ، أخذ معه أبا عبدالله اما أسيرا ، حسبما يذكر صاحب أخبار العصر ، أو أنه سار معه ليستمد عونه في تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهي خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لانها

---

(٧٤) . Gaspar y Remira ; ibid , P. 32

(٧٥) نهاية الاندلس (١٩٦) •

تخدم أغراضه ومطامعه في القضاء على تلك المملكة الصغيرة التي مزقتها الحرب الاهلية .

ولم يغفل فرديناند تلك الفرصة الذهبية لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أراضي مملكة غرناطة ، فبينما الحرب الاهلية تضطرم في العاصمة وحولها ، اذ سار الاسبان الى حصن اليورة الواقع شمال غربي غرناطة ، وحاصروه وضربوه بالانفاط حتى اضطر أهلـه الى التسليم والخروج عنه ، ثم سـار الى حصن مكلين الواقع شمال شرقي اليورة وهاجموه . ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت بتحطيم أسواره بفعل الانفاط واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه الى غرناطة ، ثم استولى الاسبان بعد ذلك على حصن قلنبيرة الواقع شرقي مكلين بالامان(٧٦) ، اذ رأى أهله ما نزل بغيرهم ، ففضلوا التسليم دون قتال . واستولوا بعده على سلسلة أخرى من القلاع والحصون التي تحمي مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدي دورها فيما بعد في التضييق على العاصمة وتهديدها(٧٧) .

وهنا نقف قليلا لنتساءل عن حقيقة هذه «الانفاط» التي توالى ذكرهـا في سير هذه المعارك ، خاصة في لوشة ورندة والحصون المجاورة ، والتي كانت فيما يبدو عمدة الاسبان في التفوق على المسلمين في تحطيم تلـك الحصون القوية . وقد أشارت الرواية الاسلامية عن سقوط غرناطة الى الانفاط ، وهي رواية صاحب : أخبار العصر ، وهي التي كتبها بعد وقوع تلك الاحداث بنحو نصف قرن فقط ، وكان شاهدا لها ومشاركا فيها ، الى تلك الانفاط في عدة مواضع ثم وصفها لنا بهذا الوصف : « وكان له (أي ملـك

(٧٦) حصن اليورة او بلدة اليورة : هى بالاسبانية (Jllora) وموكلين أو مكلين هى بالاسبانية (Maclin) ، وقلنبيرة هـى (Colomera) ، وهى اليوم من بلاد منطقة غرناطة الشمالية الغربية

(٧٧) اخبار العصر (٢٢) .

قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد في الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهي تشتعل نارا ، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من جملة ما كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل فيها » .

ونحن نعرف ، أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يحذقون استعمال الرمي بالنار والانفاط ، وأن هذه النار كانت ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات ، على معسكرات العدو وحصونه وسفنه في البحر فتفتك بها . وقد لعبت هذه النار دوراً مهماً في الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذي استأثر به المسلمون مدى حين في الشرق ، قد عرفه مسلمو افرقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجري ، واستعملوه في محاربة أعدائهم الاسبان ففي حصار لبلة (٦٥٥هـ ــ ١٢٥٧م) استعمل الموحدون لدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة ، الات تقذف حجارة ومواداً ملتهبة يصحبها دوي كالرعد . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور ، ومنذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) نرى مسلمي الاندلس يستعملون لمقاتلة الاسبان آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوي مخيف (٧٨) . وظهرت براعة الأندلسيين في استعمال هذه الآلات في عدة مواقع . ففي حصار بياسة سنة (٧٢٤هـ ــ ١٣٢٤ م) في عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات في موقعة وادي لكة (ريوسليتو) سنة (٧٤٠هـ ــ ١٣٤٠ م) ، وفي الدفاع عن الجزيرة سنة (٧٤٢هـ ــ ١٣٤٢ م) وذلك في عهد السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات انها كانت نوعاً من المدافع

(٧٨) مواقف حاسمة ــ ط ٣ ــ (١٠٨ ــ ١٠٩) .

الساذجة التي تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملتهبة ، التي كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وفقوا في هذا العصر أيضا الى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألماني برتولد شفارتز في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي . ومن المرجح أن الاسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمي الأندلس وحذقوا في استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت نشاطاتها الدفاعية ، ونقصت مواردها من السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أن من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضا في محاربة أعدائهم ، وان يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم الأنفاط بكثرة ، وكانت السلاح المفضل في مهاجمة القواعد والحصون الاسلامية . وهناك مايدل على أن هذه الأنفاط التي كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع في صورته البدائية ، فالرواية الغربية تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا : ان هذه المدافع كانت تصنع في مدينة رشقة ، وان كميات كبيرة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع في جبال قسنطينة ، وتحدثنا الرواية الاسلامية المعاصرة عن البارود ، وتقول : ان(٧٩) الاسبان حينما نشبت الثورة في ربض البيازين ، أمدوا فريقاً من الثوار بالرجال والأنفاط والبارود(٨٠) اذ كاءً منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التي تنوه الرواية الاسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم في معارك غرناطة،

(٧٩) Sierra Constantina . Prescott ; ibid ; P. 223

(٨٠) أخبار العصر (٢٤)

انما هي المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين في استعمال هذا السلاح كان له أعظم الأثر في التعجيل باخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

ولنعد الى قصة الحرب الأهلية في غرناطة ، فقد ثار أهل البيازين كما ذكرنا بتحريض من دعاة أبي عبدالله وأمه الأميرة عائشة ، والتف معظم الشعب الغرناطي حول أميره أبي عبدالله الزغل ، واستمرت المعارك سجالا بين الفريقين مدى أشهر ، وفي أثناء ذلك استولى النصارى على لوشة وعلى كثير من الحصون الشمالية الغربية . وسار أبو عبدالله بعد سقوط لوشة مع ملك قشتالة ، ولم يمض سوى قليل حتى عاد الى الأنحاء الشرقية ، الى منطقة بلش وأخذ يدبر خططه . وفي أوائل شوال (٨٩١هـ ــ أيلول ــ سبتمبر ١٤٨٦م) غادر أبو عبدالله محمد الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة في ربض البيازين . واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأذاع أنه عقد الصلح مع الاسبان ، وأمده حليفه فرديناند بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ، ومنها الأنقاط [٨١] ، فزادت الفتنة اضطراما . وشدد أبو عبدالله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم ، اذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته على مدينة بلش مالقة (Velez Malaga) وذلك في (ربيع الثاني سنة ٨٩٢هـ ــ آذار ــ مارس ١٤٨٧ م) [٨٢] ، وكان من الطبيعي أن ينتهز فرديناند الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية ، وكانت بلش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاى الزغل في الحال أهمية بلش فهرع اليها في بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبدالله محمد وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته ، واستبسال أهل بلش في الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش مالقة بيد الاسبان في (جمادى الأولى سنة ٨٩٢هـ ــ نيسان ــ أبريل

---

(٨١) Gaspar y Remira ; ibid ; P. 42 .

(٨٢) اخبار العصر (٢٢ ــ ٢٤) ونفح الطيب (٦١٢/٢) .

١٤٨٧ م) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة • ولكنه علم أثناء مسيرة أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبدالله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى ـ ٢٨ نيسان ـ أبريل) • وكان أهل غرناطة يحبون الزغل ، ويقدرون بطولته وحبه لوطنه ، واستبساله في مقاومة الاسبان ، ولكنهم تحولوا عنه الى تأييد أبى عبدالله لمحالفته للاسبان ، وأملهم بذلك في اتقاء عدوانهم على أرباضهم وقراهم ، وصون أنفسهم ومصالحهم ، وهكذا أيقن الزغل عبث المحاولة ، وارتد بصحبه الى وادي آش ، وامتنع فيها بقواته ، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة الى شطرين ، يتربص كل منهما بالآخر: غرناطة وأعمالها يحكمها أبو عبدالله محمد بن السلطان أبى الحسن ، ووادي آش وأعمالها يحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبو عبدالله الزغل) • وتحقق بذلك ماكان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية الباقية من دولة الاسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها •



الفهرس

سعر النسخة ديناران

وتضاف اليها اجرة البريد

تدفع قيمة الاشتراك سلفاً

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٩٠

مجلة المجمع العلمي العراقي



الجزء الثاني – المجلد الحادي والاربعون

بغداد

١٤١١هـ = ١٩٩٠م

نهاية الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب

عضو المجمع

بداية النهاية في الأندلس

وأسباب انهيار الفردوس المفقود

دروس وعبر للعرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم

١ - مع أبي عبدالله محمد ثانية

تبوأ أبو عبدالله محمد بن السلطان علي أبي الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودته من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أن يحكمها بأسم مالك قشتالة وتحت حمايته ، وكانت الخطوب والفتن التي توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأي والكلمة ، ينضوي بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية والغربية، وينضوي بعضها الآخر تحت لواء عمه محمد بن سعد (الزّغل) ، وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتزّ بيد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ورندة ولوشة وباش مالقة وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضي في تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دول الإسلام في الأندلس ، قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة .وكان من الطبيعي أن يؤثِر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التي يسيطر عليها مولاي الزّغل لأن الزّغل لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدي في مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو ، ولأنه من جهة أخرى

* نهاية الاندلس (١٧٤ ــ ٢٠٠) .

كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهود مسحة من الوفاء ، واخيراً لانه كان يريد أن يعزل غرناطة . وأن يطوّقها من كل صوب ، قبل أن يسدّد إليها الضربة الاخيرة •

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بلش حصن مالقة من الشرق في يد النصارى ، بعد دفاع عنيف (في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ ــ أيار ــ مايو ١٤٨٧م) • وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها ، وتفرقوا في أنحاء الأندلس الاخرى الباقية بيد المسلمين ، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ، ومنها حصن قمارش وحصن مونتميور ، واستطاعوا بذلك أن يشرفوا على مالقة من كل صوب • وكانت مالقة ماتزال أمنع ثغور الأندلس ، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب ، وكان فرديناند يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الإمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير ، وكان الإستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية ، ومن ثم فإنه ما كاد النصارى يظفرون بالإستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك (في جمادى الثانية سنة ٨٩٢ هـ ــ حزيران ــ يونيه ١٤٨٧م) • وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين ، وعلى رأسهم نخبة ممتازة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعُدد الثقيلة • وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد (الزّغل) صاحب وادي آش ، ولكنه لم يستطع أن يسير إلى إنجادها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسّراً وأسى • ولكنه فكر في وسيلة أخرى لعلها تجدي في إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، وهي أن يستغيث بملوك الإسلام بقطع هذه الإمداد بكل الوسائل • ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة من الثغور بيد المسلمين سوى ألمرية والمنكب ، واليهما كانت تفد جموع المتطوّعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما

عن شاطيء العدوة ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمالي افريقية .، وقضى فرديناند قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، يعمل على تطهير منطقة مالقة والاستيلاء على ما بقي من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعا ، ولم يبق منها بيد المسلمين شيء •

وفي ربيع سنة (٨٩٣ هـ ــ ١٤٨٨م) زحف فرديناند على أطراف مملكة غرناطة الشرقية ، وكانت لبعدها عن العاصمة ، أقل استعداداً للدفاع ، واستولت هذه الحملة باستيلاء النصارى على بيرة ، والبلشين ، وأشكر[(١)] وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وذلك بالرغم من أن أهلها كانوا داخلين في الصلح المعقود مع أبي عبدالله ، وكان على ملك قشتالة لو أنه أوفى بعهده ، أن يتركهم حتى ينتهي أمد الصالح المذكور[(٢)] ، وهناك عهد أصدره الملكان الكاثوليكيان لأهل أشكر ، هو نموذج لباقي العهود التي صدرت لباقي البلاد المستولى عليها في هذه المنطقة ، وفيه يتعهد الملكان بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شيء من امتعتهم أو يصيبهم أيّ مكروه ، وألا يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على محاربة اخوانهم مسلمي غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم وعوائدهم وشريعتهم ، وأن يحق لهم الإقامة في أي جزء من مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور الى المغرب أحراراً دون أي قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً وأناثاً بالرفق والكرامة ، وألا يغصبهم أحد في دورهم

(١) بيرة ، وفي الاسبانية : (Vera) تقع شمال شرقي المرية على مقربة من البحر الابيض المتوسط ، والبلشان هي بلش الحسناء (Velez Rubio) وبلش البيضاء (Velez Blanco) ، وهما تقعان شمال شرقي مدينة بسطة (Baza) ، واشكر هي بالاسبانية (Huescar) تقع شمال غربي البلشين .

(٢) Gasper y Remiro ; Ibid; P. 43.

أو يسيىء اليهم أو يتلف شيئا من أمتعتهم ومحاصيلهم ، وألا يعاشر نصراني مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر املاكه ، وأن يدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم العمل في بناء حصن المدينة[٣] ، وسنرى فيما يلي من الحوادث أن الملكين الكاثوليكيين يغدقان أمثال هذه العهود لسائر البلاد المستولى عليها ، ولكن دون أية نية صادقة في الوفاء بها ، بالعكس فالنية هي الغدر ، وويل للمغلوب .

وفي الوقت الذي اقتربت فيه القوات القشتالية من مدينة بسطة ، أمنع قاعدة في ولايات غرناطة الشرقية ، لتضرب حولها الحصار ، سار فرديناند في بعض قواته إلى ثغر المنكب[٤] ، الواقع في منتصف المسافة بين مالقة والمرية ، وحاصره ، وكان يدافع عنه القائد محمد بن الحاج . ومع أنه لم يك ثمة شك في النتيجة المحتومة ، فقد دافع المسلمون عن ثغرهم ، واعتصموا به نحو ثلاثة أشهر ، وكبدوا القشتاليين بعض الخسائر . ثم وقعت المفاوضات في التسليم، وصدر الملكان الكاثوليكيان للقائد ابن الحاج ومعاونه الفقيه أبي عبدالله الزليخي ، عهداً خلاصته : أنه اذا سلّم القصبة وكل حصونها في ظرف تسعة أيام ، فإنه يقبل هو وولده وصحبه وقرباه ، كما يقبل الوزراء والقواد والفقهاء وسائر أهل المنكب بين رعايا قشتالة ، وانهم يتركون آمنين في ديارهم وأنفسهم وأموالهم ، ويحتكمون إلى شريعتهم ، وتترك لهم مساجدهم وصوامعهم ، ولا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم إلا طلقات البارود ، وأنه إذا تم التسليم في الموعد المذكور ، فأنه تقدم الى القائد هبة قدرها ثلاثة آلاف دوبلا قشتاليا ، وأنه إذا شاء العبور الى المغرب مع ولده وأسرته ، فإنه تقدم اليه سفينة حسنة للجواز فيها مع سائر متاعه دون كراء أو مغرم ، وأنه لا تمس أملاك الأهالي

---

(٣) تحفظ هذه الوثيقة ببلدية اشكر ، انظر مجموع. Vol. VIII, P. 170 - 173. Documentos Ineditos Para la Historia de Espana.

(٤) المنكب : وهي بالاسبانية (Almunecar) .

ولهم بيعها أو قبض ريعها أذا عبروا الى المغرب . وهكذا سلّم ثغر المنكب الى القشتاليين في شهر (محرم سنة ٨٩٥ هـ ـ كانون الاول ـ ديسمبر سنة ١٤٨٩م) ، ولم يبق للمسلمين من الثغور سوى ألمرية التي طوقها العدو في نفس الوقت بقواته ، وأصبحت تحت رحمته وشيكة التسليم .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمالي افريقية ، بدأ فرديناند بتنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقي في الداخل من المملكة الاسلامية . وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا الى شطرين : الأنحاء الشرقية وتشمل وادي آش وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبدالله محمد بن علي ، فقرر فرديناند أن يبدأ بالإستيلاء على الأنحاء الشرقية ، وأن يقضي أولا على سلطان أبي عبدالله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديد بأسه . فما كاد ينتهي من اخضاع ثغر المنكب وتطويق ثغر ألمرية ، حتى قرر تضيق الخناق على مدينة بسطة ، وكانت قواته تطوقها حسبما تقدم ، وكانت الملكة إيزابيلا مع حاشيتها في جيّان على مقربة من الجيش الغازي ، وكانت بسطة أهم القواعد الشرقية التي يسيطر عليها مولاي الزّغل بعد وادي آش مقر حكمه . ولم يستطع الزغل مغادرة مقر حكمه في وادي آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبي عبدالله في غيبته فأرسل اليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة صهره الأمير يحيى النيار الذي تعرفه التواريخ القشتالية : «بسيدي يحيى» . وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها ، فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية مني فيها النصارى بخسائر فادحة . ومع أن النصارى بدأوا هجومهم على بسطة في (شهر رجب سنة ٨٩٤هـ ـ حزيران ـ يونيه ١٤٨٩م) ، فأنهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية الا بعد ثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن اتخذوا في عدوهم غير مرة ، واستنفدوا قواتهم المدّخرة . وضيق النصارى الحصار على

بسطة لمدة ثلاثة أشهر أخرى ، حتى ضاق أهلها بالحصـار ذرعـاً • وقلّت الأقوات واشتد الكرب • ولما رأى المسلمون أنه لم يبق في الدفاع ثمة أمـل ، وقد نفدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامة ، اعتزموا مفاوضة القشتاليين في التسليم • وبالرغم مما أبداه زعيمهم يحيى النيار في البدايـة من براعـة في تنظيم الدفاع عن بسطة وألمرية ، وبالرغم ممـا ابداه من بسـالة في المعـارك التي نشبت ضـد القشـتاليين ، فإنه في النهـاية رأى أن يترك هذا الصراع اليائس ، وأن يفوز من المعركة بأحسن مما يستطيع لنفسه وذويه • وهذه هي الوثيقة السرية التي عقدها القائد يحيى مع مندوب الملـك فرديـنـاند الدون جوتيري دي كارديناس ، تعرض لنا بمحتوياتها المثيرة صورة من ذلك الدرك المؤلم الذي يدفع اليأس اليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حيـاة حـافلة بالاخلاص والبسالة ، تحت إغراء العدو وهباته ، خونة مارقين مرتدين • وقد حررت هذه الوثيقة في المعسكر الملكي قرب مدينة ألمرية في (٢٥ كانون الثاني ــ ديسمبر ١٤٨٩م) ، وفيها يؤكد فرديناند للقائد يحيى النيار زعيم بسـطة وألمرية ، بأنه سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم في داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته ، ويدافـع عنهم وعـن أتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطبا يحيى : « وانه اذا صحّت عزيمتكم حقا على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمني وتعاونني برجالك ، فاني سوف أكتم ذلك طول مدة السيطرة على بسطة ، حتى لا يتقوّل عليك رجالك ، ولهذا فانك تستقبل التعميد المقدس سراً في غرفتي ، حتى لا يعرفه المسلمون الا بعد تسليم وادي آش وان الكروم والقرى والحصون التي تؤول لك بالميراث عن والدك أمير ألمرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدي لك بذلـك أنا والملكة زوجي • وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك أي مغرم أو جزية في سائر مملكتي الى الابد • وانه تشريفا لشخصك ، يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارسا مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم

حيث شئت في أنحاء مملكتي ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك . وانه اذا تنازل صهرك لملك وادي آش عن نصف الملاحات التي أهبها اليه . فأني أهبك دخلا قدره خمسمائة وخمسون ألف مراقيدي من ملاحات دلاية ، وفضلا عن ذلك فانه اذا تم تسليم وادي آش في الموعد المتفق عليه ، فاني مكافأة لك على جهدك في خدمتي لدى ملك وادي آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات بما تقدم [٥] .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان في نفس الوقت لأهل بسطة ، باقرار ما طلبوا من الشروط ، وفي مقدمتها : أن يؤمنوا في النفس والمال ، وأن يحتفظوا بدينهم وشريعتهم وعوائدهم . وهكذا سلّمت بسطة ، ودخلها النصارى في (العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ ـ أوائل كانون الاول ـ ديسمبر ١٤٨٩م) وغادرها معظم أهلها الى وادي آش ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة الى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى ، وسلّمت ألمرية بعد ذلك بقليل (ربيع الاول ٨٩٥هـ ـ شباط ـ فبراير ١٤٩٠م) ، ومنحت للتسليم شروطا خلاصتها : أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ، وألا يولى عليهم يهودي ، وألا يدخل في الجماعة» ، وأن يختار الاولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذي يريدون عند البلوغ ، وغير ذلك من المنح المغرية الخادعة التي بذلت لسائر البلاد المسلمة المستولي عليها. وهكذا بسط فرديناند سلطانه على قواعد الاندلس الشرقية كلها من البحر الى الشمال ، ولم يبق خارجا عن طاعته غير وادي آش مقر مولاي الزّغل .

ولم تمض أسابيع قلائل ، حتى أثمرت خيانة يحيى النيار ثمرتها لدى صهره أبي عبدالله الزّغل ، فسارع بدوره الى الإنضواء تحت لواء ملك

(٥) Archivo General de Simancas ; P. R. 11 - 11.

النصارى ، وكان الزّغل منذ التجأ الى وادي آش ، يرقب سير الحوادث بجزع ، ويرى قواعد الاندلس تسقط بالتعاقب ، دون أن ينجدها منجد ، ويرى أمل الأنقاذ يخبو تباعاً . فلما سقطت بسطة آخر القواعد التي يسيطر عليها ، واتجه النصارى نحو وادي آش معقله الوحيد الباقي ، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل ، وأن جيوش النصارى تحيط به من كل صوب ، اعتزم أمره ، وسار الى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته والانضواء تحت لوائه ، فأجابه فرناندو الى مطالبه ، وبايعه الزّغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة ، ودخل النصارى مدينة وادي آش (في أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ ـ ٣٠ كانون الاول ـ ديسمبر ١٤٨٩م) . وعقد الزّغل مع ملكي قشتالة معاهدة سرية على غرار المعاهدة التي عقدها صهره يحيى ، ونص فيها على طائفة من المنح والامتيازات ، خلاصتها أن يستقر الزّغل سيداً في مدينة أندرش وما اليها ، وأن يكون له ألفا تابع من بني وطنه ، وأن يمنح معاشاً سنوياً كبيراً ، وأن يمنح دخل نصف ملاحات مدينة الملاحة ، وأن يرسل في استحضار أبنائه الأمراء من غرناطة نظراً لخصومته مع ملكها ، وأن تكون جميع أملاكه واملاك ذويه في غرناطة حرة من كل حق ومغرم ، وأن تكون هذه العهود ملزمة لملكي قشتالة ولعقبهما من بعدهما ، وأخيراً أن يوافق البابا على هذه العهود .[٦] بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى شعر مولاي الزّغل أنه يستحيل عليه الاستمرار في ذلك الوضع المهين ، فنزل لفرديناند عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم ، وجاز البحر الى المغرب ، ونزل في وهران اولا ، ثم انتقل الى تلمسان ، واستقر يقضي بها بقية حياته في غمرات من الحسرات والندم ، ولبث عقبه هنالك قروناً يعرفون ببني سلطان الأندلس،

(٦) Archivo General de Simancas.. P. R. 11 - 12. وانظر ايضا : Gaspary Remuro ; Ibid P. 48 .

وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام في الأندلس قد غدت قضاء محتوما .[7]

وقد نقل الينا صاحب أخبار العصر ، رواية مفادها : أن تسليم مولاي الزّغل لملك قشتالة ، كان نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التي كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكي ينتقم الزّغل من ولد أخيه الأمير أبي عبدالله محمد بن علي صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر انحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم اليهم ، وينتهي بذلك امارة أميرها وحكمه[8] وهي رواية لا تتفق مع مآثر الزّغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الاسلامية ، التي رأيناها ماثلة خلال معاركه المشرّفة ، وإنما استسلم الزّغل وخضع ، وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، نزولا على حكم ظروف قاهرة ، لم ير الى مغالبتها سبلا .[9]

الصراع الاخير

١. مع أبي عبدالله محمد اخيرا

لم يبق على ملكي قشتالة وأراغون ، فرديناند وايزابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الاندلسية الجنوبية والشرقية ، لاتمام خطتهما في القضاء على دولة الاسلام بالاندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة ، آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ، ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة او دولة ، بل

(٧) اخبار العصر (٣١) ونفح الطيب (٢/٦١٣ ــ ٦١٤) ، وانظر :
. Prescott, Ibid. P. 285

(٨) اخبار العصر (٣٢) .

(٩) نهاية الاندلس (٢٠١ ــ ٢١٤) .
Documentos Arabes de la Corta Nazario de Granada.

كانت رمزاً للدولة الاسلامية الذاهبة فقط ، وكانت واسطة عقد تصرّمت سائر حبّاته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً ، فلم يكن يقتضي إطفاؤه سوى الضربة الاخيرة .

وقد رأى فرديناند وإيزابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة ، عقب استسلام مولاي الزّغل وسقوط وادي آش وبسطة وألمرية . ونحن نعرف أنه على أثر سقوط مدينة لوشة في يد النصارى في (شهر مايس ــ مايو سنة ١٤٨٦م) ، وحصول أبى عبدالله في أيدي الملكين الكاثوليكيين للمرة الثانية ، عقد أبو عبدالله معهما معاهدة صلح جديدة لمدة عامين ، تطبق في غرناطة والبلاد التي تدخل في طاعة أبى عبدالله . وفي ظل هذا الصلح المسموم، دخل أبو عبدالله غرناطة ، واسترد العرش ومن ورائه تأييد فرديناند وعونه . ومن الواضح أن فرديناند قد قبض نصوص هذا الصلح ، ثمن التأييد والعون . والظاهر أن هذا الصلح قد تجدد لمدة عامين آخرين ، حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبى عبدالله نفسه (في المحرم سنة ٨٩٥هـ ــ كانون الاول ــ ديسمبر ١٤٨٩م) وهي عبارة عن خطاب موجه منه الى قادة وأشياخ بلدة أجيجر ، وفيه ينوّه أبو عبدالله بهذا «الصلح السعيد» المعقود لعامين ، ويدعو الى الدخول فيه ، وينعى على معارضيه مواقفهم ، التي انتهت بسقوط بسطة : «التي أفجعت المسلمين ، وفلّت غرب الدين»(١٠) .

وبالرغم من أننا لانعرف نصوص هذا الصلح مفصّلة ، فان بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبدالله قد تعهد في هذا الصلح بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين متى تم تسليم بسطة وألمرية ووادي

(١٠) نشر هذه الوثيقة حسبار ريميرو في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه . وقد استخرجها مع وثائق أخرى صادرة عن أبي عبدالله من مجموعة فرناندو دي ثافراسكرتير الملكين الكاثوليكيين .

آش[11] . وعلى أي حال ففي فاتحة سنة (١٤٩٠م) ـ أوائل صفر (٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان الى السلطان أبي عبدالله سفارة على يد فارسين هما : كونثالوا ـ فرنانديث قائد حصن إليورة ، ومرتين ألاركون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه في موضوع التسليم[12] . وتقول الرواية الاسلامية المعاصرة : ان ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب الى أبي عبدالله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقيما في غرناطة ، في طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحي الاندلس[13] ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الاقامة فيها ، وأن يمده بمال جزيل[14] .

فماذا كان جواب أبي عبدالله ؟ لقد كان في سابق مواقفه ، وممالأته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ، ودخوله في طاعته ، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزّغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمل الملكين الكاثوليكيين ، على توقع استسلامه وخضوعه ، ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . ولدينا وثيقة توضح لنا موقف أبي عبدالله في هذه المناسبة ، هي عبارة عن خطاب صادر منه الى الملكين الكاثوليكيين ، يشير فيه الى قدوم « القائد غنصال والقائد مرتين » بكتبهما اليه ، وأنه يرسل اليهما خديمه « القائد أبا القاسم المليح » ليحدثهما في هذا الموضوع . وبالرغم من اللهجة المهذبة ، المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة ، التي اختتمت بها الرسالة ، فقد كان جواب أبي عبدالله للملكين الكاثوليكيين ، رفضاً لما طلباه ، وتاريخ هذه الرسالة هي

---

(١١) Prescott : Ferdenanand Isabella, P. 284 .

(١٢) راجع رواية Fernando de Baeza القشتالية المنشورة بعناية المستشرق ميللر ضمن اخبار العصر (ص ٩٢) .

(١٣) اخبار العصر (٣٣) .

(١٤) نفح الطيب (٢/٦١٤) .

(٢٩ صفر سنة ٨٩٥ هـ - ٢٢ كانون الثاني - يناير ١٤٩٠م)[١٥] . والظاهر أن رسول أبي عبدالله لم ينجح في مهمته ، وعاد الى مليكه ليخبره بأصرار الملكين الكاثوليكيين على طلبهما .» وهنا تقول الرواية القشتالية :أن أبا عبدالله اشتدت دهشته ، لاصرار الملكين الكاثوليكيين واعتزم أن يشهر عليهما الحرب لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث . وعلى ذلك فقد أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كماشة ، ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة ، له علائق طيبة بالنصارى ، يدعى ابراهيم القيسي ، الى الملكين الكاثوليكيين في اشبيلية ، لاقناعهما بالعدول عن مطلبهما ، ولكنهما عادا خائبين ، وعلى ذلك فقد استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى .[١٦]

وهنا نقف قليلا لنتأمل في هذا الموقف الجديد ، من جانب أبي عبدالله . لقد كانت الخطوب والمحن التي جازتها الاندلس في تلك الاعوام المليئة بالحوادث الجسام ، قد جعلت من أبي عبدالله رجلا آخر ، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ؛ وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوي ، ولكنه فقد في الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة ، وكانت سائر قواعد الاندلس الاخرى قد غدت نهائيا من أملاك دولة قشتالة ، وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن أهلها الباقون فيها او غدوا مدجنين (Mudéjaxes) يدينون بطاعة ملك النصارى ، وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أوأتقاء الريب والمطاردة ، ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر الى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة منهم الى غرناطة معقل الاسلام

(١٥) نشرت هذه الرسالة ضمن المجموعة التي نشرها جسبار ريميرو في كتابه السالف الذكر .

(١٦) راجع رواية Hexnando de Baeza المنشورة في أخبار العصر (ص ٩٣).

الوحيد الباقي ، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم بين أسوارها وأرباضها أكثر من اربعمائة ألف نفس • وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التي أوذيت في الاوطان والانفس والولد والمال ، دون أن تجني ذنبا أو جريرة ، وكانت فكرة التسليم للمد الباغي أو مهادنته ، تلقى استنكارا عاما • ولم يكن أبو عبدالله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد اليه سفيرا ملكي قشتالة في طلب التسليم ثارت نفسه لهذا الغدر والتجني ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بني وطنه ودينه • ولما أمر فرديناند على تجنيه ، جمع أبو عبدالله الكبراء والقادة ، فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم[١٧] ، وأبلغ أبو عبدالله ملك قشتالة بأنه لم يعد له القول الفصل في هذا الامر ، وأن الشعب الغرناطي يأبى كل تسليم أو مهادنة ، ويصمم على المقاومة والدفاع[١٨] •

هكذا كان جواب أبي عبدالله لملكي قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الاستكانة والمهادنة الى التحدي والمقاومة • وهنا يبدو لنا أبو عبدالله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام والخضوع الذي يقرب من الخيانة ، لتتشح بثوب من العزة والكرامة ، والحمية الدينية والوطنية • ودوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سرايا من المسلمين لتعيث في الأراضي النصرانية القريبة • وفي ربيع سنة (٨٩٥هـ ـ ١٤٩٠) خرج ملك قشتالة بقواته وهو يضطرم سخطا ، وزحف على بسائط غرناطة ، فعاش فيها ، وانتسف الزرع واسقاط الماشية ، وخرّب الضياع والقرى ، ووصل في عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها •

---

(١٧) اخبار العصر (٣٤) ونفح الطيب (٢/٦١٤) •
(١٨) Prescott : Ibid ; P. 290 .

وبرز المسلمون لقتاله ، وعلى رأسهم أبو عبدالله ، ووقعت بين الفريقين في ظاهر غرناطة عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها . ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب ٨٩٥هـ تموز ١٤٩٠م) ، وعمد فرديناند حين العودة الى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرهما ، وشحنها بالرجال والعدد استعدادا للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبدالله في قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت في المسلمين في تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرات (البشرة) وما حولها على حكامهم النصارى ، وثار أهل وادي آش في الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبى عبدالله وعزمه بنزعة جديدة الى المقاومة ، وبعثوا اليه يطلبون عونه . وسار أبو عبدالله بقواته يريد حصن أندرَش[١٩] لما علمه من ثورة المسلمين هناك ، وكان عمه محمد بن سعد (الزّغل) لايزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه الى ألمرية ، وبقي بها الى أن جاز البحر الى المغرب كما ذكرنا ، واستولى أبو عبدالله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة منها[٢٠] ، ورتّب فيها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٨٩٥هـ) .

واستمرت هذه المعارك المحلية سجالا مدى حين بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادر الفرسان المسلمون ، اذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعا . وفي شهر رمضان من سنة (٨٩٥هـ) ــ (آب ــ اغسطس ١٤٩٠م) خرج أبو عبدالله في قواته الى قرية همدان القريبة[٢١] ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا

---

(١٩) اندرش : Andarax جنوب شرقي غرناطة على مقربة من البحر الابيض.

(٢٠) أخبار العصر (٣٦ ــ ٧٣) .

(٢١) تقع قرية همدان جنوب غربي غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها، وهي (Alhendin) ، انظر الخريطة .

يخشون أن تمتنع عليهم لكثافتها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون الى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل . وفي أواخر رمضان ، خرج أبو عبدالله في قواته يريد افتتاح ثغر المنكب ، واعادة الصلة بين الاندلس وشواطىء المغرب ، وهي صلة يعلّق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبدالله في طريقه على حصن شلوبانية[٢٢] الواقع شرقي المنكب بعد قتال عنيف ، وعلم النصارى بمحاولة أبي عبدالله ، فهرعت حاميات بلش ومالقة الى المنكب لإنجادها . ورأى أبو عبدالله أنه لايستطيع مهاجمتها ، وترامت اليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده الى مرج غرناطة يعيث فيه فسادا وتخريبا ، فارتد أدراجه . وكان فرديناند قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدع في المناطق والمستولى عليها ، فاعتزم السير من قرطبة بجيشه الى تلك الأنحاء . والواقع أن بوادر الانتقاض والثورة كانت قد اشتدت في وادي آش وما حولها من الضياع والقرى ، وأخذ ظفر المسلمين في تلك المعارك المحلية يذكي عزم الثوار ويشجعهم . وخشى النصارى عواقب هذه الحركة ، فضاعفوا قوى الحاميات في تلك الأنحاء ، واحتالوا على أهل وادي آش ، فأخرجوا معظمهم من المدينة الى السهول المجاورة[٢٣] ، واستجاب أبو عبدالله الى نداء أهل وادي آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والأموال الى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وما كادت جموع المسلمين ترتد راجعة الى غرناطة ، حتى ظهر فرديناند بجيشه أمام وادي آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللّين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد الى وطنه ، وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر

---

(٢٢) بالاسبانية (Salobrena) .

(٢٣) Lafuemte Alcontara ; Ibid ; V. III. P. 53.

المسلمون وادي آش وأعمالها ٠وحدث مثل ذلك في ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت جموع غفيرة الى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر الى المغرب ، وأقفرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ، وبعث اليها ملك قشتالة بجموع من النصارى لتعميرها ، فانتهز أبو عبدالله فرصة هذا الاضطراب ، فاستولى على حصن أندرش للمرة الثانية،واستولى على عدد آخر عن الحصون الهامة[٢٤] وقد أيقن ملك قشتالة أنه لابد لاستتباب الامور في المناطق الأسلامية المفتوحة ، من الاستيلاء على غرناطة التي ما زالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة في تلك الاوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله من سنة (١٤٩٠م) في الاستعداد والاهبة ٠ وفي أوائل سنة (١٤٩١م) خرج فرديناند في قواته معتزما أنه يقاتل الحاضرة الاسلامية حتى ترغم على التسليم ٠ ويقدر بعض المؤرخين هذا الجيش الذي أعد للاستيلاء على غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره بعضهم الاخر بثمانين ألفا[٢٥] وزوّد فرديناند جيشه بالمدافع والعدد الضخمة والذخائر والأقوات الوفيرة ٠ وأشرف لملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة (Le Vega) الواقع جنوب غربي الحاضرة الاسلامية في اليوم (الثالث والعشرين من نيسان ــ أبريل سنة ١٤٩١م ــ ١٢ جمادي الثانية ٨٩٦هـ) وعسكر على ضفاف نهر شنيل ، على قيد فرسخين من غرناطة في ظاهر قرية تسمى : « عتقة » ٠ وأرسل في الحال بعض جنده الى حقول البشرات القريبة التي تمد غرناطة بالمؤن فأتلفوا زرعها وهدموا قراها ، وأمعنوا في أهلها قتلا

(٢٤) اخبار العصر (٣٨ ــ ٤٨) ونفح الطيب (٢/٦١٤) ، وانظر : Prescott ; Ibid ; P. 290 - 291 ، ويوجد فرق يسير بين الروايتين الاسلامية والنصرانية في التفاصيل ٠

(٢٥) Prescott : Ibid ; P. 291 .

وأسرا ، وحولوا المرج الأخضر الى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة موردا من أهم مواردها [٢٦] .

وضرب فرديناند حول الحاضرة الاسلامية الحصار الصارم ، وصمم على استمراره حتى يستولي عليها أو تستلم ، وقرر تأكيدا لهذا العزم أن ينشيء لجيشه في المكان الذي عسكر فيه ، مدينة مسوّرة تقيه برد الشتاء اذا ما حل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة في ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة ايزابيلا (سانتافي Santa Fé) وبالعربية (شنتفي) أو الايمان المقدس ، وذلك تنويها بالمغزى الديني لهذه الحرب الصليبية ، وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، في المكان الذي أنشئت فيه ، على قيد مسافة قريبة من جنوب غربي غرناطة ، ويصفها المؤرخ الأسباني ، بأنها : «المدينة الاسبانية الوحيدة التي لم تطأها قط قدم مسلم»[٢٧] . وهكذا بدأ الفصل الأخير من الصراع بين النصرانية والاسلام في اسبانيا ، ولم يكن ثمة شك في نتيجة هذا الصراع الذي أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . وغرناطة يومئذ بلد اسلامي وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط بها العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزودا بالعدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته بالخارج . كان هذا هو موقف غرناطة آخر الحواضر الاسلامية بالاندلس في صيف سنة (١٤٩١م) . على أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنما سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شلير (سيرا نافادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب ، أي من الجهة المواجهة للمعسكر النصراني ، أسوار وأبراج في منتهى الكثافة والمناعة ، وكانت غرناطة يومئذ تموج بالوافدين اليها من مختلف

(٢٦) اخبار العصر (٤٤) ، وانظر : Prescott : Ibid ; P. 294 .

(٢٧) Prescott ; Ibid ; P. 295 .

القواعد الاسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان اكثر من مائتي ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئا ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفا من الصفوة المختارة من فرسان الاندلس التي ألفت ملاذها الاخير في العاصمة المحصورة(٢٨) . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الاسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائما ، وكانت تعيش في أهبة دائمة لمواجهته ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن ، فلما دهمها الحصار ، كانت على أهبة تامة للدفاع عن حريتها وأرضها وعرضها دفاعا طويل الأمد . وكانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم الى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد في اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عُرف في تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصرا على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه الى ضروب رائعة من الاقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار ، لقتال العدو المحاصر مرارا عديدة ، يهاجمونه ويثخنون في مواقعه ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وتشير الروايتان : الاسلامية والنصرانية ، الى هذه المعارك الأخيرة التي وقعت في بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى(٢٩) ، وتنوه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والاقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسية الاندلسية ، التي لبثت قرونا زهرة الفروسية في العصور الوسطى (٣٠) .

وكان روح الفروسية المسلمة في تلك الاونة العصيبة فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبي الغسان ، وهو سليل أحدى

---

(٢٨) نهاية الاندلس (٢١٥ ــ ٢٢٣) .

(٢٩) اخبار العصر (٤٥) وانظر : Irving : Ibid. P. 293 and foll .

(٣٠) اخبار العصر (٤٦) .

الاسر العريقة التي تتصل ببيت الملك وأحد هذه الاصول العربية القديمة التي عرفت بروائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتي كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر ، ولم يكن بين أهل غرناطة يومئذ من هو ابرع من موسى في الطعان والفروسية ، وكان منذ تبوأ أبو عبدالله محمد عرش غرناطة ،ينقم منه استكانته وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لأذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسية الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا الى أرض العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته في الانحاء المجاورة ، ولما بعث فرديناند الخامس الى أبي عبدالله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين في إجابة هذا الطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسته أكبر أثر في تطور الموقف ، وحمل الامير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى ان العربي قد وُلد للجواد والرمح ، فاذا طمح الى سيوفنا فليكسبها وليكسبها غالية . أما أنا ، فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة ، في المكان الذي أموت دفاعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لاعداء الدين ».

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسية المسلمة ، يقودها كلما سنحت الفرصة الى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتثخن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير في الشعب أيما حماسة ؛ وكان فرديناند يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته ، وانتزاع مؤنه ؛ ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحص شنيل (Le Vega) وطوقت غرناطة ، وشدّدت

---

(٣١) Lafuente Alcontera ; Ibid ; V. III. P. 67.

في حصارها ، واضطر المسلمون الى الامتناع بمدينتهم صابرين جلدين ؛ وقسم الدفاع عن المدينة بين قادة الجيش وزعماء الأسر ، فتولى قيادة الفرسان يعاونه رضوان ومحمد بن زائدة . وتولى آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الجريئة التي كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروسيتهم وبسالتهم ، ولكنها لم تكن لتغني شيئا أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه . ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة وإرغامها على التسليم ؛ فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الاسبانية في مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أي مدد من افريقية . والواقع أنه لم يكن ثمة أي أمل أمام الغرناطيين في الغوث والانقاذ من هذه الناحية ، ذلك أن معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية ، ومنها سبتة وطنجة ، كانت قد سقطت بأيدي البرتغاليين ، وكانت دولة بني وطّاس التي قامت يومئذ بالمغرب ما تزال ضعيفة في بدايتها ، وكانت أبعد في التفكير عن القيام بأي عمل حربي خطير ضد النصارى . هذا الى أن إمارات المغرب الواقعة في الضفة الاخرى ، كانت كلها في حالة ضعف وتفكك ، وكانت تخشى بأس قوة اسبانيا البحرية ، وتسعى الى كسب صداقتها وحمايتها ، وعلى ذلك فقد كان حصار غرناطة محكما من البر والبحر . ولم يبق أمامها سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير (سييرا نافادا) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة . ولبثت المدينة المحصورة تعاني مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبدالملك ذات يوم الى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لاتكفي الا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دبّ الى قلوب الجند والعامة ، وان الاستمرار في الدفاع عبث لايجدي[٣١]،

ولكن موسى بن أبى الغسان ، اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب . وبث بادرة جديدة من الحماسة في الرؤساء والقادة . فاستسلم السلطان أبو عبدالله محمد الى تلك الروح ، وسلم الى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ، وكان في مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما : نعيم بن رضوان ، ومحمد بن زائدة . ثم أمر بفتح الأبواب، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها . ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى ، وكان موسى يقول لفرسانه : «لم يبق لنا سوى الارض التي نقف عليها ، فاذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن». وأخيرا رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون الى لقائه ، وعلى رأسهم أبو عبدالله وموسى ، ونشبت بين الفريقين في فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان ابو عبدالله يقود الحرس الملكي ، وكان القتال رائعا خضب فيه كل شبر من الارض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافا لايعتمد عليهم ، فمزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكي الى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبدالله ، وعبثا حاول موسى أن يجمع الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ماهو مقدس لديهم ، وألقى نفسه وحيدا في الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاءل عددهم واثخن الباقون منهم جراحا ، فاضطر عندئذ أن يرتد الى المدينة وهو يرتجف غضبا ويأسا .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلا ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن في يد العدو أمرا واقعا ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهنا في يد من لايرحمهم . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون

أهوال الحصار ، وتفاقم محنتهم شئيا فشيئا . فلما جاءت خاتمة المعارك مبدوة لكل أمل في الانقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب الياس الى قلوب الناس جميعا ، لم يبق مناص من اعادة النظر في الموقف . فدعا أبو عبدالله مجلسا من كبار الجند والفقهاء والاعيان ، فاجتمعوا في بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد في وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبدالملك كيف وصل الخطب الى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، وخبت قوى الدفاع ، ونضبت الاقوات والمؤن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل في تلقي الامداد من عدوة المغرب ، ومزح « الجماعة » بأن الشعب لايقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت ، واتفق الجميع على وجوب التسليم [٣٢] . ولم يرتفع بالاعتراض غير صوت واحد هو صوت موسى بن أبي الغستان ، فقد حاول كعادته أن يبث كلماته الملتهبة قبسا أخيرا من الحماسة ، وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لدينا مورد هائل للقوة كثيرا ما أدى الى المعجزات : ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على اثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة وانه خير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر في هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الامل في قلوبهم ، وغاضت فيهم كل حماسة ، ووصلوا الى حالة من اليأس لا تنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث ، فأن السلطان أبي عبدالله فوض الامر للجماعة ، واتفق الجماعة من خاصة وعامة على مفاوضة ملك قشتالة في التسليم ، واختير الوزير القائد أبو القاسم عبدالملك للقيام بتلك المهمة ، وكان ذلك في أواخر سنة (٨٩٦ هـ ــ تشرين الاول ــ أكتوبر ــ ١٤٩١) .

(٣٢) أخبار العصر (٤٨ ــ ٤٩) ونفح الطيب (٦١٥/٢) .

٢ • مفاوضات التسليم ومعاهدة التسليم

وهنا يسدل الستار على تلك المناظر الرائعة المؤثرة ، التي تقدمها الرواية لنا عن بسالة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ، وعلى ذلك الموقف الباهر الذي أتخذه أبو عبدالله مدى حين ، واتشح بثوب البطل المدافع عن ملكه وأمته ودينه ، وتبرز لنا طائفة من الحقائق المؤلمة التي تصم أولئك الزعماء والقادة ، الذين جنحوا في النهاية الى المساومة بحقوق أمتهم ، واستغلالها لمآربهم الخاصة •

يقول صاحب : أخبار العصر : إن كثيراً من الناس زعموا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده ، كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سراً في تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وانهم لبثوا حيناً يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى ألفوا السبيل ممهدا للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة في التسليم ، وتزيد الرواية على ذلك ، بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة ، تلقوا تحفاً وأموالا جزيلة من ملك قشتالة ![٣٣]

وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه رأى الجماعة الى المفاوضة في التسليم، كانت تبذل في الخفاء مساع أخرى لتحقيق مايمكن تحقيقه من الضمانات والمغانم الخاصة لابي عبدالله وأفراد أسرته ووزرائه ، وكان الملكان الكاثوليكيان يرميان الى استخلاص غرناطة بأي ثمن غير الحرب ، ولايدخران وسعا في بذل أية تضحية أو منحة لاغراء الزعماء والقادة لتذليل هذه المهمة وهكذا كللت هذه المساعي الخفية بالنجاح ، وفي الوقت نفسه الذي عقدت

(٣٣) اخبار العصر (٤٨ ـ ٤٩) ونفح الطيب (٦١٥/٢) •

فيه معاهدة التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى يمنح فيها أبو عبدالله وأفراد أسرته ووزرائه منحا خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها . وقد بقيت هذه المعاهدة طي الكتمان ، ولم يقف عليها سوى نفر من الخاصة ، وهذا يثبت مايشير اليه صاحب أخبار العصر .

ولم يك ثمة شك سوى الموت أو مفاوضة العدو الظافر ، وقد اختار زعماء غرناطة المفاوضة ، ولو انهم اختاروا الموت تحت أنقاض مدينتهم دفاعا عنها لاحرزوا لذكراهم الخلود واعجاب التاريخ ، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة لدى أبي عبدالله ومن معه ارادة القتال التي يتسم بها الشعب الغرناطي المجاهد.

وبالطبع يحلو للمصادر الاجنبية أن تدفع الشكوك عن ابي عبدالله ومن حوله ، فيقول مارمول الذي كتب روايته بعد ذلك بنحو سبعين عاما : « ولما رأى الزغيبي (أبو عبدالله) أن مدينة غرناطة لاتستطيع دفاعا ، ولاتأمل الغوث والامداد ، ونزولا على رغبة السواد الاعظم من الشعب الذي لم يعد يصبر على هذا الامر الفادح ، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكي يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقضاها » (٣٤) .

ويقول لافونتي ألقنطرة : «اشتدت وطأة الجوع على المحصورين ؛ وأصبحت الجماهير الصاخبة تجوب أنحاء المدينة تنذر الأغنياء بالويل ، وتبعث الرجفة الى أبى عبدالله وأولاده وأعوانه . وإزاء هذا التهديد ، دعا الأمير مجلسا من الزعماء والقادة ، وطلب اليهم البحث فيما يمكن عمله لتجنب الأخطار التي تهدد المدينة من الداخل والخارج . وقال الشيوخ والفقهاء : إنه لم يبق سبيل سوى التسليم أو الموت ، وأشار أهل الرأي بأن يقوم أبو القاسم بأذن من أبى عبدالله بمفاوضة النصارى (٣٥) .

(٣٤) . Luis del Marmol ; Ibid ; Lib. 1., Cap. XIX.

(٣٥) . Lafuente Alcontra ; Ibid ; V. III. P. 97.

لقد كان موقف أبي عبدالله موقفا مريبا ـ ذلك الموقف الذي وقفه هو ووزراؤه ، فحاولوا أن يحققوا لأنفسهم فيه مغانم خاصة ، والذي يدل على الأثرة والخور والضعف الأنساني ، والتعلق بأسباب السلامة ، وانتهاز الفرص ، وهي ليست سمات المسئول حقا عن أمة وشعب ووطن .

وسار القائد أبو القاسم عبدالملك ، مندوب أبي عبدالله الى معسكر الملكين الكاثوليكيين ليؤدي مهمته الأليمة ، وقد اضطلع هذا القائد فضلاً عن المفاوضة في تسليم غرناطة ، بالمفاوضة في سائر الاتفاقات اللاحقة التي عقدت بين أبي عبدالله وبين ملكي قشتالة ، ونرى اسمه مذكورا في معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التي أبرمت في تلك المدة ، باعتباره دائما مندوب أبي عبدالله المفوض ، ولم نعثر بتفاصيل تخص شخصية هذا الوزير أو نشأته ، لكن الذي يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته ، أنه كان سياسيا عمليا ، يؤمن إيماناً راسخاً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى ، وانتهازيا يرى انتهاز الفرص بأي الأثمان [٣٦] ، واستقبل فرديناند مندوب ملك غرناطة ، وندب لمفاوضته أمينه فرديناندو دي ثاخرا ، وقائده جونزا لفودي كردوبا ، وكان خبيرا بالشئون الاسلامية ، عارفا باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحيانا في غرناطة وأحيانا في قرية برليانة [٣٧] القريبة الواقعة جنوب شرقي سنتافية . ويبدو من الخطابات التي تبودلت بين عبدالله وبين ملكي قشتالة في تلك الأيام الدقيقة من حياة الأمة الاندلسية ، أن حديث المفاوضة قد بدأ بين الفريقين في أوائل (أيلول ـ سبتمبر سنة ١٤٩١م) ، وأن

(٣٦) يذكر اسم أبي القاسم عبدالملك في الوثائق القشتالية محرفا : ابو القاسم عبدالمليح ، او ابو القاسم المليخ ، وهو الاكثر شيوعا : Bulcasen, Bulcasem el Muléh ومن الغريب أن هذا التحريف غاب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية ، فتراه يكتب في بعض الوثائق : ابو القاسم المليخ .

(٣٧) هي اليوم قرية Churiana ، وهي من ضواحي غرناطة .

القائد أبا القاسم بن عبدالملك كان يعاونه في مفاوضة الوزير يوسف بن كماشة ، وقد كان مثله من خاصة أبى عبدالله ومن أنصار سياسة التسليم ، وأن أبا عبدالله طلب في خطاب أرسله الى ملكي قشتالة ، أن تكون المفاوضات سرية حتى تتحقق غايتها المرجوة ، وذلك خشية انتقاض الشعب الغرناطي ونزعاته ، هذا الى أن الوزيرين الغرناطيين كتبا الى ملكي قشتالة خطابا يؤكد ان فيه اخلاصهما وولاءهما ، واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما كاملة ، وفي ذلك كله ما يلقى ضوءاً واضحا على الموقف المريب الذي وقفه أبو عبدالله ووزراؤه من مسألة التسليم[٣٨] . واستمرت المفاوضات بضعة أسابيع ، وانتهى الفريقان الى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، ووقعت في (اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٤٩١م ـ ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ) .

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التي قررت مصير آخر القواعد الاندلسية ومصير الأمة الاندلسية ، شروطا عديدة بلغت ستا وخمسين مادة . وقد لخصت لنا الرواية الاسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف[٣٩] . ولكننا ننقل الى العربية محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية في توسّع وإفاضة ، وهذا هو مضمون المحتويات :

أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة والفقهاء ، والوزراء ، والعلماء ، والناس كافة ، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما ، بان يسلموا طواعية واختيارا ،

---

(٣٨) تحفظ الصور القشتالية لهذه الخطابات ضمن مجموعة فرناندو دي ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرها Garrido Atienza في مجموعة الوثائق الخاصة بتسليم غرناطة المسماة
Para la Entrega de Granada (Granada 1910) P. 200 - 214.
. Las Capitulociones

(٣٩) أخبار العصر (٤٨ ـ ٥٠) ونفح الطيب (٢/٦١٥ ـ ٦١٦) .

وذلك في ظرف ستين يوما تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن ، وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرناطة والبيازين ، الى الملكين الكاثوليكيين ، أو أي من ينتدبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصراني أن يصعد الى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لايكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك . وضمانا لهذا التسليم ، يقدم الملك المذكور مولاي أبو عبدالله والقادة المذكورين ، الى جلالتيهما ، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشة ، من أبناء وأخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن في يديهما لمدة عشرة أيام ، تصلح خلالها الحمراء . وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحرارا . وأن يقبل جلالتهما ، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضي ، رعايا واتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما «١» .

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلّم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشاء ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسيروا اليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم«٢» .

وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد الى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله ولده المأخوذ رهينة لديهما ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية «٣» .

ويتعهد جلالتهما ، وخلفاؤهما الى الابد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبدالله والقادة ، والوزراء والعلماء ، والفقهاء ، والفرسان ، وسائر الشعوب ، تحت حكم شريعتهم ، وألا يأمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هي ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم «٤» .

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الان أو فيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة ، فأنها تسلّم «٥» .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور الى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص «٦» .

وأنه يحق للسكان المذكورين ، أن يعبروا الى المغرب ، أو يذهبوا احرارا الى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليّهم من الذهب والفضة وغيرها . ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب الى المغرب . وأن يقدمّا خلال الاعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيها ، ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع مبلغ « روبل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع املاكه ، أن يوكل لادارتها ، وأن يقتضى ريعها حيثما كان «٧» .

وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الان او فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم «٨» .

وأن ينزل الملكان ، للملك أبي عبدالله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه ، عن سائر الحقوق التي يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم «٩» .

وأنه يجب على الملك أبي عبدالله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيهما ، أن يسلمّوا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الاسرى النصارى الذين تحت أيديهم «١٠» .

وأنه لا يسمح لنصراني ، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص ، ويعاقب مَنْ يفعل ذلك «١١» .

وألا يولى على المسلمين يهودي مباشر ، او يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم «١٢» .

وأن يعامل الملك أبو عبدالله المذكور ، وسائر سكان المسلمين ، برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقا للقواعد المرعية «١٤» .

وأنه اذا قام نزاع بين المسلمين ، فصل فيه وفقا لاحكام شريعتهم ، وتولاه قضاتهم «١٥» .

وألا يكلفوا بأيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غيرها دون ارادتهم «١٦» .

وأنه اذا دخل نصراني منزل مسلم قهرا عنه ، عوقب على فعله «١٧» .

وأنه فيما يتعلق بشؤون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون الى فقهائهم وفقا لسنن المسلمين «١٨» .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين في هذا العهد ، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما ، في ظرف ثلاثين يوماً من التسليم ، أن يتمتعوا بالاعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث «١٩» .

وأنه يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أخرى مرصودة على الخير ، وكذا دخل المدارس متروكاً لنظر الفقهاء ، وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة ، في شأن هذه الصدقات ، أو يأمران بأخذها في أي وقت «٢٠» .

وأنه لا يؤاخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤاخذ والد بذنب ولده ، أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخيه ، أو ولد عم بذنب ولد عمه ، ولا يعاقب الا من ارتكب الجرم «٢١» .

وأنه اذا كان مسلم أسيراً ، وفرّ الى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرها ، فأنه يعتبر حراً ، ولا يسمح لاحد بمطاردته الا اذا كان من العبيد أو من الجزائر «٢٤» .

وألا يدفع المسلمون الضرائب اكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين «٢٥» .

وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها ، ممن عبروا الى المغرب ، أن يعودوا خلال الاعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما في هذا الاتفاق «٢٨» .

وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها ، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين ، عابرين الى المغرب وعائدين ، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتيهما ، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التي يدفعها النصارى «٢٩» .

وأنه اذا كان أحد من النصارى ـ ذكراً أو أنثى ـ اعتنق الاسلام ، فلا يحق لانسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، وأن فعل ذلك يعاقب «٣٠» .

وأنه اذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الاسلام ، فلا ترغم على العودة الى النصرانية ، بل تسئل في ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد الروميات ذكوراً أو أناثاً ، على اعتناق النصرانية «٣١» .

وأنه لا يرغم مسلم ولا مسلمة قط ، على اعتناق النصرانية «٣٢» .

وأنه اذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب ، فلا يقبل ذلك منها ، حتى تسئل وتوعظ وفقا للقانون . واذا كانت قد استولت خلسة على حلي أو غيرها من دار أهلها أو أي شيء آخر ، فأنها ترد لصاحبها ، وتتخذ الاجراءات ضد المسؤول «٣٣» .

وألا يطلب الملكان ، أو يسمحا بأن يطلب الى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله ، أو خدمه ، أو أحد من أهل غرناطة او البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرها ، من الداخلة في هذا العهد ، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها ، أو من الاشياء الموروثة ، ولا يحق لاحد يعلم بشيء من ذلك أن يطالب به «٣٤» .

وألا يطلب الى أي مسلم ، يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو

أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست في حوزته ، رده أو ردها الان أو فيما بعد «٣٥»

وألا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة ، من الضرائب الا وفقا لقيمتها ، وعلى مثل الاراضي العادية «٣٦» •

وأن يطبق ذلك ايضا على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها اكثر مما يدفع عن الاملاك العادية «٣٧» •

وأن يتمتع يهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضها ، والاراضي التابعة لها ، بما في هذا العهد من الامتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور الى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ كانون الثاني ــ ديسمبر «٣٨» •

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والاراضي التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة ، فأذا أخل أحدهم بالواجب ، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق «٣٩» •

وأنه لايحق للملكين أو لاعقابهما الى الابد ، أن يسألو الملك المذكور أبي عبدالله ، أو أحدا من المسلمين المذكورين ، بأية صورة ، عن أي شيء يكونوا قد عملوه حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة ، وهي مدة الستين يوماً المنصوص عليها «٤٠» •

وأنه لا يولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم ، الذين كانوا تابعين لملك وادي آش «٤١» •

وأنه اذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فأنه ينظر أمام قاض نصراني وآخر مسلم ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به «٤٢» •

وأن يقوم الملكان بالافراج عن الاسرى المسلمين ذكوراً أو أناثاً ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، افراجاً حراً دون أية نفقة من فدية ، وأن يكون الافراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالاندلس في ظرف

(٤٠) المقصود هنا هو مولاي الزعل •

الخمسة أشهر التالية ، وأما الاسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية . وبعد يومين من تسليم الاسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتي أسير مسلم ، منهم مائة من الرهائن ، ومائة أخرى «٤٤» .

وأنه اذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتيهما ، فأنها يجب أن تسلّم اليهما كل الاسر النصارى ذكورا واناثا ، في ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أية نفقة «٤٦» .

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الان في مملكة غرناطة ، لكي تسافر في أمان ، على ألاّ تكون حاملة أي أسير نصراني ، وألاّ يتعرض لها أحد بضرر أو إتلاف ، وألا يؤخذ منها شيء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى ، ويحق لجلالتيهما ارسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض «٤٧» .

وألا يدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين الى الحرب رغم ارادته ، واذا شاء جلالتيهما استدعاء الفرسان الذين لهم خيول وسلاح للعمل في نواحي الاندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة «٤٨» .

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد ، أن يؤديه لصاحب الحق ، ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق «٥٢» .

وأن يكون المأمورون والقضائيون الذين يعيّنون لمحاكم المسلمين ، أيضا مسلمين ، وألا يتولاها نصراني الان وفي أي وقت «٥٤» .

وأن يقوم الملكان في اليوم الذي تسلّم اليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم ، بأصدار مراسيم الامتيازات للملك أبي عبدالله وللمدينة المذكورة ، ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذي الأهداب الحريرية ، وأن يصدّق عليها ولدهما الأمير والكاردينال المحترم دسبينا ، ورؤساء الهيئات الدينية ، والعظماء والدوقات ، والمركيزون والكونتات

والرؤساء ، حتى تكـون ثابتة وصحيحة الان وفي كـل وقت (٥٦ ثافرا) – (٤٣ سيمانقا) .

وقد ذيلت المعاهـدة ، بنبذة خلاصتها ، أن ملكـي قشتالة يؤكـدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد مـن النصوص ، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما ، وعليها تاريخ تحريرهـا يوم (٢٥ تشرين الثاني – نوفمبر ١٤٩١م)[٤١] . ثم ذيلت بعد ذلك بتاريـخ لاحق هو يوم (كانون الثاني – يناير ١٤٩٢م) أعني بعد تسليم غرناطة بعام ، بتوكيد جديد ، يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شيء ، أو ينقص منه شيء ، الان والى الابد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظـا ، ويأمرا بالمحافظة على كل مايحتويه بنداً بنداً الى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكـين ، وتوقيع ولدهمـا وجمـع كبير مـن الأمـراء والأحبـار والأشراف والعظماء[٤٢] .

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة ، وهو (يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١م)، وفي نفس المكان الذي وقعت فيه، وهو المعسكرالملكي

---

(٤١) نهاية الاندلس (٢٣٠ – ٢٣٥) ، وقد ترجمها المؤلف ولخصها من نصـوص معاهدة التسليم في الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا نصوص هـذه المعاهدة ، وهما : أولا الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة في (سيمانقا ضمن مجموعة Archiro general de Simancas) وتحمل رقم P. R. 11 - 207
(Caballeros de Castilla) — (Capitulaciones can Moros y)
وهي تملأ احدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة . وثانيـا الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دي ثافـرا أمين الملكـين الكاثوليكيـين ، وتحفظ بمجموعة دي ثافرا ببلدية غرناطة
Las Capitulaciones Para la Entraga, por Miguel Garrido Arinza (Granada 1910) P. 269 - 295 .

(٤٢) انظر مجموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر (٢٨٩ – ٢٩٠) .

بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة اخرى أو ملحق سري للمعاهدة الاولى ، يتضمن الحقوق والامتيازات والمنح ، التي تعطى للسلطان أبي عبدالله ، ولافراد اسرته وحاشيته ، وذلك متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء وحصونها • وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتي :

أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبي عبدالله ولأولاده وأحفاده وورثته الى الابد ، حق الملكية الابدية ، فيما يملكانه من محلات وضياع في بلاد برجة، ودلاية ، ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيجر ، وأرجبة ، وبضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع ، وما بها من الدور والاماكن والقلاع والابراج ، لتكون كلها له ولاولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الابدية ، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها ، وباعتباره في الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما ، وله حق بيع الاعيان المذكورة ورهنها ، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، وأنه متى أراد بيعها ، فأنه يعرض ذلك أولا على جلالتيهما ، فاذا لم يريدا شراءها ، فله أن يبيعها لمن شاء• وأن يحتفظ جلالته بقلعة إدرة ، وسائر القلاع الواقعة على الشاطىء •

وأن يعطى جلالتيهما الى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب (كاستيليانو) ، يبعثان بها اليه عقب تسليم الحمراء وقلاع غرناطة الاخرى التي يجب تسليمها ، وذلك في الموعد المحدد •

وأن يهب جلالتيهما للملك المذكور ، كل الاراضي والرحى والحدائق والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن ، سواء في غرناطة أو في البشرات ، لتكون ملكاً له ولاولاده ولعقبه وورثته ، ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيهما كيفما يشاء •

وأن يهب جلالتيهما ، الى الملكة والدته ، والملكات أخواته وزوجته ،

والى زوجة أبي الحسن ، كل الحدائق والمزارع والاراضي والطواحين والحمامات ، التي يملكنها في غرناطة والبشرات ، تكون ملكاً لهن ولاعقابهن الى الابد ، ولهن بيعها أو رهنها والتمتع بها وفقا لما تقدم .

وأن تكون سائر الاراضي الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات وزوجة مولاي ابي الحسن معفاة من الضرائب والحقوق الان والى الابد .

وأن لا يطلب جلالتيهما أو أعقابهما الى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمه رد ما أخذوه في أيامهم سواء من النصارى او المسلمين منه الاموال والاراضي(٤٣)

وأنه اذا شاء الملك المذكور أبو عبدالله والملكان المذكوران، وزوجة مولاي أبي الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم وقواتهم وخدمهم وأهل دراهم وفرسانهم وغيرهم ، صغارا وكبارا ، العبور الى المغرب ، فأن جلالتهما يجهزان الآن أو في أي وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين ، متى شاءوا ، تحملهم وكل أمتعتهم وما شيتهم وسلاحهم ، وذلك دون أي اجر أو نفقة .

وأنه اذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاي أبي الحسن ، والقوّاد والحشم والخدم ، وقت عبورهم الى المغرب ، من بيع أملاكهم المشار اليها ، فأن لهم أن يوكلوا من شاووا لقبض ريعها ، وارسالها حيث شاءوا ، دون أي قيد أو مغرم .

وأنه يحق للملك المذكور ، متى خرج من غرناطة ، أن يسكن أو يقيم متى شاء ، في الاراضي التي قطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه الذين يريدون الخروج معه ، بخيلهم وماشيتهم ، متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو في أي وقت ، وضع علامة خاصة في ثيابهم

(٤٣) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وابي عبدالله بدار المحفوظات العامة في سيمانقا (Archivo general de Simancas) وتحمل رقم (Fol. 206, P. R. Leg. 11)

أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الامتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة.

وأنه في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعة ومختومة ، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء.

تلك هي الشروط التي وضعت لتسليم آخر القواعد الاندلسية ، وتلك هي الامتيازات والمنح التي منحت لاخر ملوك الاندلس فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الامة المغلوبة ، فقد كانت هذه الشروط المسهبة ، والتي اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال ، وسائر الحقوق المادية ، وصون الدين والشعائر ، والكرامة الشخصية ، أفضل مايمكن الحصول عليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص العدو الظافر في عهوده ، ولكن هذه العهود لم تكن في الواقع ، حسبما أيدت الحوادث فيما بعد ، سوى ستار الغدر والخيانة ، وقد نقضت هذه الشروط الخلابة كلها لاعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربي نفسه في أن يصفها : « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الاسباني فيما تلا من العصور »[٤٤] وقد بذل فرديناند مابذل من عهود وضمانات وامتيازات لاهل غرناطة ، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب ، وما منيت به من الخسائر الفادحة ، أمام أسوار مالقة وبسطة ، ولانه كان يعلم ان الحاضرة الاندلسية الاخيرة كانت تموج بعشرات الالوف من المدافعين ، وأنه يقتضي لاخذها عنوة بذل جهود مضنية ، وتحمل تضحيات عظيمة ، وقد لجأ فرديناند الى جانب إرهاق غرناطة بالحصار الصارم ، الى البذل والرشوة لاغراء الزعماء والقادة ، وعلى رأسهم أبو عبدالله ، وذلك لكي يصل الى غايته المنشودة بطريقة سليمة مأمونة ، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما اشارت اليه الرواية الاسلامية المعاصرة ، من ريب وشكوك

---

(٤٤) Prescott : Ibid ; P. 296.

تحيط بموقف أبي عبدالله ووزرائه وقادته •

وعاد أبو القاسم عبدالملك والوزير ابن كماشة يحملان شروط التسليم، وصحبهما فرناندو دي ثافرا أمين ملك قشتالة ومبعوثه ، وأدخل سراً الى قصر الحمراء ؛ وجمع أبو عبدالله الفقهاء وأكابر الجماعة في بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، وبعد مناقشات طويلة عاصفة ، تمت الموافقة على المعاهدة ، وحملها دي ثافرا ممهورة بتوقيع أبي عبدالله الى معسكر ملك قشتالة •

وقد انتهت الينا من هذه الجلسة الحاسمة في تاريخ الامة الاندلسية ، وعن موقف فارس غرناطة موسى بن أبي الغسان ، رواية قشتالية مؤثرة ، تنم عن روح الانتقاض والسخط التي كانت تضطرم بها بعض النفوس الابية الكريمة التي كانت ترى الموت خيرا من التسليم لاعداء الوطن والدين •

تقول الرواية المذكورة : انه حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا عهد التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والمحو ، عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل • ولكن موسى لبث وحده صامتا عابسا وقال : « أتركوا العويل للنساء والاطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء • واني لارى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا ان ننقذ غرناطة ؛ ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعا عن حرياتنا وانتقاما لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمّنا الغبراء أبناءها من اغلال المستعبد وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر لستر رفاته ، فأنه لن يعدم سماءاً تغطيه ، وحاشا لله أن يقال : أن اشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها »(٤٥) •

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبدالله البصر حوله ، فأذا اليأس ماثل في تلك الوجوه التي أفناها الألم ، واذا كل

(٤٥) Condé ; Ibid ; V. III. P. 256 - 257 .

عزم قد فتر في تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح أبو عبدالله : «لا أله الا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب علي أن أكون شقيا ، وأن يذهب الملك على يدي » . وصاحت الجماعة على أثره : « الله أكبر ، ولا راد لقضاء الله » ، وكرّروا جميعا انها ارادة الله ، ولتكن ، وأنه لامفر من قضائه ولا مهرب، وأن شروط مالك النصارى أفضل مايمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لايجدي ، وأن الجماعة قد اخذت فعلا في توقيع صك التسليم ، نهض مغضبا وصاح : « لاتخدعوا أنفسكم ، ولاتظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولاتركنوا الى شهامة ملكهم . ان الموت أقل مانخشى ، فأما منا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك بناتنا ونسائنا ، وأما منا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي ، والسياط والاغلال ، وأما منا السجون والانطاع والمحارق . هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف ، وهذا ماسوف تراه على الاقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا ، فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس ، واخترق بهو الاسود (كورة السباع) عابسا حزينا ، وجاز الى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحدا أو يتفوه بكلمة ، ثم ذهب الى داره ، وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب البيرة ، ولم يره انسان أو يسمع به بعد ذلك قط ، هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن أبي الغسان[٤٦] في ولكن مؤرخا اسبانيا هو القس أنطونيو أجابيدا يحاول أن يلقي ضوءا على مصيره فيقول : ان سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر شنيل ، بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه الى قدمه ، وكان مغلقا خوذته شاهرا رمحه ، وكان جواده غارقا مثله

(٤٦) هذه هي رواية كوندى فيما نقل عن مصادر عربية غير معروفة
. Condé ; Ibid. V. III. P. 257

في رداء من الصلب • فلما رأوه مقبلا عليهم ، طلبوا اليه أن يقف ، وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب الى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه الى الارض ، ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعانا ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح،ولم يرد الا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه انما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنه يتوق الى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره • وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب في النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط الى الارض ، ولكنه جثا على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه • فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيرا في يد خصومه ، ارتد الى ماورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه الى مياه النهر ، إبتلعته لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل الى الاعماق •وهذا الفارس الملثم هو موسى بن أبي الغسان ، وان بعض العرب المتنصرين في المعسكر الاسباني ، عرفوا جواده المقتول (٤٧)•

وما كادت أنباء الموافقة على عهد التسليم تذاع ، حتى عم الحزن ربوع غرناطة ، وتسربت في الوقت نفسه أنباء غامضة عن المعاهدة السرية ، وعما حققه أبو عبدالله ووزراؤه لانفسهم من المغانم الخاصة ، وسرى الهمس بين العامة ، واضطرم سواد الشعب يأسا وسخطا على قادته ، لاسيما أبي عبدالله الذي اعتبر مصدر كل مصائبه ومحنه ، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى الرمق الاخير ، وحدثت حركة انتقاض ، خشى أبو عبدالله والقادة أن تقضي على خططهم وتدابيرهم ، ولكنها انهارت قبل أن تنظم ، وأضحى كل فرد يفكر في مصيره •

واستقبل المسلمون عهود ملك قشتالة في تردد وتوجس ، والشك يساورهم في اخلاص أعدائهم ، وازاء ذلك أعلن الملكان الكاثوليكيان في يوم

(٤٧) Irring : Conquest of Granada ; ch. 97.

٢٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ، مع قسم رسمي بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم أو حيث شاءوا وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة الى المغرب . ولكن الايمان والعهود لم تكن حسبما تقدم ، عند ملكي قشتالة ، سوى ذريعة للخيانة والغدر ، ووسيلة لتحقيق المآرب بطريق الخديعة الشائنة . وقد كانت هذه أبرز صفات فرديناند الكاثوليكي ، فهو لم يتردد قط في أن يعمل لتحقيق غاياته بأي الوسائل أو أن يقطع أي عهد أو يقدم أي تأكيد ، دون أن ينوي قط الوفاء بما تعهد .

ولكن الشعب الغرناطي استمر في وجومه وتوجسه ويأسه ، ولم تهدأ الخواطر المضطرمة ، وكان أبو عبدالله والقادة يخشون تفاقم الاحوال وافلات الامر من أيديهم ، فاعتزموا على التعجيل بالتسليم ، حرصا على سلامة المدينة وسلامة الزعماء وألا ينتظروا مرور الستين يوما التي نصت عليها المعاهدة .وفي يوم ٢٠ كانون الاول ــ ديسمبر ، أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كماشة الى فرديناند مع خمسمائة من الرهائن من الوجوه والاعيان ، تنفيذا لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل اليه هدية تتألف من سيف ملوكي وجوادين عربيين مَسرّجين بعدد ثمينة . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة (في الثاني من كانون الثاني ــ يناير ١٤٩٢م) أي لتسع وثلاثين يوما فقط من توقيع عهد التسليم .

وفي صباح يوم احتلال القشتاليين غرناطة ، كان المعسكر النصراني في شنتفي يموج بالضجيج والابتهاج ، وكانت الاوامر قد صدرت ، والاهبة قد اتخذت لاحتلال المدينة . وكان قد اتفق أبو عبدالله والملك فرديناند أن تطلق من الحمراء ثلاثة مدافع تكون ايذانا بالتسليم . ولم يشأ فرديناند أن يسير الى الحاضرة الاسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها التام ، واستتباب الامن والسلامة فيها ، فأرسل اليها قوة من ثلاثة الاف جندي وسرية من الفرسان ،

وعلى رأسها الكادرينال بيدرودي مندوسا مطران اسبانيا الأكبر • وكان من المتفق عليها أيضا بين فرديناند وأبي عبدالله ، ألا يخترق الجيش النصراني شوارع المدينة ، بل يسير توا الى قصبة الحمراء ، حتى لا يقع حادث أو شغب• ومن ثم فقد اخترق الجند القشتاليون الفحص الى ضاحية أرميليا (Armilla) ـ (أرملة) الواقعة جنوبي غرناطة ، ثم عبروا نهر شنيل واتجهوا توا الى قصر الحمراء من ناحيةالتل المسمى : «تل الرحى» ، الواقع غربي المدينة وجنوبي غربي الحمراء (Quest de las Molinos) .

وسار الملك فرديناند في الوقت نفسه في قوة أخرى ، ورابط على ضفة شنيل ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة في ثيابهم الزاهية ، حتى يمهد الكاردينال الطريق لمقدم الركب الملكي • وانتظرت الملكة ايزابيلا في سرية أخرى من الفرسان في أرميليا على قيد مسافة قريبة • ووصل الجند القشتاليون الى مدينة غرناطة من هذه الطريق المنحرفة نحو الظهر ، وكانت أبواب الحمراء قد فتحت وأخليت أبهاؤها استعدادا للساعة الحاسمة •

وهنا تختلف الرواية ، فيقال : ان الذي استقبل الكاردينال مندوسا وصحبه هو الوزير ابن كماشة ، الذي ندب للقيام بتلك المهمة المؤلمة ، وسلم الحرس المسلمون السلاح والأبراج • وكان يسود المدينة كلها ، ويسود القصبة والقصر وما إليه ، سكون الموت •

وفي رواية أخرى ، أن أبا عبدالله قد شهد بنفسه تسليم الحمراء ، وانه حينما تقدم القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء ، تقدم أبو عبدالله من باب الطباق السبع راجلا ، يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه ، فلما عرف الكاردينال أبا عبدالله ، ترجل عن جواده ، وتقدم الى لقائه ، وحيّاه باحترام وحفاوة ، ثم ابتعد الرجلان قليلا ، وتحدثا برهة على انفراد • ثم قال أبو

عبدالله بصوت مسموع[٤٨] : «هيا ياسيدي ، في هذه الساعة الطيبة ، وتسلم هذه القصور ــ قصورى ــ باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر، أن يستوليا عليها ، لفضائلهما ، وزلات المسلمين ». فوجه الكاردينال الى أبى عبدالله بعض عبارات المواساة ، ودعاه لأن يقيم في خيمته في المعسكر الملكي طيلة الوقت الذي يمكثه في شنتفى ، فقبل أبو عبدالله شاكرا .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبدالله للقيام بهذه المهمة ، وما كاد الكاردينال وصحبه يجوزون الى داخل القصر الاسلامي المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى (برج الحراسة) ــ (Torre de la Vela) صليبا فضيا كبيرا ، هو الذي كان يحمله الملك فرديناند خلال حرب غرناطة ، كما رفعوا الى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن المنادي من فوق البرج بصوت جهوري ثلاثا : أن غرناطة أصبحت ملكا للملكين الكاثوليكيين ، وأطلقت المدافع تدوي في الفضاء . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل صلاة : «الحمد لله» Te Deudamusu على أنغام الموسيقى . وهكذا كان كل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التي شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الاندلسية ، وعلى الاسلام في اسبانيا .

وفي أثناء ذلك ، كان أبو عبدالله في طريقه الى لقاء الملك الكاثوليكى، وكان فرديناند يرابط كما قدمنا على ضفة نهر شنيل ، على مقربة من المسجد ، الذي حول فيما بعد الى كنيسة «سان سبستيان» ، وهنالك لقي أبو عبدالله عدوه الظافر ، وسلمه مفاتيح الحمراء . وكذلك قدم أبو عبدالله خاتمه الذهبي الذي كان يوقع به على الأوامر الرسمية ، الى الكونت دي تندليا الذي عين

(٤٨) المفروض أن أبا عبدالله كان يتحدث القشتالية ، وهي لغة كان يجيد التكلم بها . فاذا كان قد تكلم بالعربية ، فمن المفروض أن الكاردينال يحسنها ، وكانت العربية شائعة ليس في الاندلس حسب ، بل عالميا .

محافظا للمدينــة •

وسار في صحبه بعد ذلك في طريق شنتفي ، يتبعه أهله ، مأمّه وزوجه وأخواته ، وكان موكباً مأساوياً ، وعرّج في طريقه على محلة الملكة ايزابيلا في أرميليا ، فاستقبلته وأسرته برقة ومجاملة ، وحاولت تخفيف آلامه ، وسلمته ولده الصغير الذي كان ضمن رهائن التسليم •

وهنا تعود الرواية ، فتختلف اختلافا بيّنا ، فيقول بعضهم : ان الملكين الكاثوليكيين دخلا قصر الحمراء في نفس اليوم وينفي بعضهم ذلك ومنهم صاحب : « أخبار العصر » ، ويقول : «انهما لم يدخلا الا بعد ذلك ببضعة أيـام » •

تقول الرواية الاولى: ان ايزابيلا سارت على أثر استقبالها لأبى عبدالله، وانضمت بصحبها الى الملك فرديناند ، ثم سار الاثنان الى الحمراء ، بينما انتشر الجند القشتاليون في الساحة المجاورة ، ودخل الملـكان من « بـاب الشريعة » ، حيث استقبلهما الكاردينال مندوسا والوزير ابن كماشة ، وأعطى مفاتيح الحمراء الى الدون ديجو دي مندوسا الذي عيّن حاكما للمدينـة • وبعد أن تجول الملكان قليلا في القصر ، وشهدا جماله وروعتـه ، عـادا الى شنتفي وبقي الكونت دي تندليا في الحمراء مع حامية قويـة من خمسمائـة جندي • ثم عاد الملكان ، فزارا الحمراء زيارتهما الرسمية في ٦ كانون الثاني — يناير ، وسارا في موكب فخم من الأمراء والكبراء وأشراف العقائل ، ودخلا غرناطة من باب البيرة ، ثم جازا الى الحمراء من طريق غمارة ، ودخلا قصر الحمراء ، وجلسا في بهو قمارش أو المشور[٤٩] ، حيـث كان يجلس الملـوك المسلمون في نفس المكان على عرشهم ، على عرش أعده الكونت دي تندليا ، وهناك أقبل أشراف قشتالة للتهنئة ، وكذلك بعض الفرسان المسلمين ، الذين أتوا ليقدموا شعائر التحية والتجلّة لسادتهم الجدد • وفي خلال ذلك كـان

(٤٩) وهو المسمى ايضا بهو السفراء •

الملكان الكاثوليكيان قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة ، وفي مقدمتهم ولد أبى عبدالله ، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الاسرى النصارى ، وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالا ونساء ، وتعهد القشتاليون من جانبهم أن يطلقوا سراح الاسرى المسلمين في سائر مملكة قشتالة ، في ظرف خمسة أشهر بالنسبة للاسرى الموجودين في الاندلس ، وثمانية أشهر بالنسبة للاسرى الموجودين في بقية أراضي قشتالة .

تلك هي خلاصة الرواية القشتالية عن تسليم غرناطة ومدينة الحمراء للملكين الكاثوليكيين . بيد أن هناك رواية أخرى لشاهد عيان ، كتبها فارس فرنسي كان يقاتل في صفوف الجيش القشتالي ، وشهد بنفسه حفلات التسليم، ونشرت روايته في القرن السادس عشر ضمن مؤلف عنوانه La Mar de las Historias « بحر التواريخ » ، وهذه خلاصتها : ان الذي أوفده الملكان لاستلام الحمراء في يوم ٢ كانون الثاني ـ يناير ، هو الاستاذ الأعظم ، رئيس جمعية شنت ياقب ، جوتيري دي كارديناس، وليس الكاردينال مندوسا حسبما تروي التواريخ القشتالية.وأنه تسلم القصر والأبراج ، وأخرج منها الحرس المسلمين ، واستبدل عنهم بحرس النصارى ، وأنه رفع الصليب الكبير فوق برج الحراسة ثلاث مرات ، والمسلمون من أسفل يصعّدون الزفرات ويذرفون الدموع ، ثم لوح بعد ذلك بعلم شنت ياقب ثلاث مرات ، ونُصب الى جانب الصليب ، وصاح المنادي بعد ذلك ، القديس يعقوب ثلاثاً ، غرناطة لسيدنا الدون فرناندو ودينا ايزابيل ثلاثاً .

وأن الملك فرديناند لما رأى الصليب ، وهو في جنده ، من أسفل ، ترجّل وجثا على ركبتيه ، وجثا الجند جميعاً شكراً لله ، ثم أطلقت المدافع ابتهاجا .

وفي اليوم التالي : الثالث من كانون الثاني ـ يناير ، سار الكاردينال مندوسا والكونت دي تندليا ، الذي عُيِّن محافظاً للحمراء ، الى قصبة الحمراء في نحو ألف فارس وألفي راجل ، وسلّم اليه الأستاذ الأعظم مفاتيح

القصر والحصن • وفي اليوم الثامن من كانون الثاني ـ يناير ، سار الملكان الكاثوليكيان الى غرناطة في موكب حافل من الامراء والاكابر والاحبار والاشراف ، وتسلّم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية ، وأقيم القداس في الجامع الاعظم ، وحوّل الجامع منذ ذلك اليوم الى كاتدرائية غرناطة • وفي ذلك اليوم أقيمت مأدبة عظيمة في قصر الحمراء ، ومدّت الموائد الحافلة في أبهاء القصر العظيمة ، وجلس اليها الملكان والامراء والعظماء ، وكانت مأدبة رائعة •

ويستخلص من هذه الرواية التي يؤيدها مؤرخون آخرون ، أن أبا عبدالله لم يستقبل الملكين الكاثوليكيين ، ولا مندوبيهما وقت التسليم ، ولم تقع بينه والكاردينال ولا بين بين الملكين ، الاحاديث التي سبقت الاشارة اليها•

والى جانب ذلك ، يرى بعض النقدة المحدثين ، أن أبا عبدالله حينما خرج للقاء الملكين الكاثوليكيين ، قد فعل ذلك وهو في صحبه وحشمه فقط دون أهله ، وأنه خرج يومئذ من داره الملكية الخاصة بحي البيازين ، ولم يخرج من قصر الحمراء ، وأنه كان يعيش في هذه الدار مع أهله وولده مذ عاد من الاسر ، حتى أعلن الخلاف والحرب على الملكين الكاثوليكيين ، وأنه كان يشعر وهو في الدار ، أنه بين انصاره ومؤيديه • وأخيراً أنه كان قد أمر بأخلاء قصر الحمراء ، وندب من يقوم بمهمة التسليم في اليوم الثاني من كانون الثاني ـ يناير • وفي هذا اليوم ، خرج في نفر من صحبه ليقدّم الى الملكين الكاثوليكيين شعائر التحية والخضوع ، ثم عاد الى داره فبقي بها أياماً ، حتى سويت مسألة مصيره مع الملكين الكاثوليكيين • على أنه يبدو لنا من تتبع حوادث حصار غرناطة ، وما تلاه من مفاوضات على التسليم ، أن الرواية الراجحة في هذا الشأن ، هو أن أبا عبدالله ، حتى مع افتراض أنه لم يشهد رسوم التسليم ، ولم يقم بها بنفسه ، كان يقيم بقصر الحمراء ، يحيط به وزراؤه وقواده طيلة هذه الاحداث الخطيرة ، أو على الاقل مذ بدأت

مفاوضات التسليم بينه والملكين الكاثوليكيين ، ومنذ أبرمت بينهما معاهدة التسليم ، حتى يوم الحسم النهائي الذي تم فيه ذلك التسليم ، وأنه خرج في ذلك اليوم المشهود من الحمراء للقاء عدوه الظافر ؛ ومن المعقول أن تكون الحمراء قد أُخليت قبل ذلك استعداداً لتسليمها لسادتها الجدد ، وذلك حسبما يشير اليه صاحب : « أخبار العصر »(٥٠) .

وتلقى الرواية الاسلامية المعاصرة لتلك الاحداث ضوءاً على دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، وتصفه على النحو التالي : « فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ كانون الثاني — يناير سنة ١٤٩٢م) أقبل ملك الروم بجيوشه ، حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر ، وكان قد طلب من أهل البلد حين وقع الاتفاق على ماذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوه خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته. فلما أطمئن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير ، وبقي هو خارج البلد ، وشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدّة ، وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً الى محلته ..... ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ، ومؤمّنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل في جيوشه حين أطمأن ، فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه ، وبقي الجند خارج البلد ، وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار الى محلته ، فمن غد أخذ في بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها واصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد على الحمراء بالنهار ويرجع بالليل ، فلم يزل كذلك الى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه في نفر من قومه وحشمه ..... »(٥١) .

(٥٠) اخبار العصر (٥٠) .

(٥١) اخبار العصر (٥٠ — ٥١) .

وهكذا اختتمت المأساة الاندلسية ، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الاسلامية في اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافرا فوق صرح الاسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الاسلام بالاندلس ، وطويت الى الابد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الاسلام ، وقضى على الحضارة الاندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم وموطن آبائهم واجدادهم ، وقلوبهم تتقطر حزناً وأسى ، على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أليمة ، تلك مأساة الملك التعس أبي عبدالله آخر ملوك بني الاحمر وآخر ملوك الاسلام بالاندلس . فقد تقرر مصيره وبينت حقوقه وامتيازاته وفقاً للمعاهدة السرية التي عقدت بينه والملكين الكاثوليكين وقد نصت المعاهدة المذكورة على أن يقطع أبو عبدالله طائفة من الاراضي والضياع في برجة ، ودلاية ، وأندرش ، واجيجر ، وأرجبة ، ولوشاء ، وبضعة بلاد أخرى من اعمال منطقة البشرات ، وهذه البلاد يقع بعضها في جنوب غرب ولاية المرية وبعضها الاخر قبالتها في جنوب شرقي ولاية غرناطة ،وأن يحكم أبو عبدالله في هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، ويتمتع بدخلها وسائر غلاّتها وحقوقها . وقد حددت اقامته أو اختار هو الاقامة في احداها وهي بلدة أندرش الواقعة على النهر المسمى بهذا الاسم شمال برجة .

ولما اقترب اليوم المروّع — يوم التسليم ، قام أبو عبدالله باتخاذ أهبته للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته .، وفي صباح اليوم الثاني من كانون الثاني — يناير سنة ١٤٩٢ م ، في الوقت الذي اقترب فيه النصارى من أسوار غرناطة ، كان أبو عبدالله قد غادر قصره وموطن عزه ومجد ابائه الى الابد ، في مناظر تثير الاسى والشجن .

وهناك روايتان ،ومنهل خرج أبو عبدالله عندئذ لاخر مرة من الحمراء

مع أهله وحشمه وأمتعته ؟ أم هل خرج بمفرده في صحبه من الحمراء للقاء الملكين الكاثوليكيين ، ثم لحق به بعد ذلك ركب أهله وأمتعته ؟ وهل سار توا الى طريق البشرات حيث تعين محل اقامته ، أم عرّج على المعسكر القشتالي الملكي في شنتفي ، فلبث فيه مع أهله أياما ، ثم سار بعد ذلك الى البشرات ؟

أما الرواية الاولى ، وهي أكثر الروايات ذيوعا لدى المؤرخين القشتاليين، فتقول : في فجر اليوم الثاني من كانون الثاني ــ يناير ، وهو اليوم الذي حدد لتسليم الحمراء • كان ضجيج البكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه، وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع واله ، وساد الوجوم كل محيّا ، واحتبست الزفرات في الصدور • وما كادت تباشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ركب قاتم مؤثر ، هو ركب الملك المنفي ، يحمل أمواله وأمتعته، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين • وكانت أمه الاميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها ، يشع الحزن من محيّاها الوقور ، وكان باقي السيدات من اله وحشمه ، يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة • واخترق الركب غرناطة في صمت البكور وستره ، وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة الى الابد ، ضج الحراس بالبكاء لرؤية هذا المنظر المؤلم ، ثم اتجه الركب شطر نهر شنيل في طريق البشرات • وأما أبو عبدالله ، فقد اتجه الى وجهة أخرى ليتجرع كأسه المرة الى الثمالة ، وكان قد تقرر اللقاء في صباح ذلك اليوم بينه وملك قشتالة ، فخرج من باب مدينة الحمراء المسمى : باب الطباق السبع (Siete Suelos) ، وفي طريقه الى لقاء عدوه الظافر وسيده الجديد ، في نفر من الفرسان والحاصة • فاستقبله فرديناند بترحاب وحفاوة في محلته على ضفة نهر شنيل ، وحين لمح أبو عبدالله فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند بادر بمنعه ، وعانقه بعطف ومودة ، فقبّل أبو عبدالله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع • ثم قدم اليه مفتاحي البابين الرئيسيين للحمراء قائلا : « انهما مفتاحي هذه الجنة ، وهما

الاثر الاخير لدولة المسلمين في اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا واشخاصنا ، وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيما عادلا » . وتناول فرديناند المفتاحين : « لا تشك في وعودنا ، ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة ، وسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك(٥٢) بيد أن مؤرخا قشتاليا عاش قريبا من ذلك العصر ، يقدم الينا رواية أخرى ربما كانت أقرب الى الصحة والمعقول ، وهي ان مفاتيح الحمراء قدّمها القائد إبن كماشة مأمور التسليم الى الملك فرديناند حينما وصل الى الباب الرئيس ، وأن فرديناند ناولها الى قائده لو بثدى مندوسا (كونت تندليا) الذي عينه حاكما عسكريا لغرناطة(٥٣) . وسار أبو عبدالله بعدذلك صحبة فرديناند ، الى حيث كانت الملكة ايزابيلا في ضاحية أرمليا ، فقدم اليها تحياته وطاعته ، ثم ارتد الى طريق البشرات ، ليلتحق بأسرته وخاصته . وأشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة ، فوقف يسرح نظره لاخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها وشهدت عزه وسلطانه،فانهمر في الحال دمعه،وأجهش بالبكاء ، فصاحت به أمه عائشة : « أجل ! فلتبك كالنساء ، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » وتعرف الرواية الاسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن بأسم شعري مؤثر هو « زفرة العربي الاخيرة » ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعيّنها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول.

والباب الذي خرج منه أبو عبدالله لاخر مرة ، وهو باب الطباق السبع، قد سُدّ بعد خروجه منه برجاء منه الى ملك قشتالة ، وبنى مكانه ، حتى لا

(٥٢) تردد معظم التواريخ القشتالية اللاحقة وصف هذا المنظر وذكر قصة ابي عبدالله . انظر : L. Alcontra ; Ibid ; V. III. P. 73

(٥٣) Luis del Marmol : Relelian y Cosligo de las Moriscos de Granada, Lib. I, Cap. XX.

يحوزه من بعده انسان[٥٤] • ومازالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الاطلال الدارسة • وهو يقع في طرف الهضبة في الجنوب الشرقي منها على مقربة من : « برج الماء » والذي رآه يشهد أنه قد سد فراغه حقيقة بالبناء •

وأما الرواية الاخرى ، وهي الاقل ذيوعا ، فخلاصتها أن أبا عبدالله خرج من الحمراء صبيحة يوم التسليم بمفرده وفي نفر من صحبه الى لقاء الملكين الكاثوليكيين ، وخرج بعد ذلك ركب أهله وأمتعته من الدار الملكية بحي البيازين ليلتقي به بعد انتهاء مهمته ،: وأنه لم يسر بعد ذلك توا الى البشرات ، بل سار بأهله وأمتعته الى المعسكر القشتالي في شنتفي ، فقضى به أياما ، حتى سويت المسائل المتعلقة بمصيره ، ثم سار الجميع بعد ذلك الى أندرش التي اختارها أبو عبدالله مقرا ومقاما •

٣ ـ عاقبة الملك المتخاذل

كان لسقوط غرناطة وانتهاء دولة الاسلام في الاندلس ، وقع عميق في الضفة الاخرى من البحر ، في أمم المغرب التي لبثت عصورا ترتبط بالاندلس بأوثق الروابط ، وفي سائر العالم الاسلامي •

وكان له أيضا وقعه العميق في سائر الامم النصرانية ، فقد ابتهجت له أيما أبتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط القسطنطينية في قبضة الاسلام قبل ذلك بأربعين عاما • ورحبت سائر قصور اوربا بالنبأ ، وأقامت لاحيائه الحفلات الدينية والمدنية منوهة بفضل فرديناند وايزابيلا في تحقيق هذه الامنية العظيمة[٥٥] •

ولنبدأ الحديث عن مصير الملك المنكود أبي عبدالله محمد بن علي آخر ملوك الاندلس ، فقد غادر غرناطة ساعة استيلاء النصارى عليها ، وسار مع

---

(٥٤) . Marmol ; Ibid ; Lib. 1 ; Cor. XX. ; L. Alcontra, Ibid ; V. III. P. 30 .

(٥٥) Prescott : Ferd and Isalalle P. 299. والهامش .

آله وصحبه وحشمه الى منطقة البشرات ، واستقر هناك في بلدة أنْدَرَش ، وهي احدى البلاد التي أقطعت له في تلك المنطقة ليقيم فيها في ظل ملك قشتالة وتحت حمايته . وصحبه الى وطنه الجديد كثير من الفرسان والسادة والفقهاء، وفي مقدمتهم وزيراه : يوسف بن كماشة ، وأبو القاسم عبدالملك (المليخ) ، وكانا ألصق الناس به ، وأقربهم الى ثقته .ه وكانت أسرة السلطان المنفى تتألف من والدته السلطانة عائشة ، وأخته عائشة ، وزوجه مريم (أو مريمة) ، وولده الصغير(٥٦) . أما أخوه الاصغر يوسف ، فكان قد قتل في ألمرية أيام الفتنة بتحريض أبيه السلطان أبي الحسن أو عمه أبي عبدالله الزغل .

وكان أبو عبدالله عندئذ ، فتى في نحو الثلاثين من عمره ، وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط تاريخ مولده ، فأن صديقه المؤرخ القشتالي هرناندو دي بايثا يقول لنا : انه كان في نحو العشرين ، يوم استطاع الفرار من سجن أبيه السلطان أبي الحسن في سنة (٨٨٧ هـ ــ ١٤٨٢م) ، وبذلك يكون سنة يوم تسليم غرناطة نحو الثلاثين .(٥٧) وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة تلك ، وصفا لشخص أبي عبدالله ، خلاصتها أنه كان ممشوق القد ، حسن

(٥٦) تشير بعض الوثائق المعقودة بين الملكين الكاثوليكيين وابي عبدالله الى : اخواته ، مما يدل على انه كانت له اكثر من اخت ، والمرجح ان عائشة كانت كبراهن .

(٥٧) راجع رواية : Hernando de Baeza القشتالية المنشورة ضمن كتاب : أخبار العصر (٦٣) .

(٥٨) Lafuente Alcantra, Ibid, V. III. P. 74. وقد انتهت الينا لابي عبدالله صورتان اسبانيتان ، كانت تحفظ احداهما بمتحف جنة العريف قبل الفائه ، وفيها يبدو ابو عبدالله بوجه وسيم واون جميل وشعر كثيف أصفر ولحية مفروقة ، ويرتدي ثوبا)صفر ، يظلله حرير أسود ، وعلى راسه قلنسوة عالية . والصورة الثانية تحفظ اليوم بمتحف غرناطة المسمى : casade lostıros ، والمعروف انها رسمت لابي عبدالله حينما كان في اسر الملكين الكاثوليكيين ، عقب معركة اللسانة ، وهي عبارة عن لوحة صغيرة الحجم ، وفيها يبدو ابو عبدالله فتى في

الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سـوداوان نجـلاوان ، ولحية قوية •[٥٨] وعاش أبو عبدالله وآله وصحبه في تلك المملكة الصغيرة الذليلة حينا ، وأنشأ له في أندرش بلاطا صغيرا ، وكان يعيش هناك في ترف ورغد ، وكان يعشق الصيد ويقضي فيـه كثيرا من اوقاتـه ، ويجوب أطراف مملكتـه الصـغيرة فوق جواده[٥٩] •

وكان فرديناند وايزابيلا ، بالرغم من انتصارهما وقضائهما الاخير على المملكة الاندلسية ، قد لبثا يتوجسان من أعماق نفسيهما ، من بقاء السلطان المخلوع في الاراضي الاسبانية ، ويخشيان أن يكون مثار القلاقل والفتن ، ويتوقان الى ابعاده وحاشيته عنها ، مبالغة في الحيطة، واتقاء لكل خطر•وكانا يفرضان على أبى عبدالله رقابة صارمة ، ويتلقيان أدق التقارير والأنباء ، عن حركاته وسكناته ، وكانت عيناهما الساهرة على رقابته ، الوزيران الماكـران يوسف بن كماشة وأبو القاسم عبدالملك[٦٠] • ولم يمـض على اقـامة أبى عبدالله في أندرش زهاء عام ، حتى بدأ الملكان الكاثوليكيان يسعيان سرا في تحقيق غايتهما الاخيرة ، وكان سـبيلها الى ذلك ابن كماشـة وأبا القاسـم عبدالملك • ففي شهر آذار ـ مارس سنة (١٤٩٣م) وقعت مفاوضات جديـدة بين الوزيرين وفرناندو دي ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين ، في شأن مغـادرة أبى عبدالله الاراضي الاسبانية ، والعبور الى المغرب • ويقال : ان أبا عبدالله لم يأذن لوزيريه في اجراء هذه المفاوضات ، ولم يعلم بها حتى تمخضت عـن مشروع جديد ، يقرر فيه أبو عبدالله بتنازله عن جميع حقوقه واملاكه ، نظير

=

عنفوانه ، بوجه عريض وأنف منسق ، وعينين خضراوين ونظرات حادة ، تغشاها الكآبة ، وشعر كستني غزير ، ولحية صغيرة مفروقة ، وقـد رسمت حول عنقه حلقة رمزية لوقوعه في الاسر •

(٥٩) Lafuente Alcantra, Ibid ; V. III. P. 80.

(٦٠) Lafuente Alcantra, Ibid ; V. III. P. 81.

ثمن معين ، ويتعهد بالعبور الى المغرب . ويقال : ان الملك المنكـود حينمـا عرض عليه ابن كماشة هذا الاتفاق ، ثارلعقده ، وكاد يبطش بوزيره ، ولكنه عاد فاستمع الى نصح الوزير وشرحه ، بان البقاء في أرض العدو ، وفي ظـل العبودية والهوان ، لم يبق له محل ، وأنه ليس مكفول السلامة والطمأنينة ، وأن العبور الى أرض الاسلام خير وأبقى . ولعل أبا عبدالله نفسه قد أدرك، كما أدرك عمه مولاي الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة التي فرضـت عليه ، لا تحلو له ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المؤلم، كتابع لملك قشتالة . وعلى أي حال ، فقد اقتنع أبو عبدالله ، بوجهـة نظـر وزيره ، ولكنه أرسل أمينه ومدير شئونه أبا القاسم عبدالملك (المليخ) ليسعى الى تعديل الاتفاق لمصلحته . وبعد مفاوضات جديدة ، وضع الاتفاق النهائي، الذي قبله السلطان المخلوع . وخلاصته : أنه يتعهد بالعبور الى المغرب ، في موعد أقصاه نهاية شهر تشرين الاول ــ اكتوبر سنة (١٤٩٣م) ، وأنه تنازل عن سائر ضياعه ، في أندرش ، ولوشار ، ويرشينا وغيرها ، وكذلك عن أملاكه الاخرى في غرناطة ، بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، وذلك نظير ثمن اجمالي قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالي (كاستليانو) من الذهب الحر ، أو الدوقات المضروبة من الذهب الخالص . كما يتنازل أبو عبدالله عن اختصاصه المدني والجنائي ، ويحمل اليه المال قبل رحيله بثمانية أيام ، ويقدم اليه الملكان عربتين لحمل متاعه ، وسفنا ينتقل عليها مع صحبه ، الى المغرب . ويتضمن الاتفـاق نصوصا أخرى ببيع الأميرات لأملاكهن ، الى الملكين الكاثوليكيين ، وكذلـك ببيع الوزير ابن كماشة والوزير أبي القاسم كل لأملاكه ، نظير مقادير من المال.

ويحمل هذا الاتفاق تاريخ (١٥ نيسان ــ أبريل سنة ١٤٩٣م) ، كما يحمل في ذيله موافقة أبي عبدالله بالعربية ممهورة بتوقيعه وخـاتمه ، وهي تـدل بألفاظها ومعانيها على كثير من العبر المؤلمة : « الحمد لله الى السلطان والسلطانة أضيافي ، أنا الأمير محمد بن علي بن نصر خديمكم ، وصلتني من مقامـكم

العلي . العتيد وفيها جميع الفصول التي عقدها عني وبكم التقديم ، من خديمي القائد أبو القاسم المليخ ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هبت مذكورة بهذا الذي هي تصلكم . واني نوفي وتحلف أني رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدي وطابعي أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولي . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعون وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن علي بن نصر ، رضيت وقبلت جميع ما في هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدي الى أضيافي السلطان والسلطانة مدّ لي هناكما » .

وتوفيت زوجته قبل رحيله ، فلم يحل هذا الرزء دون مضيه ، في اتخاذ أهبة الرحيل . وفي أوائل شهر تشرين الاول ــ أكتوبر سنة (١٤٩٣م) غادر أبو عبدالله الوطن في غمر من الحسرات والأسى، وجاز الى المغرب بأسرته وأمواله وحشمه ، من ثغر أدرة الصغير الواقع جنوبي برجة ، في سفينة كبيرة أعدّت لرحيله ، وعبر في نفس الوقت من ثغر المنكب عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر ، في صحبه ممن آثروا الرحيل ، وبلغ جميع الذين عبروا مع الملك المخلوع ألفا ومائة وثلاثين شخصا (٦١) .

ــ يتبع ــ

(٦١) Lavuente Alcantra , Ibid ; V. III. P. 81. ويقول صاحب اخبار العصر : ان الذين رحلوا مع أبي عبدالله بلغوا نحو سبعمائة فقط .

الفهرس

الصفحة

مجلة المجمع العلمي العراقي



الجزء الثالث ـ المجلد الحادي والاربعون

بغـــداد

١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

انهيــار دولــة قرطبــة

مجمــل اسبابــه

٤ • أبو عبدالله في المغرب ودفاعه عن نفسه

بقلـم اللـواء الركـن
محمود شيت خطاب
عضو المجمع

نزل أبو عبدالله أولاً في مليلة ، ثم قصد إلى فاس واستقر بها (١) ، وتقدّم إلى ملكها السلطان أبي عبدالله محمد الشيخ ، زعيم بني وطّاس (٢) الذين خلفوا بني مرين في الملك مستجيراً به ، مستظلاً بلوائه ورعايته ، معتذراً عما أصاب الأسلام في الأندلس على يده، متبرئاً مما نسب إليه من إثم وتفريط في حق الوطن والدين .

وهذا الدفاع الشهير الذي يقدّمه أبو عبدالله إلينا عن موقفه وتصرّفـه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل في روحـه

---

(١) ازهار الرياض (١ / ٦٧و٧١) .

(٢) هم بطن من بطون بني مرين ، وقد ظهروا في بداية امرهم بتولي الـوزارة ، ونشأت بينهم وبين بني مرين فيما بعد خصومة ومناقشة . وقام كبيرهم ومؤسس دولتهم أبو عبدالله محمد الشيخ بن زكريا أولا في ثغر أصيلا ، واستفحل امره ثم زحف على فاس واستولى عليها في سنة (٨٧٦هـ)= (١٤٧٢ م) ، ثم غلب على سائر الجهات والقبائل المحيطة بها ، وقامت فوق انقاض ملك بني مرين دولة مغربية جديدة .

وقوته وروعته ، على تداحة التبعة التي شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام الأمم الأسلامية والأجيال القادمة كلها ، على أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمرة النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصدر حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه

وقد كتب هذا الدفاع الشهير ، الفريد في التاريخ الأسلامي ، على لسان أبي عبدالله وزيره وكاتبه ، محمد بن عبدالله العربي العقيلي ، في رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهه إلى ملك فاس ، وجعل عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العقيلي من أعلام البلاغة في هذا العصر . ولما عول أبو عبدالله على الرحيل إلى المغرب ، جاز العقيلي البحر مع أميره ، وجازت قبل سقوط غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكري (٣) . وللعقيلي آثار في النثر والنظم تبدو اروعتها كأنها نفثات أخيرة ، لآداب الاندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبي عبدالله من أبدعها وأروعها .

وقد تقدم كاتب هذا الدفاع : لدفاعه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء في مطلعها .

مولى الملوك ملوك العرب والعجم
رعياً لما مثله يرعى من الذمم

وهي قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على مديح ملوك فاس ، وجهادهم في الأندلس ، والأشادة بعلائقهم ببني الأحمر ملوك غرناطة ، فيقول :

---

(٣) أزهار الرياض (١ / ٧١) .

تضـيء آراؤهـم فـي كـل معضلـة
إضـاءة السُّرج فـي داج مـن الظُّلـم

هـذا ولـو مـن حيـاء ذاب محتشـم
لـذاب منهـم حيـاء كـل محتشـم

أنسـى الخلائـف فـي حلـم وفـي شرف
وفـي سـخاء وفـي علـم وفـي فهـم

وناصـر الديـن في الأقبـال فـاق ومـن
محبّـة العلـم أزرى بابنـه الحكـم

أنعـال أعدائـه معتلّـة أبـداً
متى يـروم جزمهـا بالحـذف تنجـزم (٤)

ويلي القصيدة الطويلة دفاع أبي عبدالله المثور ، في أسلوب يفيض قوّة وبيانا ، وفيه يشير أبو عبدالله إلى حوادث الأندلس ، ويعتذر عن محنته ، ويعترف بخطئه في عبارات مؤثّرة . يقول بعد الديباجة موجّها خطابه إلى سلطان فاس : « هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلّق بأسباب ذمامكم ، المترجي لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبّل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللّسان عند مفاتحة كلامكم . وماذا يقول من بوجهه خجل ، وفؤاده وجل ، وقضيّته المقتضية عن التنصّل والاعتذار تجل ، بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي ، واجترائي عليه أكبر ، واجترامي إليه أكبر ؛ اللّهم لا بريءٌ فأعتذر ، ولا قويٌ فانتصر ، لكني مستقبل مستنيل ، مستعتب مستغفر ، وما أبرّئُ نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء . على أني لا أنكر عيوبي ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبي ، فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكو عجري وبجري وسقطاتي وغلطاتي ..... » .

(٤) انظر المقري في كتابيه : نفح الطيب (٢ / ٦١٧ ــ ٦٨٢) وازهار الرياض (٧٢ ــ ١٠٢) .

بيد أنه يدفع عنه تهم التفريط والزيغ والخيانة ، ويقول : « فمثلي كان يفعل أمثالها . ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياذاً بالله من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وأيم الله لو علمت شعرة في فوري تميل إلى تلك الجهة لقلعتها ، بل لقطعت ما تحت عمامتي من هامتي وقطعتها. غير أن الرعاع في كل وقت وأوان ، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ..... وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ، ورمينا بمالا يرمى به الكفار ، فضلاً عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، مالكم منه حفظ الجبار .... أكثر المكثرون ، وجهد في تعثيرنا المتعثرون ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا في سلك الملاحدة . أكفراً أيضاً كفرا ، غفراً اللهم غفرا ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا ، فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائظين ، فانفق علينا فتق لم يمكنا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين » .

ثم يقول أبو عبدالله ، لئن كان قد نزل به القضاء ، فثل عرشه ، ونكس لواؤه ، وهلك مثواه ، فهو مثل من سواه في ذلك. ولئن كان مروعاً مصير غرناطة ومصير ملكها وأنجادها ، فأنها لم تنفرد بين قواعد الأسلام بذلك المصير المحزن . ألم يقتحم التتار بغداد ، عروس الأسلام ومثوى الخلافة ، ومهد العلوم ، ويستبيحوا ذمارها وحرمها ، ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة إزاء قدر محتوم وقضاء لا مرد له ؟ : « والقضاء لا يرد ولا يصد ، ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولابد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، والخالق القدير جلت قدرته ، في خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع » .

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأسا دهاقا ، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المتفتح حين سُدّتْ الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب ، وإلى أمة يلجأ الطفل ايجأ اللهفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان، ووجه الله يبقى، وكلّ ما عليها فان »

ويشير أبو عبدالله إلى ما عرضه عليه ملك إسبانيا ، من الأقامة في كنفه وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه ، المؤكد فيه خطه بأيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها . فلم نرد نحن من سلالة الأحمر ، مجاورة الصفر ، ولا سوّغ لنا الأيمان ، الأقامة بين ظهراني الكفر ، ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولاشاسعة وأمنا من المطالب المشاغب ، حمة شرّ لنا لاسعة » .

ثمّ يشير إلى أنه تلقّى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والأقامة ، ولكنّه آثر الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل ، وملاذهم دائماً عند النوائب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لذلك الجناب ، أعني سلاطين المغرب ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختم أبو عبدالله دفاعه ، برثاء مؤثّر لملكه ومصيره ، فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً ، عن أرض أورثها من شاء من عباده، معقباً لهم ومديلا ، سادلاً عليهم من ستور الأملاء الطويلة سدولا : سنّة الله التي خلت من قبل، ولن تجد لسنّة الله تبديلا ، فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيرا ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ؛ ولم نستطع عن مورده صدورا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ويعود أبو عبدالله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثّر ، إلى الأشادة بخلال سلاطين فاس ومآثرهم، ويقرّر أنّه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته: « منتظماً في سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة علياته » ، ليقضي بقيّة عمره في كنفه مصوناً من المخاطر والضيم .

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذي تركه آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده، وهو دفاع حار مؤثر، يذكرنا بتلك الاعتذارات الشهيرة، التي لجأ إليها الأقدمون في ظروف مختلفة، لتسويغ بعض المواقف والآراء. وقد يقف أبو عبدالله موقف المذنب البرئ معاً، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء، ولكنه يتنصل من تبعة ما حدث، ويصور نفسه قبل كل شئ ضحية القدر، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ. فالى أي حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة، ومع منطق الحوادث والظروف التي وقعت فيها المأساة؟ لقد تبوأ أبو عبدالله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى في الحادية والعشرين، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام، وكان جلوسه في كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة طاحنة. وقد نشأ هذا الأمير الضعيف في بلاط منحل، يضطرم بصنوف الدس والخصومة، ولم تهيئه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك الخطيرة، ولا سيما في مثل تلك الظروف الدقيقة، التي كانت تجوزها مملكة محتضرة. لقد كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم، قبل حلول المأساة بزمن بعيد، ولم يك ثمة شك في مصير غرناطة بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى في يد العدو القوي الظافر، ولكن ليس من شك أيضاً في أن الأواخر من ملوك غرناطة، يحملون كثيراً من التبعة: في التعجيل بوقوع المأساة فنراهم يجنحون إلى الدعة والخمول: ويتركون شئون الدفاع عن المملكة، ويجنحون إلى حروب أهلية، يمزق فيها بعضهم بعضاً، والعدو وراءهم متربص متوثب يرقب الفرص. وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بني الأحمر، ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجري أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ومنذ عهد الأمير على أبى الحسن، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطرة، ويغدو مصير المملكة الأسلامية رهين رحمة القدر، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبو الحسن، وأخوه محمد بن سعد المعروف بالزغل، وولده أبو عبدالله محمد أبطال للمأساة الأخيرة، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطرة، فانحدروا إلى معترك الحرب الأهلية، وشغلتهم الحرب الأهلية

طول الوقت عن أن يقدّروا حقائق الموقف، وأن يستشعروا الخطر الداهم، وأن يستجمعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك. وانحدر أبو عبدالله إلى أخطر ما في هذه المعركة المميتة من وسائل الأغراء والتفرّق، فجنح إلى محالفة العدو الخالد، ولم يحجم عن أن يستعدى ملك النصارى على أبيه وعمّه، كي ينتزع الملك لنفسه، فلما ظفر بعرش غرناطة بمؤازرة ملك قشتالة، لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه. وكان عمّه الزّغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبيّة، فلم يحجم عن مهاجمته في نفس الوقت الذي هاجمه ملك النصارى لينتزع منه ما تحت يده، وكان الزغل في الواقع بطل المعركة الأخيرة، وقد أبدى في مقاومة العدو بسالة رائعة خلّدتها سير العصر. ولم يشعر أبو عبدالله بفداحة خطئه إلاّ بعد تحوّل حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم، ليحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة، وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددّت في حروب أهلية عقيمة، فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوّة القاهرة والقدر المحتوم، فكانت النكبة وكانت الخاتمة المؤسية. ولم يكن موقف أبي عبدالله خلال تلك اللّحظات الحاسمة في مصيره ومصير أمّته، سوى موقف الأمير الضعيف المتخاذل، الذي يسعى إلى سلامة نفسه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذلك التراث العريض الذي أصبح وشيك الزوال، وهو موقف لم يكن بلاشك مشرّفاً، ولا متّفقاً مع سمات البسالة والتضحية والشهامة.

أليس بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس؟ إنّ أبا عبدالله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لا ريب فيها، بيد أنّه من الحق أيضاً أن نقول: إنّها ليست تبعة الخيانة المقصودة أو الجريمة العمد، بل هي تبعة، التفريط، والتخاذل، والخطأ، وعدم التبصّر في العواقب.

على أنّ عبدالله، على ما يستحقّه من لوم التاريخ وإدانته على النحو المتقدّم، يستحقّ منظرنا تقديراً خاصاً، لما وفّق إليه من الاحتفاظ بدينه ودين آبائه وأجداده. والواقع أنّ فداحة المحنة التي نزلت به وظروف الأغراء التي كانت تحيط به، والتي حملت بعض أكابر الزعماء والقادة المسلمين على

التنصّر ، وسعى الملكين الكاثوليكيين إلى تنصير من يمكن تنصيره من الزعماء المسلمين ، بكل الوسائل : هذه الظروف كلها كانت خليقة بأن تحمل أبى عبدالله على الاستجابة إلى دواعي التحريض والأغراء ، فتزل قدمه إلى الدرك السحيق الذي انحدر إليه بعض قادته ووزرائه ، ولكنه استطاع أن يخرج من هذه المحنة معتصماً بدينه المتين ، وهو ما يشير إليه في دفاعه المقدم .

واستقر أبو عبدالله بعد جوازه إلى فاس في ظل بني وطاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس . ويروى أنه لما نزل أبو عبدالله وصحبه مدينة فاس ، أصابت الناس فيها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ، ورجع كثير من الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعس كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوف الشدة والفاقه ، (٥) . وعاش أبو عبدالله في منفاه طويلاً يجرع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب في غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال تلك الأيام المؤلمة ، جهود السياسة الأسبانية في سحق الأسلام بالأندلس ، وسحق مدنيته وكل رسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والمحو ، تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسي النبيل التالد ، من الأرض التي لبث يرعاها ثمانية قرون ، وينثر في أرجائها فيض عبقريته .

وتختلف الرواية في تاريخ وفاة ابى عبدالله اختلافاً بيناً . فيقول لنا المقري في نفح الطيب : إنه توفى بفاس سنة أربعين وتسعمائة (١٥٣٤م) ، وإنه دفن بأزاء المصلى خارج باب الشريعة (٦) . وتذكر لنا الرواية القشتالية القريبة من ذلك العصر ، أن أبا عبدالله توفي قتيلاً في موقعة أبى عقبة الشهيرة التي نشبت بين السلطان أحمد أبى العباس الوطاسى حفيد أبى عبدالله محمد الوطاسى وبين خصومه السعديين الأشراف الخوارج عليه ، واشترك فيها أبو عبدالله محارباً إلى جانب أصدقائه وحماية الوطاسيين ، وقد حدثت هذه الموقعة في سنة (٩٤٣ هـ — ١٥٣٦ م) وهزم فيها بنو وطاس هزيمة

---

(٥) ازهار الرياض (١ / ٦٨) .

(٦) نفح الطيب (٢ / ٦١٧) والاستقصا (٢ / ١٦٨) .

شديدة (٧) . ويذكر المقرى في : أزهار الرياض فيقول : إنّه توفي بفاس سنة أربع وعشرين وتسعمائة هجرية (١٥١٨م) (٨) ،فأذا صحت الرواية الثانية ، فأن أبا عبدالله يكون قد مات في نحو الخامسة والسبعين من عمره . ونرجّح رواية المقرى الأولى: وهي أن أبا عبدالله توفي بقصره في فاس سنة (٩٤٠هـ) ، أما روايته الثانية ، وهي أنه توفي في سنة (٩٢٤ هـ) فالمرجّح أنها تحريف رقمي للأولى . وترك أبو عبدالله ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه مستمراً معروناً بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر لنا المقرى أنّه رآهم سنة (١٠٣٧ هـ — ١٦٢٨ م) معدمين يعيشون على أموال الصدقات (٩) .

ويعرف أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس ، في الرواية الأسبانية ، بمحمد الحادي عشر ، بالملك الصغير (Ferey Chilo) تمييزاً عن عمّه أبي عبدالله الزّغل ، ويلقّب أيضاً بالزغيبي ، ومعناها : المنكود ، أوعاثر الجدّ ، تنويهاً بأحداث حياته المؤسية ، وبما أصاب الأسلام على يديه من الخطوب والمحن (١٠) .

وهكذا انتهت حياة أبي عبدالله المتخاذل ، كما انتهت حياة موسى بن أبي الغسّان دفاعاً عن دينه ووطنه ، وشتان بين انتهاء الحياتين ، فليكن أبو عبدالله درساً للمتخاذلين حيث لم يشرف نفسه ولم يشرف أحدا ، وكان وسيبقى لطخة عار في التاريخ ، وليكن موسى بن أبي الغسّان درساً للأبطال ، حيث شرف نفسه ، وشرف دينه وقومه وبلاده بموقفه . وكان وسيبقى مفخرة للعرب والمسلمين وصفحة مشرقة في التاريخ .

ماتا ، وكل حيّ إلى موت ؛ ولكن شتان بين الموتين .

---

(٧) الاستقصا (٢ / ١٧٧) .
(٨) ازهار الرياض (١/١٦٨) .
(٩) نفح الطيب (٢ / ٦١٧) .
(١٠) الزغيبي : مصغر زغبي ، ومعناها في لهجة اهل غرناطه : المنكود او التعيس ومعناها لماذكره مارمول : التعس الصغير او الرجل المسكين ، انظر دوزي Supp , aux dict , arabs p. 594

ثمرات المعاهدة الغادرة

١ ـ مأساة الأندلس ونقص الروايات العربية عن المأساة

لم يكن ظفر إسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الأسلام بالأندلس ، سوى بداية النهاية في مصير الأمة الأندلسية ، ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الاستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الديني والاجتماعي ، وهي المحن التي تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة صغيرة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد إسبانيا النصرانية فقد كان مصير مسلمي الأندلس بعد ضياع دولتهم وزوال ملكهم ، من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسي التاريخ .

تلك هي مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ومن الأسف أن الرواية الأسلامية لم تخص الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشذور يسيرة . بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل الأندلس الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولا توجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هي كتاب :ـ « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » الذي كتبه في سنة (٩٤٧ هـ ـ ١٥٤٠ م) أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، كاتب مجهول فيما يبدو ، من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها ، وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين في روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها المقري في كتابه : « أزهار الرياض » ، ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل.

ونستطيع أن نرجع هذا النقص في الرواية الأسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه في عصور الأحتلال والسقوط ، تخمد

الحركات الأدبية والفكرية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخي كما تقل في جميع نواحي التفكير والأدب ، وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذي فرض على العرب المتنصرين ، كان كفيلاً بأخماد كل صوت وتحطيم كل قلم ، والثاني وهو ما نرجحه هو فقدان معظم الكتب والوثائق العربية التي وضعت في هذا الوقت ، والتي استطاع المقرى أن ينقل شذرات منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره ، أعني في القرن السابع عشر الميلادي . ومن الغريب أن صاحب : « أخبار العصر » ، لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المتنصرين سوى نبذة يسيرة مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهدها على الأغلب . ولسنا نجد ما نفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الأسلامية الوحيدة ، التي انتهت إلينا ؛ عن سقوط غرناطة ، وما تلاه من الحوادث والخطوب ، إلا نظام الأرهاب الشامل ؛ الذي سحق كل متنفس للشعب المغلوب . ومن الواضح ان هذا الارهاب يضاعف الرقابة على أصحاب الأقلام : ولا يرحم من يعلم أنه يسجل عليهم جورهم وأعمالهم الشنيعة الظالمة ، ويحرص على كم الأفواه وللسكوت عن الظلم ، وعدم التفوه باللسان أو بالقلم بما يدور من أحداث ظالمة شنيعة .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس في تاريخ إسبانيا القومي ، حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن وربع ، وتخصه الرواية الأسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الأسبانية ، تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الاستشهاد المفجع ، الذي فرضته إسبانيا على العرب المتنصرين ، وإلى تلك الأعمال المروعة التي كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التي اتخذت لتشريد العرب المتنصرين وإبادتهم ، بعين الكبرياء

---

(١) هو المعروفة خطأ ، بمحاكم التفتيش .

والرضى، وترى فيها دائماً نوعاً من الأنقاذ القومي ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الأسلام الأخيرة . وهي تحيط هذه المرحلة من تاريخ إسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التي تشيد بظفر اسبانيا النصرانية ، وبما أسبغت العناية الألهية على خطتها وسياستها ، في إبادة تراث العرب والأسلام ، وفي القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الأسلامية المجيدة ، التي ازدهرت في إسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتهم وآدابها ، وكل ذلك التراث العظيم الباهر

على أن الرواية الأسبانية ، بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير في أسلوب موثر . وقد لاتضن في بعض المواطن والمواقف بعطفها ، وأحياناً بأعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التي لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومي والروحي .

ولسنا نظلم كتاب الأسبان النصارى ، إذا قلنا : إنهم يمثلون التعصب الأعمى تمثيلاً عملياً ، حتى كأن التعصب تصورفيهم أناساً يمشون على الأرض ويكتبون ، فهم يتعصبون تعصباً أعمى لا مزيد عليه في القضايا الدينية والقومية ، ويتعصبون تعصباً أعمى لا مزيد عليه على كل مسلم وكل عربي .

ويرون حسناً ما ليس بالحسن ، حتى يلمس من يقرأ آثارهم بوضوح انحرافهم الشنيع عن جادة الحق وابتعادهم الواضح الصريح عن كل نوع من أنواع المناهج العلمية في البحث والتأليف ، فهم بقدر تعصبهم لقومهم ودينهم ، متعصبون على غيرهم من القوميات الأخرى والأديان وبخاصة العرب والأسلام .

إن الدراسات الأسبانية الخاصة بالأسلام والعرب ، التي كتبها الأسبان ، لايعتمد عليها ولا يوثق بها عامة ، وهذا هو القاعدة ، ولا عبرة بالاستثناء .

٢ ـ التنصير وحرق الكتب العربية

لبثت السياسة الأسبانية مدة قصيرة ، بعد سقوط غرناطة ، تلتزم جانب الروية والاعتدال . واتخذت الأهبة لنقل المسلمين الراغبين في الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشراف غرناطة ، بعد بيع أملاكهم بأبخس الأثمان (٢) . وفي مقدمة المهاجرين بنو سراج وأنجاد غرناطة القدماء ، فأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين ، ولا سيما منطقة البشرات ، وكان تدفق سيل المهاجرين دليلاً على أن الشعب المغلوب لم يكن واثقاً من ولاء سادته الجدد ، وأنه كان ينظر الى المستقبل بعين التوجس والريب .

وقد كان ممن هاجر من غرناطة الى العدوة عقب سقوطها بقليل جماعة من أهلها برئاسة زعيم جندي هوأبو الحسن المنظر ، وكان من أكابر جند الجيش الغرناطي ، فعمروا مدينة تطوان وكانت يومئذ خربة ، وكان ذلك في سنة (٨٩٨ هـ ــ ١٤٩٢ م) . ومن ذلك الحين تغدو تطوان ملاذاً لكثير من الأسر الأندلسية التي أرغمت على التنصير ، ثم آثرت الهجرة إلى دار الاسلام فراراً من اضطهاد الأسبان ومحاكم التحقيق ، وعادت إلى دينها القديم ، وما زالت أعقابهم بها إلى اليوم (٢) .

ولكن السياسة الأسبانية كانت تخشى دائماً هذا الشعب الذكي النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة في القضاء على البقية الباقية من الأمة الاسلامية في إسبانيا ، وكانت مملكة غرناطة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلات وثيقة ، هذا عدا ما كان من جموع المدجنين في منطقة بلنسية ، وفي منطقة قسطة وغيرها من بلاد أراغون ، وكان كثير من أولئك المدجنين ، إلى ما بعد سقوط غرناطة بأعوام عديدة ، يحتفظون بدينهم الاسلامي . وكان وجود هذه الكتلة المسلمة في قلب إسبانيا النصرانية ، شغلاً شاغلاً للسياسة الأسبانية .

---

(٢) ازهار الرياض (١ / ٦٧) .

(٢) الاستقصا (٢ / ١٦٢) ومختصر تاريخ تطوان محمد داود ــ (١٤ ــ ١٧) .

والظاهر أنّ السياسة الأسبانية ، لبثت مدى حين مترددة في انتهاج المسلك الذي تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهمّ عوامل النشاط والرّخاء والعرفان في إسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلاالهم قدوة من النشاط والمثابرة والزهد والعفّة والرفق ؛ وكانوا على الجملة من أفضل العناصر الذي يمكن أن تضمّهم دولة متمدنة (٣) ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسة في سبيل تحقيق مُثلها ، ولم تكن السياسة الأسبانية في تلك الأيام من تاريخ إسبانيا سوى أداة لينة في يد الكنيسة ، التي بلغت عندئذٍ ذروة قوّتها ونفوذها .

ويصف لنا مؤرّخ إسباني ، عاش قريباً من ذلك العصر ، نيات الكنيسة نحو المسلمين في قوله : « إنّه منذ استولى فرديناند على غرناطة ، كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح ، أن يعمل على سحق طائفة محمد في إسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء ، إما التنصير ، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب ، وأنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنّه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى ، أو يحافظون على ولائهم للملوك ، ما بقوا على الأسلام ، وهو يحثهم على مقت النصارى أعداء دينهم » (٤) .

ولم تكن هذه السياسة في الواقع بعيدة عما يخالج ملكي إسبانيا ، فرديناند الخامس ، وزوجه الملكة المتعصبة إيزابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين بتأمينهم في أنفسهم وأموالهم ، وأحترام دينهم وشعائرهم ، لتحول دون تحقيق السياسة القومية . ذلك أنّ فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلاً لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود ويقطعها متى أصبحت

---

(٣) ج Dr. Lea the moricocos , P.

(٤) Luisdel Marmol : Reletion castigo de los Moriacorde Granada : L Cap . 2. xxII

تعارض سياسته وغايته،ويعلّق النقد الغربي الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت العهود (التي قطعت لسلمي غرناطة) بولاء ، لتغيّر مستقبل إسبانيا كُلّ التغير ، ولتفوقت المملكة الأسبانية في فنون الحرب والسّلم ؛وتوطّدت الأسبانية في فنون الحرب والسّلم ، وتوطّدت قوّتها ورخاؤها . ولكنّ ذلك كان غريباً على روح العصر الذي إنقضى،وأقضى التعصّب والجشع إلى المطاردة والظلم، وأنزلت الكبرياء والقشتالية بالمغلوبين ذلّة مروعة، فاتّسعت الهوّة بين الأجناس على كرّ الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وأدىّ إلى علاج كان من جرّائه أن تحطّم رخاء اسبانيا » (٥) .

وأخذت سياسة الأرهاق تجرف في طريقها كلّ شيء ، ونشط ديوان التحقيق (Jaqlvisition) أو الديوان المقدّس ، يدعمه وحي الكنيسة وتأييد الملك ، إلى مزاولة قضائه المدمّر ، وكانت مهمّة هذه المحاكم الكنيسة المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ومطاردة الكفر والزيّغ بكل ما وسعت ، وكان جلّ ضحاياها في البداية من يهود ومسلمين ثم الموريسكين أو العرب المتنضرين ، وكانت إجراءات هذه المحاكم تنافى كلّ عدالة وكلّ قضاء متمدن .

وهكذا فانهّ لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة، حتى بدت نيات السياسة الأسبانية واضحة للمسلمين ، وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها ، أعنى تنصير المسلمين ، بالوعظ والأقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية : ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة وأذعنت السياسة الأسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود موّكده للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم ، وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران هما؛ الكاردينال خمنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الأسبانية ، والدون ديجوديا ، المحقّق العام لديوان التحقيق . (٦)

(٥) Dr . Lea : the moriscos p. 22.

(٦) كان المحقق العام وهو قاض نشاة الديوان ، يمثل يومئذ اعظم السلطات الدينية والقضائية في اسبانيا .

وحاولت السياسة الأسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة، فأخذت في تحوير العهود والنصوص التي تضمنتها معاهدة التسليم، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم، ثم خرقها نصاً فنصاً، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعاً، فأغلقت المساجد، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم، وانتهكت شعائرهم وعقائدهم وشريعتهم(٧). وأدرك المسلمون ماترمي إليه السياسة الكنيسة من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم، ودوت في إذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة التي أبقاها إليهم فارس غرناطة موسى بن أبي الغسان يوم اعتزموا التسليم للعدو: «أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ماله من حسن الطالع؟ لشد ما تخطئون إنهم جميعاً ظمئون إلى دمائنا والموت خير ما تلقون منهم. إنما ينتظركم شر الأهانات، والانتهاك والرق ينتظركم نهب منازلكم واغتصاب نسائكم وبناتكم، وتدنيس مساجدكم. تنتظركم المحارق الملتهبة لتجعل منكم حطاماً هشيما».

وكان فرديناند يخشى في البداية عواقب التسرع في تنفيذ هذه السياسة، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد في المناطق المستولى عليها، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم تماماً، وقد يؤدي الضغط إلى الثورة، فتعود الحرب كما كانت ولكن انتهى الى الخضوع إلى رأي الكنيسة:

واستدعى الكاردنيال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين، فوفد عليها في (شهر حزيران - يونيه سنة ١٤٩٩ م - ٩٠٥ هـ)، ودعا أسقفها الدون تالافير إلى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين، وأمر بجمع فقهاء المدينة، ودعاهم إلى اعتناق النصرانية، وأغدق عليهم

---

(٧) اخبار العصر (٥٤).

التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبذل والأرغام في تنصير بعض أعيان المسلمين .

وكان قد اعتنق النصرانية قبل سقوط غرناطة وبعدها ، جماعة من الأمراء والوزراء ، وفي مقدمتهم الأميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبي الحسن ، من زوجه النصرانية اليزابيث دي سوليس المعروفة باسم ثريا ، فقد نصّرا ومنحا ضياعاً في أرجبة ، وتسمى أحدهما باسم : الدوق فرناندو دي جرانادا ، أي صاحب غرناطة ، وخدم قائداً في الجيش القشتالي ، واشتهر في غيرته بخدمة العرش . وتسمّى الثاني باسم : دون خوان دي جرانادا(٨) . وتنصّر سيدي يحيى النيار قائد المرية وابن عم مولاي الزّغل ، عقب تسليمه لألمرية ، وتسمىّ باهم : الدّوق بيدور دى جرانادا فنيجاس ، وتزوّج من دوينا خوانا دي مندوثا وصيفة الملكة . وتنصّر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش ومعظم أفراد أسرته ، وعادت أسرته تحمل لقبها القشتالي القديم : (Los Venegas) ، واشتهرت في تاريخ إسبانيا الحديث ، وأنجبت كثيراً من القادة والأحبار . وتنصّر آل الثغري الذين اشتهروا في الدفاع عن مالقة وغرناطة سراً ، وسميّ عميدهم باسم : جونثالفو فرنانديث ثجرى . وتنصّر الوزير يوسف بن كماشة ، وانتظم في سلك الرّهبان ، وهكذا اجتاحت موجة التنصير كثيراً من الأكابر والعامة معاً .

وتمركزت حركة التّنصير في غرناطة بالأخص في حيّ البيازين ؛ حيث حُوّل مسجده في الحال إلى كنيسة سميت باسم : سان سلفادور (٩) . واحتجّ بعض أكابر المسلمين على هذه الأعمال ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المتطوعة سدى . وثار أهل البيازين ، وتحصّنوا بحيهم

---

(٨) Hernando de Baeza , ibid, P. 65

(٩) ماتزال كنيسة سان سالفادور تقوم حتى اليوم على موقع مسجد البيازين القديم ، ولا تزال توجد (مؤخرتها بعض عقود المسجد القديمة .

وندّدوا بخرق العهود ، فبذل الكاردينال خمينس وحاكم المدينة ، جهوداً خارقة لأقناعهم بالهدوء والسكينة ، وبذلوا لهم من التأكيدات والضمانات الكلامية ما شاءوا (١٠) .

ولم يقف الكاردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الأرهابية ، التي انتهت بتوقيع التنصير المغصوب ، على عشرات الألوف من المسلمين قسراً ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربريّ شائن ، هو أنّه أمر بجمع كلّ ما يستطاع جمعه من الكتب القربية من أهالي غرناطة وأربى منها ، ونُظمت أكداساً هائلة في ميدان باب الرّملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، والاف من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النار فيها جميعاً ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم ، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة لكالا ذي هنارس ، وذهبت ضحية هذا الأجرام الهمجيّ عشرات الألوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث الفكر الأسلامي في الأندلس (١١) .

وليس المؤلفون العرب والمسلمون وحدهم الذين ليصفون عمل خمنيس بالبربرية والهمجيّة ، بل قالها ويقولها المنصفون من الغربيين ، فمثلاً يشير المستشرق الأيطالي الأب سكيابرللى (Schiafarelli) في مقدمة إحدى كتبه إلى : « التعصب الكاثوليكي ، وثورات خمنيس البربرية التي ترتب عليها حرق المصاحف والكتب الأسلامية الأخرى لمسلمي غرناطة ، وذلك لكي يتوسل إلى تنصيرهم » .

---

(١٠) Luis del Marmol ; ibid . 1 . Cap . xx111

(١١) يختلف المؤرخون الأسبان في تقدير عـدد الكتب العربية التي احرقت ، فيقدرها دي روبلس الذي كتب بعد ذلك بقرن كتاباً عن حياة الكاردينال خمنيس : بمليون وخمسة آلاف كتـاب . ويقدرها برمندث دي بدرانا الذي كتب بعده بقليل بمائـة وخمسة وعشرين الفاً ، ويقدرها كوندي بثمانين الفاً ،

ويقول المؤرخ الأمريكي وليم بوسكوت : « إنّ هذا العمل المحزن لم يقم به همجيّ جاهل ، وانما جد مثقّف ، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ، ولكن في فجر القرن السادس عشر ، وفي قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حدّ بتقدّمها ، إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها » . ثم يشير إلى ما ترتّب على هذا العمل بقوله : «ولقد غدت الآداب العربية نادرة في مكتبات نفس البلد الذي نشأت فيه ، وإنّ الدراسات العربية التي كانت من قبل زاهرة في إسبانيا ، حتى في العصور الأقلّ لمعاناً ، انهارت لأنها عدمت غذاء يؤدها ، وهكذا كانت النتائج المحزنة للمطاردة التي يراها بعضهم أشد تقويضاً من تلك التي توجّه إلى الحياة ذاتها .

علماً أنّ هذا العمل الذي يثير النقد الغربيّ الحديث وزرايته ، يجد مع ذلك بين العلماء الأسبان من ليسوغه ، بل ويمجّده . وقد تولّى المستشرق سيمونيت الدفاع عن الكاردينال خمنيس ، الذي يصفه بأنّه أحد أمجاد الكنيسة الأسبانية ، في رسالة عنوانها : « الكاردينال خمنيس دي سيسنيروس والمخطوطات العربية الغرناطية (١٢) » ، يقول فيها : إن ما قام به الكاردينال من حرق الكتب أمر لا غبار عليه ، أذ هو إعدام للشييء الضار ، وهو بالعكس أمر محمود ، كما يعدم عناصر العدوى وقت الوباء ، وإنّ الملكين الكاثوليكيين قد أمرا بعد تنصير المسلمين أنّ تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين ، لكي تحرق في سائر مملكة غرناطة ، أن يسلّموا سائر الكتب العربية التي لديهم سواء في الدين أو الشريعة أو كتب الطب والفلسفة والتاريخ أو غيرها إلى قاضي الجهة ، وذلك في ظرف خمسين يوماً من تاريخ هذا الأمر ، لكي يفحصها القضاة ، وتؤخذ منها كتب الدين والسنّة ، ويرخصها القضاة بعد ذلك بحيازة غيرها . ويدافع سيمونيت عن تصرّف الكاردينال خمنّيس

---

(١٢) Prescolig ibid . P . 453 - 454 .

بحماسة ويقول: إنّ إحراقه للكتب، يمكن أن يقارن بما وقع من أعمال مماثلة خلال الثورات الحديثة، منذ الثورات البروتستانية الأنكليزية والألمانية إلى الثورة الفرنسية، وأنه خلال هذه الثورات قد أحرق أو أتلف كثير من الآثار الأدبية والفنية في كثير من البلاد الأوربية، وأنّه لا يمكن مقارنة عمل خمنيس، بما وقع من إحراق مكتبة الأسكندرية (المزعوم) بأمر الخليفة عمر، وأنّ معظم الكتب العربية قد أخرج من إسبانيا مع الهجرة ومع من هاجر من المسلمين من القواعد الأندلسية المختلفة، وأخيراً أن كثيراً منها قد جمع أيام الملك فيليب الثاني وأودع بقصر الأسكوريال (١٣). ذلك هو ملخص رسالة المستشرق سيمونيت في الدفاع عن تصرّف الكاردينال خمنيس، وهو دفاع يبدو ركيكاً مصطنعاً، إزاء النقد الغربيّ الحديث، وتطبعه نزعة تحيّز وتعصب واضحة، كما أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يأمر بأحراق مكتبة الأسكندرية كما أثبت أكثر من مستشرق منصف، وأصبحت معروفة لدى الغربيين وغيرهم. ويبدو تعصّب وتحيز هذا المستشرق الأسباني واضحاً في كل ما كتب عن الأمة الأندلسية المسلمة، وهو لا يمكن مهما أسبغ على دراسته من المقارنات، أن يزيل أثر هذه الوصمة المشينة من حياة خمنيس، أو من تاريخ الأسبان.

وما حدث في غرناطة من تنصير المسلمين، حدث في باقي البلاد والنواحي الأخرى، فتنصّر أهل البشرّات والمرية وبسطة ووادي آش في العام التالي، أعني في سنة (١٥٠٠ م)، وعمّ التنصير في سائر أنحاء مملكة غرناطة. على أنّ هذه الحركة التي نظّمت لتنصير بقيّة الأمة الأندلسية، والتي لم تدّخر فيها أساليب الوعود والوعيد والأغراء والأكراه، لم تقع دون قلاقل واضطرابات عديدة. وكان الأغراء بالتنصير يتّخذ أحياناً، شكل هبات ومنح جماعية لبلدة أو منطقة بأسرها، كما حدث بالنسبة لأهل وادي ألكرين (الأقليم) ولا نخرون والبشرّات،

Simonet, ibid. P. 3,8 – 10, 17, 18, 20 - 24 and 31.

فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوماً في (٣٠ حزيران يولية سنة ١٥٠٠م) بأبراء سائر أهالي النواحي المذكورة، الذين تنصّروا أو يتنصّرون، من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكيين، العرب المتنصرين، لصالح العرش، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة، وهبتها لهم وإلغاء ضريبة الرأس المفروضة عليهم لمدة ست سنوات وإقالتهم من الغرامة التي فرضت عليهم من جرّاء ثورتهم؛ وقدرهـــا خمسون ألف دوقية، هذا إلى منح وبراءات اخرى تظمّنها المرسوم (١٤)

وصدر كذلك مرسوم مماثل من الملكين الكاثوايكيين في (٣٠ أيلــول سبتمبر سنة ١٥٠٠ م) إلى المسلمين القاطنين بحيّهم (Moreria) بمدينــة بسطة، بإقالة الذين تنصّروا أو يتنصّرون، من جميع الفروض والمغارم التي فرضت على الموريسكيين، وتحريرهم منها سواء بالنسبة لأنفسهم أو منازلهم وأموالهم الثابتة والمنقولة من يوم التنصير، وألا يدخل أحد منازلهم ضدّ إرادتهـــم، ومَن فعل عوقب بغرامة فادحة، وأن يُعفوا من سائر الذنوب التي ارتكبت ضدّ خدمة العرش، وأن تحترم جميع العقود والمحررات التي كتبت بالعربية وصادق عليها فقهاؤهم وقضاتهم، وأن يعامل المتنصرون منهم كسائر النصارى الآخرين في بسطة، ولهم أن ينتقلوا وأن يعيشوا في أيّ مكان آخر من أراضي قشتالة، دون قيد أو عائق، إلى غير ذلك من المنح والامتيازات (١٥).

وصدر أخيراً مرسوم بالعفو عن جميع سكّان «حيّ المسلمين» (Moreria) بغرناطة والقرى الملحقة بها، بالنسبة لجميع الذنوب والأخطاء التي ارتكبت حتى يوم تنصيرهم، وألاّ يُتّخذ في شأنهم أيّ إجراء سواء ضد أشخاصهم أو أملاكهم (١٦).

ولم تقدّم لنا الرواية الأسلامية المعاصرة لأحداث التنصير كثيراً من التفاصيل عن هذه الحوادث والتطوّرات، ولكنها تكتفي بأن تجمل مأساة

---

(١٤) يحفظ هذا المرسوم بدار المحفوظات الاسبانية العامة برقم
Archivo general de simancas, P. R. 11 - 98

(١٥) Archivo general de simanacas; P. R. 11 - 107

(١٦) Arch gen, leg. 28; Fol. 22

تنصير المسلمين في هذه الكلمات المؤثرة : «ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك قشتالة) إلى التنصير ، وأكرههم عليه ، وذلك في سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، إلا من يقولها في قلبه ، وخفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرا ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، ولا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ؛ فيا لها من فجيعة بما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها » . ، ثم يختم بقوله : «وانطفأ من الأندلس الأسلام والأيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فأنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا له (١٧) » .

ونقل لنا المقري نبذه من رسالة أخرى يشير كاتبها إلى تنصير مسلمي الأندلس هي : « وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق أهل خطب لم يجد في سالف الدهر . وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر ولم يقبل منهم الأسر . وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقي بها من المسلمين إنما هم أسارى بأيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم

(١٧) اخبار العصر (٥٤ ـ ٥٦) .

الأسلحة والمعاقل ، وعنوا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده . . . الخ(١٨)

وجاء في رواية أخرى ، هـذا الوصف لمأسـاة التنصير : « إنّ طاغية قشتالة وأراغون ، صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت ، رياحهم وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهي في الكفر ويختال ، ودين الاسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالاسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كلّ مسلم يندبه ويبكيه ؛ فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الاسلام ، وتوعّد بالنكال والمهالك العظام ، ومَن كان يُعقب في الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدّة في باب ويخرج من باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مقطعه ، وسيوف النصارى إذ ذاك على رءوس الشرذمه القليلة من المسلمين مسلولة ، وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون ؛ ليس لأحد بالتنصّر أن يمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، ويطلبون لطف الله على كلّ حال » .

وقد تردّد صدى هذه المحنة التي نزلت بمسلمي الأندلس بسرعة في سائر جنبات العالم الاسلامي ، فنرى ابن واياس مؤرّخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يدون في حوادث (صفر سنة ٩٠٦ هـ ــ آب آغسطس ١٥٠٠ م) ، أعني عقب محنة التنصير بأشهر قلائل ما يأتي : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأنّ الأفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا : مَن دخل ديننا تركناه ، ومَن لم يدخل قتلناه ، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم

(١٨) أزهار الرياض (١ / ١٩ ــ ٧١) .

المسلمون ثانياً واتصفوا عليهم بعض شيء ، واستمرّ الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى في ذلك » (١٩)

أما المسلمون الذين بقوا في مملكة البرتغال ، فقد كان مصيرهم فيمابعد أفضل مصير إخوانهم مسلمي الأندلس ، فقد قضى العرش البرتغالي بإخراجهم من أراضي المملكة في سنة (١٤٩٦) م ، والسماح لهم بالعبور إلى المغرب ، أو إلى حيث شاءوا ، ونظراً لما لقوه من صعاب في اختراق الأراضي الاسبانية، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان ، تحقيقاً لرغبة ملك البرتغال، مرسوماً في (نيسان — أبريل سنة ١٤٩٧) يصرح فيه المسلمين البرتغاليين ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، أن يخترقوا أراضي مملكة قشتالة ، وأن يذهبوا بأموالهم وأمتعتهم إلى البلاد الأخرى ، وأن يبقوا في أرض قشتالة الوقت الذي يرغبون ، ثم يغادرو نهابأموالهم متى شاءوا ، وفقط لا يسمح لهم بحمل الذهب والفضة إلى الخارج ، ويؤمنون أنفسهم وأموالهم ضدّ كلّ اعتداء ، ولا يؤخذ منهم شيء بلاحق (٢٠) .

تلك هي المأساة التي استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض على طائفة جديدة عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكين (Morlscos) ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين (٢١) . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشدّ وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تذمّر ودون مقاومة ، وسرت إليهم أعراض الثورة ولا سيّما في المناطق الجبلية حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الأسبانية تلتمس الوسيلة للتخلّص من العهود المقطوعة ، فأنفت من التذمّر والمقاومة سندها ، وقرّر مجلس الدولة بأنّ المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة

---

(١٩) ابن اياس (٢ / ٣٩٢) .

(٢٠) Arch. gen . de simancas , P. R. leg . 28 Fol.3.

(٢١) Moriscos هي تصغير كلمة Moros ، ومعناها : المسلمون ، أو العرب الاصاغر ، رمزاً الى ما انتهت اليه الامة الاندلسية من السقوط والانحلال .

ولا سيما بعدما تبين من جنوحهم إلى الثوره ، ومحاولتهم الاتصال بأخوانهم في المغرب ومصر القسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ، ونفي المخالفين منهم من الأراضي الأسبانية وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير القسري ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيق إجراءات العسف والأرهاق

وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ماسرت إليهم الحمية القديمة ، فأعلنوا الثورة في معظم نواحي غرناطة ، وفي ربض البيازين ، وفي البشرات ، والاشتد الهياج بالأخص في بلفيق وفي أندرش حيث نسف حاكم البلدة مسجدها ، بالبارود ، وفي فيحار وجويجار وغيرها ، واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رأفة ، وكثر بينهم القتل ، وسبيت نساؤهم ، وقضي بالموت على مناطق بأسرهم ، ماعدا الأطفال الذين هم دون الحادية عشرة ، فقد حولوا إلى نصارى . وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم الأذعان والتسليم ، فقبلوا التنصير المفصوب ملاذاً للنجاة ، والجأت الحكومة بعد إخماد الهياج في غرناطة والبيازين الى اساليب الرفق فبعثت بالعمال والقس في مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً في اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وهكذا ذاع التنصير في سائر مملكة غرناطة القديمة (٢٢) . .

وفي نفس الوقت ، اضطر المسلمون المدجنون في آبلة وسمورة وبلاد أخرى في جليقية إلى اعتناق النصرانية ، وكانوا حتى ذلك الوقت يحتفظون بدينهم القديم

(٢٢) Prescott : ibid ; P. 462 وكذلك Marmol ; ibid ; .1. Cap.xxv11

ونشط فرديناند إلى إخماد الهياج حيث يقع ، وفي الوقت الذي غدا فيه التنصير أمراً محتوماً ، وأضحى فرديناند يعتبر نفسه في حل من عقوده المقطوعة للمسلمين، تقدم إليه ديسا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق في غرناطة ، يعاون على مطاردة الزيغ بوسائله الفعّالة ، فألفت لجنة ملكية للتحقيق في حوادث غرناطة ، وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض وهرع آلاف منهم أخر إلى اعتناق النصرانية خيفة السّجن والمطاردة . وعارض فرديناند وايزابيلا في إنشاء ديوان التحقيق في غرناطة ذاتها ، واقترحوا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق في قرطبة ، وألاّ يقدّم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلاّ لتهم خطيرة ، ولكنّ الكنيسة لم تقنع باتّخاذ الأجراءات الجزئيّة ومضت تعمل لغايتها الشاملة ، وكان فرديناند من جهة أخرى لايزال يتوجّس من المسلمين شراً ، ويرى في منطقة الكنيسة قوّة ، وهو أنّ احتفاظ المسلمين بدينهم يقوىّ الروابط بينهم وبين إخوانهم في إفريقيّة ، وأنّ إسبانيا ما تزال تضمّ بين جوانحها عدداً يخشى بأسه ، وأنّ في تنصير المسلمين أو إخراجهم من إسبانيا ، سلام إسبانيا ونقاء دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً ، ففي (٢٠ حزيران — يونيه سنة ١٥٠١م) أصدر فرديناند وإيزابيلا أمراً ملكياً خلاصته «أنّه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فأنه يحظر وجود المسلمين فيها، فأذا كان بها بعضهم فأنه يحظر عليهم أن يتّصلوا بغيرهم، خوفاً من أن يتأخّر تنصيرهم، أو بأولئك الذين نصّروا لئلا يفسدوا إيمانهم ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون في يأسهم أن يلجأوا الى معاونة سلطان مصر ، وأرسلوا اليه كتبهم يصفون اكراههم على التنصير ، ويطلبون إليه أن نعيد ملك اسبانيا ، بأنّه سوف ينكّل بالنصارى المقيمين في مملكته ، إذا

لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرديناند يخطره بما تقدم . وانتهز فرديناند هذه الفرصة ، فأوفد إلى بلاط القاهرة (سنة ١٥٠١ م) سفارته التي تحدثنا عنها فيما تقدم والتي كان سفيره فيها بيترو مارتيرى الجد الكاتب المؤرخ ، فأدى مارتيرى سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية . وأن يطمئنه على مصيرهم (٢٣) .

وهكذا خبت آمال المسلمين تباعاً ، ولم تستمر ثورة المسلمين إلا في المنطقة الجبلية الواقعة بين آكام فليا اونجا وسيرا فرمليا (الجبال الحمراء) بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرديناند إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت قيادة قائده الشهير ألونسورى آجيلار دوق قرطبة ، ونفذ الجند الأسبان إلى شعب فليا اونجا ؛ ووقعت المعركة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهُزم النصارى هزيمة فادحة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وكان قائدهم دى آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، في مقدمة القتلى (آذار — مارس ١٥٠١ م) ، فكان لهذه النكبة التي نزلت بالجنود الأسبان وقوادهم ، أعمق وقع في البلاط الأسباني . وهرع فرديناند إلى غرناطة ، ورأى بالرغم مما كان يحدوه من عوامل السخط والانتقام ، أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية في ظرف ثلاثة أشهر ، أو يغادروا إسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفي والجواز ألى أفريقية ؛ وهاجرت منهم جموع كبيرة ألى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الأسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم (٢٤) ؛ إذ كانوا أشد الناس مراساً وأكثرها نزوعاً ألى الثورة .

---

(٢٣) انظر Prescott : ibid ; P. 287 وكذلك : Dr . ;lea : the Moriscos .P 36

(٢٤) Prescott . ibid ; P. 467

واستقرّ الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين في البلاد ، خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم دي بدراثا ، وهو مؤرخ من أحبار الكنيسة عاش قريباً من ذلك العصر بقوله : « إنّهم شعب ذو مبادئ أخلاقية متينة ، أشراف في معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلّهم عامل ، يعطفون أشدّ العطف على فقرائهم » (٢٥) .

ولم تفت الرواية الاسلامية أن تشير الى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل في سبيل دينهم ؛ فقد نقل عنها المقرى ما يأتي : « بالجملة فأنهم (أي أهل غرناطة) تنصّروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصّر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعتا قرى وأماكن كذلك ، منها بلفيق رأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيا إلاّ ما كان من جبل بلنقة (أي فايا اونجا) ، فأنّ الله تعالى أعانهم على عدوّهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وماخفّ من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلّي ، نشدّ عليهم النصارى في البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة ، فضلاً عن غيرها من من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال عن النصارى مراراً ، ولم يقيّض الله تعالى منهم ناصراً .

وصدق صاحب نفح الطيب ، إذ لم يجد مسلمو الأندلس في محنتهم ناصرا ، فلم يعاونهم المغاربة ولاسلطان مصر ولا سلطان القسطنطينيّة حتى بالكلام ، ولو أنّ سلطان مصر ، هدّد بمعاملة نصارى بلاده بالمثل ، وجعل

(٢٥) B. de Pedraza : itist (Eclesiactice) : Vida Relig:osa de Los Moriscos (P. L11) . P . Longas cit

الملكين الكاثوليكيين يصدّقون وعبده ، — خاصة وأن فاسطين كانت تحت حكمه — لتبدّل الحال غير الحال ، ولعومل المسلمون من النصارى الأسبان بالحسنى . والقـول إنّ سفير فرديناند استطاع إقناع سلطان مصـر ، بأنّ إسبانيا تعامل المسلمين بالحسنى ، ادّعاء فارغ لا يصدّقه العقل ويرفضه المنطق ، فقد كانت معاملة ملك النصارى فى إسبانيا للمسلمين الظالمة معروفة لدى القاصى والدانى فى بلاد المسلمين ، وقد وصلت أخبارها مصر وسجّلها مؤرخها ابن إياس ، فكيف يجهلها السلطان ويقتنع بأنّ ملك إسبانيا النصرانى يعامل المسلمين معاملة حسـنة ؟ ! إنّ حكام المسلمين يومئذ ، الذين لـم يمدّوا يد العون إلى إخوانهم المضطهدين فى الأندلس ، مقصّرون أمـام الله وأمام الناس تقصيراً لا يمكن الدفاع عنه ولا السكوت . وقد تظاهـر سلطان مصر بأنّه اقتنع بادعاء سفير ملك إسبانيا بانه يعامل المسلمين بالحسنى ، وهو لم يقتنع أبداً . ولكنه لم يكن عازماً على مدّ يد العون لمسلمى الأندلس

ومضت السياسة الأسبانية في اضطهاد المسلمين والموريسكيين بمختلف الوسائل ، وكان من الاجراءات السّائدة التي اتّخذت في هذا السبيل ، تشريع أصدره فرديناند بإلزام المسلمين والموريسكيين في المدن ، بالسكنى في احياء خاصة بهم ، على نحو ما كان متّبعاً نحـو اليهود في العصور الوسطى ، ونفّذ هذا التشريع في غرناطة عقب حركة التنصير الشاملة ، وأفرد بها للمسلمين والمتنصّرين حيّان ، أحدهما يضمّ نحو خمسمائة منزل ، وهو الحيّ الصغير داخل المدينة ، والثاني يضمّ نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين ، وكانت الأحياء التى يشغلها المسلمون أو المتنصّرون فى المدن الأندلسية تسمى : (موريريا Moreria)

أو أحياء الموريسكين ، على نحو ما كانت أحياء يهود الخاصة تسمى (Ghetto) (الجيتو) ، وكانت تفصل بينها وبين النصارى أسوار كثيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا في غرناطة يبلغ في ذلك الحين نحو أربعين ألفاً .

وصدر في نفس الوقت في (أيلول سبتمبر ١٥٠١ م) قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة في ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

وكانت السياسة الأسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين وتجمعاتهم في مملكة غرناطة ، ولهذا صدر في (شباط ـ فبراير ١٥١٥م) مرسوم ملكي أعلن في طليطلة ، وفيه يحرم بتاتاً على المسلمين المتنصرين حديثاً والمدجنين من أي جهة من مملكة قشتالة ، أو يخترقوا أراضي غرناطة ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة ، ونص هذا المرسوم أيضاً أن يحرم بتاتاً على المتنصورين حديثاً في مملكة غرناطة أو في أية جهة أخرى من المملكة أن يبيعوا أملاكهم لأي شخص ادون ترخيص سابق ، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة ، وذلك لأنه تبين كما ورد في المرسوم ، أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ، ويحصلون أثمانها ، ثم يعبرون إلى المغرب ، وهناك يعودون إلى الأسلام .

٥ ـ اسباب انهيار الفردوس المفقود

هناك أسباب لانهيار الفردوس المفقود نحاول إجمالها ، وقد أغفل المؤرخون المحدثون بخاصة ذكر هذه الأسباب لأن الذين كتبوا عن الأندلس أكثرهم من الغربيين الذين لا يذكرون الأثر المهم في فتح الأندلس وانهيارها والمؤرخون العرب المحدثون ساروا على منوال المؤرخين الأجانب ، ولكن المؤرخين القدامى من المسلمين ذكروا أسباب انهيار الأندلس بشكل غير مباشر ، أي أن هذه الأسباب وردت في خضم السرد الطويل ، فمثلاً كتاب « نفح الطيب » للمقري ، تطرق إلى هذه الأسباب ولكن في مجال السرد الحوادث ، والذي يريد اكتشاف هذه الأسباب عليه أن يقرأ ذلك الكتاب الضخم بأجزائه الكثيرة ، وهذا ليس متيسراً إما لضيق الوقت عند بعض الناس أو لصعوبة قراءة هذا الكتاب الضخم والانتباه الى أسباب سقوط الأندلس .

وقد لجأت إلى كثير من المؤرخين من أساتذه الجامعات والمختصين لكي أجد لديهم أسباب سقوط الاندلس فلم أحظ بجواب شاف بالرغم من كثرة من استفسرت منهم ، لذلك سأحاول إيجاز هذه الأسباب لتكون دروساً للمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم ، لأنني أعتقد أن أهمية التاريخ تكمن في العبرة من دراسته ، لا في الإستمتاع به كحوادث وقصص وأحداث .

لقد فتح المسلمون الأندلس حين كانوا يتمتعون بعقيدتهم التي قادتهم إلى النصر ، فلما تخلوا عن هذه العقيدة تخلى عنهم النصر وأصبح نصيبهم الهزائم لقد كان قائد فتح الأندلس « طارق بن زياد » بربرياً ،

يقود جيشاً من العرب ومن البربر ، يسود بينهم الانسجام الروحي والنفسي لأنه يسيطر عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى » وكما جاء في القرآن الكريم « إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم » .

وبعد أن جعل الفاتحون الدّين وراءهم ظهرياً وفرّ قوانين الناس — المسلمين بالجنس والمال والمناصب ، أصبحوا ضعفاء في كل مكان .

(١) كانت تسيطر على البلاد العربية امبراطوريتان عظيمتان الامبراطورية الساسانية والتي كانت تسيطر على العراق والمشرق ، والامبراطورية البيزنطية المسيطرة على سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين ومصر وشمالي إفريقية ، ومع سعة أملاك هاتين الامبراطوريتين وعظمة مظاهرهما ، وطول مدة حكمها ، إلا أنه كان فيهما الكثير من عوامل الضعف والانحلال .

من هذه العوامل : ضعف العقيدة واختلاف النظام ونقص القيادة وعواقب الترف وتفرق الآراء . ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الامبراطوريتين من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل . . . ! فكانت دولة الفرس لا تنظر إلى البادية العربية إلاّ نظرة السيّد المبجّل إلى الغوغاء المهازيل . الذين يحتاجون إمّا إلى العطاء وإما إلى التهذيب ، لقد كانت عوامل الفناء قد اصطلحت على هدم الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قبل الإسلام وأيام الفتح الإسلامي .

ولكن العوامل التي قضت على الفرس والروم بالهزيمة — كائنة ما كانت — ليست هي العوامل التي قضت للعرب المسلمين بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق دول الزّوال لا ينشئ لغيرها حق الظهور والبقاء .

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى . . !
فقد كان في أرض هاتين الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون اليهما نظرة الإكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال

---

(١) انظر كتاب : الفاروق القائد (٢٥ — ٢٨) — ط٢ ١٩٦٦ .

أوفر من مقاتلة المسلمين وأمضى سلاحاً ، وأقرب إلى ساحات القتال من أولئك النازحين إليها من الجزيرة العربية .

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح وأغنى بالخيل والإبل والأموال .

بل إن الفئة القليلة من العرب المسلمين انتصروا على الفئة الكثيرة من العرب غير المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده في أيام الردّة وأيام الفتح الاول في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ومَن بعده من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، فهي نصرة عقيدة لأمراء ولكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن كل قول ، فالواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالاً أولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائهم ، عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون .

كان العرب قبل الاسلام ماهرين في حروب العصابات ، ماهرين في استخدام السّلاح والفروسية ، لهم قابلية ممتازة على الحركة من مكان لآخر بسهولة وسرعة وبأقل تكاليف إدارية ، ولكنهم كانوا متفرقين ، بأسهم بينهم شديد ، هذا كانت خبرتهم الحربية وشجاعتهم الفطرية تذهب عبثاً في الغارات والمناوشات المحليّة .

فلما جاء الاسلام وحّد عقيدتهم ونظّم صفوفهم وغرس فيهم روح الضبط والطّاعة ، وطهّر نفوسهم ، ونقّى أرواحهم ، وأشاع بينهم انسجاماً فكرياً فأصبحت قوتهم المبعثرة وجهودهم المضاعة قبل الإسلام تعمل بنظام دقيق وضبط متين بعد الاسلام بقيادة واحدة لهدف واحد ، وأصبح المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة متحابون بنور الله ويهتدون بهديه وهم أمة واحدة تحيتها السلام ورايتها السلام ودينها الاسلام .

كما دفقت هذه العقيدة إلى نفوس المسلمين جميعاً حمية سمت بهم إلى الايمان لأنهم لاغالب لهم من دون الله ، وحببت إليهم الاستشهاد في سبيل الحق وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كل نصر ، كما بعثت فيهم روح الاعتزاز بالنفس والشعور بأن عليهم رسالة واجبة الأداء للعالم كما غرست هذه العقيدة في نفوس المسلمين الايمان المطلق بالقضاء والقدر لذلك استهانوا بالموت وأقدموا عليه فرحين مستبشرين .

إن مجمل عوامل انتصار الفاتحين المسلمين هي نشاط العرب ومثلهم البربر وخفة أثقالهم وشجاعتهم ، وحسن تدريبهم على أسلحتهم ومهارتهم في الفروسية واكتفاؤهم الذاتي بأبسط القضايا الادارية وأقلها ، وقابليتهم المتازة على تطوير أساليب قتالهم وحفظ حظ رجعتهم ، فهم لذلك جنود ممتازون .

وتيسر قادة أكفاء قادرين على قيادة رجالهم بحزم وجدارة ، وانتشار العقيدة الاسلامية بين صفوفهم وما كانت عليه أحوال الدول التي فتحوها من احتلال واختلال ، كما أن تسامح المسلمين ونشرهم العدل وتركهم البلاد المفتوحة على ما هي عليه من دين ومعاملات .

لقد انتصر المسلمون أولاً وقبل كل شيء بعقيدتهم المنشئة البناءة التي حملها إلى الناس حماة قادرون قادة وجنوداً .

وحين جاء الفاتحون المسلمون للاندلس كان الحكم فيها ضعيفاً ، وكان من بين المسيطرين من استعان بالمسلمين على أهل بلاده ، ودار الزمن دورته ، فأصبح المسلمون متفرقين ، ويستعين الأخ على أخيه بالأجنبي كما أن المسلم الذي أهمل عقيدته أصبح مشغولاً بالترف والمال لذلك تخلخلت نخوتهم ، وأصبحوا مسلمين جغرافيين ، لامسلمين حقيقيين

فتح المسلمون الأندلس حين كانت عقيدتهم عبادة ، فلما تخلوا عن عقيدتهم وأهملوها ، أصبحت لديهم عادة ، لذلك سهل عليهم التفريط في بلادهم ، والاستعانة بالأجنبي على أبناء دينهم ، ولعل خير شاهد على ما نقوله ما سجله « ابن حزم الاندلسي » (٢) — وهو من أوثق مؤرخي الأندلس — قال في كتابه — نقط العروس — واصفاً عصر ملوك الطوائف :

« لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة في تحطيم الأخلاق واختلاط الحق بالباطل ، والحلال بالحرام » وكل ذلك يجمله ابن حزم في كلمة واحدة ، هي المحنة أو الفتنة ، ثم يصور لنا المحنة أو الفتنة في كلمات قليلة ، ولكنها قوية ورائعة ، فيصف ابن حزم في « رسالة التلخيص في وجوه التخليص » فيقول : « وأما ما سألت من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض ، فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة وهي فتنة سوء ، أهلكت الأديان إلا من وقى الله من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض لفساد ، والذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أبناء المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ، وأنهم ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على القوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية ، والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرين بضرورة لاتبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم ، فلا تغافلوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم » وقد كان الفقهاء في الواقع

---

(٢) انظر مجلة العربي العدد ٦٨ ص (٨٠ — ٨٥) في مقال ابن حزم للاستاذ محمد عبدالله عنان الصادر في تموز ١٩٦٤ .

في هذا العصر الذي ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية أكبر عضد لأمراء الطوائف ، في تصوير طغيانهم وظلمهم وتزكية تصرفاتهم الجائرة وابتزازهم لأموال الرعيّة ، فقد كانوا يأكلون على كل مائدة ويتقلبون في خدمة كل قصر ليحرزوا النفوذ والمال ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص في ظل الطوائف مجال العمل والدسّ والاستغلال ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء وقد فطن إلى ذلك إلى جانب ابن حزم قرينه ومعاصره المؤرخ « ابن حيّان » محملاً على الفقهاء ونوّه بصمتهم عن فضح الظلم الذي يرتكبه الأمراء لأنهم على حد قوله : « قد أصبحوا بين آكلٍ من حلوائهم وخابطٍ في أهوائهم » وينوّه ابن حزم باختلاط الحلال بالحرام في مجتمع الطّوائف ثم يعود وهو بصدد الإجابة عن وجه السّلام في المطعم والملبس والمكسب ، وينّوه بما كان يسود مجتمع الطوائف من اختلاط الحرام بالحلال في جباية الضرائب ومجانبتها لحكم الشرع ، وهي حالة يقدم لنا عنها الصورة التالية :

« وأما الباب الثاني فهو باب قبول المتشابه ، وهو في غير زمننا ، هذا الباب جديد لايؤثم صاحبه ولا يؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه من أقواتهم ومكاسبهم إذ كان الأغلب هو الحلال وكان الحرام مغموراً ، وأما في زماننا هذا و بلادنا هذه فانما هو باب أغلق عينيك واضرب بيديك ولك ما تخرجه إما ثمرة إما جمرة ، وإنما فرّقت بين زماننا هذا والزمان الذي قبله لأن الغارات في أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هي اليوم ، والمغارم التي كان يقبضها السلاطين إنما كانت على الأرضين خاصّة ، وأما اليوم فهي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ويؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والدّوابّ والنّحل برسم على كل رأس وعلى كل خلية شيءٌ ما ، وقبالات مايؤدى على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في البلاد ، هذا كل ما

يقبضه المتغلبون وهذا هتك الأستار ونقض لشرائع الإسلام من شعوبهم عروة عروة ، وإحداث دين جديد بعيد عن تعاليم الله » .

ويبلغ ابن حزم ذروة حملته على امراء الطوائف في تهاونهم في أحكام الدّين وما اتسموا به من تهاون في الدين والعقيدة حتى يقول :— « والله لوعلموا أن في عبادة الشيطان بقاؤهم لبادروا إليها ، فيعتمدون على النصارى ويمكنونهم بتلوين المسلمين ، فيمكنونهم منهم ويحملونهم إسارهم ، وربما أعطوهم المدن والقلاع فعمروا البلاد بالنواقيس » .

ونستطيع أن نتصور مجتمع الطوائف منحلاً انحلالا شاملا من الناحية الاجتماعية مستهتراً يتّسم بضعف الايمان وجنوحهم إلى مخالفة تعاليم الدين الحنيف .

وابن حزم يدفع ملوك الطوائف ولا يستثني منهم أحداً بيد أن هذه الملاحظات التهكميّة اللاذعة وأمثالها ، تستحيل بعد ذلك عند ابن حزم إلى نظرات تحليلية عميقة لاحوال مجتمع الطوائف ، وأحكام قاسية يصدرها على هذا المجتمع المستهتر التي تقضم أسسه عوامل الانحلال والتفكك المادي والأدبي ويلتزم ابن حزم التعميم في نظراته وأحكامه ولكنه صريح لايلجأ إلى مداجاة أو تورية وهو يدفع ملوك الطوائف لايستثني منهم أحداً ؛ وكان أبن حزم قد اصطدم بوزير غرناطة اليهودي وقد وردت هذه الأحكام بالأخص في موضعين من رسائله

الأوّل : في مستهل رسالته في الرّدّ على ابن التغريدي أو ابن نغراله وزير غرناطة اليهودي ، وإليك ما يقوله الفيلسوف في هذا الموضع « اللّهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عمّا قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة

لهم في معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموالهم ربما كانت سببا في انقراض أعمالهم وعوناً لأعدائهم عليهم عن حياطة ملتهم التي بها عزّوا في عاجلتهم وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف لذلك أهل القلّة والذمّة .

وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لوحقّق النظر أرباب الدنيا لاهتمّوا بذلك ضعف همّنا ، لأنهم مشاركون لنا من الامتعاض للديانة الزهراء ، والحميّة للملّة الغراء ، ثم هم بعد ذلك متردّدون بما يؤول اليه إهمال هذه الحال من فساد سياستهم والقدح في رئاستهم فللأسباب أسباب والمداخلة إلى البلاد أبواب والله أعلم بالصواب »

من الواضح أنّ ابن حزم يقصد من كلامه أمراء الطوائف وهو هنا يركز اهتمامه حول رمي هؤلاء الأمراء باهمال حياطة الدّين والذّود عنه لمناسبة ما حدث من قيام « اسماعيل ابن نغرالة » اليهودي ، بتأليف رسالة في الاسلام ، رأى فيها ابن حزم طعناً في بعض آيات القرآن ، ورأى تقصير « باديس ابن حبوس » أمير غرناطة في ردع وزيره وفي الدفاع عن الدين ، بيد أنّه لايتّجه إلى ذكر باديس دون غيره ، وإنما يتّجه إلى مخاطبة أمراء الطوائف جميعاً واتهامهم بنفس الاتهام المرّ ، فهم جميعاً في نظرة سواء في التقصير في حق دينهم ، وفي الأشتغال عن صونه ببناء القصور والشؤون الفانية .

مما تقدّم من شهادة ابن حزم وهو مؤرّخ ثبت وفقيه وفيلسوف وأديب أن ملوك الطوائف كانوا متفرقين ، بأسهم بينهم شديد يستعينون بالعدو على إخوانهم المسلمين ويستعينون بأعداء دينهم على أهل دينهم .

والإستعانة بالأجنبي له خطورة عظيمة جداً ، فهذا الأجنبي يطلع على عورات المسلمين ، ويستطلع أرضهم ، ويعرف نقاط الضعف فيهم : ويطّلع على اختلافاتهم ، فهو يعرف بذلك مداخل المدن والحصون ونواقصها والأمكنة التي يمكن الاستيلاء عليها منها ، كما يعرف تفرق

كلمة المسلمين وتشتت قوتهم وصفوفهم ، وأنهم أصبحوا أعداء بعضهم ، وهم لا يقاومون كما ينبغي .

لذلك يمكن اعتبار مدة ملوك الطوائف هي المدة التي فتحت أبواب الأندلس للعدو والمتربص بهم ، فلذلك كانت المدن الأندلسية العظيمة تتساقط بالتتابع ، بينما يبقى المسلمون الآخرون متفرجين غير متعاونين على صد العدو ، وربما أعان المسلم عدوه على أخيه المسلم ، وما هكذا توردها سعد الإبل كما يقول المثل .. ! .

يمكن تلخيص أسباب سقوط الأندلس بما يلي :

١ ــ تهاون المسلمين في دينهم الذي قادهم للنصر المؤزر .

٢ ــ تعاون المسلمين مع أعدائهم .

٣ ــ عدم تعاون المسلمين فيما بينهم في حرب أعدائهم .

٤ ــ اهتمام المسلمين بالترف على الاهتمام بالتدريب العسكري .

٥ ــ اهتمام المسلمين بالقصور والمال أضعاف اهتمامهم بالجهاد .

٦ ــ ضعف قياداتهم العسكرية والدينية

٧ ــ تفرق كلمة المسلمين وظهور الاختلاف العنصري أو القبلي .

٨ ــ التناحر والتنافس على السلطة .

٩ ــ انتشار الاضطرابات الداخلية .

١٠ــ تمكين أعداء المسلمين من رقاب المسلمين .

١١ــ تشتت المسلمين بالثورات الداخلية والاستعانة بالعدو على المسلمين .

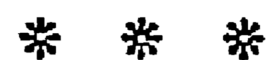
١٢ــ اتحاد نصارى الإسبان مع نصارى أوربا وتحت إشراف البابا على كسر المسلمين وإخراجهم من الأندلس .

لقد كان المسلمون الفاتحون الأولون يعملون لقلوبهم فأصبح المسلمون الجغرافيون بعد ذلك يعملون لجيوبهم ولأن العمل للجيوب غير الهزيمة والخسران ، وما على المسلمين اليوم أن يتعلموه ان يكونوا من أصحاب القلوب لا من أصحاب الجيوب .

لم يكن هناك ارتباط قوي بين العناصر التي وفدت إلى الأندلس فالعرب كانوا في جانب والبربر كانوا في جانب والعرب ليسوا وحدة واحدة وإنما كانوا شيعاً وأحزاباً وكذلك كان البربر ، ثم نبعت عناصر إسلامية في الاندلس من الصقالبة ومن السكان الأصليين ولكل من هؤلاء وأولئك طابع واتجاهات ويمكننا أن نقول : بوجه ان مجمل الصخب والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بدأ مبكراً واستمر استمراراً متصلا ولم يهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وكان يهدأ ليبدأ ثورة عارمة عندما تتوانى أو تضعف هذه القوة .

وقد تيسر القادة الأقوياء الذين سيطروا ، ثم ضعف أولئك القادة وأصبحوا يهتمون بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بشعوبهم فكانت الكارثة .

لقد كان الشعب الأندلسي شعوباً جمعها الاسلام فلما تخلوا عنه أصبحوا أعداء متفرقين لا شعباً واحداً من ١ . هـ .



الفهرس

الصفحة

مجلة المجمع العلمي العراقي



المجلد الثاني والاربعون
بغــداد
١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م

ديوان التحقيق الاسباني (*)
ومهمته في ابادة الأمة الأندلسية

بقلم اللواء الركن :
محمود شيت خطاب
عضو المجمع

أ- قام ديوان التحقيق (La Jnquisicon) في مطاردة الموريسكين باعظم دور ، وترك في مأساتهم أعمق الأثر ، لذلك يجدر التحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها واعمالها الرهيبة . (١)

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة والتحقيق عن سلامتها ونقائها ، وقد ظهرت فكرة التحقيق على العقائد في الكنيسة الرومانية في عصر مبكر جداً ، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا يعهد الى الأساقفة وإلى الآباء الدومينكيين ، في تعقيب الكفرة والمارقين ومعاقبتهم ، وطبق هذا النظام منذ البداية في إيطاليا وألمانيا وفرنسا ، وكان مندوبو البابوية يتجوّلون في مختلف الأنحاء ، لتقصّي أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم ، وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت في

(*) يطلق عليها خطأ : محاكم التفتيش ، وأسمها أعلاه هو الصواب .

(١) نفح الطيب (٢/٦١٦) ، وانظر أخبار العصر (٥٥) .

النواة الأولى لمحاكم التحقيق ، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة ، ثم تُحل متى تمت مهمة مطاردتهم واقتضاء عليهم . . (٢)

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق : أقيم معظمها في أدباء الآباء الدومنيكيين والفرنسيسكانين ، ولم تك ثمة في هذه العصور سجون خاصة أو مركز ثابتة لمحاكم التحقيق ، وإنما كان يتخذ من اي مكان صالح مركزاً أو سجناً ، وكان الأساقفة يتولون رئاسة هذه المحاكم ، ولهم سلطة مطلقة ، وكانت التحقيقات والمرافعات تجري بطريقة سرّيّة ، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية وغير قابلة (٣) للطعن ، وكان يسمح للنساء والصبيان والعبيد بالشهادة ضّد المتّهم وليس له ويؤخذ الاعتراف من المتهم بالخديعة والتعذيب . وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف ، ولكّن البابوية لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة . وكانت السجون التي يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة ، يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية . وكان السجناء يصفّدون عادة بالأغلال الثقيلة وكانت العقوبات الرئيسة هي السّجن المؤبّد والاعدام والمصادرة . وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة ، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها . وافي

---

(٢) Dr Lea. Moriscos, P. 31, 151 - 152 ويبدو هذا الالتزام بسكنى المسلمين في أحياء خاصة في غرناطة وغيرها من المدن الأندلسية القديمة في كثير من المراسيم الملكية التي صدرت منذ سنة ١٥٠٠ م مثال ذلك المرسوم الصادر بالاعفاء لأهل بسطة Arch. gen. P.R. 11 - 1.7 ، والمرسوم الصادر بالعفو عن حيّ المسلمين (Moreria) في غرناطة .

(٣) Archive general de simancas, P. R. Legajo. 8, Fol. 120 وانظر تفاصيل هذه الدراسة في نهاية الأندلس (٢٩٢ — ٣١٠) .

ديوان التحقيق ميداناً خصباً لمطاردة الألبيين (٤) وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر في جنوبي فرنسا . وفي عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظّم إجراءات هذه المحاكم الكنسيّة الجديدة وكان ديوان التحقيق في تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة ، ويأمر بإحراقها ، ومن ذلك أحكام صدرت بإحراق التلمود وبعض كتب ارسطو وغيرها من كتب الفلسفة من العهد القديم .

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضيّ الزمن ، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر والزيغ في العقيدة ، بل تعدته الى مطاردة السحر والسحرة والعرافة والعرّافين ، وشبّهه هؤلاء بالكفرة . وجاء بعد ذلك دور اليهود فاتهموا بسب النصرانية وأخذت عليهم مزاولة الربا وتتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب . على أنّ الديوان لم ينس دائماً انّ مهمته الأصلية تنحصر في مطاردة الكفر والزيغ ، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائها .

ب- تلك هي الظروف التي قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، في في مختلف أنحاء أوربا : في إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الاسباني الى البواعث الدينيه نفسها ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة . وقد أنشئت محاكم التحقيق في مملكة أراغون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها في سنة (١٢٤٢ م) إجراءات جديدة ، كان لها في ما بعد أكبر الأثر في صوغ نظم ديوان التحقيق الاسباني . وعرف هذا الديوان الأرغوني بالديوان القديم ، وعكف حيناً على مطاردة الألبيين وإخماد

---

(٤) نسبة إلى : (ألبـي) ، وهي مدينة بجنوبي فرنسا ، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة الملحدة .

دعوتهم في أراغون ، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على ان هذه لم تكن سوى بداية محدودة لنشاط ديوان التحقيق الاسباني ذلك ان ظروف إسبانيا النصرانية في ذلك العصر واضطرام الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورجحان كفتها في ميداني الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكي النزعة الصليبية ، التي كانت تجيش بها إسبانيا دائماً وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت منذ القرن الرابع عشر إلى طوائف كبيرة من المدجنين في مهاد عزها القديم ، في قشتالة واراغوان ، ولم تبق سوى بقية أخيرة تحتشد في مملكة غرناطة الصغيرة ، الذي كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً في الأفق . وكان تفوق إسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد، يذكي عوامل التعصب الديني الذي تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذه اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها المفضل في ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم في هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المتنصرين من يهود (Conioerson)، وكان أولئك المحدثون في النصرانية ، قد سما شأنهم ، ووصل كثير منهم الى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ،وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية في الدولة والمجتمع ، وكان أحبار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب ، ويعتبرونهم شراً من يهود الخلص أنفسهم ، ويتهمونهم بالالحاد والزيغ ، ومزاولة شعائرهم القديمة سراً ، ولما تفاقم الأتهام من حولهم، في سنة (١٤٦٥ م) في عهد الملك هنري الرابع ملك قشتالة ، أمر ملكيّ إلى الأساقفة بالاستقصاء والبحث في دوائرهم ، وتتبع هذا اللون من المروق والزيغ ، ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الاضطهاد ، اتخذت صورة المحاكمات الدينية ، واحرق عدد من أولئك المتنصّرين . ولكن قشتالة التي شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعنَ بأمر المتنصّرين ولم

تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول ان يدخل نظام التحقيق في قشتالة ، فأرسل اليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم .ولكن فرديناند وإيزابيلا وقفا في وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطان الكنيسة ، وإغضت إيزابيلا مدى حين عن تحريض الأحبار على مطاردة ، الكبراء المنتمين الى أصل يهودي ، إذ كانت تثق بهم وبصادق نياتهم وغيرتهم في خدمة الدولة والعرش .

على انّ هذه المقاومة لم تلبث طويلاً ، ذلك لان كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث ان غلبت مساعي الأحبار ، وقبل الملكان إنشاء ديوان التحقيق في قشتالة ، ايضطلع في مثل المهمات الخطيرة التي يضطلع بها في أرغوان . وهنا يقال : إن الفضل في إقناع الملكة إيزابيلا بتحقيق هذه الفكرة يرجع الى القس توماس دى تركيمادا رئيس دير الآباء الدومينيكان في سانتسا كروشا بشقوبية . وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوي ، فقيل : إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتلائها العرش ، على وعد بانها متى ظفرت بالملك ، فانها تكرس حياتها لسحق الكفر وحماية الكثلكة ، وانه كان اكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفي سنة (١٤٧٨ م) أرسل فرديناد وإيزابيلا سفيرهما إلى البابا للحصول على المرسوم البابوي ، وصدر المرسوم بالفعل في (تشرين الثاني – نوفمبر ١٤٧٨م) بالتصريح بأنشاء ديوان التحقيق في قشتالة،وتعيين المحققين لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين ، واتخذت الخاسمة لتنفيذ المرسوم في (أيلول سبتمبر ١٤٨٠ م) ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى في إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الأسباني نشاطه المروّع في قشتالة .

ج . وبدأ الديوان أعماله في إشبيلية بأصدار قرارات يحث فيها كلّ شخص أن يساعد الديوان ، في البحث عن الملحدين والكفرة ، وكلّ مَن في عقيدتهم

زيغ ، وفي جمع الأدلة على إدانتهم ؛ وفي التبليغ عنهم بأية وسيلة . وانقضت العاصفة بالأخص على على يهود المتنصرين ، وكانت منهم طائفـــة كبيرة في إشبيلية ، فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم أ وفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية .

وحاول كثير من المتنصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكيّ بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدّد الأشراف بفقد وظائفهم والنفي من الكنيسة ، إذا تخاولا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المتنصرين في الوقت نفسه تدبير مؤامرة لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضي بإعدام بعضهم حرقاً ، وبذلك سحقت كلّ مقاومة لنشاط الديوان الجديد . واتسع نشاط الديوان بسرعـــة واستصدر الملكان من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من : « المحققين » الجـــدد (شباط — فبراير ١٤٨٢ م) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق في قرطبـــة وجيان وشقوبية وطليطلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الأسبانية (قشتالة وأراغون) .

وكان فرديناند وإيزابيلا يرميان الى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثـــر مما هو مستمدّ من البابوية . ولتحقيق هذه الغاية ، رُؤي أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديـــوان قد غدا في الواقع أداة مهمة مرهوبة الجانب ، ولابدّ لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد . ومن ثمّ فقد صدر المرسوم البابويّ في سنة (١٤٨٣م) بإنشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق (Soprema) له اختصاص مطلق في كلّ ما يتعلق بشؤون الدين . ويتألف من أربعة أعضاء ، منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس : « المحقّق العام » — (Jnquisitor General) وصدر

المرسوم البابوي في (تشرين الأول ـ أكتوبر ١٤٨٣ م) بتعين القس توماس دي تركيمادا معترف الملكين ، في هذا المنصب الخطير ، وخوّل في الوقت نفسه سلطة مطلقة في وضع دستور جديد للديوان المقدّس .

وكان القس تركيمادا شديد التعصب ، وافر العزم والبأس ، فبذل في تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة ، وبثّ فيه روحاً من الصرامة . وكان جلّ غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الأسباني أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات إسبانيا ، وقد وفّق الى تحقيق هذه الغاية الى أبعد حدّ . وبُدئ بوضع دستور الديوان الجديد في سنة (١٤٨٥ م) على يد جمعية من المحققين العامين عقدت في إشبيلية ، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح ، ثمّ عقدت بعد ذلك جمعية أخرى في بلد الوليد سنة (١٤٨٨ م) ووضعت عدّة لوائح جديدة ، وعقدت جمعية ثالثة في آبلة سنة (١٤٩٨ م) . وتولى المجلس الأعلى (السوبريما) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها . وكان هذا التنظيم عظيم الأثر في تطور ديوان التحقيق الأسباني . ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء في اسبانيا ، ويرتجف لذكرها الفرد العادي واضحى نشاطها الرهيب وقضاؤها المدمر ، عنصراً بارزاً في التاريخ الأسباني ، يقوم بدوره الفعال في دفع إسبانيا إلى شفا المنحدر ، الذي لبثت تتردىّ في غمرته زهاء ثلاثة قرون .

ولبث تركيمادا في منصب المحقق العام حتى توفي في سنة (١٤٩٨ م) ، وفي عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها . وكان هذا القسّ المتعصب بالرغم من تقشفه ، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة في إسبانيا ، ويعيش في قصور باذخة ، وله حرس كبير من الفرسان والمشاة . وكان من جرّاء شدّته وعسفه ، أن ندب البابا سنة (١٤٩٤ م) إلى جانبه خمسة من المحققين العامين ، يتمتع

كل منهم بنفس سلطته . ولما توفي خلفه في منصب المحقق العام ديجو ديـا أسقف جيان ، واستمر في منصبه حتى سنة (١٥٠٧ م).

د. ونقدم الآن عرضاً موجزاً لأجراءات ديوان التحقيق ، وسنرى أنها بأصولها وتفاصيلها ، أبعد ما تكون عن مبادئ المنطق وأشد ما تكون عسفاً وقسوة وهمجيـة .

تبدأ قضايا الديوان أو محاكماته الفرعية ، بالتبليغ أو ما يقوم مقامه كورود عبارة في قضية منظورة تلقي شبهة على أحد ما . ولا فرق أن يكون التبليغ من شخص معين أو يكون غفلاً ، ففي الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً ». كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الأعتراف » الذي يتلقاه القسس ، والهم أن يبلغوا عما يقعون عليه في حالة الأشتباه في العقائد، وذلك بالرغم مما يقتضيه الأعتراف الكتمان ، ويقسم المبلغون يميناً بالكتمان ، ولا توضح لهم الوقائع التي يسئلون عنها بل يُسئلون بصفة عامة عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكي أوحقوق الديوان . ويقوم الديوان في الوقت نفسـه بأجـراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده ، ثم تعرض نتائج التحقيق التمهيدي على الأحبار المقررين ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكبـاً لجريمة الكفر أوتلقي عليه ارتكابها ، وقرارهم يحدد الطريقة التي تتبع في سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين . ومن ثم فقد كانت أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذمتهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الأدانة دائمـاً إلا في أحوال نادرة .

وعلى اثر صدور هذا التقرير ، يُصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السري وكانت سجـون الديوان المخصصة لاعتقال

بالكفر أو الزيغ . وهي المعروفة بالسجون السرية ، غاية في الشناعة والروعة تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب عميقة رطبة مظلمة ، تغص بالحشرات والجرذان . ويصفد المتهمون بالأغلال(٥) ويقول لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني : إن أفظع ما في أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط في الحال في نظر الرأى العام وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدني أو ديني ، وفيها يسقط في غمار حزن لا يوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف الى اي مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه ، غير أن لورنتى ينفى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة في أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول : إن هذا الاجراء لم يكن يتبع إلا في أحوال نادرة (٦) . ويقول الدكتور لي : « كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق في ذاته عقوبة خطيرة ، ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهي محاكمته ، وتستغرق المحاكمة عادة من عام الى ثلاثة ، لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة (٧) ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأي أو الانذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرأفة

---

(٥) Dr. Lea : History of the Jnquistion of Spain, V.1. Chap. IV.

(٦) Don. S.A.L. Lorente: Historia Critica de la Janquisicion de Es Pana (1815 - 1817).

وهو مؤلف نقدي ضخم ، ويمتاز بكون مؤلفه إسباني ، وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة ، وكان في آخر حياته يشغل فيه السكرتير العام.

(٧) Dr. Lea the Moriscos of Spain .

إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدّة والنكال أذا كذب أو أنكر ، لأنّ « الديوان المقدس » لايقبض على احد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهي طريقة غادرة محيرة . فأذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الاجراءات ، وقضي عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنهّ كافر مطبق ، لاينجو من عقوبة الموت ؛ مهما كانت الوعود التي بذلت له بالرأفة والعفو . فأذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع له النائب قرار الاتهام طبقاً لما ورد في التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلـــة المقدمة من الركاكة والضعف بمكان . بيد أنّ أفضع ما يحتويه القرار ، هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالباً مايطالب النائب هذه الأحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب في اعترافه . وتصدر المحكمه قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب في العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب في محاكم التحقيق للحصول على الأعتراف ، منذ القرن الثالث عشر . وكان التعذيب في قشتالة إجراء يسوّغه القضاء العادي ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الأعتراف ، فلم يكن غريبـــاً أن يدمجه ديوان التحقيق في دستوره ، وقد نوّه كثير من المؤرخين بروعة الأجراءات والوسائل التي كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق في توقيع العـــذاب ، ويعلّق عليه دون لورنتي بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التـــي كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين . ولكني أصرّح أنّ أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة في ما روى . ولقد تلوت كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً ، ولم أر في المحققين الذين التجأوا إلى تلك الوسائل إلاّ رجالاً بلغ جمودهم حدّ الوحشية(٨)

---

(٨) Lorenta ibid ، انظر نهاية الأندلس (٣١٨) .

بيد أنّ مؤرخاً حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتـور لى يرى في هذه الأقوال مبالغة ، ويقول لنا : إنّ ديوان التحقيق لم يكن في إجراءاته الخاصة بالتعذيب أكثر قسوة أو إرهاقاً من القضاء العادي ، وأنّ ديوان التحقيق الروماني ، كان في إجراءاته أشدّ قسوة وفظاعة من الديوان الاسباني (٩) ومن الواضح أنّ هذا الدفاع متهافت ، لأنّ دون لورنتي ليس متهماً بالنسبة لمسؤولي ديوان التحقيق ، فقد عمل فيه حتى نهاية حياته ، وقد عاش أحداثه فلا مجال للشك في أقواله أو الردّ عليه ، وهي تصف الواقع الذى لاغبار عليه .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى تستعمل في محاكم التحقيق ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلم، وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه الى أسفل ، ثم توضع في فمه من زلّعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق وقد يصل ما يتجرعه إلى عدّة ايترات . وتعذيب «الجاروكا » ، وهو عبارة عن ربط يدى المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وَبطنه ، ورفعه وخفضه معلقا ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه . وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل وفسخ الفك، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة . ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه لما كان التعذيب يعتبر خطراً لاتؤمن عواقبه، نظراً لاختلاف المتهمين في قوة البنية والاحتمال المادىّ والعقلىّ فأنه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع في إجراء التعذيب بل كان الأمر يترك لتقدير القضاة وحكمتهم وضمائرهم (١٠) . ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأحبار المحققون ، والطبيب اذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولايسئل ليقر روقائع معينة ، بل يعذب ليقرر

---

(٩) Dr. Lea: the History of the Jquisition. V.III. Ch. VII.

(١٠) Dr. Lea : ibid ; V.III. P.22 .

مايشاء ، ويمكن الطعن في القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوبريما) الا في احوال استثنائية ولكن الطعن لايقبل ولاينظر حيثما كان القانون صريحا في وجوب إجراء التعذيب . وقد يأمر الطبيب بأيقاف التعذيب اذا رأى حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جفّ دمه ، فأذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة كفّ عن تعذيبه . وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصرّ على الأنكار لم يفده ذلك شيئاً ، لأنّ القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلةّ على الأدانة ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد المتهم ما قاله وقت التعذيب، بأعتراف حر يقرره في اليوم التالي ، وذلك حتى يؤكد صحة الاعتراف فاذاأنكر او غيرّ شيئاً أعيد الى تعذيب ؛

وبعد انتهاء التعذيب ، يحمل المتهم ممزّقاً دامياً الى قاعة الجلسة ، فيجيب عن التهم التي توجهّ إليه لأولّ مرة ، ويسئل عند تلاوة كلّ تهمة عن جوابه عنها مباشرة ، ثم يسئل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقرّراً من الوجهة النظرية ، فأن كان له دفاع ، اختارت له المحكمة محامياً من المقيدّين في سجلّ الديوان للدفاع عنه؛ وقد يسمح للمتهم بأختيار محام من الخارج في بعض الأحوال الاستثنائية ؛ ويقسم المحامي اليمين بأن يؤدي مهمته بامانة ، وألا يعرقل الأجراءات بسوء نية، وأن يتخلىّ عن موكله إذا تبين له في أية مرحلة من مراحل الدعوى، أنّ الحق ليس في جانبه على أن الدفاع لم يكن في الغالب سوى ضرب من السخرية ولم يكن عملاً مأمون العاقبة ، ولم يكن يسمح للمحامي أن يطلع على اوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهمّ على انفراد ، بل تقدّم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الأحالة وقرار الأتهام وكان المحامي الذي يبدي في تأدية مهمته غيرة خاصة يخاطر بأن يقع تحت سخط الديوان .

وبعد المرافعة واستجواب المتهم، تحال القضية على الأحبار المقررين ليبدوا فيها رأيهم من جديد. وكانت هذه خطوة حاسمة في الواقع، لأنها تمهيد إلى الحكم النهائي. ويصدر الاحبار المقررون قرارهم، وقلما كان يختلف عن القرار الأول. فإذا كان الحكم بالأدانة، كان للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوبريما). بيد أنها كانت على الأغلب فرصة عقيمة، إذ قلما كان المجلس الأعلى ينقض حكماً من الأحكام. وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسيّ الرسوليّ، وكانت الخزانة البابوية تغنم من هذه الالتماسات أموالاً طائلة، فكانت فرصة لايستفيد منها سوى ذوي الغني الطائل وقلما يصدر حكم البراءة أو «الاقالة» إذ أنّ أقلّ شكّ في براءة المتهم براءة مطلقة، كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف (de Ldvi.)، وعندئذ تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لأجراءات معينة. وإذا يقضي بالبراءة وهو ما يندر وقوعه، أطلق سراح المتهم، وأعطيت له شهادة لطهارته من الذنوب، وهي كل ما يعوّض به عما أصابه في شخصه وفي شرفه وماله، من ضروب الأذى والآلام.

وأما إذا قضي بالأدانة، فأنّ الحكم لايبلغ للمتهم إلاّ عند التنفيذ، وهو إجراء من أشنع الأجراءات الجنائية التي عرفت، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يعرف مصيره الحقيقي، ويجوز رسوم الأيمان (الأوتودا في Auto-da-Fl) وهي الرسوم الدينية التي تسبـق التنفيذ، وخلاصتهـا أن يلبس الثوب المقدس، ويوضع في عنقه حبل وفي يده شمعة، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ، وهناك يتلى عليه الحكم لأول مرة. وقد يكون الحكم في حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة، أو بالأعدام حرقاً في حالة الكفر الصريح. وقد يكون في حالة الذنوب الحقيقية بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة

وهو ما يسمى حكم التوفيق . وكانت أحكام الأعدام هي الغالبة في عصور قضايا الكفر . وكان التنفيذ يقع في ساحات المدن الكبيرة ، وفي احتفال رسمي يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة ، فينفذ حكم الحرق في عدد من المحكوم عليهم ، وقد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا في موكب (الأوتودافي) التي اشتهرت في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتي كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة التي تهرع لشهودها جموع الشعب . ومما يذكر في ذلك . أن فرديناند الكاثوليكي ، كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره ان يشهد حفلات الأحراق ، وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها . (١١)

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، يبث اليأس في النفوس ، وكان الأمر يترك لهوى القضاة في تحديد مواعيد دعوى المتهم ، والسير بأجراءات الدعوى : وكانت الأجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلاً ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً : وقد يموت المتهم في سجنه قبل أن يصدر الحكم في قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق ، يجيز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم ، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق في موكب « الأوتوذافي » .

وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بألأدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضى بحرمانه من تولي الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليهم . (١٢)

---

(١١) Dr. Lea : ibid ; V.I .

(١٢) نهاية الأندلس (٣١٦ – ٣٢١) .

ه – هذا استعراض موجز لأجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة التي سودت بقضائها المروّع صحف التاريخ الأسباني زهاء ثلاثة قرون، وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بقضائه وأساليبه، حوله جواً من الرهبة والروّع. ولما ذاع بطشه وعسفه، عمد كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين إلى الفرار، حتى اضطرت الحكومة أن تصدر سنة (١٥٠٢ م) قراراً يحرّم على ربّان أية سفينة وأيّ تاجر، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص، وقبض بهذه الصورة على كثير من النصارى المحدثين، في مختلف الثغور الأسبانية، واحيلوا إلى المحاكم التحقيق. وكان اعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة، وسلطان مطلق، تنحنى أمامه أية سلطة، وتحمى أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكلّ وسيلة. وكان من جراء هذه السلطة المطلقة، وهذا التحلل من كل مسؤولية، أن ذاع في هذه المحاكم الغسف وسوء استعمال السلطة، والقبض على الأبرياء دون حرج، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز اجرامي، لايتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملىء جيوبهم، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته، وكانت الملكية ذاتها تغتنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة في السجن جوعا (١٣). وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يبسط حكم الأرهاب في بعض المناطق، وهذا ما حدث في قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو، الذى يعتبر من أشدّ المحققين قسوة وإجراما. ففى عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات، وتعالت الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفضيع، الذى يجرى باسم الديوان المقدّس وفي ظله، والذى يضم اسم الديوان والحكومة، واستغاث كبراء قرطبة بالملك، وجرت في الموضوع تحقيقات طويلة، انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله (١٤)

(١٣) Dr. Lea : ibid, V.I. P. 190-129.

(١٤) Dr. Lea : ibid, V.I. P. 210.

وكان العرش يعلم بأمر هذه الآثام المثيرة التي تصم سمعة الديوان والمحققين ، ولا يستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذى لايناهضه سلطان آخر ، ولأنّ العرش كان يرى فيه في الوقت نفسه أصلح أداة في تنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين . وفي الوصية التي تركها فرديناند الكاثوليكي عند وفاته في (كانون الثاني – يناير – ١٥١٦ م) ، لحفيـــده شارل الخامس ، ما يلقي ضياءً على هذه الحقائق ، ففيها بحث عن حماية الكثلكة والكنيسة ، واختبار المحققين ذوي الضمائر الذين يخشون الله ، لكي يعملوا في عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيـــد الدين الكاثوليكيّ ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد (١٥) .

ولمـــا توفي فرديناند ، كان المحقق العـــام هو الكاردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذين أبدى من الحماسة في مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، مـــا مبقت الأشارة إليـــه . وقد حاول خمنيس أن يطهِّر قضاء الديـــوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذيـــن لايرُغب فيهم ، ولكنه ولـــم يعش طويلاً ليتـــم خطته في الأصلاح ، فعادت المساوئ القديمة أشد مما كانت ، وسار الديوان في قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لايلوي على شئ . ولما جلس شارل الخامس على العرش ، كتب إلى مجلس قشتالة يقول : إنّ سلام المملكة ، وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده لديوان التحقيق ، ولم يرشارل بعد مدّة من التردّد ، إلا أن ينزل عند هذا النصح ، أن يفسح الطريق لسلطان الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحدّ من عسف الديوان وعيثه سدى ، وتوطدّ سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت في الواقع أخطر ما في حياة الشعب الأسبانيّ (١٦) .

---

(١٥) Dr. ibid ; cit. Mariana. - V.I. P. 215

(١٦) Dr. Lea ; ibid ; V.I. P. 250

و – وقد رأينا كيف أنشئ ديوان التحقيق الأسباني في الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكثلكة من شبه المروق والزيغ ، وكان إنشاؤه في قشتالة قبل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان يهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن في ظل الحكم الأسلامي ، أول ضحايا سياسة الأرهاق والمحو التي رسمتها إسبانيا الجديدة . ذلك أنه ما كادت تسقط غرناطة في أيدى الملكيين الكاثوليكيين ، وما كاد يهود ينتقلون الى الحكم الجديد ؛ حتى شهرت عليهم السياسة الأسبانية حربها الصليبية ، وأصدر الملكان قرارهما الشهير في (٣٠ آذار – مارس سنة ١٤٩٢ م) وهو يقضي بأن يغادر سائر يهود – الذين لم يتنصروا – من أي سن وظرف ، أراضى مملكة قشتالة في ظرف أربعة أشهر من تاريخ القرار ، وألا يعودوا إليها قط ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة ، ويجب ألا يقوم أحد من سكان مملكة قشتالة على حماية وإيواء اي يهودي أو يهودية سراً أو جهراً متى انتهى هذا الأجل ، ولليهود أن يبيعوا أملاكهم خلال هذه المدة ، وأن يتصرفوا فيها على وفق مشيئتهم (١٧). فأذعن كثير من يهود للتنصير إشفاقاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم في سجون الديوان المقدس ومحارقه . أو شردوا في مختلف الأقطار بعد التشريد والحرمان بل لم ينج المتنصرون منهم . من المطاردة والأرهاق لأقل الشبهة كما ذكرنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهي التي بقيت في بعض مدن قشتالة وأراغوان في ظل الحكم النصراني ، نفس المصير المحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه في قشتالة منذ سنة (١٤٨٠ م) ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى في إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الأسلامية في الأندلس ، ووقع ملايين المسلمين في قبضة إسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير . واستجابت بقايا الأمة الأندلسية

---

(١٧) Arachivo genaral de Simancas: P. R. Legajo 28; Fol. 6.

إلى طوائف الموريسكيين ، ألفى ديوان التحقيق في هذا المجتمع النصرانيّ المحدث أخصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية في تحقيق غاياتها البعيدة . ذلك أنّ هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطلع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الأسبانية بعد ظفرها النهائي بأخضاع الأمـة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هي القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، وسحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها في المجتمع النصرانيّ . ولم تشأ السياسة الأسبانية أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزّمن والتطوّر التاريخي ، بل رأت نزولاً على وحي الكنيسة وتوجيهها المباشـر ، أن تعجّل بأجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب في ذلك إلى حدود الأسراف والغلو : هي التي اسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصّرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الأسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كرّ الأجيال والعصور ، وستبقى تلك الوصمة ما بقيت الحياة .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الأسباني بأعظم قسط من هذه الأجراءات الهمجية ، التي أريد بها تنفيذ حكم الأعدام في أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لديوان التحقيق منذ سنة (١٤٩٩ م) أعني مذ أُكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جعلت من اختصاص محكمة التحقيق في قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله في غرناطة ، بحماس يذكيه احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الاسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيـق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزّيغ ، ولم يجد المسلمون الذين أثرو البقاء في الوطن القديم ، وأُكرهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أوعاصماً من الأضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المتنصرين لبثوا دائماً موضـع البغض والريب ،

وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على أعتناق دينها . أن تضمهم إلى حضيرتها ، وأبت الكنيسة الأسبانية أن تؤمن بأخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ؛ وترى فيهم دائماً منافقين مارقين وهكذا كانت السياسة الأسبانية . كما كانت الكنيسة الأسبانية، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين الظاهري ؛ وإنما كانت ترمى إلى إبادتهم، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم . وكلّ ذكرياتهم .

والواقع أنّ الموريسكيين لبثوا بالرغم من تنصرهم ؛ نزولاً على حكم القوّة والأرهاب . مخلصين في سرائرهم لدينهم الأسلامي ولم تستطع الكنيسة بالرغم من جهودها الفادحة أن تحملهم على الولاء للدين قاسوافي سبيل أعتناقه ضروباً مروّعة من الآلام النفسية والاضطهاد المضني . وإليك مايقوله مورّخ إسبانيّ كتب قريباً من ذلك العصر ، وأدرك الموريسكيين ، وعاش بينهم حيناً في غرناطة : « كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد ، فأذا ذهبوا إلى القدّاس أيام الآحاد، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم المغلقة . وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون . وإذا عمّد أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار . ويسمون اولادهم بأسماء عربية ، وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقيّ البركة ، تنزع ثيابها النصرانية،وترتدى الثياب العربية.ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية(١٨)

وقد انتهت إلينا وثيقة عربية مهمة تلقي ضوءاً كبيراً على أحوال الموريسكيين في ظلّ التنصير، وتعلقهم بدينهم الأسلامي . وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الأسلامية خفية ، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار

---

(١٨) Marmal, ibid 11 ; Cor, I.

الشرعية التي يمكن أن تسوّغ مسلكهم ، وتشفع لهم عند ربهم ، مما يرغمون عليه من اتباعه من الشعائر النصرانية . وهذه الوثيقة هي عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى جماعة العرب المتنصرين ممن يسميهم : « الغرباء » ، يقدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الأسلام خفية ، وبطريق التورية والتستر . وتاريخ هذه الرسالة هو غرّة رجب سنة (٩١٠هـ) = (٢٨ تشرين الثاني – نوفمبر ١٥٠٤ م) ، وإليك نص هذه الوثيقة : الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ، ممّن أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا في ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته ، الغرباء القرباء إن شاء الله ؛ من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته ، وارثو سبيل السلف الصالح ، في تحمل المشاق ، وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلطف بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ، ومن كلّ ضيق مخرجا . بعد السلام عليكم ، من كاتبه من عبيده الله أصغر عبيده ، وأحوجهم إلى عفوه ، ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعة المغراوى ثم الوهرانى ، كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، بحسن الخاتمة والنجاة من اهوال هذه الدار ، والحشر مع الذين انعم الله عليهم (F:2) من الأبرار ، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الأسلام ، آمرين به مَن بلغ من أولادكم . إن لم تخافوا دخول شر عليكم من اعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإنّ ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى ؛ فاعلموا أنّ الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود ، لايضرّ ولا ينفع ، وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من أله ، فاعبدوه واصطبرو لعبادته : فالصلاة ولو بالأيماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أورياء ؛ لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ؛ والغسل

من الجنابة ولو عوماً في البحور ، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم . بالتميم ولو مسحاً بالأيدى للحيطان ، فأن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء (F. 1-3) والصعيد ألا أن يمكنكم الأشارة اليه بالأيدى والوجه الى تراب طاهر أو حجر أو شجر مايتيمم به ، فاقصدوا بالأيماء ، نقله ابن ناجى في شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتومنه ما استطعتم . وإن أكرهوكم في وقت صلاة الى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون اليه من صنم ، ومقصودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ، وإن أجبروكم على شرب خمر ، فاشربوه لابنية استعماله . وإن كلفوا فيكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرّم ، وإن زوّجوكم بناتهم فجائز الكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم على (F. 3-2) إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدو تحريمه اولا الأكراه ، وإنكم ناكرون لذلك في قلوبكم ، ولو وجدتم قوّة لغيّرتموه . وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام . فافعلوه منكرين بقلوبكم . ثم ليس لكم إلاّ رؤس أموالكم ، وتتصدقون بالباقي ، إن تبتم الى الله تعالى . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر . فأن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنيّ القلوب بالأيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك . وإن قالوا : اشتموا محمداً ، فأنهم يقولوا له : مُحَمَّد ، فاشتموا مُحَمَّداً . ناوين انه الشيطان أو مُحَمَّد يهود فكثير بهم اسمه وإن قالو : عيسى ابن الله . فقولوها إن أكرهوكم وانووا إسقاط مضاف ، أى عبداللاّه مريم معبود بحق . وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله ، فقولها أكراها . وانوا بالاضافة للملك كبيت الله لايلزم أن يسكنه أو يحل به ، وإن قالوا : مريم زوجة له . فانووا بالضميرا ابن عمتها الذى تزوّجها في بنى إسرائيل ثم فارقها قبل البناء . قاله السهيلي في تفسير

المبهم من الرجال في القرآن ، أو زوّجها الله منه بقضائه وقدره . وإن قالو عيسى توفي بالصلب ، فانووا بالتوفية والكمال والتشريف من هذه ، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره ، وأظهار الثناء عليه بين الناس ، وأنهّ استوفاه الله برفعه إلى العلوّ ، وما يعسر عليكم فابعثوا (F. 4-1) فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به ، وانا أسال الله أن يديل الكره الأسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة ، بـل بصدمة الترك الكرام . ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به . ولابدّ من جوابكم والسلام عليكـم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة ، عرف الله خيره » .

« يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى » (١٩) .

ومن ثمّ فقد لبث الموريسكيون . شغلاً شاغلاً للكنيسة وللسياسة الأسبانية ، فهم عنصر بغيض في المجتمع الاسباني ، وهـم خطر على الدونة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من رِدّتهم ما زالوا خونة مارقين ، وما زالوا أعـداء للدين في سريرتهم . وكان يذكى هـذا البغـض والتحامـل ضد الموريسـكيين كل تذمر من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة في مفاوز البشرّات ، ولما آنست

---

(١٩) نهاية الأندلس (٣٢٥ ـ ٣٢٧) وقد عثر مؤلف الكتاب على هذه الوثيقة خلال بحوثـه في مكتبة الفاتيكان الرسونية بروما ، وهي تقـع ضمن مجموعة خطية من المخطـوطات البورجوانيـة (Bargiani) ، وقـد وصف هذا المخطوط في فهرست مكتبة الفاتيكان (فهرس دلافيدا) بأنه : « المقدمة القرطبية . وفي صفحة عنوانه بأنه : « كتاب نزهة المستمعين وتشغل هذه الوثيقة في المخطوط المشار إليه أربع صفحات (١٣٦ـ١٣٩) ولهذه الوثيقة ترجمة قشتالية ، انظر :

P. Longas : La Vida Religiosa de lea Moriscos (P. 305-307)

السياسة الأسبانية أنّ هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ما زالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ، رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة ، ضدّ هذا الشعب المهيض الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة اخرى . وكانت ثورة البشرات نذير فورة جديدة من هجرة الموريسيكيين إلى ماوراء البحر ، فجازت منهم إلى افريقيا جموع عظيمة ، ولكنّ الكثرة الغالبة منهم بقيت في الوطن القديم ، هدفاً للاضطهاد المنظم ، والقمع الذريع المدنى والدينى ، إلى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف بالأملاك وحمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه يشدّد الوطأة على الموريسكيين . ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وريبه . ويتخذ من اقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفر والزيغ ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل الينا الدون اورنتى مؤرّخ ديوان التحقيق الأسبانى . وثيقة من أغرب الوثائق القضائية . تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدّس أن يأخذ بها العرب المتنصرين . في تهمة الكفر والمروق ، ومنه هذه الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكى أو العربي المتنصر قد عاد إلى الأسلام ، إذا امتدح دين محمد أو قال : إن يسوع المسيح ليس الهاً . وليس إلا رسول ، أو إنّ صفات العذراء أو اسمها لاتناسب أمه . ويجب على كل نصرانىّ أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه ايضاً أن يبلغ عما أذا كان قد رأى أو سمع . بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الأسلامية . ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة . وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل بيوم الجمعة بأن يرتدى ثياب أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلاً بأسم الله . أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها ، أو يرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يختن الاوده .

أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة ، أو يقول : إنه يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن ، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) ، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن . أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الأسلامية ، أو ينشد الأغاني العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن تستعمل النساء الخضاب في ايديهن أو شعورهن ، أو يتبع قواعد محمد الخمس ، أو يملس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أو يغسل الموتى ويكفنهم بأثواب جديدة . أو يدفنهم في أرض بكر ، أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد عند الحاجة ، منعتاً أياه بالنبي ورسول الله أو يقول : إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم يتنصر إيماناً بالدين المقدس ، أو : إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله ، لأنهم ماتوا مسلمين .....الخ» .(٢٠)

كانت هذه الشبه وأمثالها تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم ألى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعي أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة في غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون في غمرة من الجزع الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الأسراف في مطاردة المسلمين والموريسكيين نذير السخط والثورة ، ولكن الثورة . أخمدت ولم تعدل السياسة الأسبانية عن مسلكها . وضاعفت

(٢٠) Don Antonio Loreate : Historia Critica de la Janquisicion de Espana.
وايضاً Dr. Lea : The Moriscos, P. 130 - 131.

محاكم التحقيق إجراءات القمع والتنكيل. وقد اتصل المسلمون في الأندلس بملوك مصر والمغرب والقسطنطينية، يستغيثون بهم ويستصرخونهم، ويطالبونهم بنصرة إخوانهم من ظلم إسبانيا النصرانية وديـوان التحقيق، وكانت اخبار مـا يعانيه المسلمون والعرب المتنصرون في إسبانيا النصرانية شائعة في الأقطار الأسلامية وفي غيرهـا، من دون أن يمد الحكام المسلمون العون لمسلمي الأندلس وللعرب المتنصرين، كأنّ الأمر لا يعنيهم من بعيد ولا قريب.

وقـد كتب المسلمون الاندلسيون رسائـل الى حكام المسلمين، فكانـت السياسة الأسبانية تتخذ من هذه الرسائل التى يوجهها العرب المتنصرون والمسلمون الى أخوانهم المسلمين في ما وراء البحر، كلما تفاقمت آلامهم ومحنتهم وازداد الضغط عليهم، ذريعة للاشتداد في مطاردتهم وعدهم خطراً على سلامة الدولة لأنهم يأتمرون بها مع ملوك الدولة الأسلامية أعداء اسبانيا النصرانية (٢١).

٤- ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين

أ- لبث الموريسكيون في عهد فرديناند الخامس (الكاثوليكى) زهاء عشرين عاماً، يتراوحون بين الرجاء واليأس، ويرزحمون تحت وطأة المطاردة المنظمة. وكان هذا الشعب المهيض الذى تنصر قسراً، والذى انكرته مع ذلك إسـبانيـا سيدته الجديدة، وأنكرته الكنيسة التى عملت على تنصيره، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديـدة، وأن يتقبل مصيره المنكود بـإبـاء وجلد. ولكن إسبانيا النصرانية، لبثت ترى في هذه البقية الباقية من الأمة الأندلسية، عدوها القديم الخالد، وتتصوّر أنّ هذا المجتمع المهيض الأعـزل الذي أحكمت أغلالها في عنقه ما يزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنينتها، ومن ثم كان هذا الأمعان في مطاردته وإرهاقه، بمختلف الفروض والقيود والمغانم، وفي

---

(٢١) نهاية الأندلس (٣١١-٣٣١). انظر: Predcott, G. T. Zurita (Bnales); ibid; P. 69 7 (notc).

انتهاك عواطفه وحياته ، وفي تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الاستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

توفي فرديناند الكاثوليكي في (١٣ كانون الثاني – يناير ١٥١٦ م) بعد أن عانت بقية الأمة الأندلسية من غدره وعسفه ما عانت، وكانت زوجته الملكة إيزابيلا قد سبقته إلى القبر قبل ذلك بأحد عشر عاماً ، في (٢٦ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٥٠٤ م) ، ودفنت تحقيقاً لرغبتها في غرناطة ، في ديــر ســان فرانسيسكو القائم فوق هضبة الحمراء ، ودفن فرديناند الى جانب زوجته بالحمراء تحقيقاً لوصيته ، ثم نقل رفاتهما في ما بعد إلى كنيسة غرناطه العظمى ، التي أقيمت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع في عهد حفيدهما الأمبراطور شالكان : وأقيم لهما فيها ضريح رخامي فخم ، ما يزال حتى اليوم في مقدمة مزارات غرناطة النصرانية . وفي دفن مستبعدي غرناطة الأسلامية في حرم غرناطة القديم ، مغزى خاص ينطوي على تنويه ظاهر بظفر إسبانيا ، وظفر النصرانية على الأسلام .

وقد كان الغدر والرياء ، أبرز صفات هذا الملك العظيم المظفر !! الذي أتيح له القضاء على دولة الأسلام بالاندلس . وقد نوه بهذه الصفة الذميمة أكابر المؤرخين المعاصرين واللاحـــقين ، ومنهم المؤرخـــون القشتاليون أنفسهم (٢٢) . فمثلاً يقول المؤرخ ثوريتا (Zurita) وهو من أكابر المؤرخين الأسبان في القرن السادس عشر في وصفه : « وكان مشهوراً ، لابين الأجانب فقط ، ولكن بين مواطنيه أيضاً ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يراعي عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص على كل ما هو عدل وحق » (٢٢) . ويقول معاصره مكيافيللي فيه : « إن فرديناند الأرغوني غزا غرناطة في بداية حكمه ،

(٢٢) Don-Antonio-Loreate -: Historis Critica de lr Janquision de Espana.
Dr. Ler : The Moriscos, 130-131.

وكان هذا المشروع دعامة سلطانه . وقد استطاع بدال الكنيسة والشعب أن يمدّ جيوشه ، وأن يضع بهذه الحرب أسس البراعة العسكرية التي امتاز بها بعد ذلك ، وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم ، وقد كرّس نفسه بقسوة تسترها التقوى لأخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية ، ثمّ هبط إلى إيطاليا ، ثم هاجم فرنسا ... » (٢٣) . وكانت سياسة فرديناند الكاثوليكي مثال الغدر المثير في جميع ما اتخذه نحو معاملة المسلمين عقب تسليم غرناطة ، وما تلاه من حوادث تنصيرهم قسراً ، ثم اضطهادهم : ومطاردهم بأقسى الوسائل ، وأشدّها إيلاماً لمشاريعهم وأرواحهم .

فلما توفي فرديناند ، وخلفه حفيده شارل أو كاراوس الخامس الأمبراطور (شارلكان) بعد مدة قصيرة من وصاية الكاردينال خمنيس على العرش تنفس الموريسكيون الصعداء ، وهبت عليهم ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد في الواقع شيئاً من اللين والتسامح نحو المسلمين والموريسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال في مطاردتهم ، وكفت عن التعرّض لهم في أراغون بسعي النبلاء والسادة الذين يعمل المسلمون في ضياعهم . ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية في البلاط وفي الكنيسة ، فغلبت كلمتها ؛ وصدر مرسوم جديد في (١٢ آذار - مارس سنة ١٥٢٤) يحتم تنصير كلّ مسلم بقي على دينه ، وإخراج كلّ من أبى النصرانية من إسبانيا ، وأن يعاقب كلّ مسلم أبى التنصير أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرقّ مدى الحياة ، وأن تقلب جميع المساجد الباقية إلى كنائس .

عندئذ استغاث المسلمون بالأمبراطور والتمسوا عدله وحمايته ، على يد وفد منهم بعثوه إلى مدريد ؛ ليشرح للمليك ظلامتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦ م) ،

. Machia Velli : The Priac (Eueryman), P. 177-178 (٢٣)

فندب الأمبراطور محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق برئاسة المحقق العام ، لتنظر في ظلامة المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذي وقع على المسلمين بالأكراه ، يعتبر صحيحاً ملزما ، بمعنى يحتم عقاب المخالف بالموت أم يطبق عليهم القرار الجديد كمسلمين . وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ن التنصير الذي وقع على المسلمين لاتشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء ما هو شر منه ، فكانوا في ذلك أحراراً في قبوله . ويعلق المؤرخ الغربي النصراني على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذي فرضه القوي على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لأرادة معارضة أن تزيلها » (٢٤) . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكي بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصروا كرهاً ، على البقاء في إسبانيا ، باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فأذا ارتدوا عن النصرانية ، قضي عليهم بالموت والمصادرة ؛ وقضى الأمر في الوقت نفسه أن تحول جميع المساجد الباقية في الحال إلى كنائس . فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع وما لبثت الثورة أن نشبت في معظم الأنحاء التي يقطنها المسلمون ، في سرقسطة وفي منطقة بلنسية وغيرهما ، وأخمدت هذه الثورات المحلية الضئيلة تباعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر ، ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ سبعة وعشرين ألف أسرة (٢٥) ، وكان وقوعها على البحر ، يمهد للمسلمين سبل الأتصال بأخوانهم في المغرب ؛ ومن ثم فقد كانت دائماً في طليعة المناطق الثائرة ، وكانت الحكومة الأسبانية تنظر إليها

(٢٤) راجع تاريخ De Marles الذي وضعها بالاقتباس من تاريخ كوندي :
Domination des Arabes Espogne; V.III. P. 389.
Hist de la

(٢٥) Lorenli; ibid

باهتمام خاص ، فلما فرض التنصير العام ، أبدى المسلمون في بلنسية مقاومة عنيفة ، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بني وزير Benaguacil) واضطرت الحكومة أن تجرّد عليهم قوّة كبيرة مزوّدة بالمدافع ، وأرغم المسلمون في النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الأمبراطور إعلان الأمان على أن ينصّروا وعدّلت عقوبة الرق إلى الغرامة (٢٦) . وفي باقي ولاية أراغون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من الخراب ، إذا اضطهد المسلمون ومزّقوا ، كما حدث في بلنسية ، فأوضحوا للأمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدّوا له أنّ المسلمين في أراغون جماعة عاملة هادئة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أو سياسية ومعظمهم زراع في أراضي الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فأخراجهم من أراغون خسارة فادحة . ولا داعي لأرغامهم على التنصر ، لأنّ ذلك لا يعني إخلاصهم للدين الجديد ، ومن الخير أن يتركوا في سلام ؛ ولكن مساعي السادة والنبلاء في هذا السبيل ذهبت عبثاً ، وأصرّ الأمبراطور على أن يطبّق التشريع الجديد على جميع مسلمي أراغون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق ، أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وبذلك تم تنصيرهم جميعاً (سنة ١٥٢ م) . وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلي والأحجار الكريمة ، وحتم على كلّ مسلم بتي على دينه أن يحمل شارة زرقاء في قبعته ، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً ، وإلاّ عوقب المخالفون بالجلد ، وأمروا أن يسجدوا في الشوارع متى مرّ كبير الأحبار . وفي بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضي الأسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يبقوهم في ضياعهم ، وإلاّ عوقبوا بالغرامة الفادحة . فعاد المسلمون

---

(٢٦) Dr. Lea : The Moriscos; P. 91 - 92

في بلنسية إلى الثورة، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت وتقدّم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثّل في البلاط ، يعرضون الدخول في النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا يمتد اليهم قضاء ديوان التحقيق مدى أربعين عاماً ، لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية ، وبعض حقوقهم في الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن ينفق على مَن كان منهم من الفقهاء من دخل الأراضي التي وقفها المسلمون لأغراض البر ، ويرصد الباقي لأنشاء الكنائس الجديدة، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب(٢٧) . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبقَ عليهم سائر الأوامر ،التي طبقت على الموريسكيين في غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الأمتيازات في ما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب . وكانت هذه المنح أفضل ما يمكن نيله في هذه الظروف ، فأقبل المسلمون في منطقة بلنسية على التنصر أفواجاً ، ماعدا أقلية صغيرة آثرت المضي في المقاومة ، مزقها جند الأمبراطور بعد حين قليل ، والفت محاكم التحقيق غير بعيد ، في مجتمع الموريسكيين في بلنسية ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون في غرناطة حذو إخوانهم في بلنسية ، فسعوا لدى البلاط في تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التي فرضت عليهم ، وانتهزوا فرصه زيارة الأمبراطور لغرناطة سنة (١٥٢٦ م) ، فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم هم : الدون فرديناند بنجاس ، والدون ميشيل دراجون ، وديجو لويز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلامتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والأرهاق المستمر ، ولا سيما من أعمال

---

(٢٧) P . Longa ; vida Religisa de Los Moriscos, P. XLII

القسس والقضاء الديني ، فندب الأمبراطور لجنة محلية للتحقيق في أمر الموريسكيين في سائر أنحاء غرناطة ، ثمّ عرضت نتائج بحثها على مجلس دينيّ قرّر ما يأتي : أن يترك الموريسكيون استعمال لغتهم العربية وثيابهم القومية ، وأن يتركوا استعمال الحمامات ، وأن تفتح منازلهم أيـــام الحفلات وأيام الجمـــع والسبت ، وألاّ يقيموا رسوم المسلمين أيام الحفلات ، وألا يتسموا بأســـماء عربية ، ولكـــنّ تنفيذ هذه القررات أرجىء بأمر الأمبراطور ؛ ثم أعيد إصدارها ، ثم أرجىء تنفيذها مرة أخرى .

وصدرت عدّة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين في ما تقدّم من الذنوب ، فأذا عادوا طبّقت عليهم أشدّ القوانيـــن والفروض ، فأذعن الموريسكيون لكلّ ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الأمبراطور بمبالغ طائلة من المـــال ، حتى ارتداء ملابسهم القومية ، وحتّ الأعفاء من المطاردة إذا اتهموا بالردّة (٢٨) .

وكان الأمبراطور شارلكان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قـــد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى في الحقوق والواجبات ، ولكنّ هذه المساواة لم تحقق قط ، وشعر العرب المتنصرون منذ الساعة الأولى ، أنهم ما زالوا موضع الرّيب الاضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئاً ، وتترى ضدهم السعايات والأتهامات ، وقد غدوا في الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار . ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبـــة ، صدر قرار في سنة (١٥٤١ م) يحرم عليهم تغيير مساكنهم . كما حرّم عليهم التروح إلى بلنسية ، التي كانت دائماً طريقهم المفضّل إلى ركوب البحر ، ثـــمّ

(٢٨) Dr. Lea The Moriscos; P. 214-215, P. Longas, ibid, P. XLIII.

صدر قرار بمنع الهجرة من أي الثغور إلاّ بترخيص ملكيّ نظير رسم فادح . وكانت السياسة الأسبانية تخشى اتصال الموريسكيين بمسلمي الغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر دائماً على حركة الهجرة ، ويعمل على قمعها بمنتهى الشدّة ، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتي من سفراء إسبانيا في البندقية وغيرها من الثغور الأيطالية ، بأنّ كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرّون بها في طريقهم إلى إفريقية والعالم الاسلامي (٢٩) .

وخلال هذا الاضطهاد الغامر ، كانت السياسة الأسبانية في بعض الأحيان تجنح إلى شيء من الرِّفق ، فنرى الأمبراطور في سنة (١٥٤٣ م) يبلّغ « المحققين العامين » : بأنه تحقيقاً لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام ، قد أصدر عفوه عن المسلمين المتنصرّين من أهل « مدينة ولكامبو » و « أريفالو » في ما ارتكبوه من ذنوب الكفر والمروق ، وأنه يكتفي بأن يطلب إليهم الاعتراف بذنوبهم أمام الديوان « ديوان التحقيق » ، ثمّ تردّ إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التي أخذت منهم إلى الأحياء منهم ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من النصارى الخلص، ولا تصادر المهور التي دفعوها الى الخزينة بسبب الذنوب التي ارتكبوها، بل تبقى هذه المهور للاولاد الذين يولدون من هذا الزواج ، وأن يتمتّع بهذا الأمتياز النصرانيات الخلص اللاتي يتزوّجن من الموريسكيين ، بالنسبة للأملاك التي يقدّمها الأزواج الموريسكيون برسم الزواج أو الميراث (٣٠) . وهكذا لبثت السياسة الأسبانية أيام الأمبراطور شارلكان (١٥١٦ م – ١٥٥٥ م) إزاء الموريسكيين تتردّد بين الأقدام والأحجام واللين والشدّة بيد أنها على العموم كانت أقلّ عسفاً وأكثر اعتدالاً ، منها أيام فرديناند وايزابيلا ، وفي عهده نال

---

(٢٩) Dr. Lea : ibid; P. 187 - 189

(٣٠) Arch gon de simancas; P. R. Leg 28 Fol 49.

الموريسكيون كثيراً من ضروب الأعفاء والتسامح الرفيقة نوعاً ؛ ولكنهم لبثوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضه للارهاق والمطاردة . وابثت محاكم التحقيق تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضّل .

ب . على أنّ هذه السياسة المعتدلة نوعاً ، لم يتح لها الاستمرار في عهد ولده وخلفه فيليب الثاني (١٥٥٥ هـ – ١٥٩٨ م) . وكان التنصير قد عمّ الموريسكيين يومئذٍ ، وغاضت منهم كلّ مظاهر الأسلام والعروبة ، ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لا يزال يجثم في قرارة هذه النفوس الأبية الكليمة . ولم تنجح إسبانيا النصرانية بسياستها البربرية في اكتساب شيء من ولائها المغصوب . وكان الموريسكيون يحتشدون جماعات كبيرة وصغيرة في غرناطة وفي بسائطها ، وفي منطقة البشرّات الجبلية ، تتوسطها الحاميات الأسبانية والكنائس . لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص في الزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ما كانت ترقبه السلطات الأسبانية دائماً بكثير من الحذر والريب . وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، ما زالت تربط هذا الشعب الذي زادته المحن والخطوب اتحاداً ، وتعلقاً بتراثه القومي والروحيّ ، وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذي لم تنجح تعاليمها في النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثاني ألفت فرصتها في إذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب . التي خبت نوعاً في عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصّب جداً في قرارة نفسه ، يخضع لوحي الأحبار والكنيسة . ويرى في الموريسكيين ما تصوّره الكنيسة والسياسة الرجعية : عنصراً بغيضاً خطراً دخيلاً على المجتمع الأسباني ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوّئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين

في طائفة من القوانين والفروض المرهقة . وكانت مسألة السلاح في مقدمة المسائل التي كانت موضع الاهتمام والتشدّد . وقد عنيت السياسة الأسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرديناند إجراءات لينة نوعا ؛ فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلي كالسكين ، وغيرها وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكنّ الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح، فأخذت تشدّد في الترخيص ، وجُرِّد المسلمون في بلنسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينما اذعنوا للتنصير : إنهم سيعاملون كالنصارى في سائر الحقوق والواجبات ويردّ لهم سلاحهم ولكنّ الحكومة لم تفِ بعهدها . وفي سنة (١٥٤٥ م) صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفّذ بشيء من اللّين . وفي سنة (١٥٦٣ م) في عهد فيليب الثاني ، صدر قانون جديد بحرّم حمل السّلاح على الموريسكيين إلاّ بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدّة ، فأثار صدوره سخط الموريسكيين ؛ وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم في محلاّتهم المنعزلة النائية .

بيد أنّ قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون آقسى وأشدّ إيلاما ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية . وارتداء الثياب العربية ؛ على الموريسكيين . وقد أبثت اللغة والتقاليد العربيـة في الواقع للموريسكيين ، من أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوّتهم المعنوية ومن ثمّ كانت عناية السياسة الأسبانية . بالعمل على محوهـا بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التي تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومي . وقد فكر بعض أحبار الكنيسة ، أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكي يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ؛ والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثاني لم يوافق على هذا الرأي ، وآثر أن يتعلم القشتالية أبنـاء الموريسكيين منذ طفولتهم ؛ وكانت السياسة الأسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها

منذ عهد الأمبراطور شارلكان فصدر في سنة (١٥٢٦ م) قانون يحرّم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية وارتداء الثياب العربية ، واستعمال الحمامات . وإقامة الحفلات على الطريقة الأسلامية . ولكنه لم ينفذ بشدّة ، والتمس الموريسكيون في بلنسية وغرناطة وقف تنفيذه أربعين عاماً ، يحتفظون خلالها بلغتهم وثيابهم القومية ، وقرنوا ملتمسهم بمطالب أخرى تتعلق بتطبيق شريعتهم وتقاليدهم ، وتخفيف الضرائب عن كاهلهم ، وبالرغم من أنّ مطالبهم لم تُجب يومئذ كلها ، فان قانون تحريم اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة . أرجئ تنفيذه مرة أخرى ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية نظير تلك الضريبة المعينة ، واستمرّ هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثاني وكان يجمع من هذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثاني . كان ملكاً شديد التعصب ، كثير التأثر بنفوذ الأحبار ، وكانت الكنيسة ترى أنّ بقاء اللغة العربية من أشد العوامل لمنع تغلغل النصرانية في نفوس الموريسكيين ، وأنه لا بدّ من القضاء على ذلك الحاجز الصخري الذي تتحطم عليه جهود الكنيسة ؛ وكانت قد مضت فوق ذلك أربعون عاماً مذ صدر قانون التحريم في عهد الأمبراطور شارلكان ، ولم يبق للموريسكيين في ذلك حجة ولا ملتمس . وانتهت الكنيسة كالعادة بأقناع الملك بصواب رأيها ، فلم يلبث أن استجاب لتحريضها ، وأمر في (أيار مايو سنة ١٥٦٦ م) بأن يجدّد القانون القديم بتحريم الثياب العربية واللغة العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسدّد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجيّ الذي لم يسمح بصدور مثله في تاريخ المجتمعات المتمدنة . ويقضي هذا القانون . بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية . ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ العربيه أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أوعقود تجري بالعربية تكون باطلة ولا يُعتدّ بها لدى القضاء أو غيره . ويجب أن تُسلم

الكتب العربية ، من أية مادة ، في ظرف ثلاثين يوماً إلى رئيس المجلس الملكي في غرناطة ، لتفحص وتقرأ ، ثم يرد غير الممنوع منها إلى أصحابها لتحفظ لديهم مدى الأعوام الثلاثة فقط . وأما الثياب ، فيمنع أن يصنع منها كل جديد وأي جديد مما كان يستعمل أيام المسلمين ، ولا يصنع منها إلا ما كان مطابقاً لأزياء النصارى : وحتى لا يتلف منها ما كان من زي المسلمين ، فأنه يسمح بارتداء الثياب الحريرية منها لمدة عام ، والصوفية لمدة عامين ، ثم لا يسمح باستعمالها بعد ذلك . ويحظر التحجب على النساء الموريسكيات ، وعليهن أن يكشفن وجوههن ، وأن يرتدين عند خروجهن المعاطف والقبعات على نحو ما تفعل النساء الموريسكيات في أراغون . ويحظر في الحفلات إجراء أية رسوم إسلامية ، ويجب أن يجري كل ما فيها طبقاً لعرف الكنيسة وعرف النصارى ، ويجب أن تفتح المنازل أثناء الاحتفال ، وفي أيام الجمعة وأيام الأعياد : ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع في داخلها من المظاهر والرسوم المحرمة . ويحرم إنشاد الأغاني القومية : ولا يشهر الزمر (الرقص العربي) أو ليالي الطرب بالآلات أو غيرها من العوائد الموريسكية ، ويحرم الخضاب بالحناء . ولا يسمح بالاستحمام في الحمامات : ويجب أن تهدم جميع الحمامات العامة والخاصة . ويحرم استعمال الأسماء والألقاب العربية : ومن يحملها يجب عليه المبادرة بتركها . ويجب أخيراً على الموريسكيين الذين يستخدمون العبيد السود : أن يقدموا رخصهم باستخدامهم للنظر في ما إذا كان حرياً بأن يسمح لهم باستبقائهم (٣١) .

هذه هي نصوص ذلك القانون الهمجي الذي أريد به تسديد الضربة القاضية لبقايا الأمة الأندلسية ، وذلك لتجريدها من مقوماتها القومية الأخيرة .

---

(٣١) Marmol; ibid; 11 Cop VI ، وانظر ايضاً :
P. Lognas; ibid; P. XLV-XLVI

وقد فرضت على المخالفين عقوبات فادحه ، تختلف من السجن إلى النفي والأعدام ، وكان احراز الكتب والأوراق العربية ولا سيما القرآن الكريم ، يعتبر في نظر السلطات من اقوى الأدلة على الردّه ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

وأعلن هذا القانون المروع في غرناطة في يوم (أول كانون الثاني – يناير سنة ١٥٦٧ م) ، وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً لها تحتفل به في كلّ عام ، وأمر ديسا رئيس المجلس الملكي بأذاعته في غرناطة ، وسائر انحاء مملكتها القديمة ، وتولى اذاعته موكب من القضاة شق المدينة ، ومن حوله الطبل والزمر ، وعلّق في ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، وفي سائر ميادينها الأخرى ، وفي ربض البيازين ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأساً .
وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدّة ، فحطمت الحمامات تباعاً . واجتمع زعماء الموريسكيين تباحثوا في ما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لألغاء هذا القانون ، أو على الأقل لتخفيف وطأته ، ورفعوا احتجاجهم أولا إلى الرئيس ديسا عن يد رئيس جماعتهم مولاى فرنسيسكو نونيز ، فخاطب الرئيس ديسا ، وبيّن له ما في القانون من شدّة وتناقض ، وخرق للعهود ، وطلب إرجاء تنفيذه . وحمل رسالتهم إلى فيليب الثاني ، وإلى وزيره الطاغية الكاردينال أسبنوسا ، اسباني نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس . وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التي اتبعت لأبادته . وسار معه إلى مدريد اثنان من أكابرهم هما : خوان هرنانديث من اعيان غرناطة . وهرناندو الحبقي من اعيان وادى آش ، والتمس الوفد إلى الملك إرجاء تنفيذ القانون ، كما حدث ايام أبيه ، وبعث الدون هنريكس بمذكرة إلى جميع أعضاء المجلس الملك يبين فيها ما يترتب على تنفيذ القانون . وأنه أصبح أمراً واقعا . وكذا عرض المركيز دى مونديخار حاكم

غرناطة على الملك اعتراض الموريسكيين واوضح له خطورة الموقف ، وأن اليأس قد يدفعهم إلى الثورة ، وأنّ الترك قد أصبحوا في شواطئ المغرب على مقربة من إسبانيا ، وأنّ الموريسكيين شعب عدو لايدين بالولاء ، فلم تفد هذه الاعتراضات شيئاً ، وقيل إن الموريسكيين شعب جبان ، ولاسلاح لديه ولا حصون وهكذا حملت سياسة العنف والتعصّب في طريقها كل شئ ، ونفذت الأحكام الجديدة في المواعيد التى حددت لها ، ولم تبد السلطات في تنفيذها أىّ رفق أو مهادنة (٣٢) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين في بلنيسية ، وكان زعيمهم كبير أشرافهم كوزمن بن عامر من المقربين إلى البلاط ، فسعى للتخفيف عنهم وكللت مساعيه بالنجاح في بعض النواحى . وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق في حالة اتهامهم بالردة . ولا تنزع املاكهم بتهمة المروق ، وذلك على ان يدفعوا إتاوة سنوية قدرها الفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق . (٣٣)

واما في غرناطة ، فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن انفسهم إزاء هذا العسف المضني : أو الموت قبل ان تنطفئ في قلوبهم و ضمائرهم آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتها بالماضى المجيد والتراث العزيز ، وكانت نفوسهم ما تزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس : وكان يرون في المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ، ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى إلغاء هذا القانون الهمجيّ

---

(٣٢) Marmol; ibid 11 Cop وانظر :
Preocott : Pailip 11 of Spain; V.III. P. 12-89 ، وانظر
Dr. Lea : The Morisco ; P. 150-151 and 230-240

(٣٣) Dr. Lea: ibid. P, 126

أو تخفيفه . وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين وإسبانيا النصرانية ، ومن المؤسف أنه لم تذكر المصادر العربية عن هذا المرحلة شيئاً ، فهي تقف عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط غرناطة ، فلا بد من الرجوع إلى المصادر النصرانية حول ذلك .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يزكيه السخط العميق ، فعوّلوا على الثورة ، مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المعنوي الهائل ، ونبتت فكرة الثورة في غرناطة أولاً حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد في ضاحية البيازين . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكي يدعى : فرج بن فرج ، وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية ، كان رجلاً جرئياً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى . ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ، ولا غرر فقد كان ينتسب إلى بني سراج ، وهم كما رأينا من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الاسلامية . وكان ابن فرج كثير التردّد على أنحاء البشرّات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوّة كبيرة منهم ، تزحف سراً إلى غرناطة . وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثمّ تفاجئ حامية الحمراء وتسحقها وتستولي على المدينة . وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدّس » ، من شهر نيسان – أبريل سنة (١٥٦٨ م) إذ ينشغل النصارى يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكنّ أنباء هذا المشروع الخطير تسرّبت إلى السلطات منذ البداية ، فاتخذت الاحتياطات اللازمة ، وعزّزت حامية غرناطة وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكون إزاء هذه الأهمية أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى .

ووضع أديب من زعماء الثورة ، يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ، قصيدة ملتهبة ، يصف فيها آلام بني وطنه ، ويستمدّ فيها الغوث والعون

من الله ونبيه عليه الصلاة والسلام ، فضبطت معه في ثغر أدرة ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وهذه هي ملخص مـا ورد في تلك القصيدة التي تعتبر صرخة أمـم أخيرة لشعب شهيد : « تفتتح القصيدة بحمـد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس والأشياء لحكمه ، ثم يقول : استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة ، وهي تلك الأمة العظيمة التي غدت اليوم ضعيفة مهيضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعي لهم . وفي كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى . وقد حكموا فينا يهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام ، وفي كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع وانتقامات جـديـدة .

« ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهي مسخ للواحد القهار ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام . وإذا ما قرع الناقوس ، ألقـى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنـى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولا خجل . . .

« ومن عبدالله بلغته قضي عليـه بالهلاك ، ومن ضبط أُلقي إلى السجن عُذّب ليل نهار ، حتى يرضخ لباطلهم » .

ثم يصف وسائل إرهاقهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدى عن الحي والميت والكبير والصغير ، والغني والفقير وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ولا يفلت من ظلمهم كائن . وكيف يلقى بهم في السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب . وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد . وكيف تكدس المظالم على رؤوسهم تكديسا ويسومهم الخسف أصاغر النصارى وكل منهم يفتن في ضروب الاضطهاد :

ثم يقول : « ولقد علّقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) في ميدان باب البنود . قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس في نومهم ، ويفتحون كلّ باب ، يزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ، ويمزّقون الثياب ، ويحطمون الحمامات .

« ونحن إذ نيأس من عدل الأنسان ، نستغيث بالنبيّ (عليه الصلاة والسلام) : معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصّلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذي يرحمنا في نهاية الأمر » (٣٤) .

وضبط في الوقت نفسه مع ابن داوود خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى زعماء المغرب ورؤسائهم وإخوانهم في الدين . وكان هذا الكتاب واحداً من كتب عديدة وجهت خفية إلى أمراء الثغور في المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فحمل الكتاب إلى حاكم غرناطة ، وفيه يناشد كاتبه إخوانه بالمغرب ، ويستحلفهم الغوث بحق روابط الدين والدم ، ويصف ما قرره النصارى من إرغامهم على ترك اللغة ، وتركها فقد للشريعة ، وكشف الوجوه الحيية المحتشمة ، وفتح الأبواب ، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك ، ويطلب اليهم أن يبلغوا استغاثتهم إلى سلطان المشرق قاهر أعدائه ، ثم يقول : « لقد غمرتنا الهموم ؛ واعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة . إنّ مصائبنا لأعظم من أن تحتمل ، ولقد كتبنا لكم في ليال تفيض بالعذاب والدّمع ، وفي قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية من الأمل في أعماق الروح المعذّب » (٣٥) .

---

(٣٤) أورد مارمول ترجمة قشتالية كاملة لهذه القصيدة ، والترجمة للاستاذ محمد عبدالله عنان نقلاً عن : نهاية الأندلس (٣٤٥ – ٣٤٦) ، انظر :
Marmol; ibid; III. Cap IX

(٣٥) أورد مارمول ترجمة قشتالية كاملة ، انظر :
Marmol, ibid, III, Cap. IX.

ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية ، فلم يلبّ داعي الغوث سوى جماعة من المتطوعين ، الذين نفذوا سراً الى إخوانهم في البشرّات ، ومنهم كثير من البحارة المجاهدين ، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الأسبانية في ذلك العصر .

واستمرّ الموريسكيون على عزمهم وأهبهم ، وأرسلت خطابات عديدة من ابن فرج وزملائه الى مختلف الأنحاء يدعون فيها إخوانهم الى التأهب واخطار سائر إخوانهم . وفي شهر (كانون الأول – ديسمبر ١٥٦٨ م) وقع حادث كان نذير الانفجار ، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الأسبانيين في طريقهم الى غرناطة ، ووثبت جماعة منهم في الوقت نفسه بشرذمة من الجند ، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق ، ومثلت بهم جميعاً . وفي الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ، ونفذ الى المدينة ليلاً ، وحاول تحريض مواطنيه في « البيازين » على نصرته ، ولكنهم أبوا أن يشتركوا في مثل هذه المغامرة الجنونية . ولقد كان موقفهم حرجاً في الواقع ، لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية ، وهم أعيان الطائفة ولهم في غرناطة مصالح عظيمة يخشون عليها من انتقام الأسبان ، بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة ، ويؤيدّونها برعايتهم ونصحهم ومالهم ، فارتد ابن فرج على أعقابه ، واجتاز شعب جبل شلير (سيرا نفادا) إلى الهضاب الجنوبية في ما بين بلنش والمرية ، فلم تمض بضعة أيام ، حتى عمّ ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية في أنحاء البشرات ، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ، ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين في ما بينهم ، ففتكوا بهم ومزّقوهم شر مزّق .

ج . اندلع لهيب الثورة في أنحاء الأندلس ، ودوّت بصيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم ، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت ، وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز مُلْكهم القديم ، فوقع

اختيارهم على فتى من أهل البياز ين يدعى : الدون فرناندو دى كردوبا وفالور (٣٦) وكان هذا الاسم النصراني القشتالي ، يحجب نسبة عربية رفيعة . ذلك أن فرناندو دي فالور كان ينتمي في الواقع إلى بني أمية ، وكان سليل الملوك والخلفاء الذين سطعت في ظلّهم الدولة الأسلامية في الأندلس ، زهاء ثلاثة قرون . وكان فتى في العشرين ، تنوّه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبل طلعته ، وكان قبل انتظامه في سلك الثوّار مستشاراً ببلدية غرناطة ، ذا مال ووجاهة . وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التي انتدب لها ، وكان يضطرم حماسة وجرأة واقداماً ففي الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ، ولجأ إلى شيعته آل فالور في قرية برذنار (Bezdar) فهرعت أليه الوفود والجموع من كلّ ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتويجه في (٢٩ كانون الأول — ديسمبر سنة ١٥٦٨ م) في احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة ، فصلى عليها الأمير متجهاً نحو مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً للخضوع والطاعة ، وأقسم الأمير أن يموت في سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكيّ عربيّ هو : محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة ، واختار عمه المسمى : فرناندو الزغوير (الصغير) واسمه المسلم ابن جوهر قائداً عاماً لجيشه ، وقد كان صاحب الفضل الأكبر في اختياره للرياسة ، وانتخب ابن فرج كبيراً للوزارة : ثم بعثه على رأس بعض قوّاته إلى هضاب البشرّات ، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ، واتخذ مقامه في أعماق الجبال في مواقع منيعة ، وبعث رسله في جميع الأنحاء ، يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم (٣٧) .

(٣٦) كردوبا أي قرطبة ، وفالور قرية غرناطية تقع على مقربة من أجيجر .
(٣٧) Marmol; ibid; IV, Car. VII

ووقعت نقمة الموريسكيين بادئ ذي بدء ، على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم في أنحاء البشرّات ، ولا سيما القسس وعمال الحكومة ، وكان هؤلاء يقيمون في محلات متفرقة سادة قساة ، يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية ، وكان القسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثمّ كانوا ضحايا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى في تلك الأنحاء ومزّقوهم تمزيقا وقتلوا القسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل . وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة ، لم ينج منها حتى الأطفال والنساء والشيوخ . وذاعت انباء المذبحة الهائلة في غرناطة فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً ، وكلّ يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش بهم النصارى انتقاماً لأخوانهم ومواطنيهم ، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة بأيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال المروّع . بيد أنّ الرواية القشتالية تصف هنا محمد بن أمية فتقول : إنه لم يحرّض على هذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد ثار لها ، وحاول أن يحول دون وقوعها . وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فنزل راضياً واندمج في صفوف المجاهدين ، وهنا يختفي ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث من جديد (٣٨)

د . وكانت غرناطة في أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المركيز منديخار يتخذ الأهبة اتمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن

---

(٣٨) Prescott: Philip 11; V.III. Ch. 11. ، وكذلك Dr. Lea: The Moriscos; P. 237

يقدّر مدى الأنفجار الحقيقي . فغصّت غرناطة بالجند ، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، برغم احتجاجهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم . وخرج منديخار من غرناطة بقواته ، في (٢ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٥٦٩ م) تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تنديايا ، وعبر جبل شلير (سيرا نفادا) وسارتوا ألى أعماق البشرات ، حيث يحتشد جيش الثوار . وكانت الثورة الموريسكية في تلك الأثناء ، قد عمت أنحاء البشرات الشرقية والجنوبية واضطرمت في أجيجر وبرجة وأدرة وأندرش ودلاية وأوشار ومرشانة وشلوبانية وغيرها من البلاد والقرى ، واستطاع الموريسكيون أن يتغلبوا بسهولة على معظم الحاميات الأسبانية المتفرقة في تلك الأنحاء ، بل لقد سرت الثورة إلى أطراف مملكة غرناطة القديمة ، حيث اندلع لهيبها في وادي المنصور وفي قراه ودساكره ، ولم يتخلف عن المشاركة في الثورة سوى رندة ومربلة ومالقة ، وكانت بها حاميات إسبانية قوية ، ونشبت الثورة في معظم أنحاء المرية ، وهكذا عمت الثورة الموريسكية معظم أنحاء الاندلس ، واشتد الأمر بنوع خاص في بسطة ووادي آش والمرية (٣٩) .

وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته في أكام بوكيرا الوعرة ، وكان الموريسكيون برغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها ، فما كاد الأسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريسكيون على أثرها إلى سهول بطرنة ، وتخلف كثيرون منهم ولا سيما النساء ، ففتك الأسبان بهم فتكاً ذريعاً . وحاول منديخار أن

---

(٣٩) Marmol; ibid, IV, Cap XXXVI.

يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة : وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم . وكتب الدون ألونسو فنيجاس (بنيغش) سليل الأسرة الغرناطية القديمة إلى محمد بن أمية يعاتبه ، وأنه قد جانب العقل والحزم في القيام بهذه الحركة التي تعرضه وتعرض أمته للهلاك ، وينصحه بالتوبة والتماس العفو . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، تبودلت بالفعل المكاتبة بينه وبين المركيز دي منديخار في أمر التسليم ولكن المتطرفين من أنصاره ولا سيما المتطوعين المغاربة رفضوا الصلح ، فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الأسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وأعلن المركيزدي منديخار أن الأسرى الموريسكيين يعتبرون رقيقاً . وفر محمد بن أمية ؛ وأسرت أمه وزوجه وأخواته ؛ وأصيب الأسبان بهزيمة شديدة في آكام « واخاريس » ، وقتل منهم مائة وخمسون جندياً مع ضباطهم ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الأسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى « الزمار » أسره الأسبان مع ابنته الصغيرة وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً ، إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاؤه ، وهكذا كانت أساليب الأسبان النصارى ومحاكم التحقيق إزاء العرب المتنصرين

واختفى محمد بن أمية مدى حيناً في منزل قريبه « ابن عبو » ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الأسبان من دون أن يظفروا به : على أن هذه الهزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا في شرق البشرات في جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون المرية ، فسار إليهم المركيز « لوس فيليس » على رأس

جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدّة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزّق الموريسكيون ، وقتل الأسبان كعادتهم الاسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلاً ذريعاً

ووقعت في الوقت نفسه في غرناطة مذبحة مروعة أخرى ، فقد كان في سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة فأذاع الأسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لأنقاذ السجناء ، بمؤازرة مواطنيهم في البيازين وعلى ذلك صدر الأمر بأعدام السجناء ، فانقضّ الجند عليهم وذبحوهم في مناظر مروّعة في سفك الدماء الفظيع .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر في إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأنّ الموت في ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لهب الثورة بأشدّ من قبل ، وطافت بهم صيحة الأنتقام ، فانقضوا على الحاميات الأسبانية المبعثرة من أنحاء البشرّات ومزّقوها تمزيقاً ، وهزموا قوّة إسبانية تصدّت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوئ عرشه الخطر ، والتفّ حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى القسطنطينية يطلب العون من سلطانها ، وأرسل في الوقت نفسه إلى أمير الجزائر وإلى سلطان مراكش الشريفي يطلب الأنجاد والغوث ، ولكن سلاطين القسطنطينية لم يلبوّا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكرارها منذ سقوط غرناطة ، وأرسل أمير الجزائر مشجعاً ومعتذراً عن عدم إمكان إرسال السفن ، ووعد سلطان مراكش بالمساعدة والغوث ، ولكنّ هذا الصريخ المتكرّر من الموريسكيين لم ينتج أثره المنشود ، ولم يلبه غير إخوانهم المجاهدين

في إفريقية ، فقد استطاعت بجموع جريئة مخاطرة ، أن تجوزا لى الشواطئ الأسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع الى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد الجهاد إلى أشده . وخشي الأسبان من احتشاد الموريسكيين في البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم في بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وفُرِّق فيها بين الأبناء والآباء والأزواج والزوجات ، في مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركيز لوس فيلبس في الوقت نفسه الى مقاتلة الموريسكيين ، في سهول المنصورة على مقربة من أراضي مرسية ، ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الأهبة والمؤن ، وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة ، كانتا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة . واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين ، فاستدعي إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة .

وبينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم في هضاب الأندلس وسهولها ، وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع في المعسكر الموريسكي حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة وكانت عوامل الخلاف والحسد ، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطيرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد في نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول : إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل (الوزير) له عشيقة حسناء تسمى : زهرة ، فانتزعها منه محمد قسراً

فحقد عليه وسعى لأهلاكه بمعاونة خليته ، فزوّر على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يحرّضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة في المعسكر الموريسكي ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقرّ ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيده براءته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفي الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، واسمه الموريسكي : ديجولوبيث ، وهو ابن عمّ الملك القتيل ، فتسمى : بمولاي عبدالله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثّر الذي وصفناه . وكان مولاي عبدالله أكثر فطنة وروية وتدبرا ، فحمل الجميع على احترامه ، وشُغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرّباً قوامه زهاء عشرة ، آلاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفي أواخر (تشرين الأول – أكتوبر ١٥٦٩ م) سار مولاي عبدالله بجيشه صوب « أرجية » وهي مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته وهرع الموريسكيون من شرق البشرّات إلى إعلان طاعته ، وامتدّت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة (La Vega) ، وقد كان سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ، وكان فيليب الثاني حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان قائداً عاماً لولاية غرناطة ، ولما رأى الدون خـوان اشتداد ساعد الموريسكيين ، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه في أواخر (أيلول – ديسمبر) على رأس جيشه ، وسار صوب وادي آش ، وحاصر بلدة « جليرا » ، وهي من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهـاء

ثلاثة آلاف موريسكيّ ، منهم فرقة تركية ، فهاجمها الأسبان عدّة مرات وصوبوا اليها نار المدافع بشدّة ، فسقطت بأيديهم بعد معارك هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الأسبان وضباطهم ، ودخلها الأسبان دخول الضواري الكواسر المفترسة ، وقتلوا كلّ مَن فيها من الرجال والأطفال والنساء ، وكانت مذبحة مروّعة (شباط - فبراير - ١٥٧٠ م) ، وتوغل بعد ذلك الدون خوان في شعب الجبال حتى سيرون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هناك قوّة من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى : « الحبقي » تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الأسبان في سيرون ومزّقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرّعب والخلل في صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلاّ بصعوبة ، فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمرّ في سيرة جنوباً حتى وصل إلى أندرش في (أيار - مايو سنة ١٥٧٠ م) .

وهنا رأت الحكومة الأسبانية أن تجنح إلى شيء من اللّين ، خشية عواقب هذا الجهاد الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم « الحبقي » يفاتحه بأمر الصلح ، وصدر أمر ملكيّ بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدّمون خضوعهم في ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدّموا ظلاماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل مَن رفض الخضوع ، ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضي عليه بالموت ، فلم يصغ إلى النداء واحد ، ذلك أنّ الموريسكيين أيقنوا نهائياً أنّ إسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام ، وأنها لا تفي بوعودها ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الأسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين ، يمعنون فيهم قتلاً وأسراً ، وسارت قوّة

بقيادة دون سيزا إلى شمال البشرات ، واشتبكت مع قوات مولاى عبدالله في معارك غير حاسمة . وسارت مفاوضات الصلح في الوقت نفسه عن طريق الحبقي ، وكان مولاي عبدالله قد رأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعا ، والقوة الغاشمة تجتاح في طريقها كل شيء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثين القوة القاهرة .

وتقدم للتوسط بين الثواروبين الدون خوان كبير من أهل وادي آش يدعى : الدون هرناندو دي براداس ، وكانت له صلات طيبة مع الموريسكيين قبل الثورة . وقد انتهت إلينا وثيقة مؤثرة هي عبارة عن خطاب كتبه مولاى عبدالله إلى دون هرناندو هذا يعرض استعداده للصلح والمفاوضة وفيه تبدو لغة الموريسكيين العربية في دور احتضارها ، ويبدو أسلوب اللهجة الغرناطية التي انتهى الموريسكيون إلى التحدث والكتابة بها بعد نحو ثمانين عاماً من الكتب والمطاردة . وإليك ما ورد في هذا الخطاب الذي ربما كان آخر وثيقة عربية عربية عثر بها البحث الحديث :

١ــ الحمد لله وحده قبل الكلم

٢ــ اسلم الكرمو على من اكرمهو الكرمـو سيديا وحبيبي وعزا سرعنديا دن هرنندو دنى نعلم جرمتكم بن

٣ــ اكن انت تقول يجى عند أخيكم وحبيك وتجى مطمن وكل ميجكم فمليا

٤ــ وذيمتى وكن أنت تريد تتزلل فذى المبرك مين سلح كل متعمل تعملو معى دنى

٥- نعمل معلك كل مَترِيد بحق وبِيل غدر وذهرَ لى مين الحبقى ين اشَمِكن بعمـــل .
٦- معلمن وتطلعنى على حق لى ين اشم طلب طلب برحو وينو ويسحبو وبعد رعـــى
٧- ودين انى نعرف بهذا شي وحرمتك أعمل الذى يذهر لكم وعمل ميسُلح بتـــر
٨- وبين وعسى يقذيا الله خير بينبن وتكن حرمتكـــم استَبّبْ فداشى وعملى فعد الكم بل اش
٩- كن معى من يكتب لى يل كينكن كتبت لكم أكثر وسلمـــوا عليكم ورحمتو الله وبركتو الله
١٠- كتِيتيب الكتب يوم التليث فشهر وَبوفعم . . .

(ملاي عبدالله) (٤٠)

وكتب الـــدون الونسودى فينجـــاس (بنيغش) أيضـــاً إلى مـــولاي عبدالله يحثـــه على المسالمـــة ، والتنكـب عن هـــذا الطريق الخـــطر ، وردَ

(٤٠) نشـــر هذا الخطاب وصورته الفوتوغرافية المستشـــرق M. Alacron في مجموعـــة بالأسبانيـــة عنوانها :
Y. Textas Arales (Modrid 1915); P· 691
Misceloneo da Estudios ، وقد وجد هذا الخطاب في مجموعة المخطوطات الشرقية للمركيز بنيافلور Bena Flor ، وتحفـــظ نسختة العربية فيها برقم ٢٤٦ ، وتحفظ ترجمته القشتالية برقم ٢٤٥ ، وقـــد اورد مارمول ترجمته القشتالية في الكتاب التاسع الفصل التاسع . انظر نهاية الاندلس (٣٥٥) .

عليه عبدالله يلقى المسؤلية على اولي الأمر ، وعلى ما أحدثوه من بدع جعلت الحياة مستحيلة على الشعب الموريسكي (٤١) وجرت المفاوضات بين الزعيم الحبقي قائد قوات الثورة ، وبين الدون هرناندو دى براداس ، واتفق في النهاية على أن يتقدم الحبقي إلى الدون خوان بأعلان خضوعه ، وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الأسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت مقامهم . وفي ذات مساء ، سار الحبقي في سرية فرسانه إلى معسكر الدون خوان في أندرش ، وقدم له الخضوع ، وحصل على العفو المنشود

ولكن هذا الصلح لم يرضِ مولاى عبدالله وباقي الزعماء ، لأنهم لمحوا فيه نية إسبانيا النصرانية على نفيهم وترعهم عن أوطانهم ، ففيم كانت الثورة إذن وفيم كان الجهاد ؟! لقد ثار الموريسكيون ، لأن إسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز ، الذي نشأوا في ظلاله الفيحاء . والذي يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف . وأرتاب مولاى عبدالله في موقف الحبقي ، إذ رآه يروج لهذه الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه لمعسكره ناكيلة ، وهناك أعدم سراً .

ووقف الدون خوان على ذلك . بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبدالله ، فأعلن إليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً في تصرفاتهم ، بيد أنه يأبى الخضوع ما بقي فيه عرق ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت

(٤١) Marmol ; ibid ; VIII ; Cap. XXVII

مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه ، على أن يحصل على مُلْك إسبانيا بأسره . والظاهر أنّ مولاى عبدالله ، كانت قد وصلته امدادات من المغرب شدّت من أزه وقوت أمله ، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبدالله أخوه الغالب ليقود الثوّار في تلك الأنحاء ، وثارت الحكومة الأسبانية لهذا التحدي ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت فسار الدون خوان في قوّاته إلى وادي آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقياده ذون ركيصا نص إلى شمالي البترات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الأسبان في طريقهم كلّ شيء ، وأمعنوا في التقتيل والتخريب . وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف في وجه هذا السيل ، فمزّقت تباعاً . وهدم الأسبان الضياع والقرى والمعاقل ، وأتلفت الأحراش والحقول ، حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت الثورة تنهار بسرعة ، وفرّ كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم في إفريقية ، ولم يبق أمام الأسبان سوى مولاى عبدالله وجيشه الصغير . بيد أن مولاي عبدالله ، لبث معتصماً بأعماق الجبال ، يحاذر الظهور أمام هذا السيل (وفي ٢٨ تشرين الأول — اكتوبر سنة ١٥٧٠م) أصدر فيليب الثاني قراراً بنفي الموريسكيين من مملكة غرناطة الى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية ، وترك املاكهم المنقولة يتصرفون فيها ، ويقضي هذا القرار بأن الموريسكيين في غرناطة والفحص ووادى اكرين (الإقليم) وجبال بونتوفير حتى مالقة ، وجبال رندة ومربلة يؤخذون إلى ولاية قرطبة ، ومن هناك يفرقون في أراضي ولايتي استراما دورة وجليقة . والموريسكيين في وادي آش وبسطة ووادي المنصورة يؤخذون إلى و جنجالة والبسيط ثم يفرقون في

أراضي قلعة ربــاح ومونتيــل . والموريسكيين في المريـــة يؤخذون إلى ولاية إشبيلية . ونفذ القانون الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون ، المسالمون من غرناطة وبسطة وواي آش وغيرها ، وسيقوا إلى الكنائس أكداساً يحيط بهم الجند من كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا على النحو المتقدم في مختلف أنحاء قشتالة وليون (٤٢)

ووقعت أثناء تنفيذ هــذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجــال الحكومة في بعض الأنحاء ولاسيما في رنــدة ، إلى نهب المنفيين ، والفتك بالنساء والأطفال ، ولما سمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هــذه الأنباء ، انحدروا إلى الســهل ، وقتلوا كثيراً من الجنــد المثقلين بالغنائــم ، وكان مصير المنفيين مؤلماً ، إذ هلك كثير منهم من المشاق والمرض ، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة ، ونص على وضعهم تحت الرقابة الدائمة ، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم في سجلات خاصة ، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شؤونهم ، وحرّم عليهم أن يغيرو مساكنهم الاّ بتصريح ملكي ، وحرّم عليهم بتاتا أن يسافروا إلى غرناطــة ، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت ، وهكذا شُرّد الموريسكيوّن في مملكة غرناطة أفضع تشريد،وانهار بذلك مجتمعهم القومي المتماسك في الوطن القديم(٤٣) .

ولم يبق إلاّ أن يسحق مولاي عبدالله وجيشه الصغير ، وكان هذاا لامير المنكود يرى قــواه وموارده تذوب بسرعة ، وقد انهار كل أمل في النصر او السّلم الشريف ، بيد أنه ابث مختفياً في أعماق جبال البشرات بيــن آكام برشول وترفليس مع شرذمة من جنده المخلصين ، (وفي مارس– آذار – ١٥٧١ م) كشف بعض الأسرى سرّ مخبئه للاسبان ، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره من

(٤٢) Marmol ; ibid ; X ; Car. VI.

(٤٣) Dr. Lea The Mariscos P. 256-257, 265

بعض المغاير ، وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربيّ من خاصته يدعى جونثالفو (الشنيش) ، وكان الشنيش يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ، وأغدق له الاسباب المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن تردّ إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، اذا استطاع أن يُسلمهم مولاي عبدالله حياً أو ميتاً ، وكان الأغراء قوياً مثيراً ، فدبّر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيّده ، وفي ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه ، فقاوم مولاي عبدالله ماستطاع ، ولكنه سقط اخيراً مثخناً بجروحه ، فألقى الخونة جثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع ، ثم حملها الاسبان الى غرناطه ، وهناك استقبلوها في حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أسندت فيه الجثة إلى بغل ، وعليها ثياب بكامله كأنها انسان حي ، ومن ورائها افواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا بعد مصرع زعيمهم ، ثم حملت الى القطع وأجري فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والنكال ، ومزقت اربعاً ومزقت بعد ذلك في الميدان الكبير ، ووضع الرأس في قفص من الحديد ، رفع فوق سارية في ضاحية المدينة تجاه جبال البشرّات (٤٤) .

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسُحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والجهاد في صدور هذا المجتمع الأبيّ المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروّعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت روح من الرهبة والاستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيض المعذّب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، في ظل العبودية المطلقة الشاملة ، والارهاق المطلق الثقيل حقبة أخرى (٤٥)

(٤٤) Marmol ; ibid, X Cap. VIII

(٤٥) نهاية الأندلس (٣٣٢ ـ ٣٥٩)

الفهرس

الموضــوع | الصفحة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٩٦

مجلة المجمع العلمي



الجزء الاول – المجلد الثالث والاربعون

بغـــداد

١٤١٦هـ = ١٩٩٦م

نهايـــة النهايـــة

١ ـ توجس السياسة الاسبانية وعصر الغارات البحـرية الاسـلامية

بقلم اللواء الركن

محمود شـيت خطاب

عضو المجمع العلمي سابقا

عضو شرف حاليـا

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول ان يحتفظ بشخصيته وكرامتـه وحقه في الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التي تريد ان تسحق في بقية الامة المغلوبة كل أثر للحياة الحرة الكريمة ، ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة اخرى ، نذيرا عميق الاثر للسياسة الاسبانية ، ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها ، وكان الشعـب المستكين الاعـزل ما يزال رغم ضعفه وذلتـه يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة في الشؤون الاقتصادية ، وكانت الكنيسة ما تزال تنفث الى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق ايمانه ، وقد وصف المطران جريرو الموريسكيين في سنة (١٥٦٥م) بقوله : (انهـم خضعـوا للتنصير ، ولكنهـم لبثوا كفرة في سرائرهم ، وهم يذهبون الى القداس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية في أيام الاعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيـوم الاحد ، ويستحمون حتى في كانون الثاني ــ ديسمبر ، ويقيمون الصلاة خفية ، ويقدمون اولادهم للتنصير خضوعا للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان اولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم الى الكنيسة في ثياب اوروبية ، فاذا عدن الى المنـزل استبدلنها

بثياب عربية ، واحتفل بالـزواج طبقا للرسوم العربية»[1] • وهـذه الاقوال تنطوى على كثير من الصدق ، ذلك ان الامة الموريسكية المهيضة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والارهاق متعلقة بتراثها الروحي القديم • وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهـم مسلمين في سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمـة خفية ، ويكتبون أحكام الاسلام والادعية والمدائح النبوية بالقشتالية الاصلية ، أو بالقشتالية المكتوبة بحروف عربية ، وهي التي تعرف بالالخميادو Aljamiod'o أى (الاعجمية) • وقد وصلت الينا كثـير من الكتب الدينية والادعية والمدائح الاسلامية الموريسكية مكتوبة بالالخميادو ، وكثير منها يدور حـول سيرة النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والاساطير المقدسة[2] • بيد انها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من اخلاص راسخ لدينها القديم ، وان التبست عليهم أصوله وشعائره بمضي الزمن •

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطـه ضد الموريسكين طـوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الاسلام بقيت بالرغم من كر الاعوام وتوالى المحن ، دفينة في قلب الشعب المضطهد ، تنضح آثارها من آن لآخر ، يدل على ذلـك ما تسجله محفوظات الديوان ، من ان قضايا الموريسكيين امام محاكم التحقيق ، بلغت في سنة (١٥٩١م) ، (٢٩١) قضية ، وبلغت في العام التالى (١١٧) قضية ، وظهر في حفلة : « الاوتو دا فى » Auto-da-fe التى اقيمت في (٥ ايلول

---

(١) Marmol; Ibid, II Cap. I. وكذلك Dr. Lea: The Moriscos; P. 213-214

(٢) وضع القس الاسبانيPedro Longtsعن حياة الموريسكيين الدينية كتابه Vida Religiosa de los Moriscos (Madrid 1915)

وفيه يورد كثيرا من رسومهم وعوائدهم الدينية ، وكثـيرا من الايات والمدائح النبوية بالقشتالية .

في سبتمبر سنة ١٦٠٤م) ثمانية وستون موريسكيا ، نفذت فيهم الاحكام ، وظهر في حفلة (٧ كانون الثاني ــ يناير سنة ١٦٠٧م) ثلاثة وثلاثون موريسكيا، واستعمل التعذيب في محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الاتهام يوجه أحيانا الى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ، فقد حدث مثلا في سنتى (١٥٨٩م و ١٥٩٠م) ان سجلت في قرية مسلاته الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت في قرية كارليت مائتان ، واتهم اربعون اسرة بصوم رمضان . والواقع انه كان من الصعب على من بقيت في نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء . ولم يخمدها تعاقب جيلين او ثلاثة من النصرانية المفروضة ، ان يكونوا دائما بمنجاة من الاتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكي بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق او الباطل ، واذا كانت ثمة اوقات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالاخص الى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين في بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح . كانت أسرة بنى عامر من أعرق الاسر المسلمة القديمة ، التي أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها اخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ، ودون خوان ، ودون هرناندو بني عامر ، ومنزل الاسرة في بنجوازيل (بنى وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات اخــرى ، محرمــة على الموريسكيين . ففي (مارس ــ مايو سنة ١٥٦٧م) صدر قــرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد ان وافقت المحكمــة العليا (سوبريما) نظرا لخطر مكانتهم ، فاختفى الاخوة الثلاثة حينا ، ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات في (كانون الثاني ــ يناير ١٥٦٨م) ، وقرر في التحقيق انه يعتقد انه نصر طفلا ، ومــع ذلــك فانه لا يعتبر نفســه نصرانيا بل مسلما ، وانه جرى خلال حياتــه على مراعاة الشعائر الاسلامية ، ولم يذهب الى المعترف الا خضوعــا للاوامر ، على انه ينبغي ان يكــون في

المستقبل نصرانيا ، وان يؤدي ما يطالبه المحققون اليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته اي دفاع ، ولكنه افــرج عنــه في (١٥ حزيــران ــ يوليو) بضمان قدره الفى دوقة ، على ان يبقى في بلنسية ولا يبرحها • ومع ذلك سافر دون كوزمى الى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة الاف دوقة ، واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، ان يحصل للموريسكيين في بلنسية على قــرار التوفيق الصادر في سنة (١٥٧١م) كما قدمنا •

وفي سنة (١٥٧٧م) جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الاسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الاولى ، ولكن القضية ، أوقفت قبل ان يصل التحقيق الى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ استطاعوا ان يحصلوا على براءتهم واطـلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال(٣) •

وهكــذا نــرى ان الموريسكيــين استطاعــوا بالرغــم مــن العسف المنظم ، الذي فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، ان يحتفظوا في قرارة نفوسهم الكليمة ببقية راسخة من تراثهم الروحي القديم •

هذا من ناحية الدين والعقيدة ، أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعا متماسكا متضامنا ، قويا بنشــاطه ودأبـه وذكائه ، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن السادس عشر وفقا لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر بعضهم الآخر عددهم يومئذ باربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان اسبانيا في ذلك الوقت ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين • ووصفهم سفير البندقية في سنة (١٥٩٥م) ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد في العدد والثروة ،

(٣) Dr Lea : History of the Inquisition V. III. P. 362-365

وانهم لا يذهبون الى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الاسباني الكبير فرڤانتيس[٤] في بعض رسائله ، أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون اولادهم قط في سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون في الانفاق ، ويكتنزون المال ، فهم الآن اغنى الطوائف في اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية ، فقد قيل ان الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون واصحاب الفنادق وغيرهم ، ولا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال اموالهم ، وقد كان ذلك من اسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية[٥] .

كانت اسبانيا النصرانية اذاً ، أبعد من ان تطمئن الى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا في نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهي تخشى ان يعود الى الثورة ، وهي تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمي افريقية ومع سلطان الترك ، وهي ما زالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الاخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء الى الابد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

والواقع ان صلات الموريسكيين مع اعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الاسبانية . وقد كانت المماليك والامارات المغربية في الضفة الاخرى من البحر على استعداد دائما لان تصغى الى هذا الشعب المنكود ، سليل اخوانهم الامجاد في الدين ، وان تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على اشدها ، في مياه البحر الابيض المتوسط ،

---

(٤) مجيل ثرفانتس دى ساقدرا (١٥٤٧ - ١٦١٦) من اعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة : دون كيخوتي دى لامانشا .

(٥) Dr Lea : The Moriscos. P. 204, 210

وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية. واكثر من ذلك ان السياسة الاسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على ان تعتبر الموريسيكين خطرا قوميا يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الينا الرواية الاسبانية دلائل هذا الخطر في حوادث كثيرة ، ففي سنة (١٥٧٣م) وقفت السلطات الاسبانية على انباء مفادها ان أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » في مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين في بلنسية ، وقيل بعد ذلك ، ان هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لاراغون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسي ، وان سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيدا المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول في مياه برشلونة وفي دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ،وان الفضل في اخفاق هذا المشروع كله يرجع الى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حينا على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الاسبانية من ان هنري الرابع ملك فرنسا ، كانت له في ذلك مشاريع خطرة ، ترمي الى غزو اسبانيا من ناحية بلنسية، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وان زعماء الموريسكيين وعدوا بأضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، وان يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر ان تقوم الثورة الموريسكية في سنة (١٦٠٥م) ، ولكن المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التي جمعها « ديوان التحقيق » الاسباني على يد اعوانه وجواسيسه ، تنقصها الادلة التاريخية الحقة[٦] .

(٦) Dr. Lea : The Moriscos; P. 281-284 and 286 - 288

على ان الخطر الحقيقي ، كان يتمثل في غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الاسبانية ، وتملأ سير هذه الغارات فراغا كبيرا في الرواية الاسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الانتقام للاندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهرا بعد اخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . ويشير المقرى مؤرخ الاندلس الى مغزى هذه الغارات البحرية بعد اخراج الموريسكيين ، فيقول : انهم انتظموا في جيش سلطان المغرب، وسكنوا مدينة سلا ، وكان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الان[٧] . ويجب أن نذكر أن مياه البحر الابيض المتوسط شرقه وغربه ، خلال العصور الوسطى كانت دائما مسرحا سهلا للاساطيل الاسلامية . فمنذ ايام الاغالبة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الاساطيل الاسلامية تجوس أواسط البحر الابيض المتوسط وغربيه ، وكانت الدول الاسلامية الاندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة في شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ، وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية ، وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال « القرصنة » توجد في هذه العصور دائما ، الى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر الابيض المتوسط منذ أقدم العصور مسرحا لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر « القراصنة » يومئذ من النصارى ، من الامم التي غزت البحر في عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة وفي أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات في البحر الابيض المتوسط ، واستمر النصارى عصورا زعماء هذه المهنة . ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج . وكانت المغانم الوفيرة من الاتجار في الرقيق ، والبضائع المهربة ، وافتداء الرقيق ، تذكى عزمهم ، وتدفع اليهم بسيل من

---

(٧) نفح الطيب (٢/٦١٧) ، وقد انجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠م .

المغامرين من سائر الامم . ولما ظهرت الاساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر ، ضعف أمر اولئك المغامرين . ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا في هذا الميدان الا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الاندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى ، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية . وكانت الشواطىء المغربية تقدم اليهم المراسى الصالحة . ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على القسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر . وكان سقوط غرناطة واضطهاد الاسبان النصارى للمسلمين ايذانا بتطور هذه المغامرات البحرية ، ونزول الاندلسيين والموريسكيين المنفيين الى ميدانها ، واتخاذها مدى حين ، صورة الجهاد والانتقام القومى والدينى ، لما نزل بالامة الاندلسية الشهيدة من ضروب العسف والارهاق[٨] .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على السواحل الاسبانية ، عقب استيلاء الاسبان على غرناطة ، واكراههم للمسلمين على التنصير . في ذلك الحين غادر الاندلس آلاف من الاندلسيين المجاهدين ، أنفوا العيش في الوطن القديم ، في مهاد الذلة والاضطهاد ، تحت نير الاسبان ، وعبروا البحر الى عدوة المغرب ، وقلوبهم تفيض حقدا ويأسا ، واستقروا في بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر وبجاية ، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله ، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم ، وظلموا أمتهم ، وانتهكوا حرمة دينهم ، وكان البحر يهيىء لهم هذه الفرصة التي لم تهيؤها لهم الحرب البرية ، وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ، وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة ، التي تحميها وتحجبها الصخور العالية ، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك التجار المجاهدين والقراصنة المغيرين . وكانت الجزائر

(٨) Lane-Poole : The Barbary Corsairs; P. 26 and 27

وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والاقلاع ، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالاخص على عنصر المباغتة ، وتنجح في معظم الاحيان في تحقيق غاياتها •

ويصف بيترو مارتيري هذه الغارات بأسهاب ويقول : ان فردنياند الخامس أمر في سنة (١٥٠٧م) للتحوط ضد هذه الغارات ، بأخلاء الساحل الجنوبي من جبل طارق الى ألمرية لمدى فرسخين الى الداخل • ثم صدرت مراسم متعددة تحضر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئا ، واستمرت الغارات على حالها • وكان اللوم يلقى في ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولا سيما أهل بلنسية • وكان الموريسكيين كلما اشتد عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا الى اخوانهم في المغرب يستصرخونهم للتدخل والانتقام • وكان المجاهدون المغاربة يغيرون بسفنهم على الشواطىء الاسبانية ، ويخطفون النصارى الاسبان ، ويجعلونهم رقيقا يباع في اسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن احوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ، ويمدونها بالاقوات والمؤن • وكانت الحملات تجهز في أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ان تنقل منهم الى الشواطىء الافريقية جماعات كثيرة •

وقد ظهر منذ اوائل القرن السادس عشر الميلادي في الميدان عنصر جديد ، أذكى موجة الغارات البحرية في هذه البحار • ذلك ان البحارة الترك، وعلى رأسهم الاخوان الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين[٩] اندفعوا

(٩) ويعرف كلاهما في الرواية الاوروبية : باربار وسا (أو ذو اللحية الحمراء ، وقد انتهى الينا عن مغامرات هذين الاخوين الشهيرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية ، منقول عن اصل تركي ، نشر في الجزائر سنة (١٩٣٤م) بعنوان « غزوات عروج وخيرالدين » . والظاهر انه من تاليف راوية معاصر ، أو قريب من العصر •

من شرقي البحر الابيض المتوسط الى غربيه ، في طلب المغامرة والكسب • وفي سنة (١٥١٧م) سار أوروج في قوة برية وبعض السفن الى الجزائر واستولى عليها • ولما قتل في العام التالى في معركة نشبت بينه وبين الاسبان ، استولى أخوه خيرالدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية، وعينه السلطان سليم حاكما على هذه الانحاء ، وأمده بالسفن والجند • وتألق نجـم خيرالدين في ذلك الحين ، وأصبح اسمه يقترن بذكر اعظم امراء البحر في ذلك العصر ، وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغودالنه خلفه في الرئاسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودي ، وايدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة • وبسط اولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر الابيض المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الايطالية والاسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والموريسكيين • وبدأ خيرالدين غاراته في المياه الاسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة اشهر ، عاث فيها في البقاع الساحلية ، وجمع في سفنه كثيرا من الموريسكيين الراغبين في الهجرة، واسر كثيرا من الاسبان • وعرج اثناء عوده على جزيرة منورقة • وكان من اهم الغارات التي نظمها خيرالدين على الشواطىء الاسبانية ، غارة وقعت في سنة (١٥٢٩م) ، وذلك ان جماعة من الموريسكيين في بلنسية فاوضوه لكى ينقلهم خلسة الى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه ، ايدين ريس ، وصالح ريس ، الى المياه الاسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلا عند أوليفا الواقعة شمال غربي دانية أمـام مصب نهـر « ألتيا » ونزلت منها الى البر قوة استطاعت أن تجمع من الانحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الاسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) • ولـكن سـفن بربروس انقلبت فجأة من الدفـاع الى الهجـوم ، وأنقضت على السفن الاسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت بعضها الآخر ، وسارت سالمة الى الجزائر

تحمل الموريسكيين الفارين ، وعددا من اكابر الاسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الاسبانية الفخمة • وكان صريخ الموريسكيين يتوالى الى خيرالدين وحلفائه من أمراء المغرب ، ولا سيما أيام الثورات المحلية التي تشتد فيها وطأة الاسبان على الامة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالت بعوث خيرالدين وغاراته على الشواطىء الاسبانية ، وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة وفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خيرالدين منهم الى شواطىء المغرب نحو سبعين ألفا[١٠] •

وكان سلطان خيرالدين وزملائه البحارة الترك في المياه المغربية ، عاملا في تحطيم كثير من مشاريع اسبانيا البحرية في المغرب • وكان الاسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة (١٥٠٥م) ، واحتلوا مياه تونس سنة (١٥٣٥م) ، بانضواء أميرها الحفصى المعزول تحت لوائهم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم الى الاسبان للاحتفاظ برياستهم • ولدينا صور من عدة وثائق موجهة من هؤلاء الامراء الى الامبراطور شرلكان ، يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضواء تحت حمايته ، وهي تدلى بموضوعها او أسلوبها بما انتهت اليه الجبهة الاسلامية في المغرب في هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم •

---

(١٠) راجع كتاب الاستاذ لاين بول The Barbary Corsairs في الفصول الاول والثاني والثالث ، حيث يورد كثيرا من التفاصيل المهمة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخيرالدين ، وراجع كتاب « غزوات عروج وخيرالدين في ص (١٩ و٤٨ و٨١ و٨٢) . وخير الدين واخوه مجاهدان لا غبار على جهادهما ، بذلا جهدهما في الدفاع عن المستضعفين من المسلمين الاندلسيين ، وانتقما ممن ظلم اولئك المستضعفين ، وانقذا عشرات الالوف من المسلمين الاندلسيين المضطهدين من براثن ظلم الاسبان النصارى ، فهما مجاهدان بالنسبة لنا ، وقراصنة بالنسبة للمستشرقين وغير المسلمين ، ولا عبرة باتهامهما من اعداء الاسلام بالقرصنة ، ولكن على المسلمين الا ينقاوا اتهام النصارى واعداء المسلمين ويصدقونها .

وفي سنة (١٥٥٩م) قام أمير البحر التركي طرغود ، الذي خلف خيرالدين في الرياسة بغارة كبيرة على الشواطىء الاسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفي وخمسمائة موريسكي ، في سنة (١٥٧٠م) استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين في بالميرا ، وفي سنة (١٥٨٤م) سار اسطول من الجزائر الى بلنسية وحمل الفين وثلاثمائة موريسكى • وفي العام التالى ، استطاعت السفن المغيرة ان تحمل جميع سكان مدينة كالوسا • وبلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية بين سنتى (١٥٢٨م و ١٥٨٤م) ثلاثا وثلاثين غارة • هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعة من الموريسكيين المهاجرين • وقد وصف لنا الكاتب الاسباني الكبير ثرفانتيس هذه الغارات البحرية المروعة في صور مثيرة شيقة ، ولا غرو فقد كان هو ايضا من ضحاياها ، اذ أسر في الغارات التي وقعت سنة (١٥٧٥م) ، وحمل أسيرا الى الجزائر ، ولبث يوسف في اسره بضعة أعوام ، حتى تم أفتداؤه في سنة (١٥٨٠م)(١١)•

وكان ممن عمل في البحر مجاهدا في تلك الايام ضد الاسبان ، بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذى غدوا من أثر الاضطهاد من ألد أعداء اسبانيا ، مثل الريس بلانكيو Blanquillo والرئيس أحمد أبو على من أشونية ، ومراد الكبير جواد يانو من مدينة تيوداد ريال (المدينة الملكية) وغيرهم ، وقد أبلى هؤلاء الزعماء الموريسكيون في البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لاحكام الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية ، ومضاعفة عصفها وعيثها •

ووقعت في سنة (١٦٠٢م) غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غربى قرطاجنة على مقربة من الشاطىء ، وحمل عددا من الاسرى ، وكثرت الغارات في الاعوام التالية على الشاطىء

(١١) Dr Lea : History of the Inquisition in Spain; V.III. P. 363

الجنوبي ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار انكليزى مغامر ، يحشد في سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث في الشواطىء الاندلسية ، ويقتنص الاسرى النصارى ، ويبيعهم عبيدا في اسواق المغرب •

وكانت ثغور تونس في ذلك الوقت نفسه ، في أيام حاكمها عثمان داى (سنة ١٠٠٧هـ ـ ١٠١٩هـ = ١٥٩٨م ـ ١٦١٠م) ملاذا لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشاطىء الاسبانى بلا انقطاع• وكان من أشهر أولئك البحارة يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غـارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان في كل مرة يعود مثقلا بالغنائـم والسبى • وهكذا لبثت الغـارات البحرية عصرا من الزمان ، تزعج الحكومة الاسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالاخص منذ منتصف القرن السادس عشر ، وكان هذا غريبا في الواقع ، اذ كانت اسبانيا سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الاطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهنـد الغربية ، وتسيطر على ميـاه البحر الابيض المتوسط الغربية ، بيد أنها لم تستطع ان تقمع هذه الغارات البحرية الصغيرة المفاجئة ، التي كان يقوم بها على الاغلب جماعـات مجاهدة ، من رجال البحر المغاربة ، في سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم في ذلك يلقى دائما على الموريسكيين ، ولا سيما سكان الثغور منهم فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيره بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون، ويعينون لها مواقع الرسو والاقلاع ، وقد كانت تأتى على الاغلب لمعاونتهم على الفرار الى ثغور المغرب ، وقد كان الموريسكيون بالرغـم من اضطهادهم والتشدد في مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى افريقية وأمراء المغـرب جميعـا •

لبثت هذه الغارات البحرية عصرا مشغلا شاغلا للحكـومة الاسبانية لا تجد سبيلا الى قمعها والتخلص من آثارها• وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال الموريسكيين ، عنصرا بارزا في تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة

الإنتقام للامة الشهيدة ، تجشم في معظم الاحيان وراء هذه الغارات المجاهدة. ولما تم نفي الموريسكيين من اسبانيا ، زادت هذه الفكرة وضوحا واشتدت وطأة الغارات بما انتظم في صفوف المجاهدين من المنفيين ، وعدت مدينة شلا بالأخص ، مركزا لاولئك المبعدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الاسبانية(١٢) .

ولبث البحارة الترك عصرا ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ، ثم أخذت هذه الغارات تفقد هدفها القديم بمرور الزمن ، وتنقلب الى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الايطالية ، كما تنظم على الشواطىء الاسبانية ، وترمى قبل كل شيء الى تغذية أسواق المغرب والشرق الادنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة، مغامرون من الأفرنج من سائر الامم. وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ اواخر القرن السادس عشر على طرابلس الغرب وتونس والجزائر ، في هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الانزال والاقلاع في ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون الى خزينة الباشا او الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الالوف من النصارى ، واستمرت بعد ذلك هذه الغارات زمنا طويلا(١٣) .

وحدثت في تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية ، في اوائل عهد فيليب الثالث ، في عدوة المغرب احداث أخرى ،

(١٢) نفح الطيب (٦١٧/٢) .

(١٣) استمرت تلك الغارات في البحر الابيض المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الاوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة بعضها الاخر والاضرار بتجارتها ومنذ القرن السابع عشر تعمل انكلترا وهولندة وفرنسة على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها وذلك بمهاجمة الشواطىء الغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر ، على انها لم تنقطع نهائيا الا بعد ان غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها (سنة ١٨٣٠م) .

زادت في توجس السياسة الاسبانية ، من مساعى الموريسكيين في استعداء مسلمي افريقية . ذلك ان الحرب الاهلية نشبت في مراكش ، بين السلطان زيدان بن المنصور ، واخيه الشيخ المأمون ، وتعددت المعارك بينهما ، وانتهت بهزيمة الشيخ . وفر الشيخ مع اسرته وأمه الخيزران الى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بتقديم ثغر العرائش الى اسبانيا نظير معاونته . وكان ذلك في اوائل سنة (١٦٠٨م — ١٠١٧هـ)[١٤] . وهنا أرسل الموريسكيون في بلنسية ، رسلهم الى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد ليقدموا له مائتي ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو وفتح أحد الثغور الاسلامية الهامة ، ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده[١٥] . واستجاب فيليب لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض سفنه الى شاطيء المغرب ، واستولى الاسبان على ثغر العرائش ، فأشتد السخط على الشيخ ، وانفض عنه كثير من انصاره ، وما زال الشيخ في مغامراته حتى قتل على مقربة من تطاون (تطوان) سنة (١٠٢٢هـ — ١٦١٣م) ، وانتهى بذلك أمره[١٦] . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته في سنة (١٠٣٧هـ — ١٦٢٧م) أعني بعد نفي الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاما ، في كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة في سنة (١٦١٢م) أن غنمت السفن الاسبانية في مياه المغرب ، على شاطيء الاطلنطى فيما بين آسفى وأغادير ، مركبا لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وفيها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة[١٧] ، وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر ماتجئا الى الجنوب ، وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فانتهبها الاسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب الى اسبانيا ، وضمت فيما بعد الى مجموعة الكتب الاندلسية بقصر الاسكوريال[١٨] .

---

(١٤) الاستقصا (١٠٢/٣) . (١٥) Dr. Lea : The Moriscos; P. 289-290

(١٦) الاستقصا (١٠٦/٣) . (١٧) الاستقصا (١٣٠/٣) .

(١٨) نهاية الاندلس (٣٦٢-٣٧٥) .

٢ ـ ماساة النفي

أ ـ تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطرا قوميا يجب العمل على درئه والتخلص منه ، وكان هذا التوجس يزيد على كر الاعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولا سيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات المجاهدين البحرية على الشواطىء الاسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى افريقية وبلاط القسطنطينية • وسواء أكان هذا الخطر حقيقة يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر في تصويره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد في نظر السياسة الاسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها •

وكانت السياسة الاسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطواتها الحاسمة ، في شأن الموريسكيين ، وكان هذا الملك المتعصب نفى الموريسكيين بعد الذى عانته اسبانيا في قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل في سنة (١٥٨٢م) مشروعا لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه • وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الامة الاندلسية الى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى سوى ذكريات غامضة • وكان التنصير قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا ابناء قريش ومضر بحكم القوة والضغط والارهاب ، نصارى يشهدون القداس في الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ، غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم الى حظيرتها القومية • وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الاندلسية القديمة ، وكانوا ما يزالون رغم العسف والارهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ،

قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصرا بارزا في انتاج اسبانيا القومي ، ولا سيما في الصناعات والفنون . ولكن السياسة الاسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن أخفقت بوسائلها الهمجية البغيضة في كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقق من جهة اخرى ، ومن ورائه الاحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبدا وصمة في نقاء النصرانية ، ويتصور الاسلام دائما يجرى كالدم في عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والاحبار الاسبان ، في شأن الخطوة الحاسمة التي يجب اتخاذها، للقضاء على خطر الموريسكيين. ورأى بعض أكابر الاحبار ان خطر الموريسكيين لا يزول الا بالقضاء على الموريسكيين انفسهم. وكان مما اقترحه المطران ريبرا أن يقضى عليهم بالرمة وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل في السفن ومناجم الهند ، حتى يتم افناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب بعضهم الآخر الى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثاني ، ان يجمع الموريسكيون ، ويحملوا على السفن ، ثم يغرقوا في عرض البحر[١٩] . واستمرت السياسة الاسبانية حينا من الزمن تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى (سنة ١٥٩٨م) وخلفه ولده فيليب الثالث . وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأي والارادة، يتأثر كأبيه بنفوذ الاحبار ، ويخضع لنفوذ وزيره وصفيه الدوق ذى ليرما . وكان الدوق من أشد أنصار القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ (سنة ١٥٩٩م) ، ووضع لتنفيذها مشروعا ، خلاصته : ان الموريسكيين انما هم عرب ، ويجب ان يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، او ان يسترقوا ويرسلوا للعمل في السفن ، وتنزع املاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ، فينفوا الى المغرب ،

(١٩) Dr. Lea : The Moriscos, P. 296-299

واما الاطفال فيؤخذوا ويربوا في المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سرا لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين في اسبانيا .

وفي سنة (١٦٠١م) ، قدم المطران ربيرا تقريرا الى الملك يقول فيه : ان الدين هو دعامة المملكة الاسبانية ، « ان الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الاخيرة ، ولا يأكلون لحم الخزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولا يعملون شيئا من الامور التى يعملها النصارى » . ثم يوضح الاسباب التى تدعوا الى عدم الثقة من ولائهم بقوله : « ان هذا المروق العام ، لا يرجع الى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع الى العزم الراسخ العام في أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون ، أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة ، وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لانهم لا يريدون معرفتها ، ولانهم لا يريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى[٢٠] ، ثم يقول المطران في تقرير آخر : ان الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وان كل وسيلة للرفق بهم قد أخفقت ، وان اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، الى اخطار كثيرة ، وتتكبد في رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، واخماد ثوراتهم ، كثيرا من الرجال والمال . ثم يقترح ان تؤلف محكمة سرية من الاحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخياناتهم ، ثم تحكم علنا بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك في ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لان مجلس الدولة ، كان يرى أن يسير في تحقيق غايته سرا ، وألا تصطبغ أجراءاته في ذلك بالصبغة الدينية .

(٢٠) P. Longas, Vide Religiosa de los Moriscos; P. LXVIII

ومضت بضعة اعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب في أواخر سنة (١٦٠٧م) وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزوا اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع في أواخر (كانون الثانى ــ يناير ١٦٠٨م) ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ، وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين الى المغرب ، وقال : ان النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الاعضاء الآخرون ، وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لانهم يتكاثرون بسرعة ، بينما يتناقص عدد النصارى القدماء . وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله ، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصا وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب الى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج في سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله الى لجنة خاصة على رأسها الدوق ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ، وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهرا لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا الى حيث شاءوا فمن جاز منهم الى افريقية منح السفر الامين ، ومن جاز الى أرض نصرانية أوصى به خيرا ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الاسس بذاتها ، ولكن هذه الاسس الرفيقة نوعا ما لم يؤخذ بها .

وفي كانون الثانى ــ يناير من سنة (١٦٠٩م) بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريرا ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين لاسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الادلة على أن الموريسكيين جميعا خونة مارقون ، يستحقون الموت والرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم ، وتكتفى بنفيهم من أراضيها . وتقرر أن ينفذ المشروع كله هذا العام في الخريف منه ، وأرسلت الاوامر

الى حكام صقلية ونابولى وميلان ، بأعداد جميـــع الســفن الممكنة لنقــل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم ، واجتمعت منذ أوائــل الصيف في مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبــة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط •

وهكذا انتهت السياسة الاسبانية بعد مدة مــن التردد ، الى اتخاذ خطوتها الحاسمة ، في القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة في « تطهير » اسبانيا نهائيا من آثار الاســلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الاخيرة لشعب عظيم تالد •

ب ــ وفي (٢٢ أيلول ــ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) أعلن قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهــم الــروع والاضطراب ، واليك نص هذا القرار الشهير في صحف المآسى والاستشهاد:

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، واحقاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأي الملك من نفيهم جميعا الى بلاد البربر (المغرب) • وبناء على ذلك فانه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين أن يرحلوا مع اولادهم في ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى الى الثغور التى يعينها لهم مأمور والحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهــم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم الى بــلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة باطعامهم أثنــاء السفر ، ولكن عليهــم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنهم يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الايــام الثلاثة في أماكنهم رهن اشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلــك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الاعدام في حالة المقاومة • وقد منح الملك السادة كل الاملاك العقارية والامتعة الشخصية التى لم تحمل ، فاذا عمد أحد الى اخفاء الامتعة أو دفنها ، أو أضرم النار في المنازل أو المحاصيل،

عوقب جميع سكان الناحية بالموت • ونص القرار على ابقاء ستة في المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم في صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ، ومحصول الارز ، وتنظيم الرى ، وارشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة من بين الاسر الاكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية • أما الاطفال ، فأذا كانوا دون الرابعة ، فأنه يسمح لهم بالبقاء اذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم واولياؤهم ، واذا كانوا دون السادسة سمح لهم بالبقاء اذا كانوا من أبناء النصارى القدماء (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لامهم الموريسكية ، فاذا كان الاب موريسكيا والام نصرانية أصيلة ، نفى الاب وبقى الاولاد دون السادسة مع أمهم • كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصاري مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » ، اذا زكاهم القسس • وحظر القرار اخفاء الهاربين أو حمايتهم• ويعاقب المخالف بالاشغال الشاقة لمدة ستة أعوام • كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، ان يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم • وأخيرا نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكى يشرحوا لاخوانهم كيف تم النقل الى المغرب على أحسن حال •

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقوع الصاعقة ، ونهكت قواهم ، وسادهم الوجوم والذهول • وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، اذ انهارت معنوياتهم ، ونضبت مواردهم • وكانت الحكومة الاسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها في جميع الانحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم في بلنسية ، فقروا أنه لا أمل لهم في المقاومة ، وأنه لا مناص لهم من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعا ، وألا يبقى منهم أحد ، ولا حتى نسبة الستة بالمائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتدا مارقا ، ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ،

وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت في الانحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة ، وقتل منهم عدد كبير •

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى ، وقالوا : انهم اعتنقوا النصرانية طوعا قبل التنصير الاجبارى ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شيء فصدر الامر الى الاساقفة ببحث ظلامتهم ، وأن يسمح بالقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والاخلاص •

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين ، فقد هرعت الى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا في بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الاسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والاثاث وغيرها، لتباع بأبخس الاثمان • وبدىء بتنفيذ قرار النفى في الجهات التي نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية ، وذلك منذ اوائل (تشرين الاول ــ اكتوبر سنة ١٦٠٩م) ، وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس حملوا الى ثغر وهران في الضفة الاخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا الى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهنالك استظلوا بحماية السلطان • وعاد بعضهم الى اسبانيا ، ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا في أمن وسلام • ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، في سفن غير التى عينتها الحكومة الاسبانية ، لنقل المهاجرين واطعامهم دون أجر ، واضطرت الحكومة نتيجة لذلك أن تستدعى عددا كبيراً من السفن الحرة ، الى مياه بلنسية • ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ، ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسقى ونشيد الاغانى ، وهم يشكرون

(٢١) Dr. Lea. History of the Inquisition in Spain; Vol. III, P. 399

الله على العود الى أرض الآبـاء والاجداد ، ولما سئل فقيـه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب : بأنهم كثـيرا ما سعـوا الى شراء قارب أو سرقتـه للفرار الى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف اذا عرضت لنا فرصة السفر الامين مجانا ، لا ننتهزها للعود الى أرض الاجـداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهناك نعيش احرار مسـلمين ، لا عبيدا كما كنا ؟

وكانت الجنود تحرس المنفيين في معظم الاحوال ، حماية لهم من جشع النصارى الاسبان الذين انتظموا في عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحيانا . وفضلا عن ذلك فان تنفيذ قرار النفى لم يجـر دائما في يسـر وسهولة ، فقد أبى كثير من الموريسكيين في الجبل الخضوع للاوامر لعدم ثقتهم بولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالاخص في « وادى أجوار » ، حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفا ، وفي مويلادى كورتيس حيث اجتمع منهم تسعة آلاف ، فبادرت الحكومة الى محاصرتهم ، وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . واخيرا سلّم من بقى منهم ، وحملوا قسرا الى مينـاء السفر ، وسبى الجند منهم كثيرا من النساء والاطفال ، باعوهم رقيقا . ولم يصل منهم الى شواطىء المغرب سوى القليل . وفي مويلادي كورتيس لم يبق منهم عند الابحار سوى ثلاثة آلاف ، ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الاضطراب نحو عام ، حتى قضى عليها بعد جهد جهيد[٢٢] .

وصدر قرار النفى في قشتالة في (١٥ أيلول ــ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) . ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا في بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل الا في اواخر (كانون الاول ــ ديسمبر) ، ومنح الموريسكيون فيه شهرا للسفر ، بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى في الاندلس ، وسافر منهم شمالا الى حدود

(٢٢) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain; V.III, P. 397-398

فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر الى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر الى الاراضى النصرانية ، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم الى الثغور المغربية •

وبلغ عـدد المنفيين في الثلاثـة أشهر الاولى زهاء مائة وخمسين ألفـاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الاغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين في أراغون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفا ، الى ولاية ناڤار الفرنسية ، ودخـل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفـا ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الكارون ، بشرط بقائهم على دين الكثلكة ، وأن تهيء السفن لمن أراد السفر منهم الى شواطىء المغـرب •

أما في غرناطة وأنحاء الاندلس ، فقد أعلن قرار النفى في (١٢ كانون الثانى ـ يناير سنة ١٦١٠م) بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيـه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوما ، ويباح لهم بيع سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى بها عروض او بضائع اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، الا ما يكفى نفقات الرحلـة بالبر والبحر ، وأما الاملاك العقارية ، فتصادر لجهة العرش • وقد استقبل الموريسكيون في الاندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر مـن نزح منهم الى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم الى مراكش •

ثم توالى اعلان قرارات النفى في جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، في سائر انحاء المملكة الاسبانية : في قطلونية ، وأراغون في (أيار ـ مايو ـ ١٦١٠) ثم في اشبيليـة وإسترمادورة ، ثم في مرسية وغيرهـا وتأخر تنفيذه في مرسية نحو اربعة أعـوام حتى (كانـون الثاني ـ ينايـر ١٦١٤م) ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفـا ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال الى الثغور الجنوبية •

واتجهت بعض الجهات الى الثغور الايطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت الى مصر والشام والقسطنطينية[٢٣] . وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم في أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل الى ملكتها (وهي يومئذ مارى دى مريتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الايذاء ، ويطلب حماية المنفيين[٢٤] . وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا الى المشرق بعض طوائف من يهود الاندلس ، ولا سيما طائفة « الحسريم »، التي ما زالت تقيم حتى اليوم في القسطنطينية ، ويقيم بعضها في مصر .

ونفذت قرارات النفى في كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهورا بل أعواما ، تحمل أكداسا من الكتل البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا وهناك . في مختلف الثغور الافريقية في جو من المناظر المروعة المفجعة .

وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقا لقرار النفي ، فيقول ناڤاريتي وهو من اعظم مؤرخي اسبانيا : انه قد نفى من اسبانيا في مختلف الاوقات ، نحو مليونى يهودى وثلاثة ملايين موريسكى . ويقدر آخرون عدد المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ « ديوان التحقيق » بمليون نسمة . ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف نسمة . وفي الرواية العربية الموريسكية ، يقدر عدد الموريسكيين المنفيين بستمائة ألف . ونحن نميل الى أن عددهم لا يمكن ان يتجاوز هذا

---

(٢٣) نفح الطيب (٦١٧/٢) .

(٢٤) Dr. Lea : The Moriscos; P. 364

القدر ، وقد كان مجموعهم في أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا • ويقدر عدد من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفى بنحو مائة الف(٢٥) •

وقد عاد معظم الموريسكيين الذين نفوا الى افريقية والمشرق ، الى الاسلام دين الآباء والاجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير القسري ، والارهاق المستمر ، جذوة الاسلام في نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا في أعماق سرائرهم •

وبذلك ينتهي الفصل الاخير من مأساة الموريسكيين ، وتطوى الى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات •

ج ـ وتقدملنا الرواية الغربية، تفاصيل اضافية عن مأساة الموريسكيين، من بدايتها الى نهايتها ، وتخصها بكثير من النقد والتعليق • ولكن الرواية الاسلامية مقلة حول ذلك ، شأنها في تاريخ الاندلس منذ سقوط غرناطة ، فهي لا تعنى بتتبع مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية بها ، ولا تقدم لنا عن مأساة النفي سوى بعض الشذور والأشارات الموجزة •

وأهم واوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن احوال الموريسكيين ، ومساعيهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفيهم ، كتبها موريسكي عاش في جيّان في اواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر الى تونس قبيل النفي بقليل ، وكتب فيما بعد هذه الرسالة دفاعا عن الموريسكيين المهاجرين وشرف نسبهم ، وتوكيداً لحسن اسلامهم وتمسكهم بالاسلام ، ووردت خلالها حقائق تاريخية هامة ، عن النفي وأسبابه وملابساته ، ننقل منها ما يلي :

قد كثر الانكار علينا معشر اشراف الاندلس ، من كثير من اخواننا في الله ، بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله ، بقولهم : من

(٢٥) Dr. Lea : The Moriscos; P. 259

اين لهم هذا الشرف . وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئـون مـن السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام ، وقـد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، الى غير ذلك من الكلام ...

مع أني صغير السن ، حين دخولنا هذه الديار ، عمرّها الله تعالى بالاسلام وأهله ، فقد اطلعني الله تعالى على ديـن الاسـلام بواسطة والدي ، رحمه الله عليه ، وأنا ابن ستة اعـوام وأقل ، مع اني كنـت إذ ذاك اروح الى مكتـب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع الى بيتي فيعلمني والدي دين الاسلام ، فكنت أتعلم فيهما معا ، وسني حين حملت الى مكتبهم اربعة اعوام . فأخذ والـدي لوحاً من عود الجوز ، فكتب لي فيه حروف الهجاء ، وهو يسألني حرفاً حرفـاً عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فأذا سميت له حرفاً اعجمياً كتب لي حرفاً عربيا ، فيقول حينئذ : هكذا حروفنا ، حتى استوفى جميع حروف الهجـاء في كرتين ، فلما فرغ من الكرّة الاولى ، اوصاني ان أكتم ذلك حتى عن والدتـي وعمي وأخي ، وجميع قرابتنا ، وأمرني الا اخبر احدا من الخلق ..

وقد كان والدي رحمه الله يلقنني حينئـذ ما كنت اقولـه حين رؤيتـي للاصنام ... فلما تحقق والدي انني اكتم امور دين الاسلام عن الاقارب فضلا عن الاجانب ، أمرني بأفشائه لوالدتي وعمتي ، وبعض اصحابه الاصدقـاء فقط ، وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون في امر الدين ، وأنا أسمع .

فلما رأى حزمي مع صغر سنيّ ، فرح غاية الفرح ، وعرّفني بأصدقائـه وأحبائه واخوانه في دين الاسلام ، فاجتمعت بهم ، وسافرت الاسفار لاجتمـع بالمسلمين الأخيار ، من جيان مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة والـى قرطبـة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مـدن الجزيـرة الخضراء ، أعادها الله تعالـى للإسلام ، فتلخص لي من معرفتهم اني ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونني بأمور غرناطة وما كان بها في الإسلام حينئذ ، فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للاسلام ، يقال

له : الفقيه اللوطوري ، رحمه الله وتعالى ونفعنا به ، فكأنه كان رجلا صالحا ، ولياً لله فاضلا ورعاً ، زاهدا ، قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة ، قبل استيلاء اعداء الله عليها ، وهو ابن ثمانية اعوام . ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من ايدي المسلمين اجدادنا ، وقد اذن العدو في ركوب البحر لمن اراده ، وبيع ما عنده ، وإتيانه لهذه الديار الاسلامية ، وذلك في مدة ثلاثة اعوام ، ومن اراد ان يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحرك لذلك اجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم واموالهم ، ومفارقة اوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز الى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز اليها حينئذ ، ودخلوا في زقاق الاندلس المعروف الان بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنتين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم ، لذلك نقض العهد ، فردهم رغم انوفهم من سواحل البحر الى ديارهم ، ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق بأخوانهم وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ، مع ان المسلمين اجدادنا استنجدوا مرارا ملوك الاسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من احدهما الا بعض مراسلات ، ليقضي الله امرا كان مفعولا .

ثم بقى العدو يحتال عليهم بالكفر غصبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامي ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الاسلامية شيئا فشيئا ، مع شدة امتناعهم والقيام عليهم مرار ، وقتالهم اياه ، الى ان قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالناس من لاحت عليه امارة الاسلام ، ويعذبه بانواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيّعوا من مسلم ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة والف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهرا دين الكفار ابعدهم الله ، فخرج بعض احبابنا واخواننا وهو الفقيه الاجل محمد ابو العباس احمد

الحنني ، المعروف بعبدالعزيز القرشي ، ومعه احد اخواله ، الى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان احمد بن السلطان محمد آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بأخواننا بالاندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب امرا لصاحب فرانسة دمرها الله ، بأعلام السلطان يأمره بأن يخرج مَن كان عنده من المسلمين بالاندلس ، ويوجههم اليه في سفن من عنده ، مع ما يحتاجون اليه . فلما قرىء الامر السلطاني في ديوان الفرنسيس ، فسمعه مَن كان مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده يخبره بالواقع ، وأن السلطان احمد آل عثمان ، ارسل أمره الى فرانسا ، وأمر صاحبها ان يخرج مَن كان عنده من الاندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بأخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الاندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه، ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين . فلما احس بهذا الامر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع اكابر القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأي ، وما يكون العمل عليه في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبد الشأن في أهل بلنسية ، فأخذ الرأي ، واجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب اوامر وشروطاً في شأنهم ، وفي كيفية اخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الاندلس ، نعم اريد ان أذكر لك نبذة يسيرة ختصرتها ، وترجمتها ، من جملة اسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله في أوامره ، التي كتبها في شأن اخواننا الاندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من امرهم ، وتعلم بعض الاسباب التي اخرجوا لاجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين .

قال الملك الكافر ، ابعده الله وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاخراج من يكدّر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا صالحا ، والتجربة اظهرت لنا عيانا ، ان

الاندلسيين الذين هم متولدون من الذين كدّروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم اكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين اظهرهم، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم اعضاءهم ، وتغذيبهم اياهم بأنواع العذاب ، الذي لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيرا منهم قد أحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا ، وظهر لي ان بينهم وبينه مراسلات اسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت اليّ ، ومع هذا ان احدا منهم لم يأت الينا ليخبرنا بما هم يدبرونه هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ، وظهر لي ايضا ، ولارباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الامر واستشرت ، مع ان من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطتنا ، وان بأخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشىء من ابقائهم بمملكتي ، اردت اخراجهم من سلطتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى ، الذين هم رعيتنا ، طائعين لاوامرنا ودينا ، ورميتهم الى بلاد المسلمين امثالهم ، لكونهم مسلمين.

فاظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين ، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقدر على ازالة دينهم من قلوبهم ، وانهم متمسكون كلهم به ، مع انه كان يحرق منهم مَن ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرويته فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم ، فأي علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم بملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين ، امير المسلمين السلطان احمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الاندلسية .

فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر (كذا) والف . ووجد في دفاتر السلطان الكافر ، ابعده الله تعالى ، أن جملة مَن اخرج من أهل الاندلس كافة ، نيف وستمائة الف نسمة ، كبيرا وصغيرا . فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفا عنه ، وامر ايضا بأخراج مَن كان مسجونا في كافة مملكته ، وكل مَن كان أمر بأحراقه فأخرجه ، وعفا عنه ، وزوده وارسله الى بلاد الاسلام سالما ، فيالها من اعجوبة ما اعظمها ، ومن فضيلة ما اشرفها ، ومن كرامة ما اجملها ، ومن نعمة ما اكبرها ، فما سمع من اول الدنيا الى آخرها مثل هذه الواقعة(٢٦) .

وقد صدر قرار النفي ـ كما قدمنا ـ في ٢٢ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) وهو يوافق جمادى الثانية سنة (١٠١٨هـ) ، ولكن الرواية الاسلامية تضع تاريخ القرار احيانا سنة (١٠١٦هـ او ١٠١٧هـ) وهو تحريف واضح .

قال المقري ، وهو مؤرخ الاندلس ، وقد كان معاصرا للمأساة : « الى أن كان اخراج النصارى اياهم (أي العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب اعوام سبعة عشر والف ، فخرجت الوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ومَن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا اموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس . ونجا القليل من هذه المعرة . واما الذين خرجوا بنواحي تونس ، فسلم اكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى جيشا جرارا وسكنوا سلا ،

---

(٢٦) كاتب هذه الرسالة ، هو النسابة محمد بن عبدالرفيع الاندلسي المتوفى سنة (١٠٥٢هـ ـ ١٦٥٢م) ، اى بعد نفي الموريسكيين باثنين واربعين عاما ، وقد وردت في آخر كتابه المسمى : « الانوار النبوية في آباء خير البرية » ، وهو لا يزال مخطوطا . وقد نقل الرسالة المذكورة الشاعر ابو عبدالله محمد بوجندار في كتابه المسمى : « مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥هـ) ، والرسالة منقولة عن هذا الكتاب مع بعض التصرف (ص٢٠٠ ـ ٢١٤) .

كان منهم من الجهاد في البحر ، ماهو مشهور الان . وخصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الان بهذه الحال ، ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى ، والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت »[٢٧] .

وقال ابن دينار التونسي ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاما في اخبار سنة (١٠١٧هـ) : « وفي هذه السنة والتي تلتها ، جاءت الاندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانيا ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرّق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم ان يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير ، وبنوا فيها ، واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا في عدة اماكن ، وعمروا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من اهل البلاد »[٢٨] .

وقال صاحب الخلاصة النقية ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفي سنة ست عشرة والف ، قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم اهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم »[٢٩] .

وهذه النصوص الموجزة ، هي كل ما تقدم الينا الرواية الاسلامية عن نفي العرب المتنصرين ، وقد لبثت رواية المقري عن المأساة ، مصدرا لكل ما كتبه الكتاب المتأخرون[٣٠] . وربما كان هذا النقص راجعا الى أنه لم يعن احد من كتّاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن

---

(٢٧) نفح الطيب (٦١٧/٢) .
(٢٨) المؤنس في اخبار افريقية وتونس (تونس) ص(١٩٣) .
(٢٩) الخلاصة النقية (تونس) ص (٩١) .
(٣٠) انظر الاستقصا (١٠١/٣) ، حيث تنقل هذه النصوص .

المأساة ، أو لعله قد ضاع ما كتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، وأنه كتب عن المراحل الاخيرة لتاريخ الاندلس والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقري سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا النصرانية كل ما وسعت لاخراج البقية الباقية من فلول الامة الاندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين الا اتخذتها ، ومع ذلك فأن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفي بصورة نهائية . فقد رأينا ان كثيرا من المنفيين قد عادوا الى اسبانيا ، فرارا مما لقوا في رحيلهم من ضروب الاعتداء المفزع ، وأسلموا انفسهم رقيقا يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الاسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون في المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقا في اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع انه صدر قرار يحظر وجودهم في العاصمة الاسبانية ، فأنه كان من الصعب اخراجهم من المملكة ، نظرا لما ترتب لاصحابهم عليهم من الحقوق . وكان بعضهم يفلح في ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سرا ، وأخيرا توجّست الحكومة الاسبانية من وجودهم ، فصدر في سنة (١٧١٢م) قرار بنفيهم ، خلال المدد التي يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم الى افريقية .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، ان يبقى في البلاد احد من الموريسكيين او سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم او اشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت احد منهم من بطش ديوان التحقيق . وكان الديوان المقدس ابدا على اهبة لضبط أية قضية ضد موريسكي مختف او عبد متنصر ، ولكن هذه القضايا كانت نادرة ، مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضي الزمن بيد أن اسرى المعارك الحربية بحرا الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكان معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا الى الاسلام ، وخرجوا الى الجهاد في البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر الميلادي ، يجد بينهم

فرائس من آن لآخر • وعلى الجملة ، فأن آثار الموريسكيين والاسلام لم تعف نهائيا من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الاسر والافراد الموريسكيين الذين اندمجوا في المجتمع الاسباني ، على صلاتهم الخفية بالماضي البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر امام محاكم التحقيق بعض القضايا الخاصة بالموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الاسلام خفية ، وضبط في سنة (١٧٦٩م) مسجد صغير في قرطاجنة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على انه كانت ما تزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والاسلام •

ولا تقدم لنا محفوظات ديوان التحقيق منذ اواخر القرن الثامن عشر ، أي ذكر للموريسكيين ، او الاسلام والمسلمين ، مما يدل على ان الاثار الاخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه الى الابد[٣١] •

على أن ما يقال أخيرا ، أنه مازالت ثمة الى اليوم ، في بلنسية وفي غرناطة ومقاطعة لامنشا ، جماعات من الأسبان ، تغلب عليهم تقاليد الموريسكيين في اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة[٣٢] •

والحقيقة انه يصعب على الباحث ، أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقا بكل ما لجأت اليه ، من الوسائل المغرقة في الظلم ، ان تقضي نهائياً ، على آثار السلالة العربية والحضارة الاسلامية ، بعد ان لبثت ثمانية قرون تغمر النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، فأن تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ان تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصا اذا لبثت آمادا مختلفة متداخلة ، على ان حضارة امة من الامم انما هي خلاصة لتفاعل الاجيال المتعاقبة • وفي وسع مؤرخ الحضارة ان يلمس في تكوين المجتمع الاسباني

---

(٣١) Dr Lea : The Moriscos; P. 391-392

(٣٢) Dr Lea : Ibid. P. 395

الحاضر ، ولاسيما في الجنوب ، في ولايات الاندلس القديمة ، وفي خصائصه وتقاليده ، وفي حياته الاجتماعية ، وفي حضارته على العموم ، كثيرا من الخلال والظواهر ، التي ترجع في روحها الى تراث العرب والحضارة الاسلامية(٣٣) .

تأملات في آثار المأساة الاندلسية

تلك هي قصة الموريسكيين او العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن والصبر الجميل ، ولكن تفيض في نفس الوقت بصحف من الأباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التي اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعها ديوان التحقيق الاسباني ، ازاء العرب المتنصرين ، على كر العصور ، مثار الانكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والاسبان منهم انفسهم ، حتى يومنا هذا ، بأقسى النعوت والاحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على ابادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ، ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفي الموريسكيين ، من اوج عظمتها التي سطعت في عصر شارلكان وفيليب الثاني ، الى غمرة التدهور والانحلال ، التي مازالت تلازمها حتى هذه الايام .

بل ترجع عوامل هذا الانحلال ، الى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، او بعبارة اخرى الى السياسة التي أتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الامة الاندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والتوسع والاستيلاء ، في القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الاسلامية الزاهرة ، تسقط تباعا في يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد في نفس الوقت اهميتها العمرانية

---

(٣٣) نهاية الاندلس (٣٧٦–٣٩٢) .

والاقتصادية ، اذ كانت العناصر الاسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها الى القواعد الاسلامية الباقية ، فراراً من عسف النصارى ، وتغادرها حاملة اموالها وفنونها وصنائعها • تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادي • واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الامة الاندلسية في المنطقة الجنوبية ، وفي بعض القواعد الاندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين الى افريقية ، واستحالت الامة الاندلسية غير بعيد ، الى شعب مهيض ممزق ، هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين • ومع ذلك ، فقد لبثت هذه الاقلية الاندلسية المضطهدة، عاملا خطيرا في اقتصاد اسبانيا القومي ، وفي ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها ، وكان الموريسكيون يحملون كثيرا من تراث الامة المغلوبة ، والى نشاطهم ودأبهم يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التي يملكها السادة الاقطاعيون فلما اشتد بهم الاضطهاد والعسف ، وأخذت يد الابادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم ، وقتل مواهبهم ، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية اخيرا خطوتها الحاسمة بأخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الانتاج الزراعي الذي برع الموريسكيون فيه ، وخرجت الضياع الكبيرة بفقد الايادي الماهرة ، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من انشط عناصرها وركدت ريح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التي كانوا اساتذتها وغاضت الفنون الرفيعة التي استأثروا بها منذ أيام الدولة الاسلامية • وأحدثت هذه العوامل بمضي الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى العمران ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت يد الاصلاح والتقدم ، ولم يمض على اخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح تعداد سكان المملكة الاسبانية كلها ستة ملايين نسمة ، وكان سكان قشتالة وحدها ايام سقوط غرناطة سبعة ملايين نسمة ، وفقدت معظم

المدن الكبرى ، مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة اربعة اخماس سكانها ، وعمّ الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، وخيّم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وقد ظهرت هذه الآثار المخرّبة ، بالاخص في محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور ايراد الضياع الكبيرة ، وايراد الكنائس والاديار ، دليلا على ما اصاب اسبانيا قوة اسبانيا المنتجة : الزراعية والصناعية ، بسبب نفي طائفة كبيرة من انشط طوائف السكان واغزرهم انتاجا . وكان من الحقائق المعروفة ان السكان الاسبان كانوا يبغضون الاعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها امرا شائنا ، وان الاسباني لا يربي اولاده لمزاولة العمل الشريف ، وان اولئك الذين لا يجدون لهم عملا في الجيش او الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدي المؤرخ الاسباني الكبير ناقاريتي أسفه لوجود اربعة الاف مدرسة في عصره (اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر) يتعلم فيها ابناء الفلاحين بينما تهجر الحقول ، ولان اولئك الذين لا يجدون منهم عملا في الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول او التشرد او السرقة . وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر الى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الاسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوي ، حتى أن ما يمكن عمله في البلاد الاخرى في شهر ، يعمله الاسبان في أربعة أشهر(٣٤) .

ويردد الوزير محمد بن عبدالوهاب الغساني سفير سلطان المغرب مولاي اسماعيل الى اسبانيا ، وقد زارها في سنة (١٦٩١م) ، اعني بعد النفي بثمانين عاما ، عن الاسبان مثل هذا الرأي ، اذ يقول في رحلته : « وبحصول هذه البلاد (الهندية) ــ يقصد امريكا ــ ومنفعتها وكثرة الاموال الي تجلب منها صار هذا الجنس الاسبنولى اليوم اكثر النصارى نالا ، واقواهم مدخولا ، الا ان الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد احدا من هذا الجنس يتاجر

(٣٤) Dr. Lea : The Moriscos; P. 379-381

أو يسافر للبلدان يقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والانكليز والفرنسيس والجنوبين وأمثالهم ، كذلك الحرفة التي يتداولها السقطة والرعاع واراذل القوم ، يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الاجناس المسيحيين »[٣٥] .

وقد كان النبلاء والاحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون في تعهد اراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم فلما وقع النفي جمد النشاط الزراعي ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولاسيما عن منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء الى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنية وقطلونية ، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الاراضي التي نزعت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحاق بهم الضيق ، حتى اضطر العرش الى منح كثير منهم نفقات سنوية من خاصة امواله ، هذا فضلا عما اصاب طوائف السكان الاخرى ، التي كانت تتصل بالموريسكيين في المعاملات والتبادل من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والاديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيرا من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة اموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة ان تعول كثيرا من محاكم التحقيق التي اوشكت على الأفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء اموالها . وقد بيعت اموال الموريسكيين واراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على اصفيائه من الوزراء والنبلاء والاحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى الجزء اليسير منها .

---

(٣٥) رحلة الوزير الغساني ، المسماة : « رحلة الوزير في افتكاك الاسير » — (العرائش ١٩٤٠) ص (٤٤ — ٤٥) .

ويقدمون مثلا لما اصاب اسبانيا من الخراب نتيجة « للنفي » هو مثل مدينة : ثيوداد ريال (المدينة الملكية)[٣٦] عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة الفونسو العالم في القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطا حرة مغرية ، شجعت كثيرا من يهود ومسلمين على النزوح اليها . وفي سنة ١٢٩٠م كان دافعوا الضرائب فيها من يهود (٨٨٢٨) ، فلما اخرج يهود منها في سنة (١٤٩٢م) ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما اُخرج منها هؤلاء مع المدجّنين القدماء ، خرجت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخرجت صناعة النسيج التي انشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها في سنة (١٦٢١م) الى (٥٠٦٠) نسمة والى نحو الف أسرة فقط ، في حين انها كانت تضم من السكان قبل « النفي » اثنتى عشرة ألف أسرة[٣٧] .

وكان مما ترتب على نفي الموريسكيين ايضا ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا منها وراءهم مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث ذيوع النقد الزائف اضطرابا شديدا في المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه والعقوبة عليه وعلى ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الاعدام ولكنها لم تفلح في استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة اعواما طويلة ، وعمد الاسبان بدورهم الى التزييف ، وعوقب كثير منهم امام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيرا من الضرر والارهاق .

ولم تمض أعوام قليلة على نفي الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الاثار المخرّبة كلها في حياة المجتمع الاسباني بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما اصاب الامة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دي ليرما في سنة (١٦١٨م) الى مجلس الدولة ان ينظر في هذا الامر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ، وقدم مجلس الدولة تقريره بعد

(٣٦) Cidad Real.

(٣٧) Dr. Lea : The Morioscos, P. 372-384

عام ، وأشير فيه الى خراب المدن والقرى ، ولكن لم يشر الى نفي الموريسكيين والى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول ان يرجع الشر الى فداحة الضرائب ، والى الترف الذي تعيش فيه الطبقات الممتازة ، واسراف الملك في الاغداق على اصفيائه ، وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالامر ، وقدم عنه تقريرا الى الملك ، ومع ان التقارير الحكومية التي وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر الى نفي الموريسكيين كعامل اساس فيما اصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان في القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة ، ففي سنة (١٦٢٢م) اصدر الملك فيليب الرابع، قرارا بخفض الضرائب على بلنسية ، اشار فيه الى هجرة السكان ، والى ما خسرته المدينة من ضروب الدخل ، التي كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم •

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئا في تخفيف هذه الضائقة، التي طافت بالمجتمع الاسباني ، وشملت سائر الطبقات سواء الانتاج او الاستهلاك ، ومضى وقت طويل قبل ان تستقر الاحوال نوعا ما ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التي أصابتها •

يقول الدكتور لي : « انه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، في القيام بقسط عظيم من الانتاج والتنظيمات المالية في البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون ان يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد اثرها الى اجيال مرهقة » • ثم ينعى على السياسة الاسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وانه لمن خواص السياسة الاسبانية في ذلك العصر ، أنه لم يفكر احد في هذه الشؤون ، ولم يحتط أحد في المباحثات الطويلة التي جرت في قضية الموريسكيين • وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التي ينفذ بها النفي ، وماذا

يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الاطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح اخفاق السياسة الاسبانية »(٣٨) .

وجوابا على هذا التساؤل ، فأن الذي حجب التفكير السليم عن الذين بيدهم الامر في اسبانيا يومئذ ، وهم رجال الدين والنبلاء المقربون للملك ، الذين هم صانعوا القرار ، هو امران : التعصب الاعمى المتسم بالجهل المطبق، والمتمثل في كره الاسلام والمسلمين . ومحاولة القضاء عليهم قضاءا مبرما . والثاني ، هو حرص اولئك الزمرة على اموال الموريسكيين المنقولة وغير المنقولة ، ورغبتهم الجامحة في اغتصابها لأنفسهم في غطاء من القرارات الملكية، دفاعا عن حاضر اسبانيا ومستقبلها ظاهريا ، واقتناصا للمكاسب المادية لانفسهم واقعيا ، حتى ولو ادى جشعهم الى الاضرار ببلدهم عامة ، ورخاء الفرد الاسباني خاصة . ولم يكن نشاط الموريسكيين مجهولا على النطاقين الحكومي والشعبي في اسبانيا ، فنشاطهم واضح معروف لا يخفى على احد ، وقد مر بنا ان قسما من النبلاء فاتحوا الملك في محاذير نفي الموريسكيين على الزراعة في اسبانيا ، فلم يفلحوا في توسطهم ، ويبدو ان هؤلاء النبلاء كانوا من الاقطاعيين الذين يستفيدون من مهارة الموريسكيين الفذة في الزراعة ، وتوقعوا ان مزارعهم سيتسرب اليها الخراب بعد نفي الموريسكيين ، وهذا ما حدث فعلا ، وعلى نفسها جنت براقش التي أعماها التعصب والجشع ، فقد كان صانعوا القرار الاسباني يومئذ متعصبين اولا ومنتفعين ثانيا ، فخرب تعصبهم بلادهم ، وانتفعوا بعددهم المحدود ، وأضروا الشعب بأسره ، وعلى رأسهم صفوته الموريسكيون بلا مراء .

تلك هي النتائج المادية الواضحة ، الاقتصادية والاجتماعية ، التي جنتها إسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لأبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت

(٣٨) Dr. Lea : The Moriscos; P.387

إسبانيا زهاء قرن تعمل بأقسى وسائل الأرهاق والمطاردة على استصفاء ما بقي من فلول الامة الاندلسية ، في الارض التي بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والامن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول الى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، ان تبقى عليها ، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت في سبيل اسطورة من التعصب والجهالة ، ان تقضي عليها بالتشريد والنفي النهائي ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من افضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا ان جاء نفي الموريسكيين ، في وقت اخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ينحدران سراعا الى الحضيض ، وجنح المجتمع الاسباني الى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها في التدهور ، فجاء نفي الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التي أخذت في التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحا عميقا لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فأنه من الواضح ان يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفي الموريسكيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما اصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والانحلال .

ب ــ على أن التفكير الاسباني يختلف في هذا الرأي وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالاخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، واكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفي الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الديني ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا ، وهو مؤرخ من مؤرخي القرن الماضي ، في كتابه الذي نشره دفاعا عن هذه الاجراءات : « بأن عصر اسبانيا الذهبي ، بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وانقذت من مشاغلها الداخلية ، وان النفي كان اعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »[٣٩] . ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون ان رخاء

(٣٩) Bleda . Difensio fidei in Causa Neophg orum aive Morischorum in Hispanios.

اسبانيا قد ذهب مذ اكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم وازدهرت التجارة ، وساد الامن في الداخل والخارج »(٤٠) • ويقول الحبر ڤنتني دي لافونتي في تاريخه الديني : انه من السخرية ان يقال : ان نفي الموريسكيين كان سببا في انحطاط اسبانيا ، فأن أمة قد تفقد مائة وخمسين الفا في وباء او حرب أهلية • ثم يتساءل في تهكم : لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟! على أنه يعترف مع ذلك بأن النفي كان سببا في تدهور دخول الاشراف والكنائس(٤١) • ويرى آخرون من الاحبار ، أن اسبانيا قد دفعت بالنفي ثمنا باهظا،ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون : أن وفرةالرخاء، تذهب بالفضائل ، وانه لا بأس من التقشف مع الايمان ، وان الفقراء استطاعوا بعد اجلاء الموريسكيين ان يجدوا اعمالا(٤٢) •

ولكن خبرا ومؤرخا اسبانيا كبيرا ، هو دون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ، ونفي الموريسكيين في قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكي روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدي اليه معاملتهم بشيء من الانسانية ، يزدادون مقتا لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة • وكان هذا سبب الاضطرابات التي ادت في سنة (١٦٠٩م) الى نفي هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهي خسارة فادحة لاسبانيا تضاف الى خسائرها الفادحة ، ففي مائة وتسع وثلاثين سنة ، انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، مابين يهود ، ومسلمين ، وموريسكيين»(٤٣) •

ويقول الكاردينال ريشليو الفرنسي ، وهو من اعظم احبار الكنيسة في مذكراته ، وكان معاصرا للمأساة : « أنها أشد ما سجلت صحف الانسانية جرأة ووحشية » •

---

(٤٠) Dr Lea : The Moriscos; P. 366 .

(٤١) Dr Lea : Ibid, P. 394-396 . (٤٢) Dr. Lea : Ibid, P. 367

(٤٣) L'orente : Historia Critica de la Inqvisicion de Espana (1815 - 1817).

هذا عن الاحبار ، أما عن آراء البحث الاسباني الحديث ، فانها تختلف في تقدير آثار نفي الموريسكيين اختلافا بينا ، بيد انها تميل على الاغلب الى الاعتراف بفداحة الاثار المخربة التي اصابت اسبانيا من جرائه ، والى اعتباره عاملا قويا في تدهور اسبانيا وانحلالها . بيد انها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفي ، ويرى بعضهم أنه كان اجراء طبيعيا ، وضرورة لا محيص عنها ، وينكر بعضهم الآخر أنه كان كارثة او أنه ترتب عليه آثار مخربة ، ونورد هنا طائفة من آراء عدد من أكابر المؤرخين والمفكرين الاسبان المحدثين ، بدقة وافاضة تسمحان بفهم الروح الاسبانية ازاء هذا الحدث التاريخي الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

ويقول دانفيلا اي كوليادو : « وهكذا تحقق نفي الموريسكيين الاسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا او شيوخا ، صالحين او عقماء ، مذنبين او أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل في ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية ، وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان ، وحاول تحقيقها الامبراطور كارلوس الخامس (شارلمان) وفيليب الثاني ، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها . اما فيليب الثالث ، فكان يزاول سلطانه على يد أصفيائه ، ولذا ألفى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون ، وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الاندلسي ، وقد أنفت عواطف الروح الرقيقة نفسها ، وجها لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الانسانية والدين في صراع ، وخرج الدين ظافرا وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الابناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكي أية رأفة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة في سماء اسبانيا ، واغتبطت الامة اذ أضحت واحدة في جميع مشاعرها العظيمة .

وكان الموريسكيون شديدي المراس ، وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية ، التى تحققت باندماج سائر العروش

في شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوي ، كالذي تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التى تتجه اليها الحركة العامة للفكر القومى ، وكانت الصعوبة كلها تجثم في الدين ، ولم تكن اللغة التى كانت تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو في أى وقت عقبة بمثل هذه الخطورة ، ففى شمال اسبانيا ، وفي شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الجايقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها • وكذلك يوجد مثل هذا التباين في النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء في سبيل وحدة الدين ، والروح القومى ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة التى خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتى جعلتهم دائما في حالة دائمة من التربص والتوجس • ان ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى ، لاخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثا ، ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريسكيون في عهد فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التى كانت لاسلافهم الذين أخضعوا بالسيف وقد ارتضوا حالتهم كمحنة مؤقتة عابرة ، ولم ينبذوا الامل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الاخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم » • ثم يقول : «وانها لخرافة أن يقال : ان الموريسكيين كانوا عنصرا مفيدا في انتاج اسبانيا ، ولوا أنهم كانوا كذلك ، لحملوا الرخاء الى بلد المغرب حيث ذهبوا »(٤٤) •

---

(٤٤) M. Danvila Collado : La Expulu'sionde Los Moriscos Espanoles (Madrid 1889) P. 320-322.

ويقول المؤرخ الكبير موديستو لافونتى ، وسنرى أنه يذهب في الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة الى أبعد حد :

« وعلى أي حال ، فان مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين، قد جردت اسبانيا ــ وقد كانت يومئذ جدّ مقفرة من السكان ، بسبب الادارة السيئة والحروب المستمرة ــ من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة اخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط في الضرائب . وكان أقل ما في ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التي حملتها الطائفة المنفية معها ، في الوقت الذى كانت فيه المملكة تعانى من قلة النقد ، فكان نقص الذهب الفجائى على هذا النحو أشد وطأة عليها . كذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد المزيف أو المنقوص ، الذى روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم . وأسوأ ما في ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس في الفنون النافعة . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان لهم بأنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش في الري بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعا مناسبا ، كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ، ثم تابعوا بنسج الاصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهي صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الآلية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريسكيين واختصوا بها . وقد عانى كل شيء من نقص في السواعد وفي البراعة ؛ وهو نقص جعلت المفاجات من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظا بطيئا صعبا .

« يقول نفس المؤرخ البلنسي الذي شهد النفي ، وكتب عقب اتمامه ، أنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهى حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت الى قفر جاف موحش . وحدث هنالك كما حدث في قشتالة ، وفي باقى البلاد ،

أن بدا شبح الجوع الداهم ، وبالرغم من أنه قد جيء بسكان جدد الى الاماكن التي هجرها الموريسكيون لكي يتدربوا على العمل في الحقول والمصانع والمعادل ، الى جانب اولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلا ريب) • على ان مثل هذا التمرن لم يؤت نتائجه السريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذى استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص في البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته • وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش في الاماكن المهجورة • واذا كان ثمة بعض السادة الاقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الامر ببعضهم أن طالبوا نفقات للطعام • أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلا شك هم الدوق دى ليرما وأسرته ، وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين •

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية بالنسبة الى اسبانيا ، أفدح اجراء مخرب يمكن تصوره وانه ليمكن ان نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الاجانب ، وهو الكاردينال ريشليو ، أن يسميه : (أعرق اجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في اى عصر سابق) ، والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول : انه لم يبرأ حتى عصرنا •

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الاجراء ثمرة الافكار التى سادت في اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمرة البغض التقليدى المتأصل ، الذى يكنه الشعب لغالبيه وأعدائه الالداء القدماء • وليس مما يمكن انكاره ، أنه كان مويدا لفكرة الوحدة الدينية ، التى دأب على العمل لتحقيقها واكمالها الملوك الاسبان والشعب الاسبانى • بيد أنا لا نعتقد أنه كان من البراعة

(ما عدا اعتباره صراعا مقررا هو من خصائص العصور الوسطى) أن نصل الى الوحدة الدينية بطريق افناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى . وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والاقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة .

« وأما كونه اجراء سياسيا ، قصد به الى تحقيق سلامة الدولة وسلامها ، فقد كان ممكنا أن نسوغ اتخاذه لو كانت المؤامرة حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة ، وكانت الوسائل قوية ، والخطر داهما ، وذلك كما افترض الوزير المقرب والاسقف ربيرا والنصحاء والآخرون . أجل لم يك ثمة شك في أنه كانت هناك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لاسبانيا ، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين . بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفي ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين في بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن . كما أنه لم يكن ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين في أراغون وفي مرسية ، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الاقليمين ، وكذلك لم يكن الموريسكيون في قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه . وعلى أى حال ، فأنه متى ذكرنا، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين واخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالاسبان والنصارى ، لم نوفق الى تأليفهم في العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الامة المغلوبة في الكتلة الكبرى للامة الغالبة ، ولم نوفق الى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لجأنا بلا ضرورة الى وسيلة افناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك ، فأنا لا نستطيع أن ننظر بعطف الى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ، ولا الى حزمهم أو سياستهم »(٤٥) .

---

(٤٥) Modesto Lavente : Historia General de Espana (Madrid 1862) T. VIII. P. 211-214

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذو حذو لافونتي في تقديـره وتعليله ، وينقل بعض أقواله : « ومع ذلك ، فانه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الاعضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريسكيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الامة الاسبانية كلها ، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصنّاع الموريسكيين، يحملون معهم بذور الحضارة والحرث . وقد قال كامبومانس الشهير : « ان بدء تدهور صناعاتنا يرجع الى سنة (١٦٠٩م) حينما بدىء بنفى الموريسكيين. فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الامة المتواليـة ، وعبثا يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر ، الى أسباب أخـرى ، فهى وان كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطع الامة حتى اليوم أن تنهض من عثارها » ... « ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية في الاسبان أثرين سيئين : الاول : أنهم اعتبروا هذه المهن من الامور الشائنة . والثانى : أنهم لم يتعاموا شيئا منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريسكيين فيها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش في الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعا مناسبا ، كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة .

« ثم تابعوا بنسج الاصواف والحرائر ، وصنع الورق والجـلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الآلية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها، ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص في الايدى وفي المهارة كان من المستحيل ملؤها في الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤها مبهظا بطيئا صعبا . وقد بلغ النقص في الانفس ، وفقا للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الاقل نحو مليون . ثم يأتى بعد ذلك نقص

العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، واخيرا يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن ، وهو الذى ملئوا به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة .

« ومن ثم ففى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق : ان بلاد العـــرب السعيدة ، قد استحالت الى بلد العرب الفقراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، ان حديقة اسبانيا الغناء قد استحالت الى صحراء جافة مشوهة . وقد حل شبح الجوع بالاختصار في كل مكان ، وحـــل محـــل المرح الصاخب للقرى العامرة ، الصمت الموحش في الامكنة المهجورة ، وبدلا من ان ترى أمامك العمال والصناع ، فانك تغامر بأن تقابل قطـــاع الطرق يملؤونها ويجثمون في أطلال القرى المهجورة . ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من مخلفات المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم الى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لاطعامهم ، ولـــم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوقدي ليرما واسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال.

« واذاً فقد كان نفى الموريسكيين مـــن الناحيـــة الاقتصادية ، يعتبر بالنسبة الى اسبانيا ، أفدح اجراء مخرب يمكن تصوره . وانه ليمكن أن تتسامح في المبالغة التي يصفه بها سياسي أجنبـــي هـــو الكاردينال ريشليو . حيث يصفه بأنه «أعرق اجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق». والحق ان الصدع الذي منيت به ثروة اسبانيا العامة منجرائه كانمن الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول : انه لم يبرأ حتى يومنا »(٤٦).

بيد ان خانير مع ذلك يقول : ان النفى كان ضرورة دينية وسياسية ، وان الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطع جوهرة للامة الاسبانية .

---

(٤٦) Dr. Florecio Janer : Condicion Social de Los Moriscos de Espana (Madrid 1857). P. 100-101

ويعلق المؤرخ الاجتماعي بكاتوستى ، في الفصل الذى عقده عن « بؤس اسبانيا العام » في كتابه : « عظمة اسبانيا وانحلالها على نفى الموريسكيين ، فيقول : « كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت بأسبانيا • أجل ، لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له • ولكنهم وجدوا عقبة كأداء في معارضة الملكة ايزابيلا • وفي سنة (١٥٢٩م) ، بذل أسقف اشبيلية ، جهودا مضنية مضاعفة في هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثانى ، كان هذا الموضوع يثار من وقت الى آخر ، ولكن أمكن فقط في عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح •

« والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق الملك ، وعلى نصحائه وأسلافه ، تتلخص في انهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة سبل الحياة المستقرة الهادئة ، ولم يكن لهم من القوة او الكياسة او الحزم ما يمكنهم من اخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التي عاشت اسبانيا في أوقات ، كانت فيها الاحقاد في أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين •

« وقد أثار الاسراف في فرض الضرائب وبخس الاعمال ، والاضطهاد الدينى ، ومساوىء ديوان التحقيق ، هذه الارواح التى قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الاجراء الشاذ المتطرف •

« ان المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نفى الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكى يشيد بالعمل الرائع ، انما يدافعون عن امور سيئة ، أو يرغبون في أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الامة ، وهم في تسويغ مثل هذا الاجراء ، لم يراعوا الا ضرورة الساعة • واذا فرضنا جدلا ضرورته للسياسة باسم السلام والسكينة العامة،

وهى التى اتخذت لتسويغ كثير من الاخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فأنا لا نستطيع ان ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقته أخطاء السلطة التى واجهت تلك المشكلة القاسية ، ورأت أن تقصي الموريسكيين عن اسبانيا ، لانها شعرت بانها عاجزة عن اخماد ثوراتهم المستمرة .

« ان فقد هذه السواعد في الاعمال الزراعية ، وفي كثير من الفنون والاعمال ، والازدراء الذى كان الاسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التي وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التي لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التي اضحى عبؤها يقع فقط على عاتق الشعب الاسباني ، لكي يعوض ذلك ما خسرته الدولة مما كان يؤديه الموريسكيون : هذه ربما كانت الاسباب السريعة للبؤس العام .

« ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم في ذلك ، اذ يبدوا لنا العدد أمرا لا أهمية له . وسواء كان المنفيون كثرة أو قلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطرابا خطيرا .

« بمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلى في المملكة الى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق في الحفلات الشائقة ، وينسب الى فيليب الرابع ما كان يمكن صدوره من فيليب الثانى أو كارلوس الخامس »[٤٧] .

ويرى العلامة منندث اي بلايو ، وهو من اعظم المفكرين ، والنقدة الاسبان المحدثين ، أن نفي الموريسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ،

---

(٤٧) Picatosti : Estudios Gobae Ia Grandetey de Cadencia de Espana (Madrid 1887). P. 101 - 102 D. Felipe

ويشرح في كتابه عن : « الخوارج الاسبان » على النحو الآتى : « ولنقل الآن رأينا في مسألة النفى ، بكل وضوح واخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة ، بروية وبلا تحيز • ولن أتردد بالجهر به ، وان كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر ابداءه • فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الاسلامى بيننا في القرن السادس عشر ؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن في أى جزء من أوروبا • فكيف يستسيغ وجوده في تركيا أولئك الانسانيون الاجانب الذين يصفوننا بالبربرية لاننا قمنا باجراء النفى ؟ وانهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخلص ، مهما كان دينهم عائقا لكل تمدن ، أولئك النصارى المنافقون ، والمرتدون المارقون ، الذين لم يحسن اخضاعهم ، واولئك الاسبان الاوغاد ، الاعداد الداخليون ، خميرة كل غزو أجنبي ، الجنس الذي لايقبل الاندماج، كما اثبتت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف • فهل يعتبر ذلك تسويغا للذين مزقوا عهود غرناطة ، أو لاولئك الثوار الذين أحزموا الهياج في بلنسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الاطلاق بيد انه وقد سادت الامور منذ البداية على هذا النحو ، فانه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الاحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الامل في تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق (كذا !!) والغيرة الطيبة التي أبداها رجال مثل تلاڤيرا ، وڤيلانيڤا ، وربيرا ، واذاً فلم يك ثمة محيص من النفي • وأكرر أن فيليب الثاني قد أخطأ في كونه لم ينفذه في الوقت المناسب ، وانه لمن الحمق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء ، والمعارك ، والمذابح ، بين الاجناس ، تنتهي بصورة أخرى غير النفى أو الفناء • ذلك ان الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الاقوى •

« وأما أن النفي كان حدثـا مقوضـا ، فهذا ما لا ننكـره ، فأنه مـن المقرر أنه في العالم يمتزج الخير والشر دائما • وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هى السبب الاساس في اقفار بلادنا من السكان ، وان كان لها أثر في ذلك • وبعد ، فان ذلك يجب ألا يعد الا كأحدى قطرات الماء في جانب نفي يهود ، واستعمار أمريكا ، والحروب الخارجية في مائة مكان معا ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهى أسباب نوه بها كلها بأيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرنادث نافاريتى في نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة ، وما كانت ، بل وليست الاجزاء المقفرة من السكان في اسبانيا ، هى التى تركها العرب ، كما انها ليست أسوأ زراعة ، وهو ما يدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة من جـراء نفى كبـار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الاثر ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لو اننا وقفنا فقط عند عويل، أولئك الذيـن تأملوا الحقول المجدية غداة تنفيذ أوامر النفي • ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعـر الساذج الشيوعي نوعـا جسبار دى أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين، وأن الكثرة من الناس قد غنمت وغدا :

الاغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء
والصغار كبارا ، والكبار صغارا

« ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاهـا الاخـلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست الا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى • ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاما أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكوا اديا كيث : « يكفون وحدهم لاحداث الخصب والرخاء في سائر الارض ، لبراعتهم في الزراعة ، وقناعتهـم في

الطعام » . هذا بينما يصف هذا السكرتير النصارى القدماء بقوله : « انهم قليلوا الخبرة في الزراعة » . على أنه من المحقق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الري البديعة ، التي ربما كان من الخطأ أن تنسب الى العرب وحدهم ، قد أحييت في هذه المناطق حتى يومنا . واذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فان تأثر الصناعة كان أقل . ذلك لان للصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن ، قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لان الصناعات الرئيسة ، اذا استثنينا الورق والحرير ، لم تكن في أيدي الموريسكيين ، وقد كانوا دائما عمالا أكثر منهم صناعا . فاذا قيل مثلا : ان المناسج التي بلغ عددها من قبل في اشبيلية ستة عشر الفا ، لم يبق منهـا في عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله الى واقعة النفي ، فان اصحاب هذا القول ينسون انه لم يكن في اشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفي بخمسين عاما ، كأنما آثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب في ايطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية . ان اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التي كانت تتدفق من هناك ، فثير الجشع ، وتذكي أطماعا يسهل تحقيقها . ذلـك هو السبب الحقيقي الذي أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعبا من الاشراف المتسولين ، وانه لمن المضحك أن ننسب الى سبب واحد ، ربما كان أقل الاسباب ، ماكان نتيجة لاخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الديني .

« والخلاصة ، أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فأننا ننظر الى اجراء النفي العظيـم ، بنفس الحماسة التي امتدحه بها لوبي دي ڤيجـا وثرڤانتس ، وكل اسبانيا في القرن السابع عشر ، باعتباره ظفرا لوحدة الجنس ووحدة

الدين واللغة والتقاليد • أما الاضرار المادية ، فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قاتمة ، الى مهاد خصبة وحدائق غناء • وأما الذى لا يشفى ، وأما الذى يترك دائما الاحقاد الدموية الابدية ، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال • ولما هدأت آثار النفى ، أضحى النفى ليس فقط اجراء محمودا ، بل كذلك اجراء ضروريا • ولم يكن ميسورا أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ، مثل هذه النتائج تقترن دائما بالانقلابات المفروضة »(٤٨) •

ومن الواضح أن هذا الدفاع عن النفى ، يصدر عن تعصب أعمى ، ومع ذلك لم يستطع أن يحجب أضرار النفي على اسبانيا فيما كتب ، ولو أنه اعترف بذلك في ثنايا ردة المتهافت بصورة غير مباشرة •

ويعلق الدكتور لي ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، على آراء المفكرين والمؤرخين الاسبان بقوله : « اذا كان نفى الموريسكيين ، كما يقول مننديث اى بلايو ، تتيجة محتومة لقانون تاريخى ، واذا كان قد غدا ضرورة في عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، واذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراغون في الاراضى الاسبانية ، من الامور المأمونة ، وذلك في الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، واذا كان في وسع الملوك النصارى في هذه العصور المضطربة أن يركنوا الى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فان الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال

---

(٤٨) M. Menedezy Pelago . Historia de Los Heterdoxes Espanoles, P. 339-343

المفرق الذى يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب تتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا الى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الاسبانى الى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكاردينال خمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين في عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الطريق الخطوة المحتومة في طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة .... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء في الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله في الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل في ظل المؤثرات الدينية ، التي غلبت على السياسة الأسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط كان يمكن العمل على ارضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية في قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءا حتى غدوا اغراء لاتصال كل عدو من الخارج ، مثارا دائما لجزع السياسة الاسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والابعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكاردينال خمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان من الميسور تداركها بسرعة ، لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمما أخرى من ان تنهض من كوارث أشد . ان انحلال اسبانيا لا يرجع فقط الى خسارتها لجزء من السكان ، بنفي اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ، ولكن الخطب يرجع الى أن اليهود والعرب المتنصرين ، كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معينا لحياة الاخرين ، وبينما كانت أمم اوربا الاخرى تنهض وتسير الى الامام في مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل

شيء في سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعا الى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للاحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد فيها كل نزعة الى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل في سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد الى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر ، والى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم في طليعة الامم الاوروبية ازدهارا . ومهما كانت قيمة الخدمات التي أدتها ايزابيلا الكاثوليكية والكاردينال خمنيس ، فان السيىء في عملهما يفوق الحسن ، لانهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت في سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى »[٤٩] .

وأخيرا يجمل الدكتور لي خلاصة بحثه المستفيض في مأساة الموريسكيين في هذه العبارة الموجزة القوية : « ان تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصة لجميع الاخطاء والاهواء التى اتحدت لتنحدر بأسبانيا في زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس الى ذلتها في عصر كارلوس الثانى »[٥٠] .

ويقول سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط الى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث الى كثير من الأسر النبيلة ، التي أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الاخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع

(٤٩) Dr Lea : The Moriscos; P. 395-397 and 399-401

(٥٠) Dr Lea : The Moriscos; P. V

والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالامة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الاخير »[٥١] •

ويمكن تلخيص رأى النقد الاسبانى المعاصر ، بما سمعه الاستاذ محمد عبدالله عنان من الاستاذ مننديث بيدال الذى نقلنا رأيه فيما سلف ، وهو من أعظم المؤرخين والنقدة الاسبان في هذا العصر ، فقد حدثه الاستاذ عنان في مدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فقال : ان لا ريب أن اسبانيا قد منيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية ، لانها خسرت بأخراجهم شعبا مجدا عاملا بارعا في الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الانقلاب البروتستانتى حملت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت في معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مفرقة •

« ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة ، وكانت أيضا من آثار الرجعية الكاثوليكية • وما كان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكا ضعيفا يعوزه الذكاء والحصافة • وقد غلبت السياسة الدينية والكنيسة في هذه المسألة • ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فأن العلامة ربيرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الاقل من الاسبان الخلص الذين اتخذوا الاسلام في عهود مختلفة ، ثم أرغموا على التنصر بعد سقوط غرناطة ، وصاروا موريسكيين » •

ويسلم الاستاذ بيدال بأن نفي الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال : انه السبب الرئيس لهذا الانحلال، ثم يقول : « والواقع ان هذه مسألة معقدة ، واعتقد أن من أهم أسباب

(٥١) Scott : The Moorish Empire in Europe; V.III. P. 328

(٥٢) نهاية الاندلس (٤١٢) •

انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنيســة الناهضة لحركة الاصلاح الدينـي ــ البروتستانتية ــ وهو عنف لم يقــع مثله في أي بلــد اوربي آخــر ، بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الاسبانية »(٥٢) .

ويبدى دى ماريليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساسا لكتابه عــن « تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا والبرتغال » حماسة في تقدير تراث الامة الاندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها ، ويعلق في خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين في تلك العبارات الشعرية المؤثرة : « وهكذا اختفى من الارض الاسبانية الى الابد ، ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيا بهمته وجده تلك الاراضى ، التى أسامتها كبرياء القوط الخاملة الى الجدب ، فبد عليها الرخاء والفيض ، واحتفــر لها العديــد من القنوات ، ذلك الشعب الذي أحاطت شجاعته الفياضــة في السعود والشدائد معــا ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقــدم والدرس ، في مدنه صرحا خالدا من الانوار ، الــذي كــان ضوؤها المنبعث ينير أوروبا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل اعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه في نظر الخلف ، لونا غامضا من العظمة الخارقة ، ودهانا سحريا من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فهم أنصاف الالهة اليونان .

هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي

ا. د. خليل ابراهيم الكبيسي
كلية الاداب/جامعة بغداد

المقدمة :

حظيت الدراسات الاندلسية باهتمام كبير ومتزايد من لدن الباحثين بحيث غطت هذه الدراسات الكثير من جوانب الحياة لتاريخ العرب والمسلمين في الاندلس ، لاسيما الجانبين السياسي والحضاري ، ومع ذلك لازالت بعض الجوانب بحاجة الى توضيح او اعادة نظر ، ومن بين هذه الجوانب هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي ، هذه الهجرة التي تعددت اسبابها والتي بدأت متقطعة مع بدايات القرن الثالث الهجري واصبحت ظاهرة اجتماعية ملموسة منذ ان انفرط عقد الاندلس في عصر الطوائف واشتدت الهجمة الاسبانية عليها حيث بدأ مسلسل سقوط المدن الاندلسية • ومع استمرار حالة الانحسار استمرت الهجرة حيث كان معظم الاندلسيين يهاجرون من الاماكن والمدن الساقطة الى الاماكن الباقية في حين كان البعض يهاجرون خارج الاندلس ولاسيما الى بلدان المغرب العربي •

لقد تحكم العامل السياسي بشكل عام والديني بشكل خاص في هجرة الاندلسيين التي كانت تشتد مع ضعف الاندلس وتتوقف او تتقلص مع صموده وقوته ، فعلى سبيل المثال تقلصت الهجرة عندما هب الاخوة في المغرب العربي لنصرة الاندلسيين واشتدت مع ضعفهم ، وكذلك الحال عند قيام سلطنة غرناطة حيث تقلصت الهجرة في اوقات قوة هذه السلطنة واشتدت عندما تهاوت هذه السلطنة وسقطت غرناطة آخر معقل من معاقل العرب والمسلمين

في الاندلس ، حيث اصبحت الهجرة الى المغرب العربي شاملة وجماعية واصبحت اعداد المهاجرين بالالاف وحتى من بقي من المسلمين في اسبانيا والبرتغال بعد سقوط غرناطة وجدوا انفسهم مجبرين على الهجرة فراراً بعروبتهم ودينهم او مكرهين عليها بقرارات رسمية مدروسة ومخطط لها •

لقد كان الهدف من هذا البحث دراسة هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي فقط لاعتقادي ان هذا الموضوع لازال بحاجة الى دراسة مستقلة تبرز اسباب الهجرة وتبين مداها ، الا ان بحثاً بمثل هذا البعد لا يمكن ان يكتمل الا اذا تحدثنا عن التهجير القسري للاندلسيين رغم ان هذا البعد قد تناولته اقلام بعض الباحثين ولهذا فقد كان الحديث عنه بالخطوط العامة دون التفاصيل مع التأكيد على روايات التهجير وما ارتبط بها ، وذلك بقصد ان يكون الموضوع متكاملا ، ولهذا صار عنوان البحث : هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي •

المبحث الاول : هجرة الاندلسيين قبل سقوط غرناطة

لابد من الاشارة الى ان الهجرة ، هي حالة نزوح السكان من مدينة الى اخرى ومن بلد الى آخر ، تعددت اسبابها وتباينت نتائجها وهذا ماسنلمسه اثناء الحديث عن هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي •

ولابد من الاشارة ايضاً الى ان الاندلس كانت دار هجرة يقصدها المهاجرون للاستقرار فيها والتنعم بخيراتها ، فمنذ ان بدأت عمليات الفتح سنة ٩٢ هـ بدأت عمليات النزوح الى الاندلس والاستقرار فيها[1] ، بقصد الجهاد في بداية الامر ثم اصبحت الهجرة لغرض الاقامة فيما بعد • لقد كانت الهجرة الى الاندلس على نوعين : جماعية وفردية ، فقد ذكرت المصادر هجرة اربعمائة رجل من وجوه افريقيا مع الحر بن عبدالرحمن الثقفي الذي حكم

(١) ينظر بهذا الخصوص : عبدالواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (بغداد ١٩٨٢) ص ٢٠١ــ٢٢٨ .

الاندلس من ٩٧ ـ ١٠٠هـ[٢] ، كما دخلت الاندلس مجموعات من قبائل العرب برفقة السمح بن مالك الخولاني الذي تولى حكم الاندلس سنة ١٠٠هـ[٣]، الا ان المثل البارز على الدخول الجماعي الى الاندلس تمثل في الطالعة الشامية التي دخلت الاندلس سنة ١٢٤هـ مع الوالي بلج بن بشر القشيري وقدر عددها بعشرة الاف رجل[٤] .

اما الهجرة الفردية الى الاندلس فقد كانت متواصلة مع الايام ومع استقرار الاوضاع والنهوض الحضاري الذي شهدته الاندلس ولاسيما في القرون الاربعة الاولى من تاريخها ، حيث قصدها الكثير من العلماء والادباء والشعراء والمغنين والتجار وغيرهم ويكفي ان نشير في هذا المجال الى ان المقري افرد في موسوعته عن التاريخ الاندلسي الموسومة «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » باباً بدأه بذكر بعض الوافدين على الاندلس من اهل المشرق حيث قال : « اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم فضلا عن غيرهم »[٥] .

والمتتبع لتاريخ الاندلس يلمس مصداقية هذا القول ولاسيما في القرون الاربعة الاولى حيث اصبحت الاندلس تستقطب المهاجرين وذلك لما كان فيها من استقرار سياسي وازدهار حضاري ولاسيما في عهد الخلافة حيث اصبحت الاندلس عامة ، وقرطبة واشبيلية وطليطلة وبلنسية وغيرها من حواضر الاندلس خاصة ، مراكز علمية تعج بالحركة والنشاط في كل ميدان من ميادين الحياة .

(٢) ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال ، ج٢ (بيروت ١٩٦٧) ص٥ ، المقري ، احمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، ج٣ (بيروت ١٩٦٨) ص١٤ .

(٣) طه ، عبدالواحد ذنون ، الفتح ، ٢١١ .

(٤) ابن القوطية ، ابو بكر محمد ، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، (بيروت ١٩٥٧) ص ٤١ ، وينظر مثل اخر ، ص ٤٤ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/٥ .

ان حالة الاستقرار التي شهدتها الاندلس في القرون الاربعة الاولى من تاريخها لا يعني انها لم تتعرض الى بعض الفتن والاضطرابات كان من نتائجها هجرة بعض الاندلسيين من مدينة الى اخرى او هجرتهم الى خارج الاندلس ولاسيما الى اقطار المغرب العربي وهذا ما سيتضح فيما يأتي من البحث •

الا" ان الهجرة من الاندلس اصبحت ظاهرة اجتماعية ملموسة بعد سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف ، اي مع ضياع هيبة الاندلس وفقدان وحدتها، فصار الخط البياني للهجرة يتصاعد مع تصاعد الاحداث والانقسامات ومع اشتداد هجمات الاعداء وبداية سقوط المدن الاندلسية •

وفي العموم يمكن ان نميّز نوعين من الهجرة الاندلسية : الطوعية والقسرية • فالهجرة الطوعية تكون في الغالب من دار الاسلام الى دار الاسلام من مدينة الى اخرى او من بلد الى آخر ، ومن بين اسبابها الرحلة في طلب العلم او الرحلة لغرض اداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم او بقصد العمل والتجارة وما الى ذلك ، وبما ان قسماً من هؤلاء الراحلين يقيمون في الاماكن التي رحلوا اليها فقد اصبحوا في عداد المهاجرين • وقد اورد المقري اكثر من نموذج لمثل هؤلاء الراحلين وذلك في الباب الخامس من كتابه الذي عقده للتعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى المشرق العربي[٦] •

اما الهجرة من اجل الرباط او الجهاد في سبيل الله فهي معروفة ومنتشرة في العالم العربي الاسلامي ، ومن امثلتها بالاندلس انه في سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م رست سفينة تحمل بعض البحارة الاندلسيين في جنوب شرق فرنسا في منطقة البروفانس واستقروا في شمال مرسيليا في احدى المواقع الجبلية المنيعة وبدأوا بفتح بعض المناطق المحيطة بهم ونظراً لنجاحهم فقد توارد اليهم المؤيدون من الاندلس والمغرب العربي وقد عرفت قاعدتهم في المصادر اللاتينية

---

(٦) نفح الطيب ، ٥/٢ وما بعدها .

باسم « فراكينستوم Fraxinstum » في حين تعرف في الرواية الاسلامية بجبل القلال واستمرت دويلتهم حتى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م(٧) ٠

اما الهجرة القسرية فانها حدثت لاسباب كثيرة ابرزها :

١ ــ الفتن والاضطرابات : تعرضت الاندلس في حقب تاريخية مختلفة الى فتن واضطرابات انعكست اثارها السلبية على عامة الناس ، حيث كانت تدفعهم في بعض الاحيان الى الهجرة وترك اماكن سكناهم للبحث عن اماكن اخرى اكثر امناً واستقراراً ، سواء اكانت تلك الاماكن داخل الاندلس ام خارجه ، ومن الامثلة الواضحة على ذلك هيجة الربض التي وقعت في قرطبة سنة ٢٠٢هـ في عهد الامير الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل [١٨٠ــ٢٠٦هـ] الذي قضى على الهيجة بعنف وقسوة وتتبع الخارجين عليه بالقتل والتشريد ودورهم بالهدم والاحراق ، ثم امر بإخلاء الربض من اهله وامر بهدمه(٨) ٠ ان القسوة التي عامل بها الامير الحكم اهل الربض جعلت اسمه يقترن بها حتى صار يعرف بالحكم الربضي ، كما سببت هذه القسوة هجرة اعداد كبيرة من القرطبيين المشاركين بالهيجة او ممن تعاطف معهم ، لم يتف الامر عند هذا الحد بل ان الامير امر باخراج من بقي من المشاركين في هذه الهيجة من الحاضرة قرطبة فساروا كل حسب ما امكنه متفرقين في قصي الكور واطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة اهلها الحكم انذاك(٩)

---

(٧) عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (بيروت ١٩٧٦) ص ٣١٣ ، رينو ، جوزيف ، الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي تعريب وتعليق : اسماعيل العربي (الجزائر ١٩٨٤ ص ١٥١ وما بعدها .

(٨) عن تفاصيل هيجة الربض ينظر : الكبيسي ، خليل ابراهيم ، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالاندلس في عصري الامارة والخلافة ، رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص١٣٨ــ١٤٩.

(٩) ابن الابار ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، ج١ (القاهرة ١٩٦٣) ص٤٥ ٠

وهاجر آخرون الى المغرب العربي حيث استقروا في سواحله ، ثم انتقل غالبيتهم الى مدينة فاس ورحب بهم ادريس الثاني وطلب منهم الاقامة بها والمساهمة في تعميرها ، فاستجابوا لطلبه وصار منذ ذلك الحين يطلق على الجزء الذي سكنوه من مدينة فاس اسم « عدوة الاندلسيين » وهذا يمثل اول احتضان مغربي لمهاجرين اندلسيين ، ليس ذلك حسب بل ان قسماً من المهاجرين قدر عددهم بخمسة عشر الفاً اتجهوا الى مدينة الاسكندرية وتمكنوا من السيطرة عليها والبقاء فيها الى ان اخرجهم منها صلحاً القائد العباسي عبدالله بن طاهر ، حيث توجهوا بعد ذلك الى جزيرة اقريطش (كريت) فافتتحوها واقاموا فيها دولة عربية اسلامية استمرت ردحاً من الزمن[١٠] .

ان هجرة الاندلسيين هذه تمثل اول هجرة جماعية قسرية داخل الاندلس وخارجها .

٢ ــ سقوط المدن الاندلسية :

في نهاية القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين تعرضت الاندلس وعاصمتها قرطبة الى حالة مريرة من الفوضى والاضطراب اسفرت عن سقوط الخلافة الاموية بالاندلس وقيام ما يسمى بدويلات الطوائف حيث اصبحت الاندلس مقسمة الى ما يزيد على العشرين دويلة او امارة . ان ضياع وحدة الاندلس وانفراط عقدها افقدها قوتها وجعلها تسير من ضعف الى ضعف ، وقد استغل اعداء الاندلس المتربصين بها هذه الفرصة فسيطروا على اجزاء مهمة من الاراضي الاندلسية ونجحوا في سنة ٤٧٨هـ من الاستيلاء على مدينة طليطلة[١١] قاعدة الثغر الاوسط ، ان سقوط طليطلة نكبة كبيرة حلت بالامة في الاندلس وحدث دق ناقوس الخطر في الاندلس مما دفع حكاء وامراء

(١٠) الكبيسي ، دور الفقهاء ، ١٤٧ وما احال اليه من مصادر .

(١١) عن سقوط طليطلة ينظر : المقري . نفح الطيب ، ٣٥٢/٤ــ٣٥٤ ، محمد عبدالله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠٧ــ١١٦ ، الحجي ، التاريخ ، ٣٣٠ــ٣٣٢ .

الطوائف الى الاستجابة لمطالب الاندلسيين ومساعيهم الجادة للاستعانة بالاخوة في المغرب العربي ، حيث كان المرابطون في المغرب الاقصى فياوج عظمتهم وعلى اهبة الاستعداد لتلبية المطالب الاندلسية وبالفعل تعاون المرابطون مع الاندلسيين وتمكنوا من الحاق هزيمة منكرة بالاسبان في معركة الزلافة الخالدة سنة ٤٧٩هـ(١٢) . الا ان حالة الضعف والتناحر استمرت بين امراء الطوائف مما دفع بالاندلسيين الى الاستعانة بالمرابطين مرة اخرى ولكن هذه المرة من اجل القضاء على دويلات الطوائف ، فلبى المرابطون النداء وعبروا الى الاندلس واسقطوا امراء الطوائف واصبحت الاندلس تخضع لسلطانهم ، لقد استمدت الاندلس من قوة المرابطين قوة جديدة واستعادوا اجزاء من الاراضي التي فقدوها وحافظوا على ما كان بايديهم باستثناء مدينة سرقسطة التي سقطت بيد الاعداء سنة ٥١٢هـ . واضطر غالبية اهلها الى الهجرة الى المدن والاراضي الاندلسية الباقية .

لم تستمر دولة المرابطين على ما كانت عليه من قوة واخذ الضعف يدب في كيانها بسبب اقتصادها المتواضع والضغط العسكري المتواصل والمتزايد عليها من قبل الاعداء الذين تمكنوا من الاخذ بزمام المبادرة وبدأوا بالتوسع على حساب الاراضي الاندلسية واقتطاع اجزاء مهمة منها ، الا ان الله سبحانه وتعالى هيأ للاندلس دولة فتية حلت محل المرابطين في المغرب والاندلس هي دولة الموحدين والتي نجحت في وضع حد لزحف الاعداء والحقت بهم هزيمة منكرة في معركة الارك الشهيرة سنة ٥٩١هـ(١٣) ، الا انه لم يمض زمن طويل حتى نجحت دول اسبانيا الشمالية من توحيد كلمتها والحاق هزيمة قاسية

---

(١٢) عن معركة الزلاقة ينظر : الحميري ، محمد بن عبدالمنعم ، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: احسان عباس ،(بيروت ١٩٨٤)ص٢٨٧-٢٩٢ الحجي ، التاريخ ، ٤٠٣-٤٠٩ .

(١٣) عن معركة الارك ينظر : الحميري ، الروض ، ٢٧ ، المقري ، النفح ، ٣٨١/٤-٣٨٢ ، الحجي ، التاريخ ، ٤٨٤-٤٩٠ .

بالمسلمين في معركة العقاب[١٤] سنة ٦٠٩هـ وعلى اثرها اخذ سلطان الموحدين في المغرب والاندلس يتداعى واخذ مصير الاندلس يهتز بيد القدر ، وبدأنا نسمع عن سقوط القواعد الاندلسية الكبرى تباعاً ففي سنة ٦٢٧هـ سقطت جزيرة ميورقة وفي سنة ٦٣٣هـ سقطت قرطبة عروس الاندلس وحاضرة الخلافة وفي سنة ٦٣٦هـ سقطت بلنسية كبرى مدن شرق الاندلس وفي سنة ٦٤١هـ سقطت دانية وفي سنة ٦٤٣هـ سقطت جيان وفي سنة ٦٤٤هـ سقطت شاطية وفي سنة ٦٤٦هـ سقطت اشبيلية كبرى مدن غرب الاندلس وقاعدة الموحدين فيها ، وهكذا وفي بحر سنوات معدودة سقطت ابرز قواعد الاندلس ومدنه الكبرى وحلت بالاندلس محنة قاسية جدا[١٥] .

وبعد فمن الطبيعي ان يهاجر القسم الاكبر من سكان المدن الساقطة الى المدن التي لاتزال في قبضة المسلمين ، ويلاحظ ان قلة من سكان هذه المدن هجرتها قبل السقوط عندما شعروا ان الخطر احدق بها وهم ضعاف النفوس ممن تغلب عندهم المصلحة الخاصة على مصلحة الدين والوطن وهم ممن ينطبق عليهم قول ابن الابار : « وغاية اهلها الى هذه الغاية ان يتساقطوا على العدوة وكل منهم مفلت بجُرَيعة الذقن ومسلّم لعدوه الكافر محبوب الوطن »[١٦] في حين بقي القسم الاكبر من الاندلسيين في مدنهم يدافعون عنها حتى سقطت بيد الاعداء ، بعد ان تحملوا ماتحملوا من العذاب والحصار الذي يستمر عدة شهور وفي بعض الاحيان عدة سنوات ، قدم المدافعون خلالها الاف الشهداء وبذلوا ما يمكن بذله من جهود وطلبوا العون والمساعدة من الاخوة في الاندلس والمغرب .

(١٤) ينظر : الحميري ، الروض ٤١٦ ، الناصري ، ابو العباس احمد بن خالد ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، ج٢ (الدار البيضاء ١٩٥٥) ص٢٢٠ ـ ٢٢٤ .

(١٥) ينظر : ابن الابار ، الحلة ، ١٢٧/٢ ، ٣١٨ ، ٣٠٣ ، الحجي ، التاريخ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ـ٤٨٠ .

(١٦) الحلة السيراء ، ٢٩٢/٢ .

وغالبا ما كانت تعقد معاهدات تسلم بموجبها المدن الى الاعداء بعد ان يعطى اهلها الامان والعهود بسلامتهم وسلامة ممتلكاتهم وممارسة عباداتهم وعاداتهم بحرية تامة ، وهذا ما حدث عند سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ وبلنسية سنة ٦٣٦هـ ومرسية سنة ٦٦٤هـ ، ومع ذلك فقد هاجرت اعداد كبيرة من الاندلسيين من المدن الساقطة وقصدت الاماكن التي لازالت في قبضة المسلمين ولاسيما الذين تتوفر لديهم الامكانات المادية او الجسدية او العلمية او المهنية او غيرها . اما من بقي من المسلمين في المدن الساقطة فقد اطلق عليهم مصطلح «المدجنون»(١٧) ووقع عليهم اللوم ولاسيما من قبل الفقهاء وذلك بسبب عدم هجرتهم الى دار الاسلام لان « الهجرة من ارض الكفر الى ارض الاسلام فريضة الى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من ارض الحرام والباطل بظلم او فتنة »(١٨) بل ان الفقيه والقاضي ابو الوليد بن رشد قال في هذا المجال : ان « فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة الى يوم القيامة ، واجب باجماع المسلمين على من اسلم بدار الحرب ان لا يقيم بها حيث تجري عليه احكام المشركين وان يهجرها يلحق بدار المسلمين حين تجري عليه احكامهم»(١٩) لقد وردت هذه الفتاوى ضمن رسالة كتبها الفقيه احمد بن يحيى الونشريسي (المتوفى عام ٩١٢هـ) اسماها « اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر» . ومن عنوان الرسالة يتضح عدم جواز البقاء في دار الحرب وفتوى الفقهاء بانزال العقوبات والزواجر على من بقي منهم ، الا ان هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء جماعات من المسلمين في الاراضي والمدن الساقطة وذلك لاعتبارات دنيوية

(١٧) عن المدجنين ينظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، (القاهرة ١٩٦٦) ٥٦ــ٧٠ ، الحجي ، التاريخ ، ٥٣١ــ٥٣٤ .

(١٨) الونشريسي ، احمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف الدكتور محمد حجي ، ج٢ (بيروت ١٩٨١) ١٢١ ، ١٤٠ .

(١٩) ايضا ، ١٢٤/٢ .

أو أسرية او حياتية خاصة • يضاف الى ذلك التزام الاسبان النسبي في بداية الامر بعهودهم التي قطعوها للمسلمين مما ساعد على بقاء البعض منهم في مدنهم بعد سقوطها •

كان عدد المدجنين يزداد بازدياد عدد المدن الساقطة ، الا انه لم يمض وقت طويل حتى نقضت اسبانيا عهودها ومارست الضغط على المدجنين من اجل طمس شخصيتهم العربية الاسلامية وذلك من خلال حملات التنصير القسري ومنع المدجنين من الكلام باللغة العربية او ارتداء الزي العربي وترك كل ماله علاقة بالعادات والتقاليد العربية الاسلامية ، مما دفع بعدد اخر من المدجنين على الهجرة والفرار بدينهم وكرامتهم الى الاراضي الاسلامية الباقية في الاندلس او الى خارج الاندلس ولاسيما بلدان المغرب العربي • وقد اورد ابن الايار نصاً يؤكد سياسة الضغط والتهجير للمسلمين ، فعندما تحدث عن ابي بكر يحيى بن احمد بن عيسى الخزرجي والي مدينة شاطبة ، ذكر سقوطها بيد الاعداء سنة ٦٤٤هـ ثم قال : « وفي وقتنا هذا وصل بعض الشاطبين يخبر انه اجلاهم عنها مع اهل جهاتها ــ وهم ألوف من المسلمين ــ فتفرقوا في البلاد ، واوى ابو بكر هذا في خاصته الى حصن بمقربة منها وذلك في رمضان من سنة خمس واربعين [وستمائة][٢٠] •

وفي العموم فقد صورت لنا المصادر العربية الاسلامية الحالة السيئة للاندلسيين وهم يهجرون مدنهم بعد سقوطها ، فقد رثا شاعر مجهول مدينة طليطلة بقصيدة طويلة زادت ابياتها على السبعين بيتاً جاء فيها :

واخرج اهلها منها جميعاً   فصاروا حيث شاء بهم مصير
كفى حزناً بان الناس قالوا   الى اين التحول والمسير[٢١]

---

(٢٠) الحلة السيراء ، ٢/٣٠٣ .
(٢١) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٤٨٣ وما بعدها .

وعندما سقطت مدينة قرطبة خرج اهلها منها « ولم يبق من اهلها الا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها »[٢٢] ، وعندما سقطت بلنسية وما يليها من القواعد القريبة نزح الكثير من اهلها الى قواعد الاندلس الباقية ، وفي نفس الوقت عبر الكثير منهم البحر الى العدوة المغربية واستقروا في مختلف انحائها ولاسيما في رباط الفتح ، حيث التمس اهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من اهل مدن شرق الاندلس ، الخليفة الموحدي الرشيد من اجل الهجرة الى المغرب ، فاصدر الرشيد ظهيراً سنة ٦٣٧هـ يرحب بهم ويأذن لهم فيه بالهجرة الى المغرب والنزول في رباط الفتح وقد شدد في الظهير على الولاة والعمال بحمايتهم والرفق بهم وعدم الحاق الاذى بهم او منعهم من تحقيق مآربهم[٢٣] . ان التماس الاندلسيين بالهجرة الى المغرب يمثل حالة نادرة اذ لم يسبق ان استأذن اهل الاندلس حاكماً من حكام المغرب في ذلك ، لان الحدود في العالم الاسلامي مفتوحة وحرية الانتقال من بلد الى آخر تضمنها الشريعة ، الا ان هذا الالتماس ربما كان بسبب كثرة المهاجرين او بسبب الاضطرابات والقلاقل التي كانت تعم المغرب العربي آنذاك لذا اراد الاندلسيون ان يضمنوا سلامتهم في المكان الذي قرروا الهجرة اليه .

وبعد سقوط بلنسية وخروج اهلها منها ارسل الكاتب ابن عميرة الى المؤرخ ابن الابار رسالة جاء فيها :«فيا لله لاتراب درجوا، واصحاب عن الاوطان خرجوا ، قصت الاجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل او الاسر او تسيروا ، فتفرقوا ايدي سبا وانتشروا ملء الوهاد والربا »[٢٤] ومن هذه الرسالة يتضح

---

(٢٢) الحميري ، الروض ، ٥٨ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٤٧٢ .

(٢٣) محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ق٢ (القاهرة ١٩٦٤) ٤٥٥ وعن نص الظهير ينظر : ٧٣٧ ــ ٧٣٨ ، وقد ذكر عنان انه اطلع على نص الظهير في مخطوط محفوظ بمكتبة الاسكوريال برقم ٥١٨ عنوانه « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن علي المكنى بابن المرابط .

(٢٤) الحميري ، الروض ، ٩٨ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤/٤٩٢ .

ان معظم الاندلسيين في مدنهم الساقطة صاروا بين قتيل او اسير او مهاجر ، وقد شبه ابن عميرة حالة اهل الاندلس بعد سقوط مدنهم ، بالاهل وقد اصيب احدهم بالحصبة ففروا منه على مضض خشية العاوى حين قال :

كفى حزناً انا كاهل مُحصب بكل طريق قد نفرنا وننفر[٢٥]

ان تهجير الاندلسين من مدنهم كان في بعض الاحيان شرطاً من شروط معاهدة التسليم ، فعندما اضطرت مدينة اشبيلية على الاستسلام سنة ٦٤٦هـ بعد حصار دام قرابة السنة والنصف ، كان من الشروط ان يخرج اهلها منها ، لذا قام ملك قشتالة بوضع التسهيلات للمهجرين في البر والبحر ، من ذلك انه خصص اسطولا من خمس سفن كبيرة وثمان صغيرة لهذا الغرض، وقد قدر عدد المهاجرين باربعمائة الف منهم مائة الف هاجروا بطريق البحر الى مدينة سبتة وثلاثمائة الف ساروا برا بطريق شريش وتفرقوا في مختلف الانحاء بالمغرب والاندلس[٢٦] .

وعن تهجير اهل مدينة اشبيلية يقول ابن عذاري : « وخرج منها الخاص من اهلها والغام »[٢٧] حتى ان المدينة ظلت خالية بعد ذلك ثلاثة ايام[٢٨] .

وفي العموم فان الغالبية الساحقة من سكان المدن الاندلسية الساقطة كانت تؤثر الهجرة الى ارض الاسلام ولاسيما الى المدن الاندلسية الباقية ، وعندما كانت سلطنة غرناطة قد نشأت في هذه الحقبة فقد اصبحت ملاذا وملجأ للمهاجرين الاندلسيين[٢٩] واصبح هؤلاء المهاجرين قوة عسكرية وحضارية

---

(٢٥) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٤٩٤ .

(٢٦) عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ٤٨٦ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٤٨٢ .

(٢٧) ابن عذاري ، البيان الموحدي ، تحقيق : اميروسي هويسي ميراندة ومشاركة : محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن ابراهيم الكتاني ، (تطوان ١٩٦٠) ٣٨٥ .

(٢٨) الحميري ، الروض المعطار ، ٦٠ .

(٢٩) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٥١٠ .

مضافة لهذه الدولة الفتية بما يملكون من مهارات وامكانات متعددة ، فكان ذلك احد الاسباب الرئيسة التي مكنت هذه السلطنة من الثبات في وجه الاعداء ما ينيف على القرنين والنصف من الزمن[٣٠] .

المبحث الثاني : هجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة

في صفر سنة ٦٠٩هـ/١٦ تموز ١٢١٢م وقعت معركة العقاب ، التي خسر فيها المسلمون خسارة كبيرة ولهذا فقد مثلت هذه المعركة بداية النهاية بالنسبة لدولة الموحدين بل انها كما يقول ابن عبدالملك : « السبب الاقوى في تحيف الروم بلاد الاندلس حتى استولوا على معظمها وافضى الى خلائها من اهل الملة الحنيفية »[٣١]

وقد اعقب هذه المعركة حالة من الضعف الشديد نتج عنه سقوط جملة من القواعد الاندلسية المهمة مثل قرطبة وبلنسية واشبيلية وغيرهما مما اسلفناه وفي هذه الظروف الصعبة استطاع ابو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر ، تأسيس سلطنة غرناطة والاحتفاظ بالبقية الباقية من الاراضي الاندلسية . الا ان الصراع استمر مع الاعداء وكان الاندلسيون يستميتون في الدفاع عن ارضهم ويستعينون في اوقات كثيرة بالاخوة في المغرب العربي وعلى الاخص بدولة بني مرين . وبمرور الزمن ضعفت سلطنة غرناطة بسبب الخلافات والانقسامات، في حين كانت دول اسبانيا الشمالية تتوحد وتزداد قوة وتصلها الامدادات السخية من دول اوربا فتمكنت من التوسع شيئا فشيئا على حساب سلطنة غرناطة ، وكما هي العادة فقد كان اغلبية الاندلسيين في الاماكن الساقطة يهجرون مدنهم واراضيهم او يهجرون

(٣٠) ينظر : عنان، نهاية الاندلس، ٧١ ــ ٧٢ ؛ الحجي ، التاريخ، ٥٢١ ــ ٥٢٢

(٣١) ابن عبدالملك الانصاري ، ابوعبدالله محمد بن محمد ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق : محمد بن شريفة، السفر الاول ، ق١ـ٢ (بيروت د. ت) ٥٦٢ (رقم الترجمة ٨٥٨) .

منها ويلجأون الى مدينة غرناطة وغيرها من المدن والاراضي الباقية بحوزة المسلمين ، في حين كانت مجموعات كبيرة منهم تعبر الى العدوة المغربية لتستقر هنالك .

لقد استمرت حالة الانحسار حتى وقعت المأساة الكبرى بسقوط مدينة غرناطة ، آخر معقل من معاقل العرب المسلمين بالاندلس بيد الملكين الكاثولكيين فرناندو وازبيلا سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وبذلك ينتهي الحكم العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال) بعد ان استمر ما ينيف على ثمانية قرون من الزمن .

اما الامة الاندلسية التي قدر عددها بالملايين(٣٢) ، فقد اصبحت بعد سقوط غرناطة في اراضي غير اسلامية ، لذا نجد مجموعات كبيرة منهم تهاجر الى المغرب العربي ، في حين بقيت اعداد ليست قليلة منهم في مدنهم وارتضوا العيش في ظل الحكم الاجنبي لنفس الاسباب التي ذكرناها سابقا عند الحديث عن المدن الاندلسية الساقطة قبل سقوط غرناطة .

لقد عملت السلطات الاسبانية على دفع الاندلسيين الى الهجرة ويتجلى ذلك بوضوح في معاهدة تسليم غرناطة التي جاء فيها : « انه يحق لسائر غرناطة والبيازين وغيرهما الذين يريدون العبور الى المغرب ان يبيعوا اموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وانه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص ، وانه يحق للسكان المذكورين ان يعبروا الى المغرب ، او يذهبوا احرارا الى أية ناحية اخرى حاملين معهم أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها ، ويلتزم الملكان بان يجهزا في بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب الى المغرب ، وان يقدما خلال الاعوام الثلاثة التالية السفن لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه ،

---

(٣٢) قدر عدد المسلمين في الاندلس لدى سقوط غرناطة بما لايقل عن ستة ملايين والى ثمانية ملايين اذا اضيف اليهم المدجنون في المدن التي سقطت قبل غرناطة . ينظر ، عبدالرحمن علي الحجي ، محاكم التفتيش الاسبانية وسراديب الموت فيها ، المناهل ، العدد ٣١ لسنة ١٩٨٤ (المقرب ٢ ٤٠٢ .

ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة اي اجر او مغرم ، وانه يحق العبور لمن شاء بعد ذلك نظير دفع مبلغ دوبل واحد عن كل شخص »(٣٣) ومما تقدم يلاحظ ان السلطات الاسبانية كانت تشجع الاندلسيين على الهجرة وان هذه السياسة كانت متبعة قبل سقوط غرناطة ، فقد كتب ملك قشتالة الى سلطان غرناطة سنة٧٩٥هـ يقول له : « قل لمن اراد الاقامة في الاندلس من المسلمين فعليه الصبر ومن اراد الجواز الى العدوة يبيع املاكه الى النصارى بالثمن الوافي فعليه الأمان والعهد »(٣٤) ٠

اضافة الى سياسة الترغيب التي اتبعتها السلطات الاسبانية لدفع الاندلسيين على الهجرة فانها كانت لاتتوانى في اتخاذ اي قرار يخدم مصالحها من ذلك قرارها بابعاد ابي عبدالله سلطان الاندلس الى العدوة المغربية خلافاً لشروط معاهدة التسليم ، وقد اجتمع مع السلطان خلق كثير ممن اراد الجواز، فركب ابو عبدالله ومن معه المراكب وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ثم ارتحل الى مدينة فاس(٣٥) ٠ وكان ذلك اواخر شهر ذي الحجة عام ٨٩٨هـ اوائل شهر تشرين اول سنة ١٤٩٣م وقد عبر البحر مع السلطان عدد كبير من الوزراء والقادة والاكابر من صحبه ممن آثروا الرحيل وبلغ جميع الذين عبروا معه الفا ومائة وثلاثين شخصا(٣٦) ٠

---

(٣٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٤٦ ٠

(٣٤) مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر او تسليم غرناطة ونزوح الاندلسيين الى المغرب ، تحقيق : الفريد البستاني (العرائش ١٩٤٠) ٤٧ ٠

(٣٥) مجهول ، نبذة ، ٤٣ ، ٤٧ ؛ المقري ، احمد بن محمد ، ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا واخرين ، ج١ (القاهرة ١٩٣٩) ٦٧ الناصري ، الاستقصا ، ٤/١٣٥ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧

(٣٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٨٧ ، وقد اعتمد في ذلك على ما اورده المستشرق الاسباني لافونتي الكنترا ؛ ثم ينظر : محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة (عمان ١٩٧٧)ص٦٩ هامش رقم (٢) حين عقد مقارنة بين ماذكره لافونتي وماذكره صاحب كتاب نبذة العصر بخصوص الراحلين مع سلطان الاندلس ٠

اما فيما يتعلق بعامة الاندلسيين فان هجرتهم كانت على نوعين : الاولى ذاتية او بدافع الترغيب والترهيب ، والثانية : قسرية اعقبت قوافين التهجير التي اصدرتها السلطات الرسمية لمن بقي من الاندلسيين كما سنرى في المبحث اللاحق .

هاجر الى المغرب العربي بعد سقوط غرناطة مجموعات كبيرة من الاندلسيين ، وذلك بعد ان اصبحوا في ديار يحكمها غير المسلمين وتمشيا مع قواعد الشريعة الاسلامية ومواقف الفقهاء المتشددة والداعية الى الهجرة الى دار الاسلام ، وعلى هذا الاساس نجد العلماء والفقهاء سباقون الى الهجرة ، يقول المقري : ان « جماعة من علماء الاندلس خرجوا الى تلمسان ، منهم القاضي الشهير ابو عبدالله بن الازرق صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل وكتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون وفيه زيادات بديعات وكتاب روضة الاعلام بمنزلة العربية من علوم الاسلام ، وغير ذلك ، وارتحل من تلمسان الى المشرق ... ومنهم بنو داود المذكورين في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهؤلاء خرجوا من الاندلس قبل اخذ غرناطة ، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وانه آخذها لا محالة ، قوضوا رحالهم عنها ، فنزلوا بتلمسان المحروسة ، واخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب رحمهم الله . ومنهم الفقيه الاديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة ابو عبدالله محمد بن الحداد الشهير بالوادي أشي ... وممن خرج بفاس من العلماء الفقيه ابو العباس البقيني ... »(٣٧) واحسن الحظ فقد وصلت الينا وثيقة مهمة تبين لنا على وجه الخصوص الذين هاجروا من مسلمي الاندلس الى المغرب العربي بعد سقوط غرناطة ، جاء فيها : « ثم بادر المسلمون بالجواز الى العدوة من المراسي؛ فخرج من بقي من اهل مالقة في ثلاثة ايام الى بادس [تكتب اليوم بالياء باديس] وخرج اهل المرية في نصف اليوم الى تلمسان ، وخرج اهل الجزيرة الخضراء في نصف اليوم الى طنجة ، وخرج اهل رندة وبسطة وحصن موجر

(٣٧) ازهار الرياض ، ١/٧١ – ٧٢ .

وقرية قردوش وحصن مرتيل الى تطوان واحوازها ، واهل ترقة خرجوا الى المهدية ، وخرج اهل منسين الى بلاد الريف وخرج اهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة واهل مرشانة واهل البشرة الى قبيلة غمارة بزاوية سيدي احمد الغزال ، وخرج اهل بريرة وبرجة وبولة واندراش الى ما بين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم الى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة ، وخرج اهل مرينية في يوم الى مدينة ازيلة [تكتب اليوم : اصيلة] وما قرب منها ، ثم خرج اهل مدينة بليش وشيطة وقرية شريش الى مدينة سلا ، وخرج ما بقي من اهل غرناطة في خمسة عشر يوما الى بجاية ووهران وبرشد زوالة ومازونة ونفطة وقابس وسفاقس وسوسة ، وخرج اهل طريفة في يوم الى اسفي وزمور وانفة ، وخرج اهل القلعة الى اجدير »(٣٨) .

ومن هذه الوثيقة يتضح ما يأتي :

١ ــ ان الهجرة غطت معظم المدن والقرى والحصون الاندلسية المهمة ، وهذا يعني ان الهجرة كانت شاملة ، لانه من الصعب احصاء جميع المهاجرين والاماكن التي هاجروا منها والاماكن التي استقروا فيها ، لسعة الارض وكثرة السكان وعدم توفر الامكانات الفنية اللازمة في ذلك الزمان .

٢ ــ ان المهاجرين الذين ذكروا في هذه الوثيقة كانوا على ما يبدو وجبة لاحقة ، لان المؤلف يستخدم عبارة « من بقي من اهل مالقة او غرناطة ... » وهذا دليل على ان العدد الاكبر من الاندلسيين كانوا قد غادروا مدنهم قبل تاريخ تسجيل الوثيقة وربما كان اثناء محاصرة مدينة غرناطة وتيقن الاندلسيين من وقوع المأساة لا محالة . وهو ما يتضح من النص الذي اورده المقري اعلاه والذي جاء فيه : « وهؤلاء خرجوا من الاندلس قبل اخذ غرناطة ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وانه آخذها لا محالة قوضوا رحالهم عنها »(٣٩) .

---

(٣٨) مجهول ، نبذة ، ٤٨ .

(٣٩) ازهار الرياض ، ١/٧٢ .

٣ ـ من هذه الوثيقة لا تتعرف على المهاجرين الاندلسيين فقط وانما عنى الاماكن التي هاجروا اليها ويلاحظ انهم قصدوا سواحل المغرب العربي [المغرب، والجزائر ، وتونس] وهو امر طبيعي بحكم العوامل الدينية والقومية اضافة الى العوامل التاريخية والجغرافية التي تربط ابناء المغرب العربي بابناء الاندلس .

٤ ـ يبدو لي ان كاتب هذه الوثيقة كان من المطلعين على اوضاع الاندلسيين او دونها عن شخص مطلع عن كثب على احوالهم ، ولا استبعد ان يكون كاتبها احد بحارة السفن التي نقلت المهاجرين الى سواحل المغرب العربي ، وهذا ما يتضح من دقة المعلومات التي اوردها من حيث تحديد اماكن المهاجرين واتجاهات هجرتهم ، ويتضح ايضا من خلال تحديده للمدد التي استغرقتها عملية الابحار ، فهو يذكر على سبيل المثال : ان اهل مالقة استغرق ابحارهم ثلاثة ايام ، واستغرق ابحار اهل الجزيرة الخضراء الى طنجة نصف يوم ، وهو امر طبيعي اذا ما علمنا ان مايفصل بين طنجة والجزيرة الخضراء هو مضيق جبل طارق وان هذه المنطقة بالذات هي من اضيق مناطقه ، تدرك اطلاع كاتب الوثيقة ودقة معلوماته .

٥ ـ وصلت الينا هذه الوثيقة ملحقة بكتاب نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول ، الذي صرح انه وجد هذه الوثيقة مفيدة فالحقها بكتابه . وقد وضع لها محقق الكتاب الاستاذ الفريد البستاني العنوان الاتي « نزوح مسلمي الاندلس الى المغرب »(٤٠)

ليس ذلك وحسب بل وصلت الينا الكثير من النصوص تؤكد هجرة اعداد كبيرة من الاندلسيين الى المغرب العربي ، من ذلك هجرة بنو سراج وغيرهم من انجاد غرناطة القدماء حتى اقفرت مناطق باسرها من اعيان المسلمين ولاسيما منطقة البشرات ، وكان تدفق المهاجرين دليلا على ان الشعب المغلوب لم يكن واثقا من عدل الحكام الجدد ، وانه كان ينظر الى المستقبل بعين

(٤٠) ينظر : مجهول ، نبذة ، ٤٦ ؛ حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس ، ٧٥ .

التوجس والريف[41] . ومن هاجر من غرناطة بعد سقوطها بقليل وبالتحديد في سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م جماعة كبيرة من اهلها على رأسهم ابو الحسن علي المنظري الذي وصفه الناصري بانه كان « رجلا شجاعا من كبار جند ابن الاحمر وكان قد ابلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن »[42] فنزل مع جماعته في موقع قرية مرتيل (او مرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ مهجورة ، فاستأذن الاندلسيون سلطان فاس ، محمد الشيخ الوطاسي في تعميرها وسكناها ، فأذن لهم فاقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة[43] . وبعد ان استقر الاندلسيون في تطوان رجع البعض باتفسهم او بعثوا الى من تخلف من اقاربهم او اصدقائهم فجاءوا بمن بقي من اهلهم[44]، ويقول الحسن الوزان وهو شاهد عيان معاصر لهذه الاحداث وهو يتحدث عن ابي الحسن المنظري : « كانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين ... وكان معه دائما ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة اهل غرناطة ، فجعل يجوب انحاء البلاد بهذا الجيش ... »[45] وبرغم الاعداد الكبيرة التي هاجرت الى المغرب العربي او غيره من الاقطار[46] ، الا ان الباقين في غرناطة او غيرها من مدن الاندلس الذاهبة قدر بالملايين[47] .

لقد حالت الظروف الطبيعية والسياسية بين العديد من الاندلسيين والهجرة الى المغرب العربي فقد ذكر مؤلف مجهول عندما تحدث عن هجرة سلطان غرناطة ومن معه من الاندلسيين ، ان الناس في المغرب العربي اصابهم

---

(٤١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١١ . (٤٢) الاستقصا ، ٤/١٢٤ .
(٤٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١١ .
(٤٤) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج١ (تطوان ١٩٥٩م) ٨٧ .
(٤٥) الوزان ، الحسن بن محمد ، وصف افريقيا ، ترجمة : محمد حجي ومحمد الاخضر ، ج١ (الرباط ١٩٨٠) ٢٤٧ .
(٤٦) ينظر : بوجندار ، ابو عبدالله محمد ، مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٤٥هـ) ٢٠١ ، وما بعدها ، حتاملة، محنة مسلمي الاندلس ٧٦.
(٤٧) ينظر : الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٢ .

آنذاك «شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون ، واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض الناس من الذين جاءوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز ، عند ذلك عزموا على الاقامة والدجن »(٤٨) ، في حين انخدع العدد الاكبر من الاندلسيين بالشروط التي وردت في معاهدة تسليم غرناطة(٤٩) ، والتي اكدت على حرية العبادة والسكن والتملك للمسلمين ، فآثروا البقاء على الهجرة ، الا انه لم يمض وقت طويل حتى نقضت السلطات الاسبانية شروط المعاهدة واخذت تمارس شتى انواع الاضطهاد وفي هذا يقول المقري : « ولما رأى الطاغية ان الناس تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، اخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون اول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا الى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وادركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وقطع عنهم الاذان في الصوامع »(٥٠) ، لم يقف الامر عند هذا الحد بل « امرهم بالخروج من غرناطة الى الارياض والقرى فخرجوا صاغرين »(٥١) ، ثم اعقب ذلك باجراء ثالث وهو ان « دعاهم الى التنصر واكرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة [١٤٩٩م] فدخلوا فيه كرها »(٥٢) ، وقد اعقب قرار التنصير القسري سلسلة طويلة من الاجراءات والقوانين التعسفية الجائرة شملت غرناطة وجميع المدن التي سقطت قبلها حتى « صارت الاندلس كلها نصرانية [في الظاهر] ولم يبق من يقول فيها لا اله الا الله محمد رسول الله جهرا الا من يقولها في نفسه »(٥٣) ، وقد اطلق الاسبان على الاندلسيين الذين اجبروهم على التنصر مصطلح الموريسكيين Moriscos اي المسلمين الصغار واطلق عليهم في بعض الاحيان مصطلح العرب المتنصرين .

---

(٤٨) نبذة العصر ، ٤٤ .
(٤٩) ينظر ما ذكره المقري عن هذه الشروط ، نفح الطيب ، ٤/ ٥٢٥ — ٢٥٦ ؛ ثم ينظر بعض هذه الشروط ، مجهول ، نبذة العصر ، ٤١ ؛ وينظر الترجمة العربية للنص القشتالي للمعاهدة ، عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٥٤ — ٢٥٠ .
(٥٠) ازهار الرياض ، ١/٦٨ .
(٥١) ايضا (٥٢) ايضا (٥٣) مجهول ، نبذة العصر ، ٤٤ .

ان هذين المصطلحين لا ينطبقان على وضع الاندلسيين بعد سقوط غرناطة ولا يعبزان عن واقعهم الديني والتاريخي ، لان مصطلح الموريسكيين فيه اذلال واصغار للمسلمين عامة وللاندلسيين خاصة ، فضلا عما فيه من مسايرة للنظرة المتعالية للاسبان والمبنية على الحقد والكراهية لكل ما هو عربي ومسلم • اما مصطلح العرب المتنصرين، فهو الاخر لايجوز استخدامه لأن الاندلسيين لم يستبدلوا بالاسلام النصرانية وانما اكرهوا عليها وان الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ المؤمنين بالاكراه فضلا عن كونهم منصرين لا متنصرين •

كما اننا نرفض استخدام مصطلح مسلمي اسبانيا لانه يطمس مصطلحنا « الاندلس » بكل ما فيه من وقع في النفوس ، كما ان مصطلح مسلمي اسبانيا لا يفرق بين المسلمين في الاندلس قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها ، فضلا عن كون مثل هذا المصطلح يوحي ببقاء الاندلسيين على الاسلام في ظل الحكم الاسباني دونما اكراه على اظهار النصرانية وهو أمر يخالف الواقع التاريخي للاندلسيين •

وعلى هذا الاساس فاننا ندعو الى رفض هذه المصطلحات وعدم استخدامها والاستعاضة عنها بمصطلح الاندلسيين الكاتمين ، اي الكاتمون لايمانهم تيمنا بقوله تعالى : «مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه»(٥٤) لان الاندلسيين في حقيقة انفسهم ظلوا على ايمانهم واسلامهم وان اظهروا النصرانية، خوفاً على انفسهم من بطش الاسبان واضطهادهم مثلهم في ذلك مثل مؤمن آل فرعون الذي كان يسر ايمانه عن فرعون وقومه خوفاً على نفسه(٥٥)•ان

(٥٤) سورة غافر : ٢٨ .

(٥٥) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القران ، ج٢٤ (القاهرة ١٩٥٤) ٥٧ .

هذا المصطلح ينطبق على الغالبية الساحقة من الاندلسيين وان كان هنالك قلة منهم ارتدوا عن الاسلام فهذا لايمثل الاحالة الاستثناء،الذي لايمكن ان يكون في اي حال من الاحوال معياراً للعموم •

لم يستسلم الاندلسيون للقرارات الجائرة بحقهم ولاسيما قرار التنصر القسري ودافعوا عن ايمانهم وكرامتهم وفي هذا يقول مؤرخ مجهول : « كان بعض اهل الاندلس قد امتنعوا من التنصر وارادوا ان يدافعوا عن انفسهم كاهل قرى ونجر والبشرة واندراش وبلفيق ، فجمع ملك الروم عليهم مجموعة واحاط بهم من كل مكان حتى اخذهم عنوة بعد قتال شديد ، فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم واموالهم ونصرهم واستعبدهم الا اناس في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل منيع وعر فاجتمعوا فيه بعيالهم واموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعة وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم ، فلما دنا منهم واراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه بعد اكثر من ثلاث وعشرين معركة فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان واقناد ، فلما راى انه لايقدر عليهم طلب منهم ان يعطيهم الامان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين فانعموا له بذلك الا انه لم يسرح لهم شيئاً من متاعهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه»[٥٦] كما نجح الاندلسيون ايضا في التصدي للسلطات الاسبانية واعتصموا بالمنطقة الجبلية المجاورة لمدينة رندة واعلنوا الثورة ، وقد حقق الثوار نجاحاً ملموساً مما اضطر الاسبان الى ارسال حملة كبيرة تحت امرة القائد الشهير آلونسودي آجيلار دوق قرطبة ، فوقعت بين المسلمين والاسبان معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون وقتل فيها القائد الاسباني وتشتت قواته ، مما اضطر ملك اسبانيا الى اتباع سياسة اللين والمسالمة مع الثوار فاعلن العفو عنهم بشرط ان يعتنقوا النصرانية في ظرف ثلاثة اشهر او يغادروا اسبانيا

---

(٥٦) نبذة العصر ، ٤٥ .

تاركين املاكهم للدولة فأثر معظمهم الهجرة والجواز الى المغرب العربي ، فهاجرت منهم جموع كبيرة الى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها وقدمت الحكومة الاسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم(٥٧). لانه ينسجم مع سياسة السلطات الاسبانية في القضاء على الانسان العربي المسلم ديناً ولغة وتراثاً .

لم يقف الاضطهاد الاسباني عند قرار التنصير القسري للانسان المسلم بل تعداه الى تراثه الفكري والعلمي ، وقد تزعم هذا الاتجاه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذي لم يكتف بتحريض السلطات الاسبانية على نقض عهودها للمسلمين واكراههم على التنصر ، بل ارتكب عملاً همجياً شائناً وذلك عندما امر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من اهالي غرناطة وارباضها ، وجمعت اكدس هائلة في ميدان باب الرملة في مدينة غرناطة ومنها الكثير من المصاحف البديعة الزخرف والاف من كتب الأداب والعلوم واضرمت النيران فيها جميعا ، وذهب ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات الالوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الاسلامي في الاندلس(٥٨) .

ثم توالى صدور القوانين والمراسيم التي كانت في مجموعها بقصد القضاء على العرب والمسلمين وكل ما يمت اليهم بصلة ، وقد تولت محاكم التحقيق السيئة الصيت ومحققها العام الكردينال خمنيس ومن جاء بعده ، مهمة تنفيذ السياسة الاسبانية الجائرة بحق الاندلسيين الكاتمين ، واتبعت في سبيل ذلك شتى اساليب الاضطهاد والتعذيب والقتل الجماعي ، وقد تم في الاونة الاخيرة اكتشاف مقبرة جماعية للاندلسيين قدرت هياكلها بما يزيد

(٥٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٥ .

(٥٨) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١٦ .

على ثلاثة الاف جثة زاد التقدير بعدها الى نحو الضعف من الرجال والنساء والاطفال ، وهم ضحايا هذه المحاكم الاسبانية[٥٩] .

وفيما يأتي ملخص لابرز القوانين والمراسيم التي صدرت في اسبانيا بحق مسلمي الاندلس :

١ ـ بعد قرار التنصير الشامل الذي صدر في سنة ١٤٩٩م ، اصدر فرناندو مرسوما بالزام الاندلسيين الكاتمين في المدن ان يسكنوا في احياء خاصة بهم سميت « موريريا Moreria »[٦٠] .

٢ ـ في سنة ١٥٠١م صدر قانون يحرم على المسلمين احراز السلاح علنا او سرا وينص على معاقبة المخالفين لاول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم الموت بعد ذلك ، وفي هذا يقول المقري : « ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد »[٦١] .

٣ ـ وفي شهر شباط من سنة ١٥٠٢م اصدرت ايزابيلا مرسوما يخير الاندلسيين جميعا بين التنصير او الرحيل[٦٢] .

٤ ـ وفي سنة ١٥١٥م صدر مرسوم يحرم على الاندلسيين الكاتمين بيع ممتلكاتهم دون ترخيص ومن فعل ، عوقب بالموت لانهم يبيعون ممتلكاتهم ويحصلون على اثمانها ثم يعبرون الى المغرب وهنالك يفصحون عن اسلامهم[٦٣] . بينما تريدهم السلطات الاسبانية ان يهجروا بلادهم ويتركوا ممتلكاتهم ومن ثم مصادرتها .

---

(٥٩) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٣٠ ، ثم ينظر امثلة اخرى ، ٤٠٥ .
(٦٠) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٦ .
(٦١) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .
(٦٢) عادل سعيد بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة (دمشق ١٩٨٥) ١٠٠ .
(٦٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٧ .

٥ ـ وفي سنة ١٥٢٤م صدر مرسوم جديد يجبر كل مسلم على ان يختار بين التنصير او الرحيل ومن لم ينفذ ذلك فمصيره الاسترقاق مدى الحياة ، وتم بموجب هذا المرسوم تحويل جميع المساجد الى كنائس(٦٤) . ويدلل هذا المرسوم على عدم تنفيذ الاندلسيين لمرسوم التنصير الاول او لشعور الاسبان ان من أعلن نصرانيته من الاندلسيين كان في حقيقة الامر يكتم اسلامه .

٦ ـ صدر في سنة ١٥٢٦م في عهد الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) قانون جاء فيه :

أ ـ يمنع استخدام اللغة العربية كلاما او كتابة ، سرا او علانية .

ب ـ يرغم الاندلسيون الكاتمون على تعلم اللغة الاسبانية ، وتسليم كل ما بايديهم من نصوص او وثائق بالعربية .

جـ ـ يؤكد القانون وجوب اجتناب الاندلسيين نهائيا لعقائدهم وعباداتهم وثيابهم التقليدية واسمائهم العربية .

د ـ هدم كل الحمامات العامة .

هـ ـ ابقاء بيوت الاندلسيين الكاتمين مفتوحة الابواب .

و ـ يلزم الاندلسيات الكاتمات بالسفور دون خُمر في اثناء سيرهن بالطرقات(٦٥) .

٧ ـ وعندما تولى فيليب الثاني عرش اسبانيا (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨م) صدرت في عهده قرارات ومراسيم تؤكد وتجدد القوانين السابقة ، ففي سنة ١٥٦٣م صدر قانون يؤكد من جديد تحريم حمل السلاح على الاندلسيين الكاتمين ، كما صدر في سنة ١٥٦٧م قانون يؤكد

(٦٤) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٦ /٤٠٧ .

(٦٥) ينظر : محمد عبدة حتاملة ، التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧ ـ ١٥٩٨ (عمان ١٩٨٢) ٣٠ .

القانون القديم الصادر في سنة ١٥٢٦م ، والقاضي بمنح الاندلسيين الكاتمين ثلاثة اعوام لتعلم اللغة القشتالية ، وكل معاملة او عقد باللغة العربية يعد باطلا ، وان تسلم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوما ، وحرم القانون على الاندلسيين الكاتمين انشاد الاغاني القومية وحرم عليهم الخضاب بالحناء ، وحرم عليهم استعمال الاسماء والالقاب العربية ، وغيرها من اوامر التحريم الجائرة والتي اريد منها جميعا تسديد الضربة القاتلة لبقايا الامة الاندلسية وذلك بتجريدها من مقوماتها القومية[٦٦] . ان هذه القوانين والمراسيم أُريد منها اضافة الى ما تقدم التمهيد لاتخاذ قرار التهجير القسري للاندلسيين الكاتمين ، وقد مثلت هذه القوانين غاية الاضطهاد والاستبداد للامة الاندلسية وفي هذا يقول المؤرخ برسكوت Prescott : « من العسير ان يعثر المرء في صفحات التاريخ على مثال اوضح للاضطهاد تعرض له شعب مقهور من ذلك المتمثل في القوانين التي صدرت في تلك الحقبة بحق الاندلسيين »[٦٧].

ان هذه القوانين والمراسيم الجائرة جعلت الاندلسيين الكاتمين يلجأون الى الثورة بعد ان فقدوا الامل بالرجوع عن اجراءاتها الظالمة بحقهم ، فلم يمض عام واحد على قانون ١٥٦٧م وبالتحديد في سنة ١٥٦٨م ، حتى اندلع لهيب الثورة في مختلف ارجاء الاندلس ، وكانت اشدها لهيبا في منطقة البشرات الجبلية المنيعة حيث التف الاندلسيون الكاتمون حول فتى يرجع نسبه الى بني امية امراء وخلفاء الاندلس واسمه الاسباني فرناندو دي كردوبا وقالور ، ولكنه سرعان ما افصح عن ايمانه واسلامه واتخذ اسما عربيا هو محمد بن امية صاحب الاندلس وغرناطة . كان عدد الثوار يزداد وامكاناتهم تقوى ، ودارت بينهم وبين السلطات الاسبانية سلسلة من المعارك حققوا فيها بعض الانتصارات ، حاولت السلطات الاسبانية استرضائهم باللين واصدرت امرا بالعفو عن جميع الاندلسيين الكاتمين ، الا ان الثوار لم يستجيبوا لانهم

---

(٦٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٥٨ ، ٣٦٠.

(٦٧) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٤٩ .

ايقنوا ان الاسبان لا عهد لهم ولا ذمام ، وفي ٢٨ اكتوبر/تشرين اول سنة ١٥٧٠م اصدر فيليب الثاني قرارا بنفي الاندلسيين الكاتمين من سلطنة غرناطة الى داخل البلاد ومصادرة املاكهم العقارية ، ووقعت اثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجال الحكومة في بعض الانحاء ولاسيما في رندة الى نهب المنفيين والفتك بالنساء والاطفال ، كان مصير المنفيين مؤلما اذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض • ان الاساليب التي اتخذتها السلطات الاسبانية والمتمثلة بتجريد الحملات العسكرية المتتالية على الثوار من ناحية ، واتباع اسلوب الخديعة والغدر من ناحية ثانية ، وعدم وصول اية امدادات خارجية اليهم رغم نداءاتهم المتتالية من ناحية ثالثة ، كل ذلك وغيره من الاسباب انتهت ثورة الاندلسيين الكاتمين(٦٨) • وعادوا الى ما كانوا عليه من قهر واضطهاد ينظرون بعيون وجلة مصيرهم المؤلم ونهايتهم المحزنة ، الامر الذي يتضح بجلاء في المبحث اللاحق •

المبحث الثالث :

التهجير القسري للاندلسيين الكاتمين

بعد فشل ثورة الاندلسيين الاولى التي اندلعت في تشرين الثاني سنة ١٤٩٩م ، وصلت اعداد كبيرة من الاندلسيين الى العدوة المغربية ، وفي شهر شباط سنة ١٥٠٢م اصدرت ايزابيلا مرسومها الشهير الذي نص على ان من واجب اهل قشتالة طرد اعداء الدين المسيحي [كذا] من مملكتي قشتالة وليون وانه يتحتم على جميع الاندلسيين في المملكتين ممن لم يتعمدوا بعد الرحيل ، فلا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولا انثى عمرها يزيد على الثانية عشرة في قشتالة وليون بعد شهر نيسان من نفس السنة الا اذا تنصّروا • لقد اعطى المرسوم مهلة ثلاثة اشهر لكي يختار الاندلسيون بين التنصير او الرحيل ، وفي خلال هذه المدة قررت اعداد كبيرة من الاندلسيين الرحيل ،

---

(٦٨) للتفاصيل ينظر : عنان : نهاية الاندلس ٣٦٥ ــ ٣٧٦ ؛ حتاملة ، التهجير القسري ، ٢٧ ــ ٨٤ ؛ عبدالواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية الاسلامية في الاندلس بعد سقوط غرناطة ، (بغداد ١٩٨٨) ٤٧ وما بعدها •

فهاجر حوالي ٣٠٠ الف مسلم الى العدوة المغربية وغيرها من الاراضي الاسلامية . اما المسلمون الذين ظلوا في قشتالة وليون فقد وجدوا انفسهم منصّرين لا متنصّرين بصورة آلية بموجب هذا المرسوم(٦٩) . غير ان مسلمي الاندلس وان اجبروا على النصرانية وعلى عدم التكلم باللغة العربية او ارتداء ملابسهم التقليدية او ممارسة اي عادة من عاداتهم العربية الاسلامية ، الا انهم كانوا في الحقيقة يكتمون ايمانهم متمسكون باسلامهم وعروبتهم عدة عقود من الزمن، وهو مايتضح من التقارير التي كان يقدمها المطران ربيرا الى الملك فيليب الثالث والتي جاء فيها : ان الاندلسيين لا يتقبلون البركة ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ ولا يعملون شيئا من الامور التي يعملها النصارى ولا يعرفون العقيدة لانهم لا يريدون معرفتها(٧٠) . لقد طارد الجنود الاسبان احد الاندلسيين في الجبال وقبضوا عليه وعذبوه لانه فضل الماء على الخمر ورفض اكل لحم الخنزير(٧١) ، ويروي لنا المؤلف الاندلسي محمد بن عبدالرفيع المتوفي سنة ١٠٥٢هـ/١٦٥٢م في كتابه الموسوم « الأنوار النبوية في آباء خير البرية » حكايته الشخصية التي تقوم دليلا على كتمان الاندلسيين لأيمانهم وتمسكهم بعروبتهم ، وملخص الحكاية : ان ابن عبد الرفيع كان في السادسة من عمره او اقل من ذلك عندما كان والده يطلعه على مبادىء الاسلام ويعلمه اللغة العربية سراً ، بالرغم من ذهابه الاجباري الى مكاتب النصارى في غرناطة ، ويطلب منه ان يكتم ما تعلمه حتى عن والدته واخيه وعمه وسائر اقاربه في حين كان يختبره سراً وعندما تأكد من اصراره وكتمانه طلب منه ان يفشي الامر لوالدته وعمه وبعض اصدقائه ممن يثق بهم ، كما تحدث ابن عبد الرفيع عن المجالس السرية للمسلمين التي كانت

---

(٦٩) للتفاصيل ينظر : بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٠٠ وما بعدها .

(٧٠) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٥ .

(٧١) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١١٧ .

تعقد في منزلهم وهم يتذاكرون الاسلام وايـام المسلمين[٧٢]. والمتتبع يلمس تمسك الاندلسيين بأيمانهم في سلسلة القرارات التي اصدرتها السـلطات الاسبانية ومظاهر الاضطهاد ولوائح الممنوعات مثل حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال وحظر طلي الايدي بالحناء وحظر ذبح الماشية على الطريقة الاسلامية وحظر التكلم بالعربية وحظر ارتداء الملابس العربية ، وعدم التواني عن اكل الميتة مـن الحيوانات وغيرهـا من غرائـب المحظورات[٧٣] ، ومن يخالف هذه المحظورات يحـال الى محاكم التحقيـق وتنسب اليه تهمة اعتناق الاسلام في السر ، فيعرض امواله للمصادرة ويتعرض هو للسجن والتعذيب وفي كثير من الاوقات الى المـوت ، ففي سـنة ١٥٢٩م شهدت مدينة غرناطة حدثا مروعا حين احرقت اول مجموعة اندلسية من ضحايا هذه المحاكم[٧٤] ، وفي مدينة طليطلة وفي جلسة واحدة من جلسات محاكـم التحقيق سيئة الصيت ، صدر الحكم بالاعدام حرقا على ١٢٠٠ مسلم[٧٥] . وعلى الرغم من كل مظاهر الاضطهاد ووسائل القهر المتمثلة بالنفي والمصادرة للاموال وحتى القتل ، فان الاندلسيين ظلوا مؤمنين بعقيدتهم متمسكين بدينهم، الامر الذي كان يرعب الاسبان ويبعث فيهم الخوف والقلق .

ومما زاد في قلق الاسبان وخوفهم تشجيع الاندلسيين للغارات البحـرية وتقديمهم العون والمساعدة للمجاهدين المسلمين الذين كانوا يغيرون علـى السواحل الاسبانية منذ السنوات الاولى التي اعقبت سقوط غرناطة ، لقـد كانت هذه الغارات تلحق خسائر فادحة بالاسبان وتبعث الخوف والاضطراب في سكان السواحل والمناطق القريبة ، الامر الذي اجبر الملك فرناندو الخامس

---

(٧٢) يوجندار ، مقدمة الفتح ، ٢٠ وما بعددها ؛ عنان ، نهاية الاندلس ٣٠٤، وما بعـدها .

(٧٣) بشتاوي ، الاندلسيون الموارکة ، ٢١٧ .

(٧٤) ايضا ، ١١٧ .

(٧٥) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٥ .

على ان يصدر في سنة ١٥٠٧م قرارا يقضي باخلاء الشاطىء الجنوبي من جبل طارق الى المرية لمدى فرسخين الى الداخل[٧٦] ، ومع استمرار سياسة التعسف والاضطهاد الاسبانية تواصلت هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي، وصار هؤلاء المهاجرين يشكلون عنصرا مهما في الغارات البحرية ليس فقط بطاقاتهم العددية وانما بالمعلومات العسكرية والارشادية التي كانوا يقدمونها للمجاهدين عموما ، وذلك لان المجاهدين الاندلسيين كانوا يجدون في هذه الغارات ، الفرصة لضرب عدوهم الذي اسقط دولتهم وقتل اهلهم وصادر ممتلكاتهم وشرد من بقي منهم وحرمهم من ابسط حقوقهم ، كما كانوا يجدون في هذه الغارات البحرية فرصة لمساعدة اخوانهم الاندلسيين الباقين في اسبانيا ولاسيما في الهجرة الى دار الاسلام ، فقد نجحت احدى هذه الغارات على السواحل الاسبانية في ان تحمل معها الفين وخمسمائة اندلسي ، وفي سنة ١٥٧٠م لستطاعت السفن المغيرة ان تحمل معها جمع الاندلسيين في بالميرا ، وفي سنة ١٥٨٤م سار اسطول من الجزائر الى ثغر بلنسية وحمل معه الفين وثلاثمائة ، وفي العام التالي استطاعت هذه السفن ان تحمل جميع سكان مدينة كالوسا ، وقد بلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية بين سنتي ١٥٢٨م و١٥٨٤م ثلاثا وثلاثين غارة ، عدا الغارات المحاية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الاندلسيين المهاجرين[٧٧] .

وقد اخذ نشاط المجاهدين الاندلسيين البحري بالتصاعد مع تصاعد الضغط على الاندلسيين في اسبانيا وصار المجاهدون يسعون لاكتساب الاموال التي تساعدهم على تقوية مركزهم العسكري وتنظيم امور الجهاد في البحر بقصد مهاجمة السواحل الاسبانية ، لهذا بنى الاندلسيون في مدينة الرباط دارا لصناعة السفن وانشأوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن واصلاحها ومعرفة الطرق البحرية ليلا بواسطة حركة النجوم ، وقد

(٧٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٨٥ .

(٧٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٨٨ .

كان منهم اساتذة نبهاء مارسوا المهنة وابدوا كفاءة ومقدرة ، ونتيجة لذلك سيطر المهاجرون الاندلسيون على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ونسقوا عملهم مع مراكز الجزائر وليبيا[٧٨] ، ومع حلول عام ١٦٠٠م تعددت الغارات مما اثار القلق الدائم لدى الاسبان ، كما اثار الدهشة لدى اوربا ، حيث عجزت اسبانيا وكانت يومئذ سيدة البحار عن قمع هذه الغارات البحرية شبه الدائمة التي تقوم بها جماعات مجاهدة من المغاربة في سفنهم الصغيرة سريعة الحركة وكان اللوم يلقيه دائما في ذلك على [الاندلسيين] سكان الثغور الاسبانية فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات وبالمؤن والعون ويعينون لها مواعيد وموضع الرسو والاقلاع[٧٩] .

وبعد النفي النهائي للاندلسيين من اسبانيا عام ١٦٠٩م ، تواصلت الغارات البحرية واشتد تأثيرها مع تواصل المشاركة الاندلسية الجادة فيها ، وقد استخدم حكام المغرب الاقصى المهاجرين الاندلسيين في جيوشهم التي كانت تتصدى للمعتدين على السواحل المغربيةمن الاسبان والبرتغاليين وكذلك في الاغارة على السواحل الاسبانية ، وفي هذا يقول المقري : « ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الان وحصنوا قلعة سلا وبنوا فيها القصور والحمامات والدور »[٨٠] ليس ذلك فحسب بل ان الاندلسيين نجحوا في اقامة دولة لهم في مدينة سلا وبالرغم من صغر مساحتها وقلة عدد سكانها الا انها سجلت انتصارات عسكرية بحرية رائعة على الاسبان وسواحلهم وعلى السفن البحرية التابعة لهم ولغيرهم من الدول الاوربية[٨١] .

---

(٧٨) حسن السائح ، قصة الجالية الاندلسية في المغرب ،ق٢ ، مجلة دعوة الحق العدد (٤) السنة ١٩٨٠ ، ص٥٨ .
(٧٩) جريدة الثورة العراقية ، (نقلا عن اورنيت برس) ، دولة بورقراق ،اعلنت حربها في الاطلسي انتقاما لضياع الاندلس العدد ، ٧٢٥٧ ، في ١٩٩٠/٤/١٣ .
(٨٠) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .
(٨١) للتفاصيل ينظر : جريدة الثورة العراقية، العدد ٧٢٥٧ في ١٩٩٠/٤/١٣ .

وقد تصدى المهاجرون الاندلسيون للمعتدين البرتغاليين الذين هاجموا السواحل المغربية ، وذلك بقيادة البطل الغرناطي ابي الحسن المنظري ، الذي الحق بالبرتغاليين خسائر كبيرة في مدينة سبتة وبلاط الهبط واسر منهم ثلاثة الاف(٨٢) ، وقد تواصلت الحروب بعد ذلك بينه وبين البرتغاليين في المغرب وكان معه دائما ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة اهل غرناطة(٨٣) . ومن الجدير بالذكر ان البرتغاليين لم يكونوا اقل تعسفا واضطهادا للاندلسيين الكاتمين في البرتغال ، ففي سنة ١٤٩٥م اصدر امنويل ملك البرتغال قرارا بالتنصير القسري للمسلمين واليهود في مملكته ، كما باشر البرتغاليون العمل بمحاكم التفتيش [التحقيق] منذ سنة ١٥٣٦م ويبدو ان معظم مسلمي البرتغال رفضوا التنصر ، ومن خلال اشارة اوردها الاخباري البرتغالي دوكوش DeGois ذكر فيها ان ملك البرتغال امنويل سمح لمسلمي البرتغال الذين رفضوا التنصر بمغادرة البلاد خوفا من ان تتخذ الممالك الاسلامية موقفا مماثلا مع النصارى المقيمين بها ولكن هذا الاخباري لم يطلعنا على عدد المهاجرين ولا على البلاد التي التجأوا اليها الا انه ذكر ان الهجرة لم تشمل الجميع(٨٤) . والراجح ان معظم المهاجرين من البرتغال التجأوا الى المغرب العربي لاتصال السواحل البرتغالية بالسواحل المغربية من جهة وللعلاقات الدينية والتاريخية ووشائج الاخوة التي تربط بينهم من جهة ثانية.

وفي العموم فان ثورات الاندلسيين وما رافقها من انتصارات في بداية الامر ، وفشل سياسة التنصير الاجباري ، والغارات البحرية الناجحة على الشواطىء الاسبانية واتصال الاندلسيين بمسلمي المغرب ومصر والدولة

---

(٨٢) الناصري ، الاستقصا ، ١٢٤/٤ ـ ١٢٥ ؛ وينظر : محمد داود ، تاريخ تطوان ، ٩٩/١ .

(٨٣) الوزان ، وصف افريقيا ، ٢٤٧/١ .

(٨٤) احمد بوشرب ، الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحيتين ، مجلة المناهل ، العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٢ ، ص ٣٥٥ . ٣٥٦

العثمانية لانقاذهم من مأساتهم ، فقد ذكر ان اندلسيي مدينة بلنسية ارسلوا رسلهم في سنة ١٦٠٨م الى مولاي زيدان في المغرب العربي يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها وانهم على استعداد لان يقدموا له مائتي الف مقاتل(٨٥) ، اذا ما تمكن من ارسال عشرين الف مقاتل فقط بغية احتلال بلنسية(٨٦) ، ان تعهد اندلسيي بلنسية بتقديم هذا العدد من المقاتلين مبالغ فيه لان الاندلسيين نساءً ورجالا صغارا وكبارا في مملكة بلنسية يبلغ ١٣٥ الفا في احسن التقديرات(٨٧) ، الا اذا كان القصد من هذا التعهد ترغيب الاخوة في المغرب العربي على اعلان الحرب او ان اندلسيي بلنسية يعنون بذلك تقديم هذا العدد من عموم التجمعات الاندلسية في اسبانيا .

وعلى كل حال ومما تقدم يتضح اسباب قلق السلطات الاسبانية من الاندلسيين ومخاوفها من بقائهم بين ظهرانيهم ، لذا وجدت في حادثة الاستنجاد بالاخوة في المغرب العربي المناسبة لتنفيذ قرارها بتهجيرهم لتشبع بذلك رغبات دفينة تمثلت في الحقد والكراهية لكل ماهو مسلم وعربي ولاسيما من قبل الكنيسة(٨٨) ورجالها الذين كانت كلمتهم مسموعة لدى ملوك اسبانيا ، لذا فقد اقترح اكابر الاحبار على السلطة ان تقضي على الاندلسيين بالرق وان يؤخذ منهم كل عام بضعة الاف للعمل في السفن ومناجم الهند حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الاخر الى وجوب قتلهم دفعة واحدة او قتل البالغين واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، كما اقترح بعض وزراء فيليب الثاني ان يُجمع الاندلسيون ويحملوا على السفن ثم يغرقوا في عرض

---

(٨٥) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩١ .

(٨٦) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ .

(٨٧) ينظر ، عبدالواحد ذنون ، حركة المقاومة ، ٧١ .

(٨٨) بهذا الخصوص ينظر : التواتي ، عبدالكريم ، مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس (الدار البيضاء ١٩٧٧) ٥٨٩ ــ ٦١٣ .

البحر[٨٩] . ان مثل هذه الافكار العدائية لايمكن ان تصدر الا من اناس اعمت بصيرتهم وبصائرهم الكراهية وعدموا الروح الانسانية .

وبعد اجتماعات ومناقشات دامت عدة سنوات للنظر في مصير الاندلسيين استقر الرأي على تهجيرهم . وفي التاسع من نيسان سنة ١٦٠٩م اتخذت حكومة فيليب الثالث قرارها المروع بطرد الاندلسيين[٩٠] ، ومن ابرز نصوص هذا القرار الذي بدأ بما اسماه خيانة الاندلسيين واتصالهم باعداء اسبانيا واخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم وضمان ولائهم ، وذكر القرار ان الرأي استقر على نفيهم جميعا الى المغرب العربي ، واعطى القرار مهلة ثلاثة ايام للرحيل من المدن والقرى الى الثغور يعينها لهم مأمورو الحكومة وجعل الموت عقوبة المخالفين ، وان لهم ان يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم وان السفن قد اعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، ومن نصوص القرار استبقاء ستة في المائة فقط من الاندلسيين للانتفاع بهم،وهؤلاء يختارهم السادة من الاسر الاكثر خبرة واشد ولاء للنصرانية ، وسمح القرار لجميع الاطفال ممن لم يتجاوز اعمارهم الرابعة بالبقاء ، كما سمح لجميع الاطفال ممن هم دون السادسة من العمر بالبقاء اذا كان ابوهم نصرانيا مع السماح لامهم اذا كانت من الاندلسيات الكاتمات بالبقاء معهم ، كما سمح القرار بالبقاء لمن بقي بين النصارى مدة عامين ولم يختلطوا بالجماعة اذا زكاهم القسس ، واخيرا نص القرار على السماح لعشرة من الاندلسيين بالعودة عقب كل نقلة لكي يشرحوا لاخوانهم كيف يتم النقل الى المغرب على احسن حال[٩١] .

لم يبق امام الحكومة الاسبانية الا ان تضع هذا القرار موضع التنفيذ ، وبعد مشاورات تقرر ان يبدأ العمل به في مملكة بلنسية لانها كما قلنا ، تمثل

(٨٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٤ .

(٩٠) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ .

(٩١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٦ ـ ٣٩٧ ؛ ثم ينظر : شكيب ارسلان ، الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية ج٢ (القاهرة ١٩٩٢) ١٩٧ .

اكبر تجمع للاندلسيين في اسبانيا ولان السلطة كانت تخشى تعبئة قواهم ضدها اذا ما حدث واختارت الحكومة مجموعات اندلسية اخرى لتكون اول المنفين ، ولان السلطة كانت تعتمد في بلنسية على شخصية متنفذة حملت لواء الدعوة لنفي الاندلسيين قبل فترة طويلة من صدور مرسوم النفي ، وهي شخصية خوان دي ربيرة رئيس اساقفة مدينة بلنسية[٩٢] ، يضاف الى ذلك رفض اندلسيي بلنسية للاضطهاد واتصالهم بالاخوة في المغرب العربي وطلب المساعدة منهم في انقاذهم من مأساتهم ، وهو ماعده الاسبان خيانة لهم وذكروه في ديباجة قرار النفي العام للاندلسيين .

وفي شهر ايلول سنة ١٦٠٩م وصلت الى ميناء بلنسية السفن الاسبانية وهي تحمل حوالي ثمانية الاف جندي لتنفيذ القرار ونودي على جميع الاندلسيين في المدينة البقاء في بيوتهم لمدة ثلاثة ايام حتى تصدر اليهم اوامر اخرى[٩٣] ، وعلى الاثر اجتمع زعماء الاندلسيين وفقهاؤهم في بلنسية وقرروا انه لا امل في المقاومة وانه لا مناص من الخضوع واستقر الرأي على ان يرحلوا جميعا والا يبقى منهم احد حتى ولا نسبة الستة في المائة التي سمح ببقائها وان من بقي منهم اعتبر مرتدا مارقا[٩٤] ، ومع ذلك فقد قاوم بعض الاندلسيين القرار وتشبث بالبقاء لاعتبارات سبق ان اشرنا اليها ، الا ان الجميع في نهاية المطاف رضوا بالامر الواقع وآمنوا بأن الهجرة هي افضل من العيش في مكان لا يمكن التكهن بما سينالهم فيه وعندما حاول بعض المسؤولين اقناع اندلسيي بلنسية بالبقاء استغل الاندلسيون هذا الامر وعرضوا الموافقة على البقاء والاستمرار بالعمل في الحقول والمزارع اذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم العربية ودينهم الاسلامي دون اية مضايقات ، وعندما عرض الامر على فيليب الثالث رفضه ، فلم يبق امام الاندلسيين بعد ذلك الا الرحيل[٩٥]

(٩٢) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ / ١٦٦ .
(٩٣) ايضا ، ١٦٧ .
(٩٤) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٧ / ٣٩٨ .
(٩٥) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٧ .

ومما تقدم يتضح اهمية الاندلسيين في الحياة الاقتصادية لاسبانيا ، كمـــا يتضح كتمان الاندلسيين لايمانهم وتمسكهم بعقيدتهم الاسلامية وكيانهم العـربي .

اخذ الاندلسيون في بلنسية والمناطق الشرقية في بيع ما تيسر بيعه ، فبيعت المواد بابخس الاثمان ، ثم سيق الاندلسيون الى الموانىء فخرجت اول شحنة منهم على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة وقدرت بثمانية وعشرين الفا حملوا الى ثغر وهران وقد كانت يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا الى تلمسان . لقد آثر الكثير من المهاجرين السفر بأجر واضطرت الحكومة تلقاء ذلك ان تستدعي عددا كبيرا من السفن الحرة الى ميناء بلنسية ورحل بهـذه الطريقة زهاء خمسة عشر الفا وقد رحـل المنفيون من ثغر لقنت على عـزف الموسيقى ونشيد الاغاني وهم يشكرون الله على العـودة الى ارض الابـاء والاجداد ، ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، اجاب بانهم كثيرا ما سعوا الى شراء قارب او سرقته للفرار به الى المغرب مستهدفين لكثير مـن المخاطر فكيف اذا عرضت لنا فرصة السفر الامين مجانا الم ننتهزها للعود الـى ارض الاجداد(٩٦) ، ان اجابة هذا الفقيه تتماشى مع موقف الشريعة التي تلزم المسلمين بالهجرة الى دار الاسلام عندما يجد المسلم صعوبة في اداء شعائـره الدينية ، وتؤكد الحقيقة التي بيناها وهي ان الاندلسيين وان اجبروا علـى التنصر الا انهم كانوا يكتمون ايمانهم بالاسلام . وان ما حدث في مينـاء لقنت من اغتباط ليس حالة خاصة وانما هو تعبير عن الحالة العامة للاندلسيين كافة في اسبانيا لانهم وجدوا في قرار النفي الخلاص مـن معاناتهم وعـودة صريحة الى دينهم وعروبتهم .

وبينما كانت السفن تنقل المنفيين الى الساحل المغربي وتعود لتنقل دفعة اخرى ، كانت السلطات تعـد الترتيبات لنفي باقـي الاندلسيين في اراغـون

---

(٩٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٨ .

وقطالونيا ومرسية وقشتالة وغرناطة وغيرها من الاماكن . وبعد نفي الاندلسيين من اماكن تجمعهم الرئيسة انتقلت لجمع الاندلسيين من التجمعات الاقل ، تمهيدا لنفيهم ولكن العملية لم تكن سهلة اذ استمرت عدة سنوات ، في بادئ الامر تم تجميع الاندلسيين في ثمانية مراكز هي : بلنسية وارغون وقشتالة واندلوثيا ومرسية وبرغش وقطالونيا وغرناطة . من هذه المراكز شرعت السلطات المكلفة بعملية الترحيل في توزيع الاندلسيين على ثلاث عشرة نقطة تسفير في مختلف السواحل الاسبانية وهي : دانية ولقنت وقرطاجنة وجفسية وساقونية ومنقوفة وابن العروس والافاق ومالقة واشبيلية وسوميرت ورنشفالة وأيرون . وقد نقل الاندلسيون الى عدة جهات الا ان الغالبية الساحقة منهم نقلت الى بلدان المغرب العربي ، الى سبتة وتطوان وتونس وطنجة واغادير ووهران واروز وغيرها . في حين نقل بعضهم الى جزر الكناري (الجزر الخضراء) والبعض الاخر الى ايطاليا ، اما اندلسيو الشمال فقد رحلوا الى باب الشتري ومدينة برغش ومنهما الى ايرون ومن ايرون انتقل الاندلسيون على محورين : الاول الى المغرب العربي والثاني الى مدينة اورتيز الفرنسية[٩٧] . حيث سمح ملك فرنسا للاندلسيين بالاقامة في بلاده شريطة ان ينضموا الى الديانة الكاثوليكية البابوية الرومانية ، الا ان الاندلسيين رفضوا هذا الشرط فقررت السلطة الفرنسية طردهم من بلادها[٩٨] ، وقد تعرض الاندلسيون اثناء وجودهم في فرنسا الى الاضطهاد والاعتداء على ارواحهم وممتلكاتهم مما دفع بالسلطان العثماني [السلطان احمد] الى ارسال احتجاج الى الحكومة الفرنسية يطالب فيه حماية الاندلسيين من الاذى[٩٩] .

---

(٩٧) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٨ ـ ١٧٠ ؛ ثم ينظر ، خليل ابراهيم السامرائي واخرين ، تاريخ المغرب العربي ، (الموصل ١٩٨٨) ٣٥٦ـ٣٥٨

(٩٨) كاردياك ، لوي ، الموريسكيون والبروتستانت ، تعريب : د. عبدالجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٧ ـ ٢٨ لسنة ١٩٨٢ تونس ، ص ٢٩٧ .

(٩٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠١ .

وقد وصلت جماعات من الأندلسيين المنفيين الى اماكن اخرى مثل القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام[١٠٠] .

والمتتبع يلاحظ عدة امور ارتبطت بعملية نفي الاندلسيين وهي :

١ ـ خلال عملية النفي وما رافقها من قساوة شعر الأندلسيون بالمرارة لأنهم تركوا اراضيهم واراضي اجدادهم التي عاشوا فيها ما يزيد على تسعة قرون من الزمن وارتبطت بها ذكرياتهم وبنوا فيها حضارتهم ومجدهم الغابر .

٢ ـ رافق الشعور بالمرارة الشعور بالخلاص ، لأن الاندلسيين اصبحوا احرارا في المغرب العربي وعادوا الى الاسلام واخذوا يمارسون عباداتهم وعاداتهم دونما رقيب او عقوبات .

٣ ـ تمت عملية النفي بقساوة ووحشية وتعرض الاندلسيون المنفيون الى مهاجمة العصابات الاسبانية التي نهبتهم مرة وقتلتهم مرات اخرى ، في حين مات الكثير من المنفيين بسبب المرض او الجوع او البرد ، كما قام الجنود الاسبان ايضاً بسبي النساء والاطفال وباعوهم رقيقا[١٠١] . وقد وصفت عملية النفي عامة بانها من اكثر القصص المؤلمة في التاريخ ، بل من العسير العثور على نظيرها في احداث العصور الوسطى او الحديثة ، وانها من اشنع الافعال واكثرها بربرية في تاريخ البشرية[١٠٢] .

٤ ـ ان الغالبية الساحقة من الاندلسيين المنفيين ابعدوا الى المغرب العربي وفي هذا يقول المقري : « فخرجت الوف بفاس والوف أخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس»[١٠٣] ، هذا فضلا عن ان قسما غير قليل ممن هجروا الى اماكن اخرى التمسوا شتى السبل للالتحاق بالاخوة في

---

(١٠٠) المقري ، نفح الطيب ، ٤/ ٥٢٨ .
(١٠١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٠ ؛ محمد عبدالله عثمان ، دستور بلد الموريسكيين ، مجلة العربي ، العدد ١٥٦ ، ص ١٣٩ .
(١٠٢) طه ، حركة المقاومة ، ٧٥ .
(١٠٣) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .

المغرب العربي ، في حين وجد قسم من المنفيين ضالتهم في اماكن اخرى من دار الاسلام مثل مصر والشام والقسطنطينية •

٥ ــ ان تنفيذ قرار التهجير لم يجر دائما في يسر وسهولة ، حيث رفض بعض الاندلسيين من سكان المناطق الجبلية الانصياع لاوامر الحكومة لانعدام الثقة بها ، وفضلوا المقاومة فتصدت لهم قوات الحكومة وقتلت منهم بضعة الاف واستسلم الباقون وحملوا قسرا الى ميناء السفر ورحلوا الى شواطىء المغرب[١٠٤] •

٦ ــ استغرقت عمليات التهجير حوالى سبع سنوات فهي لم تنته حتى سنة ١٦١٥[١٠٥] ، مما يؤكد شمولية القرار لعموم الاراضي الاسبانية من جهة ، وجسامة عدد الاندلسيين المهجرين من جهة اخرى •

٧ ــ لم يمض وقت طويل على تهجير الاندلسيين حتى احس الاسبان بالخسارة بسبب الفراغ الذي تركوه في الميدان الاقتصادي عموما والزراعي منه على وجه الخصوص ، حيث انخفض الانتاج الزراعي وخربت الاراضي ، كما ادى تهجير الاندلسيين الى انخفاض عدد السكان وتضاءلت موارد الخزينة لانها خسرت الضرائب الباهظة المفروضة على الاندلسيين ، وفي العموم فان تهجيرهم حرم اسبانيا ثروات عقلية وفنية في مختلف ميادين الحياة[١٠٦] •

٨ ــ وجد الاندلسيون المهجرون في المغرب العربي العطف والترحاب ، ومد اليهم يد العون والمساعدة لاسيما في تونس حيث استقر جمهورهم وقد « اوسع لهم عثمان داي [حاكم تونس] في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا عدة اماكن ، ومن بلدانهم المشهورة سليمان

---

(١٠٤) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٠ .

(١٠٥) بشتاوي ، الاندلسيون المراركة ، ١٧٠ .

(١٠٦) بهذا الخصوص ينظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ٤١١ ــ ٤٣٢ ؛ بشتاوي ، الاندلسيون الموراكة ، ١٧٥ ــ ١٨٠ .

وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزاغون وطبرية وقريش ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من اعظم بلدانهم واحضرها والعالية والقلعة وغير ذلك ، بحيث تكون عدتها ازيد من عشرين بلدا ، فصارت لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من اهل البلاد»[١٠٧] وعن الترحيب يقول ابن ابي الضياف : « وفي سنة ستة عشر والف[١٠٨] قدمت وفود من الاندلس فارين بدينهم ، لما أخذت بلادهم فاحسن عثمان داي قِراهم واكرم مثواهم وأنّس غربتهم وعظم مقدمهم وحث اهل الحاضرة على اكرامهم وآخى بينهم وبين اهل مملكته واقطعهم ما اختاروا من الارض وكان ذلك اثر الطاعون ـ فبنوا بالحاضرة حومة الاندلس وجامعها واوقفوا عليه اوقافا نافعة ، وبنوا المدرسة الاندلسية قرب سيدي يونس شيخ سيدي محرز وتمت سنة اربع وثلاثين والف ، واول مدرس بها الشيخ شعبان الاندلسي من اعيان علمائهم واوقفوا عليها الاوقاف » وبعد ان يذكر مدنهم وما غرسوا من الغروس وما مهدوا من الطرق يقول ابن ابي الضياف : « واعانهم عثمان داي على صناعة الشاشية التي كان لها سوق نافع في كثير من البلدان ، وقد كانت ضعيفة زمن الحفصيين ، وحصل للحاضرة من هذه الصناعة ثروة واسعة لان صناعتها تدير صناعات كثيرة ، ونظم شيخ الاندلس في سالك اعيان المملكة»[١٠٩] وقد اكدت الوثائق والدراسات

---

(١٠٧) ابن ابي دينار ، ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام (تونس ١٩٦٧)٢٠٤

(١٠٨) يختلف المؤرخون المسلمون في تحديد السنة التي خرج فيها الاندلسيون بين سنة ١٠١٦هـ وسنة ١٠١٧هـ وسنة ١٠١٩هـ ، ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ ؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ، ٢٠٤ ، الباجي المسعودي ، ابو عبدالله الشيخ محمد ، الخلاصة النقية في امراء افريقية (تونس ١٣٢٣هـ) ٩١ .

(١٠٩) ابن ابي الضياف ، احمد ، اتحاف الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق : لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار ، ج٢ (تونس ١٩٦٣) ٣٠ ـ ٣١ .

الحديثة صحة هذه المعلومات ، وبينت المكانة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للاندلسيين في تونس[110] .

لم يقتصر الترحيب بالاندلسيين في تونس فقط بل نجده في كل ارجاء المغرب العربي ولاسيما المناطق الساحلية حيث استقروا ومارسوا حياتهم الاعتيادية واغنوا الحياة المغربية برواقد وخبرات جديدة وتركوا بصماتهم في الميادين العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعمرانية وغيرها[111] .

٩ ـ لايوجد اتفاق بين المؤرخين حول عدد الاندلسيين المهجرين او الذين هاجروا من اسبانيا منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ هـ وحتى سنة ١٦١٥ هـ ، وقد تراوحت التقديرات التي اوردها المؤرخون الاسبان والرحالة الاجانب الذين زاروا اسبانيا بعد استكمال عمليات النفي والتهجير بين مئات الالاف وبضعة ملايين[112] . ان هذا الاختلاف الكبير في التقديرات دليل على عدم دقة الارقام وعدم توفر الاحصاءات الاكيدة والصحيحة للمهاجرين او المهجرين .

اما الرواية العربية الاسلامية ، وان كانت مقلة ، الا انها ذكرت بعض الارقام عن عدد المهجرين الاندلسيين ، فقد ذكر المقري الذي عاصر الاحداث ، ان الوفاً منهم خرجت بفاس والوف اخرى بتلمسان وجمهورهم خرج

(١١٠) للتفاصيل ينظر : الحلاوي ، محيي الدين بن علي ونور الدين ، وثيقة عن النزاع القائم بين احباس الاندلسيين بمجاز الباب ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٠ ـ ١١ ، السنة ١٩٧٨ ، تونس ، ص٧٩ ـ ٨٢ ؛ د. ميكال دي ايبلترا ، وثائق جديدة حول الاندلسيين بتونس في اوائل القرن الثامن عشر ، تلخيص وتعريب : نور الدين الحلاوي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٧ ـ ١٨ السنة ١٩٨٠ ، تونس ، ص١٣٧ ـ ١٤٠ .

(١١١) عن اثر الهاجرين في المغرب العربي ينظر : السامرائي ، خليل ابراهيم وآخرين ، تاريخ المغرب العربي ، ٣٦١ ـ ٣٧٨ .

(١١٢) للتفاصيل ينظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٢ ؛ بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٧١ .

بتونس[113] ، في حين قدر محمد بن عبدالرفيع مؤلف كتاب (الانوار النبوية في آباء خير البرية) وهو من الاندلسيين الذين هاجروا الى تونس قبل عملية التهجير القسري بقليل ، عدد الاندلسيين المهجرين بما ينيف على ستمائة الف نسمة كبيرا وصغيرا[114] . وعلى هذا فان الرواية العربية الاسلامية تقدر الاندلسيين المهجرين بالالاف وليس بالملايين ، كما تقدرهم بعض الروايات الاجنبية ، وان ارقام الرواية العربية الاسلامية هي الاقرب الى الصحة بسبب معايشتها للاحداث وقياسا بالاماكن التي استوطنها الاندلسيون في المغرب العربي والمدن والقرى التي بنوها هنالك . واذا ما اضفنا الى هذه الارقام التي ذكرتها الرواية العربية عن اعداد المهجرين ، الارقام التي ذكرتها نفس الرواية عن الذين هاجروا طوعا منذ سقوط غرناطة وحتى انتهاء عمليات النفي ايام الملك فيليب الثالث فانها ولاشك سوف تتضاعف مما يؤكد ضخامة الاعداد التي هاجرت الى المغرب العربي ، وحجم المأساة التي تعرض لها الاندلسيون .

١٠ ــ واخيرا فان هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي ، ادى الى حدوث ظاهرتين اساسيتين ، الاولى : مساهمة الاندلسيين الجادة في النهوض الحضاري الذي اصاب بلدان المغرب العربي في مختلف ميادين الحياة، لان الاندلسيين نقلوا معهم خبراتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقاموا بتوظيفها في موطنهم الجديد . والثانية : هي تنشيطهم لحركة الجهاد البحري ضد الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا يغيرون على السواحل المغربية ويلحقون باهلها الاذى ، وقد كان لجهاد الاندلسيين وحماسهم في هذا المجال دوره الفاعل في الحد من هذه الهجمات وفي احباط الكثير منها ، فضلا عن مساهمتهم في الهجوم على السواحل الاسبانية كما بينا .

ان هاتين الظاهرتين لازالتا بحاجة الى دراسات جادة آمل ان يجد فيها الباحثون مجالا خصباً للبحث والتمحيص والله الموفق .

---

(١١٣) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .

(١١٤) ينظر : بوجندار ، مقدمة الفتح ، ٢١٤ ؛ عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٧ .

قائمــة المصـادر والمراجـع

- القـرآن الكـريم
- ابن الابار ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله
  الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) .
- ارسـلان ، شـكيب
  الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية (القاهرة ١٩٦٤) .
- الباجي المسعودي ، ابو عبدالله الشيخ محمد
  الخلاصة النقية في امراء افريقية (تونس ١٣٢٣هـ)
- بوجندار ، ابو عبدالله محمد
  مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٩٨٠)
- بوشرب ، احمـد
  الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيـده المسيحيتين ، مجلة المناهل ، العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٢ (المغرب)
- بشـتاوي ، عادل سعيد
  الاندلسيون المواركة ، دراسـة في تاريخ الاندلسـيين بعد سقوط غرناطة (دمشق ١٩٨٥) .
- التواتـي ، عبدالكريم
  مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس (الدار البيضاء ١٩٧٧) .
- جريدة الثورة العراقية (نقلا عن اورينت برس)
  دولة بورقراق ، أعلنت حربها في الاطلسي انتقاماً لضياع الاندلس العدد ٧٢٥٧ ، في ١٣ / ٤ / ١٩٩٠
- حتاملة ، محمد عبدة
  التهجـير القسـري لمسلمـي الاندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧ ـ ١٥٩٨م (عمان ١٩٨٢)
- حتاملة ، محمد عبده
  محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة (عمان ١٩٧٧)

- **الحجي ، عبدالرحمن علي**
التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (بيروت ، دمشق ١٩٧٦)

- **الحجي ، عبدالرحمن علي**
محاكم التفتيش الاسبانية وسراديب الموت فيها ، المناهل ، العدد ٣١ لسنة ١٩٨٤ (المغرب)

- **الحميري ، محمد بن عبدالمنعم**
الروض المطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس (بيروت ١٩٨٤)

- **الحلاوي ، محيي الدين بن علي ونور الدين**
وثيقة عن النزاع القائم بين احباس الاندلسيين بمجاز الباب ، المجلة التاريخية المغربية العدد ١٠-١١ لسنة ١٩٧٨ (تونس)

- **داود ، محمد**
تاريخ تطوان (تطوان ١٩٥٩)

- **دي ايبلزا ، ميكال**
وثائق جديدة حول الاندلسيين بتونس في اوائل القرن الثامن عشر ، تلخيص وتعريب : نور الدين الحلاوي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٧-١٨ لسنة ١٩٨٠ (تونس)

- **ابن ابي دينار ، ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني**
المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق : محمد شمام (تونس ١٩٦٧)

- **رينو ، جوزيف**
الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، تعريب وتعليق : اسماعيل العربي (الجزائر ١٩٨٤)

- **السامرائي خليل ابراهيم (واخرين)**
تاريخ المغرب العربي (الموصل ١٩٨٨)

- **ابن ابي الضياف ، احمد**
اتحاف الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق : لجنة من كتابه الدولة للشؤون الثقافية والاخبار (تونس ١٩٦٣) .

- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير
جامع البيان عن تأويل آي القرآن (القاهرة ١٩٥٤)

- طـه ، عبدالواحد ذنون
حركة المقاومة العربية الاسلامية بالاندلس بعد سقوط غرناطة (بغداد ١٩٨٨)

- طـه ، عبدالواحد ذنون
الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (بغداد ١٩٨٢)

- ابن عبدالملك الانصاري ، ابو عبدالله محمد بن محمد
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق : محمد بن شريفة السفر الاول (بيروت ، د.ت)

- ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي
البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال (بيروت ١٩٦٧)

- ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي
البيان الموحدي ، تحقيق : اميروسي هويس ميراندة ومشاركة : محمد بن تاديت الطنجي ومحمد بن ابراهيم الكتاني (تطوان ١٩٦٠)

- عنان ، محمد عبدالله
دستور بلد الموريسكيين ، مجلة العربي ، العدد ١٥٦ (الكويت)
دول الطوائف ، منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (القاهرة ١٩٦٠)
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس (القاهرة ١٩٦٤)
نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة ١٩٦٦)

- ابن القوطية ، ابو بكر محمد
تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق : عبدالله انيس الطباع (بيروت ١٩٥٧)

- كاردياك ، لوي
الموريسكيون والبروتستانت ، تعريب : عبدالجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية العدد ٢٧-٢٨ لسنة ١٩٨٢ (تونس)

- **الكبيسي ، خليل ابراهيم**
دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالاندلس في عصري الامارة والخلافة ، رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة بغداد ، ١٩٨٠.

- **مجهول**
نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، او تسليم غرناطة ونزوح الاندلسيين الى المغرب ، تحقيق : الفريد البستاني (العرائش ١٩٤٠)

- **المقري ، احمد بن محمد**
ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا واخرين (القاهرة ١٩٣٩)
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، (بيروت ١٩٦٨)

- **الناصري ، ابو العباس احمد بن خالد**
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء ١٩٥٥)

- **الوزان ، الحسن بن محمد**
وصف افريقيا ، ترجمة : محمدحجي ومحمد الاخضر (الرباط ١٩٨٠)

- **الونشريسي ، احمد بن يحيى**
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقيا والاندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف : محمد حجي (بيروت ١٩٨١)



مجلة فصلية أنشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الثالث - المجلد الرابع والاربعون

الفهرس

الموضــــوع | **الصفحة**

كلمات موجزة عن مقالة (نهاية النهاية : توجّس السياسة الأسبانية وعصر الغارات البحرية الاسلامية)

هذه المقالة تمثل آخر مقالة كتبها اللواء الركن محمود شيت خطاب رحمه اللّه تعالى في (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد 44 – الجزء الثالث – 1418هـ - 1997م -ص 72 – 131.

وأضفت لها – اتماماً للفائدة- مقالة الأستاذ الدكتور (خليل ابراهيم الكبيسي) رحمه اللّه تعالى الموسومة : (هجرة الأندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي) ص 132- 171 ، لتشابه الموضوع.

ثم أضفت تأبين اللواء محمود شيت خطاب ، المنشور في (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد 46 – الجزء الأول – 1419هـ - 1999م ص 235 – 238.

وسمحتُ لنفسي أن أضيف صورة للغلاف من تصميمي ، وليست من أصل المقالة ، مع إنها مأخوذة منها فأبقيتها كما هي مع اضافة لوحة لتهجير الموريسكيين ـ فاقتضى التنويه.

واللّه من وراء القصد

حرره المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

بغداد في 16-ذو القعدة-1443هـ - 15-06-2022م